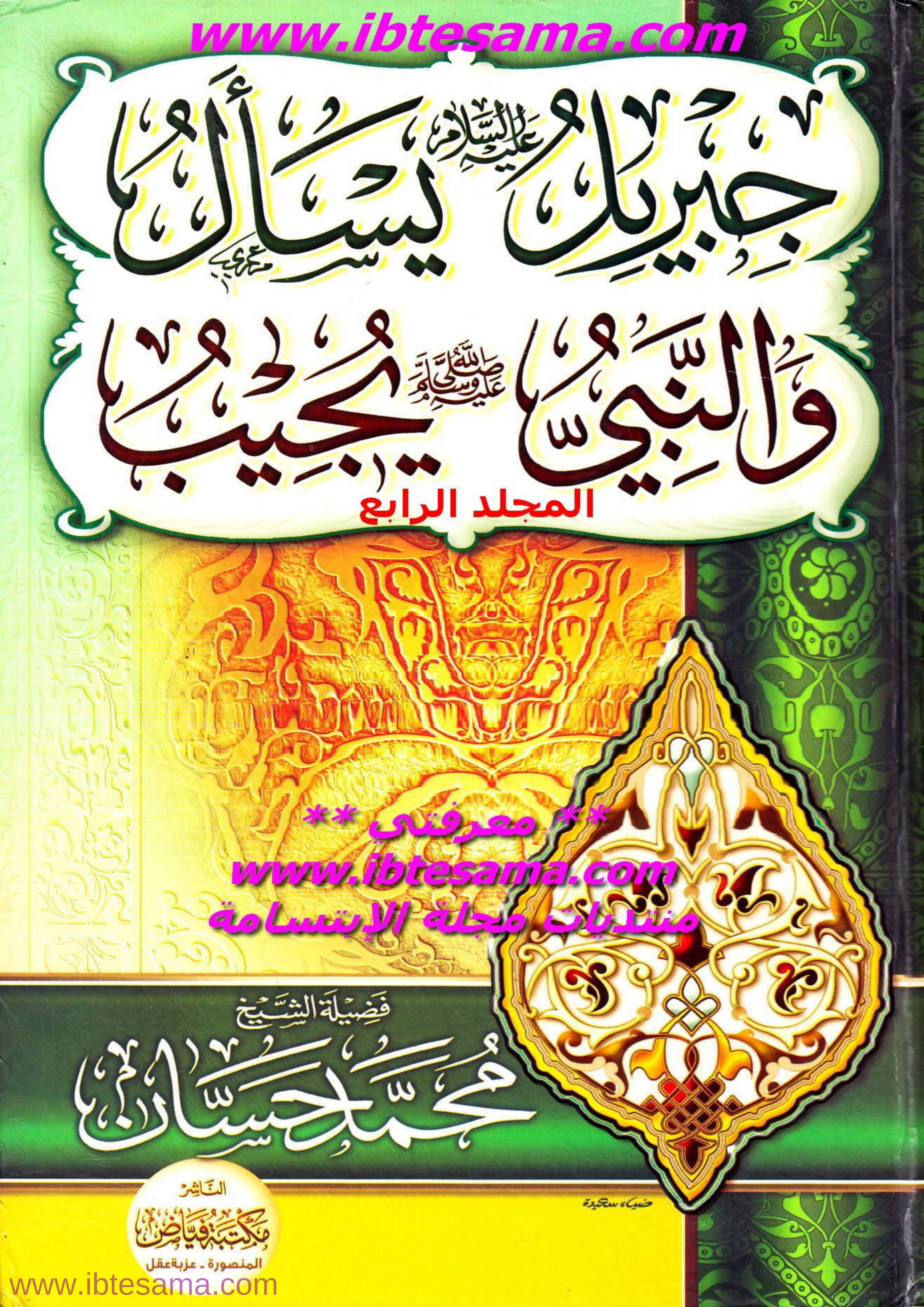

www.ibtesama.com
جبريل عليه السلام يسأل
والنبي صلى الله عليه وسلم يجيب
المجلد الرابع
** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة
فضيلة الشيخ
محمد حسان
الناشر
مكتبة فياض
المنصورة - عزبة عقل
www.ibtesama.com

جبريل ﷷ يسأل
والنبي ﷺ يجيب

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٩/٨٦٠٣

مكتبة
فياض للتجارة والتوزيع

المنصورة: شارع عبد الهادي ـ عزبة عقل

ت: ٠٥٠/ ٢٢٦٧٣٩٨

جبريل عليه السلام يسأل

والنبي صلى الله عليه وسلم يجيب

تأليف

فضيلة الشيخ

مُحَمّد بن حَسّان

المجلد الرابع

مكتبة
فياض للتجارة والتوزيع

العلامة الثانية :ضياع الأمانة ، وإسناد الأمر إلى غير أهله

فهذه من العلامات الصغرى التي وقعت ولم تنقض .

وأودُّ منذ البداية أن أبين بعض الأصول :

الأول : أنني لن أتكلَّم عن العلامات بالترتيب ، إذ إنني لم أقف على حديث نبويٍّ صحيح رتَّب فيه النبيُّ ﷺ العلامات .

الثاني : ربما يُفهم أنه ما دامت هذه من العلامات الصغرى فهي محرمة ، وهذا ليس صحيحًا على الإطلاق ؛ فمثلًا من علامات الساعة أن يتطاول الناس في البنيان ؛ فهل تطاول الناس في البنيان محرَّمٌ في دين الله ؟ لا ، ليس محرمًا ؛ فأودُّ أن أنبه إلى أن العلامة ، وإن كانت من العلامات الثابتة الصحيحة ، فليس ورودها ضمن العلامات دليلًا على تحريمها بإطلاق .

الثالث : لا يجوز لأحدٍ أن يجزم بأن العلامة التي تَحْدُثُ هي عين ما أخبر عنه رسول الله ﷺ ، فلا ينبغي لنا أن نسقط العلامةَ على الواقع ؛ فمن المعلوم ـ كما تقدم ـ أن من العلامات ما يقع ولا يتكرر وقوعه ، ومنها ما يقع ويمكن أن يتكرر وقوعه ، ومنها ما يقع ولا يزال مستمرًّا .

وسوف أتحدَّثُ في هذا الفصل عن :

ضياع الأمانة :

فلقد بَيَّنَ لنا النبيُّ ﷺ أن تضييع الأمانة من علامات الساعة ، وأن إسناد الأمر إلى غير أهله من علامات الساعة ، وقد وقع ما يقول المصطفى ﷺ على الوجه الذي أخبر به تمامًا.

ففي « الصحيحين »[١] من حديث حُذيفةَ بنِ اليمان ﷺ قال : حَدَّثَنَا

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة (٦٤٩٧) ، وانظر طرفيه هناك ، ومسلم ←

رَسُولُ الله ﷺ حَدِيثَيْنِ قَد رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ ، حَدَّثَنَا : « أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ ، فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ » وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفعِ الأَمَانَةِ ، قَالَ : « يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ (١)، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ [ثُمَّ أَخَذَ حَصَىً فَدَحْرَجَه عَلَى رِجْلِهِ] فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايعُونَ ، لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ ، حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا. حتى يُقَالَ لِلرَّجُلِ : مَا أَجْلَدَهُ ! وَمَا أَظْرَفَهُ ! وَمَا أَعْقَلَهُ ! وما فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ » . وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُمْ بَايَعْتُ ، لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دِينُهُ ، وَلَئِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ ، أَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ لأُبَايِعُ منكمْ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا ».

فتدبر معي هذا الحديث العجيب الذي يبين فيه حذيفة ـ رضوان الله عليه ـ عن رسول الله ﷺ كيف تُقبض الأمانةُ وترفعُ من القلب ، ينام الرجلُ النومة فتقبض وترفعُ الأمانة من قلبه ، ولا يبقى للأمانة في القلبِ أثر ، إلا كأثر الوكْت ؛ أي : كالنقطة السوداء ، ثم ينام النومة الأخرى فتُقْبَض الأمانة من قلبه ، فلا يبقى للأمانة أثرٌ إلا كالمَجْل ، ثم يبين النبيُّ

= كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب (١٤٣) واللفظ له .

(١) الْمَجْلِ : بفتح الميم ، وسكون الجيم ، أثر العمل في اليد « الفتح » (١٣/ ٤٣)

قال النووي : « المجل هو : التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها ، ويصير كالقبة فيه ماء قليل » . « شرح صحيح مسلم » .

ﷺ كيف تقبض الأمانة في المرحلة الثانية ؛ فيقول : كجَمْرٍ دَحْرجتَهُ على رجلك فنفط ؛ أي : انتفخ الجلد ، وتورَّم ، وإن ضغطتَ عليه ، فلا ترى فيه شيئًا ؛ فيظهر أن الأمانة موجودةٌ ، لكن لو فتشت ونقَّبْتَ عن حقيقة وجودها لن تجدَ لها أثرًا ؛ فترى الرجل يدَّعي الأمانة ويُظهرها ، ولكنك لو نقَّبْتَ وفتشت عن حقيقة هذه الأمانة ، فلن ترى لها أثرًا ؛ كالجمر الذي دحرجته على رجلك ، فنفط الجلد له ، فانتبر وانتفخ ، ولكنه في الوقت ذاته خالٍ من أي شيء .

يقول حذيفة ﷺ : فيصبحُ الناسُ يتبايعون ، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة ؛ فيقال : إن في بني فلان رجلًا أمينًا ! أليس هذا هو الواقع الذي تحياه الأمة الآن ؟ يُشار بالبنان لرجلٍ أمين ، سواء كان هذا الرجل تاجرًا أو حتى عالمًا ؛ فالأمانة ـ لا أقول ـ نُزِعَتْ من التُّجَّار ؛ بل نُزِعت من كثيرٍ ممن ينتسبون إلى العلم ؛ فكم ممن يشار إليهم الآن بالبنان من أهل العلم فقدوا الأمانة أو خانوها ؛ لأن الأمانة لا يراد بها ـ فقط ـ الودائع التي تحفظ عند بعض الناس لبعضهم ، لا ؛ بل هذا مفهوم قاصرٌ جدًّا لمعنى الأمانة ؛ فالأمانة لها معنىً أوسع ومفهومٌ أشمل ؛ كما قال الله ـ جلَّ وعلا: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢] .

قال ابن عباس ﷺ : « الأمانة هي الفرائض التي افترضها الله على عباده »[١] .

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (لسورة الأحزاب :٧٢) ، عن ابن عباس ، وورد مثله عن سعيد بن جبير .

وقال أبو العالية : « الأمانة هي ما أمروا به وما نهوا عنه »[(١)].

وقال قتادة ـ وهو أجمل الأقوال عندي: « الأمانة هي الدين »[(٢)].

فالدين كلُّه أمانة ؛ الفرائض أمانة ، والصلاة أمانة ، والصيام أمانة ، والزكاة أمانة ، والحج أمانة ، وكلُّ شرائع الدين أمانة ؛ فالمال أمانة ، والعلم أمانة ، والولاية أمانة ، والوظيفة أمانة ، والزوجة أمانة ، والأولاد أمانة ، والنظر أمانة ، والسمع أمانة ، والجوارح أمانة .

فالدين كلُّه أمانة ، وستسأل عن هذه الأمانة بمفهومها الشامل الكامل الذي خشيت كلُّ المخلوقات من حملها ، وتقدَّم الإنسان الضعيفُ القصير العمر الذي تتحكم فيه الأهواء والشهوات ؛ ليتحمل هذا الحِمْل الثقيل ، وتلك الأمانة العظيمة ؛ فمن أداها فهو الأمين ، ومن خانها فهو الخائن والظلوم الجهول !!

فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة ، فيقال : إن في بني فلان رجلًا أمينًا ، فيأتيه الناس من أبعد مكان لأمانته ، ويقال للرجل : ما أعقله ! ما أظرفه ! ما أجلده ! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ؛ كما يقال الآن لأحدِ المهرجين الساقطين : ما أعقله ! وما أظرفه ! وما أجلده ! لأن الموازين انقلبت ، وأصبح الناس يزنون غيرهم بموازين الهوى والطيش والسفه !!

يقولُ حُذَيفةُ : « ولقد أتى عليَّ زمانٌ ما أبالي أيكم بايعتُ» ؛ لأن

---

(١) انظر « تفسير البغوي » (٦/ ٣٨٠) ، و « تفسير ابن كثير » (النساء :٥٨) . وعزاه في « الدر المنثور » (٨/ ٢١٨) لابن أبي حاتم في « تفسيره » وغيره .

(٢) كما عند الطبري في « تفسيره » (لسورة الأحزاب :٧٢) (٢٠/ ٣٣٩) ، قال : « يعني به : الدين والفرائض والحدود ، وهو قول الضحاك » ؛ كما عزاه السيوطي في «الدر» للفريابي .

الأصل في الناس حينئذٍ كانت هي الأمانة ، « لئن كان مسلمًا ردَّه علي الإسلام » ، أي : هذا الذي أبايعه وأتعامل معه إن كان من المسلمين ، فإنه يراقب ربه ـ جلَّ وعلا ـ وينفذ إسلامه ، ويحول هذا الإسلام في واقعه إلى منهج حياة ؛ فالمسلم لا يخون ، ولا يكذب ، ولا يغش ؛ بل إن المسلم الصادق يصدق مع أخيه المسلم .

«ولئن كان نصرانيًّا أو يهوديًّا ردَّه عليَّ ساعيه» أي : ولي الأمر المسلم ؛ فإن غش النصرانيُّ فهو يعلم يقينًا أن ولي الأمر سيأخذُ منه الحق لمن غشَّه ، فتصور هذا المجتمع كيف تكون الحياة فيه ؟!

« فأما اليوم فما كنتُ أبايع إلا فلانًا وفلانًا » ، وهذا الكلام يقوله حذيفة بعد مقتل عثمان ﷺ .

فالأمانة تُقبض كما يقبض العلم ، كما أخبر النبيُّ ﷺ ، حتى يصير الرجلُ خائنًا بعد أن كان أمينًا ؛ فالأمانة حِمْلٌ ثقيلٌ ، ومفهومٌ ضخم ؛ فمن أعظم المعاني التي بينها النبيُّ ﷺ في تضييع الأمانة ؛ إسناد الأمر إلى غير أهله .

روى البخاريُّ(١) عن أبي هريرة ﷺ قَالَ : بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ ، فَقَالَ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَمَضَى رَسُولُ الله ﷺ يُحَدِّثُ ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ لَمْ يَسْمَعْ ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ ، قَالَ : « أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ ؟ » قَالَ : هَا أَنَا يَا رَسُولَ الله . قَالَ : « فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ »

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة (٦٤٩٦) ، وفي كتاب العلم (٥٩) وهذا لفظه .

قَالَ : كَيْفَ إِضَاعَتُهَا ؟ قَالَ : « إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » .

وأنا أقسم بالله أن الأمر قد أُسْنِد إلى غير أهله !!

وفي «مسند» أحمد و«سنن» ابن ماجه و«مستدرك» الحاكم [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ » قِيلَ : وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ :« الرَّجُلُ التَّافِهُ (وفي لفظٍ: «السَّفِيهُ») يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ ».

فالوظائف على اختلافها قد وُسِّدت ـ في الغالب ـ إلى غير أهلها ، إلى غير القادرين على تسييرها بما يرضي الربَّ سبحانه وتعالى ، وفي ذلك تضييعٌ للأمانة ، وتضييعٌ لحقوق الناس ، واستخفافٌ بمصالح القوم ، وإيغارٌ للصدور ، وإثارةٌ للفتن بين الناس ، وإذا ضيَّع مَنْ يتولى أمر الناس الأمانة ، فالناس تبعٌ له ، يضيعون ـ هم ـ من باب أولى الأمانات فيما بينهم ؛ فصلاحُ حال الولاة صلاحٌ لحال الرعية ؛ نسأل الله أن يصلح أحوالنا ، وأن يردَّ الجميع إلى دينه ردًّا جميلًا .

*****

العلامة الثالثة: أن يرفع العلم ويثبت الجهل

روى البخاريُّ ومسلم [(٢)] عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مِنْ

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب شدة الزمان (٤٠٣٦) ، وأحمد (٢/ ٢٩١، ٣٣٨) ، والحاكم (٤/ ٥١٢، ٥٥٧) ، ونعيم بن حماد في «الفتن» (٢/ ٥٢٣) ، ورُوي عن أنس وعوف بن مالك ، وقال الحافظ في « الفتح » (١٣/ ٨٤) : « سنده جيد » ، وصححه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٣٦٥٠) ، و«الصحيحة » (١٨٨٨) (٢٢٥٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وظهور الجهل (٨٠) ، وانظر أطرافه هناك ، =

أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ ».

وفي البخاري ومسلم[١] عن ابن مسعود ، وأبي موسى الأشعري ﷺ : قال النبيُّ ﷺ : « إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لأَيَّامًا يَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ ».

وفي رواية عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ في « الصحيحين »[٢] بيَّن النبيُّ ﷺ كيف يرفع العلم ؛ فقال : « إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً ، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا ».

فمن علامات الساعة أن يُقْبض العلم بقبض العلماء ، وأن يظهر الجهل . والمراد بالعلم ـ هنا ـ هو : علم الدين ـ القرآن والسنة.

قال الإمام النوويُّ[٣] ﷺ : « وهذا الحديثُ يبين أن المراد بقبض العلم في الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حُفَّاظه ، ولكن معناه أن يموت حملة العلم ، ويتخذ الناس جهالًا ، يحكمون بجهالتهم ، فَيَضِلُّون ويُضِلُّون ».

« فالمراد بالعلم هنا عِلْم الكتاب والسنة ، وهو العلم الموروث عن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وبذهاب العلماء يذهب العلم ، وتموت السنن ، وتظهر البدع ، ويعم الجهل ، أما

= ومسلم كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧١).

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الفتن ، باب ظهور الفتن (٧٠٦٢ ، ٧٠٦٣) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٤) « مسلم بشرح النووي » (٨/ ٤٧٨).

علم الدنيا ؛ فلا شك أنه في زيادة ، وليس هو المراد ؛ بدليل قوله: «فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» والضلال إنما يكون عند الجهل بالدين »[1].

فمن سلك طريقًا بغير دليلٍ ضَلَّ ، ومن تمسَّك بغير الأصول زَلَّ ، والدليلُ المنير في الظلماء ، والأصلُ العاصم من جميع الأهواء هو العلم بالكتاب والسنة .

والإمام الذهبيُّ رحمه الله بعد أن ذكر طائفةً من العلماء ؛ يقول : « وما أوتوا من العلم إلا قليلًا ، وأما اليوم فما بقي من العلوم القليلة إلا القليل في أناس قليل ، ما أقلَّ مَنْ يعمل منهم بذلك القليل ، فحسبنا الله ونعم الوكيل »[2].

فإذا كان هذا في عصر الإمام الذهبي ، فما بالك بزماننا ؟ ! فقبض العلم بقبض العلماء ،وظهور الجهل من الأشراط الصغرى .

والحافظ ابن حجر يعلِّق ـ في كلام نفيس جدًّا ـ ؛ فيقول : « ولا يمنع من ذلك وجود طائفة من أهل العلم ؛ لأنهم يكونون حينئذٍ مغمورين في أولئك ـ الجهال ـ »[3].

*****

العلامة الرابعة :ما جاء في تقارب الزمان

وهذه من أعجب كلام النبيِّ ﷺ؛ ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ

---

(١)« أشراط الساعة » ليوسف الوابل (١٣٣) .

(٢)« تذكرة الحفاظ » (٣/ ١٠٣١) .

(٣)« فتح الباري » (١٣/ ١٨) .

ومسلم [١] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ ، وَيُقْبَضُ الْعِلْمُ ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ ، وَيُلْقَى الشُّحُّ ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ ».

وفي « صحيح البخاري » [٢] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ ، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ - وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ - وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ » .

نعم .. صدق نبيُّنا ﷺ في قوله : « وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ » ؛ ولكن كيف يتقارب الزمان ؟ وَضَّحَ ذلك النبيُّ ﷺ ؛ كما في الحديث الذي رواه الترمذيُّ ، والطبراني في « الأوسط » وصحَّحه شيخنا الألبانيُّ من حديث أنس ﷺ ، قال ﷺ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ، فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرَمَةِ بِالنَّارِ » [٣].

وفي روايةٍ : «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ تَقَارُبُ الزَّمَانِ » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَا تَقَارُبُ الزَّمَانِ ؟ قَالَ : « تَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الفتن ، باب ظهور الفتن (٧٠٦١) ، ومسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (١٥٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاستسقاء ، باب في الزلازل والآيات (١٠٣٦) .

(٣) أخرجه الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في تقارب الزمان وقصر الأمل (٢٣٣٢) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٩٠٤) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (١٠/ ٢٥٥) : « رواه الترمذي باختصار ، ورواه الطبراني في « الأوسط » عن شيخه المقدام بن داود ، وهو ضعيف ، وقد قيل: إنه وثق وبقية رجاله ثقات » . وانظر : « الفتن » لنعيم بن حماد (٢/ ٦٤١) ، وصححه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٧٤٢٢) .

وَالْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ ، وَالْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ ، وَالسَّاعَةُ كَاضْطِرَابِ السَّعْفَةِ »[(١)].

وفي لفظٍ[(٢)]: « إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ سِنِينَ كَالشُّهُورِ ، وَشُهُورًا كَالجُمَعِ ، وَجُمَعًا كَالأَيَّامِ ، وَأَيَّامًا كَالسَّاعَاتِ ، وَسَاعَاتٍ كَشَرَرِ النَّارِ » . وفي إسناده لين ، ففيه عقيل بن مدرك ، وروي موصولًا ومرسلًا .

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه : « كَاحْتِرَاقِ السَّعْفَةِ »[(٣)] .

فما المراد بـ : تقارب الزمان ؟ اختلف فيه العلماء ؛ فمن أهل العلم من قال : المراد بتقارب الزمان هو قُرْب يوم القيامة ، كما قال القرطبيُّ والنوويُّ .

ومنها : أن المراد هو تقارب أحوال الناس في الشر والفساد والجهل ، وهذا قول الإمام الطحاويِّ ، كما ذكر ذلك عنه القرطبيُّ وابن حجر .

ومنها ـ كما ذكر الحافظ ابن حجر ـ وهو أقوى الأقوال عندي وأرجحها : « أن المراد من تقارب الزمان قصر الزمان ، والمراد بـ : قصره : عدم البركة فيه ؛ فإن اليوم مثلًا يصير الانتفاع به بقدر الانتفاع بالساعة الواحدة » ، ذكره الحافظ عن القاضي عياض ، ثم قال ابن حجر : « إنا نجد من سرعة مرور الأيام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبل عصرنا هذا ، وإن لم يكن هناك عيش مستلذ ، والحق أن المراد نزع البركة من كل شيء ، حتى من الزمان ، وذلك من علامات قرب الساعة »[(٤)] .

---

(١) رواها أبو عمرو الداني في « السنن الواردة في الفتن » (٤/ ٧٨١) .

(٢) المصدر السابق (٣/ ٥٥٨) .

(٣) أخرجه أحمد في « المسند » (٢/ ٥٣٧) ، وابن حبان (٦٨٤٢) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٦٦٨٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٥٩) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٧/ ٣٣١) : « رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح » ، وصححه الشيخ الألباني في « المشكاة » (٥٤٤٨) .

(٤) انظر : « فتح الباري » (١٣/ ١٩) وما بعدها ، « وشرح صحيح مسلم » للنووي (٨/ ٤٧٨) ـ

ولا شك أن ما قاله الحافظ ابن حجر من نزع البركة من الزمان وسرعة الأيام قد مضى عليه الآن ما يزيد على خمسمائة وخمسين سنة ، فلو كان موجودًا ـ الآن ـ لازداد يقينًا ، ولقال فيه كلامًا زائدًا ، فلقد نزعت البركة من الوقت ، ومن كل شيء نزعًا !!

ومن المتأخرين ـ كالشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ـ من فسر تقارب الزمان تفسيرًا آخر ؛ فقال : « المراد بتقارب الزمان ، هو : تقارب المسافات البعيدة ، بيسر وسائل الاتصالات والمواصلات » [1] .

وهذا كلامٌ مقبولٌ لا حرج فيه ؛ لكن لا ينبغي أن نردَّ أقوال أهل العلم التي ذُكِرَتْ آنفًا ؛ فلا شك أن البركة قد نُزعت فعلًا من الأشياء والأوقات ، كما نرى ، وهذا شيءٌ لا يُنكرُ أحدٌ آثاره وعلامته في هذه الأيام ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله .

******

العلامة الخامسة : كثرة أعوان الظلمة

والعجيبُ أن النبيَّ ﷺ يُجسِّد واقعًا تحياه الأمة الآن ، ويبين لنا أن هذا الواقع علامة من علامات الساعة الصغرى .

ففي الحديث الذي رواه مسلم [2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ

= « وإكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم » للقاضي عياض ، « ومعالم السنن بهامش مختصر سنن أبي داود » للخطابي (٦/ ١٤١، ١٤٢) .

(١) انظر : « إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة » للشيخ التويجري (١/ ٤٩٧) ، « والعقائد الإسلامية » للشيخ سيد سابق (٢٤٧) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات (٢١٢٨) .

ﷺ قال: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا».

قوله في الحديث: «قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ»، والسَّوْطُ معروفٌ الذي يشبه ذيل البقرة، أو الذي يشبه الكرباج المعروف يضربون بها الناس، وهذا هو القيد الدقيق، فليس كلُّ مَنْ مسكَ بيده سوطًا فهو من أهل النار، وإنما العلة أنهم يضربون بها الناس، ويظلمون بها عباد الله من المستضعفين.

وفي الحديث الذي رواه مسلم [1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال له: «إِنْ طَالَتْ بِكَ مُدَّةٌ أَوْشَكْتَ أَنْ تَرَى قَوْمًا يَغْدُونَ فِي سَخَطِ الله، وَيَرُوحُونَ فِي لَعْنَتِهِ، فِي أَيْدِيهِمْ مِثْلُ أَذْنَابِ الْبَقَرِ».

وفي رواية «مسند» أحمد، ومعجم الطبراني «الكبير» و«الأوسط» [2] بسندٍ صحيح من حديث أبي أمامة أن النبيَّ ﷺ قال: «يَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ الْبَقَرِ يَغْدُونَ فِي سَخَطِ الله وَيَرُوحُونَ فِي غَضَبِهِ».

ومن الروايات العجيبة التي جسَّد فيها النبيُّ ﷺ واقعًا تحياه الأمة

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٧).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٠)، والحاكم (٤/ ٤٨٣) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي والطبراني في «الكبير» (٨٠٠٠)، و«الأوسط» (٥٢٥١)، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٨٩٣)، و«صحيح الجامع» (٣٦٦٦).

الآن ؛ بل بالمُسَمَّى الذي نتداوله فيما بيننا ؛ كما روى الطبرانيُّ في « معجمه الكبير » بسندٍ صحيح ، وقال الهيثميُّ : « رواه أحمد والطبراني في « الأوسط والكبير » ورجال أحمد ثقات » من حديث أبي أمامة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ شُرْطَةٌ يَغْدُونَ فِي غَضَبِ الله ، وَيَرُوحُونَ فِي سَخَطِ الله ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ بِطَانَتِهِمْ »[(١)].

وفي روايةٍ لابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ ، هُمْ شَرٌّ مِنَ المَجُوسِ »[(٢)].

ولا شك أن هذا الوعيد الشديد يَنْصبُّ على هذا الصنفِ الظالم ؛ أمَّا من استخدم وظيفته في الشرطة لنصرة المظلوم ، ولذبِّ الظلم عن المظلومين ، ولتفريج الهمِّ عن المهمومين ، ولتفريج الكَرْب عن المكروبين ،وعلم يقينًا أن وظيفته ظلٌّ زائلٌ ، وعاريةٌ مسترجعة ، فاستخدم الكرسيَّ لمرضاة الرب ؛ فمما لا شكَّ فيه أن هذا مأجورٌ من ربِّ العالمين ؛ أسأل الله أن يكثر في الأمة من أمثالهم ، وأنا أعلنها بكلِّ إخلاصٍ لكلِّ أخٍ من إخواننا المسئولين سواء كان في وزارة ، أو في وظيفة عادية ، أُذَكِّره بحديث النبيِّ محمد ﷺ الذي رواه البخاريُّ ومسلم[(٣)] من حديث معقل بن يسار ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٦١٦) ، و« مسند الشامين » (٥٤٢) ، وقال الهيثميُّ في «المجمع » (٥/ ٢٣٤) : « رواه أحمد والطبراني في « الأوسط والكبير » ، وفي رواية عنده : «فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ بِطَانَتِهِمْ » ورجال أحمد ثقات » ، وصححه الحافظ ابن حجر في « القول المسدد في الذب عن المسند » للإمام أحمد (٣٣) .

(٢) عند الطبراني في « الصغير » (١٠١٨) ، وقال الهيثميُّ في « المجمع » (٥/ ٢٣٥) : « رواه الطبرانيُّ في «الصغير» و«الأوسط» ، ورجاله رجال الصحيح ، خلا مؤمل وهو ثقة » .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأحكام ، باب من استرعى رعية فلم ينصح (٧١٥٠) ، ومسلم ،=

مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ ، إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ».

فالظلم ظلماتٌ يوم القيامة، يقول النبيُّ ﷺ؛ كما في الحديث الذي رواه مسلمٌ (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ ».

فمن ظلم اليوم سيندمُ أشدَّ الندم بين يدي الله سبحانه يوم لا ينفعُ الندم ؛ لأن الذي سيقتص للضعيفِ المظلوم هو الملك ـ جلَّ جلاله.

أيها المظلومُ صبرًا لا تهُنْ إنَّ عينَ الله لا تنام
نم قرير العين واهنأ خاطرًا فعدْلُ الله دائمٌ بين الأنام

وفي رواية لأحمد بسندٍ صحيح (٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ رَأَى شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ ؛ فَقَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ ! هَلْ تَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ ؟ » قَالَ : لاَ . قَالَ : « وَلَكِنَّ اللهَ يَدْرِي ، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

فيا أيها الظالم لزوجتك ، أو لولدك ، أو لوالدك ، أو لجارك ،أو لأمتك ، أو لمرؤسك في العمل ، أو لأيِّ مسلمٍ ، مهما كانت وظيفتك ، انتبه ؛ فإنَّ الظلم عاقبته وخيمة ؛ ولله درُّ القائل :

أما والله إن الظلم شؤم وما زال المسيء هو الظلومُ
ستعلم يا ظلومُ إذا التقينا غدًا عند المليك من الملومُ

*****

= كتاب الإيمان ، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار (١٤٢) .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم (٢٥٨٢) .

(٢) أخرجه أحمد في « المسند » (٥/ ١٦٢) ، والطيالسي (٤٨٠) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (١٥٨٨) .

لا تظلمن إذا ما كانت مقتدرًا   فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبهٌ   يدعو عليك وعين الله لم تَنَمِ

ومن أرقِّ ما قرأتُ في هذا الباب ؛ ما رواه ابن ماجه ، وابن حبان ، وأبو يعلى ، والبيهقيُّ وغيرهم بسندٍ حسنٍ بشواهده [(١)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ أنه لما رجعت مهاجرة الحبشة ، قال لهم النبيُّ ﷺ : « أَلاَ تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ؟ » .

قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ : بَلَى يَا رَسُولَ الله ، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ ، فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا ، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتْ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ : سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ الله الْكُرْسِيَّ ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « صَدَقَتْ صَدَقَتْ ، كَيْفَ يُقَدِّسُ الله أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟ ».

فهذا سببٌ خطيرٌ لهلاك الأمم ؛ كما في « الصحيحين » [(٢)] من حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال : « أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا

---

(١) أخرجه ابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١٠) ، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٠٠٣) ، وابن حبان في «صحيحه» (٥٠٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٢٣٢) ، وقال البوصيريُّ في « الزوائد » : « إسناده حسن ، وسعيد بن سويد مختلف فيه » . وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٤٥٩٨) ، و « مختصر العلو » (٥٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) (٣٤٧٥) ، ومسلم كتاب الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره ، والنهي عن الشفاعة في الحدود (١٦٨٨) .

إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ، أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَيْمُ اللهِ ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

وفي «صحيح البخاري» [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ».

وفي «صحيح مسلم» [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

*****

العلامة السادسة: انتشار الزنا

ففي «الصحيحين» [(٣)] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيَفْشُو الزِّنَا».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، وهي الحاقة؛ لأن فيها الثواب وحواق الأمور (٦٥٣٤)، وكتاب المظالم (٢٤٤٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨١).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل (٨٠)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧١).

فلقد فشا الزنا وانتشر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللَّهم طهِّر بيوتنا، واستر نساءنا، واحفظ بناتنا، وحصن شبابنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

وفي «صحيح البخاريِّ»[(١)] من حديث أبي مالك الأشعريِّ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ، والحَرِيرَ، وَالخَمْرَ، وَالمَعَازِفَ».

وَالحِرَ: هو الفرجُ الحرام، وهي علامةٌ خبيثةٌ انتشرت واستشرت، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وتدبَّر خطورة هذه الجريمة البشعة في قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[النور:١، ٢].

فالإسلام لا يحارب دوافع الفطرة، فهو يبيحُ لك أن تتزوج الثانية والثالثة والرابعة في الحلال، وأنت صاحبُ رأسٍ مرفوعة، أما أن تزني مرة واحدة فقد وضعت رأسك في الوحل والطين والتراب! وعرَّضت نَفْسَك لسخط الله ﷻ إن لم تتب إليه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النور:٢].

لماذا؟ ليرتدع كلُّ صاحبِ نفسٍ دنيئةٍ، ليفكِّر ألف مرة بدل المرة، إن أراد أن يلطخ سُمعة أسرةٍ مسلمةٍ بهتكِ عِرض بنتٍ، أو زوجةٍ، أو أختٍ في هذه الأسرة، وأنا أعلم أن هذه الجريمة البشعة لو وقعت في بيتِ أحدٍ لتمنَّى أن لو مزَّق الفاعل بأسنانه إربًا إربًا؛ فالإسلام لا

(١) سيأتي تخريجه في استحلال المعازف.

يحارب دوافع الفطرة ؛ بل يوفر الوسائل للمسلم والمسلمة ؛ ليعيش المجتمع في طهرٍ وأمنٍ وعفافٍ ، فإن تجاوز المسلم هذا السياج الواقي ، وتخلَّى عن الأوامر والنواهي والحدود ، فحينئذٍ يُذكَّر بالله ؛ فيقال له : الزنا حرام ، والزنا يدمِّر ، وينتهك عرض الإنسانية المتوارث ؛ فالزنا جريمةٌ في كلِّ دين وفي كلِّ شرع ؛ فلا يرتدع ، ولا يتعظ ، ولا يتأثر ، وينطلق ؛ ليخترق حرمة البيوت عبر التليفونات ، أو عبر الرسائل ، أو اللقاءات الخارجية ، ليسقط فريسةً من المسلمات السُّذَّج ، لتسلِّم البنت أو المرأة نفسها لهذا الخبيث ليزني بها ، حينئذٍ أصبح هذا العضو عضوًا خبيثًا فاسدًا في المجتمع ، إن تُرك استشرى سرطانه ، ومن الرحمة ـ بل وقمة الرحمة ـ إن أصيب أصبعٌ من أصابع اليد الواحدة بالسرطان أن يُبْتر هذا الأصبع ؛ لأنك إن لم تبتره سيسْري السرطان إلى اليد ، ثم إلى الذراع ، ثم إلى الجسد كلِّه !! فقد تأتي الأم الضعيفة لتنظر بعاطفةِ الأمومة إذا ما أراد الطبيب أن يجري تلك الجراحة للولد الذي أصيب بالسرطان مثلًا ، وأراد أن يبتر جزءًا من أجزاء الجسم ، تصرخ الأم ، وتقول : لا ! فيأتي الوالد العاقل ، فيقول : لا ، بل اقطع أيها الطبيب ؛ بل ويتضرع الوالد لله ﷻ أن يوفق الله الطبيب وهو يقطع عضوًا من أعضاء ولده ؛ لأنه بذلك يبقي الحياة لبقية الأعضاء كلِّها بأمر الملك ـ جلَّ وعلا.

إذًا لابد من الأخذ بقوة على يد من أفسد وأساء ، ممن تعدَّى على حرمة بيوتِ المسلمين .

ويأتي الوعيد بعد ذلك وهو وعيدٌ يخلع القلب ؛ فيقول سبحانه : ﴿ ٱلزَّانِي

لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[النور: ٣].

وتدبَّر معي قول القائل:

يا هاتكًا حَرَم الرجال وتابعًا ... طُرُقَ الفساد فأنتَ غيرُ مكرَّمِ

مَنْ يَزْنِ في قَوْمٍ بألفي درهم ... في أهله يُزْنَ بربع الدرهم

إن الزنا دَيْنٌ إذا استقرضته ... كان الوفاء من أهل بيتك فاعلم

وروى أحمد في «مسنده» والطبرانيُّ في «الكبير»[1] عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه «أَنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا؟ فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ مَهْ؛ فَقَالَ: «ادْنُهْ»، فَدَنَا قَرِيباً فَجَلَسَ، قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ؟» قَالَ: لاَ وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لاَ والله يَا رَسُولَ الله، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ؛ قَالَ: «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ؟» قَالَ: لاَ وَالله؛ جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لاَ وَالله، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟» قَالَ: لاَ وَالله، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاَتِهِمْ». قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ».

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٦)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ١٦٢)، و«مسند الشاميين» (١٠٦٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٣٤١)، ط الفكر: «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح»، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣٧٠).

ولقد حذر ربنا ونبينا تحذيرًا شديدًا من الزنا ؛ تلك الجريمة النكراء!!

ففي « الصحيحين »[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهْوَ مُؤْمِنٌ » .

قال عكرمة[٢] : قلت لابن عباس رضي الله عنهما : كيف يُنْزَعُ الإيمان مِنْهُ ؟ قَالَ : هكذا ، وشبَّك بين أصابعه ، ثم أخرجها ، قال : « فإن تاب إلى الله عز وجل عاد إليه الإيمان هكذا ، وشبَّك بين أصابعه رضي الله عنه » .

وفي « الصحيحين »[٣] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ الله ، إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ . الثَّيِّبُ الزَّانِي ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ » .

ولقد اتفق جمهور أهل العلم على أن الزاني إن كان بكرًا ، فيجب على ولي الأمر المسلم أن يجلده مائة جلدة ؛ واختلفوا في قضية التغريب لمدة عام :

فالجمهور[٤] على الجَلْد والتغريب عامًا ، وخالف الجمهور في ذلك أبو حنيفة رحمه الله ، وقال: يبقى حكم التغريب للإمام أو لمن ينوب عنه .

أما الزاني إن كان محصنًا متزوجًا بالغًا عاقلًا . إن زنى بامرأة محصنة

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المظالم ، باب النهبى بغير إذن صاحبه (٢٤٧٥) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله (٥٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحدود ، باب إثم الزناة (٦٨٠٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الديات ، باب (٦)(٦٨٧٨) ، ومسلم كتاب القسامة ، باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦) .

(٤) انظر : « المغني » لابن قدامة (١٢/ ٢١٣ط الحديث) .

فحكمهما في شرع الله ﷻ الرجم حتى الموت ، وإن كان أحدهما محصنًا دون الآخر يرجم المحصن ويجلد الآخر على ما سبق بيانه ، ولا تخفى علينا قصة ماعز والغامدية [١] .

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومُسْلِم [٢] من حديث ابن عباس ﷺ أن عُمَرَ بن الخطَّابِ ﷺ قام ، فَحَمَدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ الله بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا ، وَرَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ ، فَأَخْشَى أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ : مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ الله ، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا الله ، أَلا وَإِنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ الله حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ ، أَوْ الِاعْتِرَافُ » .

وفي الحديث الذي رواه مسلم [٣] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، شَيْخٌ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » .

فالزنا جريمةٌ وقحةٌ ؛ نسأل الله أن يطهرنا جميعًا من كلِّ إثم ومعصية ، وأن يحفظنا من كل شرٍّ وفتنة ؛ إنه على كلِّ شيءٍ قدير .

---

(١) انظر : « صحيح البخاري » كتاب الحدود ، باب لا يرجم المجنون ولا المجنونة (٦٨١٥ ، ٦٨٢٥) ، ومسلم ، كتاب الحدود ، باب من اعترف على نفسه بالزنى (١٦٩٤ ، ١٦٩٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحدود ، باب الاعتراف بالزنا (٦٨٢٩ ، ٦٨٣٠) ، ومسلم ، كتاب الحدود ، باب رجم الثيب في الزنى (١٦٩١) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف (١٠٧) .

العلامة السابعة : انتشار الربا

لقد أخبر الصادق الذي لا ينطق عن الهوى عن ظهور هذه العلامة بين يدي الساعة !

ففي الحديث الذي رواه الطبرانيُّ [(١)] ــ وهو حديثٌ صحيحٌ ــ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ يَظْهَرُ الرِّبَا ».

وفي « صحيح البخاريِّ » [(٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المَالَ ، أَمِنْ حَلالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ ».

وصدق المصطفى ﷺ ؛ فقد انتشر الربا ، فأصبح كثيرٌ من الناس لا يعنيه لو جاءه المال من الحرام أوْمن الحلال!! ، المهم أن يُحَصِّل المال بأي شَكْل حتَّى ولو أكل أموال الناس بالباطل ، حتى ولو أكل أموا اليتامى ظلمًا ، حتى ولو سمع قَوْلَ الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء:١٠].

فتراه لا يتورع بعد هذا الوعيد إن تمكن من أن يأخذ المال ، دون أدنى حرج ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم .

مع أن الله سبحانه وتعالى قد حَذَّر في القرآن من الربا تحذيرًا شديدًا يخلع القلب ، وما وجَدْتُ في القرآن الكريم كلِّه حَمْلَةً أشدَّ من حملة

(١) أخرجه الطبرانيُّ في « الأوسط » (٧/ ٣٤٩) ، (٨/ ١٢١) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٤/ ٢١٣) ، ط الفكر : « رواه الطبراني في « الأوسط » ، ورجاله رجال الصحيح » ، وصححه الشيخ الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب » (١٨٦١) ، و« الصحيحة » (٣٤١٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب البيوع ، باب قول الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ [آل عمران: ١٣٠] (٢٠٨٣) .

القرآن على الربا .

وتدبر معي تلك الآيات ، حيث قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة:٢٧٥] .

فيوم القيامة لا يقدر آكل الربا على القيام ، بل ولا يَقْوى على الجلوس ؛ بل إن جلسٍ يتخبط يمنةً وَيَسْرةً كالمصروع يتلبط في أرض المحشر ، حتى يعلم كلُّ أهل المحشر أهل الربا بهذه الصفة ! لماذا ؟

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة:٢٧٥] ، ثم بعد ذلك يقول سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[البقرة:٢٧٨ ، ٢٧٩].

فهل تَقْدِرُ على حرب الله ورسوله ؟!! فأنا أقسم بالله أن الأمة الآن تُحارَبُ من الله ورسوله إلا من رحم الله من أفراد !!!

فلقد انتشر الربا ؛ بل وقُنِّنَ للربا ، وسمِّي الربا الآن بغير اسمه ! فسمِّي بالأرباح ، والفوائد ، والقروض ، وشهادات الاستثمار ، والشهادات الدولارية ، وغيرها من المسمَّيات الزائفة ، وقد أفتت المجامع الفقهية بحرمة التعاملات البنكية المعروفة في زماننا هذا في البنوك الربوية التي تخالف البنوك الإسلامية ، ومع ذلك ترى المسلم يقول : (علِّقْها في رقبة عالم واطْلَعْ سالم) ، أنا أقولها إرضاءً لربي : والله لن تسلم ! لأن الفتوى صادفت هوًى في قلبك فاستحسنتها ، في الوقت الذي تعلم فيه يقينًا أن مئات العلماء قد حرَّموا ذلك ، وقالوا : بأن الفوائد البنكية هي الربا المحرم !! ولكنك اتبعت ..!

فربا البنوك المعاصرة أخطَر من ربا الجاهلية في نوعيه : الفضل والنسيئة .

وقال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٩، ٢٨٠] .

والنبيُّ ﷺ يقول ؛ كما في « صحيح مسلم »[١] وغيره من حديث ابن مسعود وجابر رضي الله عنهما : لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا ، وَمُؤْكِلَهُ ، وَكَاتِبَهُ ، وَشَاهِدَيْهِ ؛ وقال : « هُمْ سَوَاءٌ » .

وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه ، و البيهقيُّ، والحاكم في «مستدركه» ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين »[٢] وصحَّح الحديث كذلك الألبانيُّ في «صحيح الجامع » من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « الرِّبَا ثَلاَثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا ، أَيْسَرُهَا مِثْلَ أنْ ينكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ » .

وفي الحديث الذي رواه الطبرانيُّ في « معجمه الكبير » ، وأحمد في «المسند» وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع»[٣] من حديث عبد الله بن حنظلة أن النبيَّ ﷺ قال : « دِرْهَمُ رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ ، أَشَدُّ عِنْدَ الله

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب المساقاة ، باب لعن آكل الربا ومؤكله (١٥٩٧ ، ١٥٩٨) .

(٢) أخرجه ابن ماجه ،كتاب التجارات ، باب التغليظ في الربا (ـ مختصرًا ـ ٢٢٧٥) ، والحاكم (٢/ ٤٣) وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبيُّ ، والبيهقيُّ في « شعب الإيمان » (٥٥١٩) ، وصححه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٣٥٣٨، ٣٥٣٩) .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٥) ، والدارقطنيُّ في « السنن » (٣/ ١٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٥١٧) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٧٥٩) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٤/ ٢١٠) : « رواه أحمد والطبراني في « الكبير » و« الأوسط » ورجاله رجال الصحيح» ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٣٣٧٥) ، و « الصحيحة » (١٠٣٣) .

مِنْ سِتٌّ وَثَلاَثِينَ زَنْيَةً ».

وفي «صحيح البخاريِّ» [١] من حديث سمرة بن جندب ﷺ وهو حديث الرؤيا الطويل ، وفيه : أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ ، فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ ، وَعَلَى وَسَطِ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ ، فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا ؟ فَقَالَ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ : آكِلُ الرِّبَا ».

إنَّ النظام الإسلاميَّ والربويَّ لا يتفقان ، ولا يلتقيان ، ولا يتوافقان أبدًا لا في مقدمة ، ولا في وسط طريق ، ولا في مؤخرة طريق ، ولا في نتيجة ؛ لأن الله لا يحرم شيئًا لا تصلحُ حياة البشر إلا به ! ، ولا تقوم الحياة الاقتصادية إلا عليه ! ولا مانع على الإطلاق أن تظلَّ البنوك كما هي لكن بدون الربا المحرم ، وهذا أمرٌ ميسورٌ جدًّا في ظلِّ هذه الثورة العلمية الهائلة ، فيستطيع الآن أيُّ بنْكٍ بما لَدَيْه من كمبيوترات وآلات حاسبة دقيقة أن يَعْرف قَدْر الربح لكلِّ المساهمين ، لا أقول كلَّ شهر ؛ بل كل يوم لو أراد ذلك .

*****

العلامة الثامنة: ظهور المعازف واستحلالها

نعم ، ظهرت المعازف بجميع أنواعها ،وسمِّيت ـ كذلك ـ بغير اسمها !

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب البيوع ، باب آكل الربا وشاهده وكاتبه (٢٠٨٥) ، وفي كتاب الجنائز (١٣٨٦).

ففي الحديث الذي رواه عبد بن حميد في « المنتخب » وابن ماجه ـ مختصرًا ـ والطبرانيُّ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ورواه الترمذي من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه وصحَّح الحديث الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » أن النبيَّ ﷺ قال : « سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَسْفٌ ، وَقَذْفٌ ، وَمَسْخٌ » ، قِيلَ : وَمَتَى ذَلِكَ يَا رسُول الله ؟ قَالَ : « إِذَا ظَهَرَتِ المَعَازِفُ ، والقَيْنَاتُ ، واسْتُحِلَّتِ الخَمْرُ »[1] وفي رواية : « وشُرِبَتِ الخُمُورُ » .

ومن المعلوم أن المعازف قد كثرت ، وأن آلات اللهو والطرب قد انتشرت ، وتزداد المصيبة أن نرى كثيرًا ممن ينتسبون إلى العلم فضلًا عن عامة المسلمين يستحلُّون هذه الآلات ، ويستحلُّون هذه المعازف الذي يحوِّل سماعها ـ على الصورة المعهودة المعروفة الآن ـ العُبَّاد إلى فُسَّاق ، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله .

فهذه الآلات من فتن هذا العصر !!

فاستحلال المعازف علامةٌ من العلامات التي ذكرها النبيُّ ﷺ.

وفي « صحيح البخاريِّ » ـ تعليقًا ـ ووصله أبو داود في « سننه » من حديث أبي مالك الأشعريِّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي

(١) أخرجه ابن ماجة ـ مختصرًا ـ ، كتاب الفتن ، باب الخسوف (٤٠٦٠) . وعبد بن حميد في « المنتخب » (٤٥٢) ، والخطيب في « التاريخ » (١٠/ ٢٧٢ ترجمة عبد الرحمن بن الجارود) ، والطبراني (٦/ ١٥٠) (٥٨١٠) ، قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣١٧) : « رواه الطبراني ، وفيه عبد الله بن أبي الزناد ، وفيه ضعف ،وبقية رجال إحدى الطريقين رجال الصحيح » ، ورواه الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف (٢٢١٢) عن عمران وقال : « هذا حديث غريب» ، وله شاهدٌ آخر عن أبي سعيد ؛كما في «المعجم الصغير » للطبراني (٩٧٣) . وصححه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٣٦٦٥) .

أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ (أي:الزنا)وَالْحَرِيرَ ، وَالْخَمْرَ ، وَالْمَعَازِفَ »[١].

ولقد زعم بعضُ أَهْل العلم أن هذا الحديث لا يصحُّ ،كما زعم ذلك الإمام ابن حزم[٢] ـ غفر الله لنا وله ـ وقال بأن الحديث منقطع ، لم يتصل ما بين البخاريّ وبين هشام بن عمار ـ وهو شيخه ـ لكن لم يصرح بالسماع ، والبخاريُّ لم يكن مدلسًا وقد ثَبت لقاؤه بهشام ، وقد ردَّ عليه الإمام ابن القيم[٣] رحمه الله وبين بطلان ما قاله ابن حزم من ستة أوجه ، وليس هذا مجال ذكرها ،ولكن أذكر كلامًا نفسيًا للإمام ابن الصلاح ـ رحمه الله تعالى ـ في « مقدمة ابن الصلاح » ؛ حيث قال : « ولا التفات إلى أبي محمد بن حزم الظاهري الحافظ في رَدِّه ما أخرجه البخاري من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري ، ثم قال: والحديث صحيحٌ معروفُ الاتصال بشرط الصحيح ـ والبخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ قد يفعل مثل ذلك لكون ذلك الحديث معروفًا من جهة الثقات عن ذلك الشخص الذي علَّقه عنه ، وقد يفعل ذلك لكونه قد ذكر ذلك الحديث

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الأشربة ، باب ما جاء فيمن يستحلُّ الخمر ويسميه بغير اسمه (تعليقًا ـ ٥٥٩٠) ، ووصله أبو داود ، كتاب اللباس ، باب ما جاء في الخزِّ (٤٠٣٩) ، وابن حبان (٦٧٥٤) ، وانظر: « تغليق التعليق » (٣/ ٢١٦) ، و«الصحيحة» (٩١) ، و«تحريم آلات الطرب» (٤٢ وما بعدها).

قال الألبانيُّ في « الضعيفة » (١٢٢) : « وأما الغناء فليس كلُّه حرامًا ، بل ما كان منه في وصف الخدود والخصور والخمور ونحو ذلك فحرامٌ قطعًا ، وما خلا ذلك فالإكثار منه مكروه ، وأما آلات الطرب فهي محرمة ؛ لقوله ﷺ : « لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ ، وَالْخَمْرَ ، وَالْمَعَازِفَ ... » الحديث ، أخرجه البخاريُّ ـ تعليقًا ـ ووصله أبو داود (٢/ ١٧٤) بسند صحيح ، وقد ضعفه ابن حزم بدون حجة .. » ا.هـ .

(٢) « المحلى » لابن حزم (٩/ ٥٩) ، منشورات المكتب التجاري ببيروت .

(٣) «تهذيب السنن » (٥/ ٢٧٠، ٢٧٢).

في موضع آخر من كتابه مسندًا متصلًا ،وقد يفعل ذلك لغير ذلك من الأسباب التي لا يصحبها خلل الانقطاع ،والله أعلم »[١] .

*****

العلامة التاسعة : كثرة شرب الخمر واستحلالها

فلقد ظهرت الآن ظاهرةٌ أصبحتْ واضحةً ألا وهي أن الخمر تُشرب ؛ بل وتُباع جهارًا نهارًا ؛ بل وتسمَّى الخمر بغير اسمها ؛ كما قال الصادق الذي لا ينطق عن الهوى .

ففي « الصحيحين »[٢] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ ، وَيَفْشُوَ الزِّنَا ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ ، وَيَذْهَبَ الرِّجَالُ ، وَتَبْقَى النِّسَاءُ ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً قَيِّمٌ وَاحِدٌ » .

والأبشع من ذلك أن تُستحلَّ الخمر بحجةِ أَنَّ هؤلاء يسمونها بغير اسمها !ويزعمون أن مجرَّد تغيير الاسم ينفي عنها الحرمة !! وهذا باطلٌ ظاهر البطلان .

ففي «مسند أحمد» و«سنن ابن ماجه»[٣] من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «لَتَسْتَحِلَّنَّ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ بِاسْمٍ يُسَمُّونَهَا إِيَّاهُ » .

---

(١) « مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث » (٣٢) ، وانظر « فتح الباري » (١٠/ ٦٥) ، ط الحديث .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وظهور الجهل (٨٠) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧١) (٩) .

(٣) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الأشربة ، باب الخمر يسمونها بغير اسمها (٣٣٨٥) ، وأحمد (٥/ ٣١٨) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٥٠٦٩) .

وفي الحديث الذي رواه أحمد وابن أبي شيبة وابن ماجه ـ واللفظ له ـ وابن حبان وغيرهم [١] عن أبي مالك الأشعريِّ أن النبيَّ ﷺ قال: « لَيَشْرَبَنَّ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُعْزَفُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ وَالْمُغَنِّيَاتِ ـ وفي رواية: « الْقَيْنَاتِ » ـ يَخْسِفُ الله بِهِمُ الأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ».

والعزف: اللعب بالمعازف، وهي الدفوف وغيرها مما يضرب من آلات الملاهي؛ كالمزمار والطنبور والشبابة [٢].

فهل وجدتم وصفًا أبلغ مما وصف به النبيُّ ﷺ أحوالًا نراها الآن فيما يُسمَّى بالكبريهات والفنادق الفخمة الضخمة؟! وتسمَّى الخمر بغير اسمها؛ فلقد كُنَّا نسمع عن إعلاناتٍ كثيرةٍ للخمر بأسماء مُزَوَّرة، لينخدع بهذه المسميات أصحابُ القلوب المريضة! فهذا وصفٌ دقيقٌ ممن لا ينطق عن الهوى.

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:٣ـ٥].

*****

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأشربة، باب في الدَّاذِيِّ (٣٦٨٨ـ مختصرًا على أول طرفه)، والدَّاذي: شراب الفاسقين، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات (٤٠٢٠ ـ واللفظ له)، وأحمد (٥/ ٣٤٢)، وابن حبان في « صحيحه (٦٧٥٨)، والطبراني في « الكبير » (٣٤١٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٦٥)، والسهمي في « تاريخ جرجان » (١١٦)، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (٩٠، ٩١) و« صحيح الجامع » (٥٤٥٣، ٥٤٥٤).

(٢) انظر: « تحريم آلات الطرب » (٧٩).

العلامة العاشرة : كثرة القتل

ولا شك أن هذه العلامة قد انتشرت بصورةٍ رهيبةٍ لا ينكرها من يتابع ـ على الأقل ـ النشرات المحلية وليست العالمية فحسب !!

ففي « صحيح مسلم »(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْهَرْجُ » قَالُوا : وَمَا الْهَرْجُ ؟ يَا رَسُولَ الله ! قَالَ : « الْقَتْلُ الْقَتْلُ ».

وفي روايةٍ للبخاريِّ(٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامُ الْهَرْجِ: يَزُولُ فيها الْعِلْمُ ، وَيَظْهَرُ فِيهَا الْجَهْلُ ». قَالَ أَبُو مُوسَى : وَالْهَرْجُ الْقَتْلُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ.

وأنا أتحدَّى أن يمرَّ يوم ؛ بل ولا أكون مبالغًا إن قلت أن تمرَّ ساعةٌ على وَجْه الأرض اليوم إلا وتسفك فيها الدماء !! فما من نشرةٍ محليةٍ أو عالميةٍ إلا وَتسْمعُ فيها أنباء القتل بالعشرات ؛ بل بالمئات !! ولقد ازداد القتْلُ في القرن الذي نحياه الآن ؛ بل وفي الأيام الأخيرة بصورة بشعة ؛ فهذه هي أيام الهرج !!

وروى ابن ماجه(٣) وأحمد والحاكم وغيرهم عن أبي موسى الأشعريِّ

---

(١) أخرجه مسلمٌ ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (١٥٧) بعد (٢٨٨٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الفتن ، باب ظهور الفتن (٧٠٦٦) .

(٣) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب التثبت في الفتنة (٣٩٥٩) ، وأحمد (٤/ ٣٩١، ٤٠٦، ٤١٤) ، وابن حبان (٦٧١٠) ، والحاكم في « مستدركه » (٤/ ٤٩٨، ٥٦٥) وقال : «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبيُّ ، وأبو يعلى (٧٢٤٧) و(٧٢٥٥) وعبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠٧٤٤) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٨٠) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» =

ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَهَرْجًا ». قَالَ : قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ! مَا الْهَرْجُ ؟ قَالَ : « الْقَتْلُ » ، فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّا نَقْتُلُ الآنَ فِي الْعَامِ الْوَاحِدِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَيْسَ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَكِنْ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ ، وَابْنَ عَمِّهِ ، وَذَا قَرَابَتِهِ ». فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَعَنَا عُقُولُنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لاَ تُنْزَعُ عُقُولُ أَكْثَرِ ذَلِكَ الزَّمَانِ ، وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ لاَ عُقُولَ لَهُمْ ».

بل ومن الأحاديث العجيبة التي وصف فيها النبيُّ ﷺ هذه الأيام ما ثبت في «صحيح مسلم»[1] عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ ، لاَ يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ ، وَلاَ الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ » فَقِيلَ : كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : « الْهَرْجُ ، الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ ».

فهل هناك وصفٌ أبلغ من هذا ؟ نعم .. إنَّ هناك ـ الآن ـ أناسًا يقاتلون لا يعلمون لماذا يُقَاتِلون ؟!! وأنَّ آلاف البشر يُقْتَلُون لا يعلمون لماذا يُقتلون!

يُزجُّ الآن بكثيرٍ من أفراد الجيوش ، فينطلق الجنديُّ وهو لا يدري ! وقد قيل هذا بنفس اللفظ ؛ في حرب العراق مع الكويت ، فلما سُئِل بعضُ جنود العراق : لماذا أتيتم إلى هنا ؟قالوا : والله لا ندري !!! ليتحقق وعد النبيِّ ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ؛ فلا يدري القاتل فيما قَتل ، ولا المقتول فيما قُتل ؛ فأصبحت الدماءُ رخيصةً مع أنها غالية في دين الله ـ جَلَّ وَعَلَا ؛

ـــ (١٦٨٢) ، وصحيح سنن ابن ماجه (٣١٩٨) .

(١) أخرجه مسلمٌ ، كتاب الفتن وأشراط الساعة (٢٩٠٨) (٥٦) .

فالله سبحانه وتعالى هو واهب الحياة، ولا يجوز لأحدٍ البتة أن يسلب هذه الحياة إلا واهبها أو بأمرٍ منه في حدود شرعه؛ فقد قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١].

وهذا الحق معلوم بَيِّنٌ لم يتركه الله لحاكم من الحكَّام أَوْ لعالمٍ من العلماء ليحدِّده؛ بل حدَّده نبينا ﷺ؛ فقال كما في «الصحيحين»[١] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ الله، إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ؛ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ».

وأُنَبِّه إلى أنَّ أمرَ القتلِ هذا لوليِّ الأمر المسلم، ولمن ينوب عنه، حتى لا يتحوَّلَ المجتمع إلى فوضى فيقتُلَ من شاء من شاء في أي وقت شاء!!

نسأل الله أن يرفع الهمَّ عن الأمة، وأن يعيد الأمة إلى الشريعة المطهرة ردًّا جميلًا؛ فلا سعادة للبشر إلا في ظلال شرع الله الذي قال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة:١٧٩].

ويقول النبيُّ ﷺ ـ وهو يُبيِّن حرمة الدماء في الإسلام ـ كما في الحديث الذي رواه النسائيُّ وأحمد والحاكم، وصحَّح الحديثَ الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع»[٢] من حديث معاوية رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى الله أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلاَّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه النسائي، كتاب تحريم الدم، باب رقم (١) (٣٩٨٤)، وأحمد (٤/ ٩٩)، والحاكم (٤/ ٣٩١) وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبيُّ والطبرانيُّ في «الكبير» (١٩/ ٣٦٤، ٣٦٥)، و «والأوسط» (٥/ ٢١٩)، والنسائي في «الكبرى» (٣٤٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٩٩)، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٥٢٤)، و«الصحيحة» (٥١١).

وفي الحديث الذي رواه النسائيُّ في «المجتبى» و«الكبرى»[(١)] وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» من حديث بريدة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «قَتْلُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا».

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ في «تاريخه» ـ معلقًا ـ والنسائيُّ في «الكبرى» وابن حبان والطيالسي وغيرهم[(٢)] وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» من حديث عمرو بن الحمق الخزاعي رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أَمَّنَ رَجُلاً عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْقَاتِلِ وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا».

*****

العلامة الحادية عشرة: زخرفة المساجد والتباهي بها

ففي الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده» وأبو داود وابن ماجه وغيرهم[(٣)] وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه النسائيُّ، كتاب تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٣٩٩٠)، وفي «الكبرى» (٢/ ٢٨٥)، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٣٦١).

(٢) أخرجه البخاريُّ في «التاريخ الكبير» ـ تعليقًا ـ (٣/ ٣٢٢)، ووصله النسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٢٥)، وابن حبان (٥٩٨٢)، والطيالسي (١٢٨٥)، والطبرانيُّ في «الأوسط» (٤/ ٢٩٨) (٦/ ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٣)، (٧/ ١٣٦) و«الصغير» (١/ ٣٥٠، ٤٥)، والبزار في «مسنده» (٢٣٠٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٦٧٩)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ١٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٤)، وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦١٠٣)، و«الصحيحة» (٤٤١) (١/ ٢/ ٨٠٢ط المعارف).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد (٤٤٩) وابن ماجة، كتاب المساجد، باب تشييد المساجد (٧٣٩)، وأحمد (٣/ ١٣٤، ١٤٥، ١٥٢، ٢٣٠، ٢٨٣)، والدارمي (١/ ٣٨٣)، وابن خزيمة (١٣٢٣)، وابن حبان (١٦١٣، ١٦١٤، ٦٧٦٠)، وأبو يعلى (٢٧٩٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٤٣٩)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١/ ٢٥٩)=

قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي المَسَاجِدِ ».

وفي رواية النسائي وابن خزيمة [1] بسندٍ صحَّحه الشيخ الألبانيُّ رحمه الله أن النبيَّ ﷺ قال : «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْـمَسَاجِدِ ».

قال أنس: «يَتَبَاهَوْنَ بِهَا ، ثم لا يعمرونها إلا قليلًا» [2].

فالتباهي بها هي العناية بزخرفتها ونقشها كما ينقش الثوب ؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : « لَتُزَخْرِفُنَّ الْـمَسَاجِدَ كَمَا زَخْرَفَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى » [3].

وقد نهى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما في « صحيح البخاريِّ » عن زخرفة المسجد النبوي في توسعته على عهده ، حتى لا ينشغل الناس بالزخرفة والنقوش في الصلاة ، فعندما أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتجديد المسجد النبوي قال : « أَكِنَّ النَّاسَ مِنَ الْـمَطَرِ » أي : احفظوا الناس من المطر ، « وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمِّرَ أَوْ تُصَفِّرَ فَتَفْتِنَ النَّاسَ » [4].

فزخرفة المساجد ونَقْشُها علامةٌ من علامات الساعة ، كما أخبر النبيُّ ﷺ ، وأظنُّ أن هذه العلامة قد انتشرت . وأودُّ أن أفرق بين زخرفة المساجد والتباهي بها ، وبين بنائها لوجه الله ؛ فرقٌ كبيرٌ بين مَنْ يبني لله مسجدًا يبتغي به وَجْه الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فهذه من أعظم القربات ، ومن أجلِّ الطاعات ـ وبين رجلٍ يبني مسجدًا للتباهي !!

= و«الأوسط» (٨/ ٢٢٢) ، و«الصغير» (٢/ ٢٣٥) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٤٢١) .

(١) أخرجه النسائيُّ ،كتاب المساجد ، باب المباهاة في المساجد (٦٨٨) ، وفي « الكبرى » (٧٦٨) وابن خزيمة (١٣٢٢) ، وصححه الألبانيُّ في « صحيح سنن النسائي » .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الصلاة ، باب بنيان المسجد (رقم:٦٢) ـ تعليقًا .

(٣ ، ٤) المصدر السابق .

ففي « الصحيحين »[١] من حديث عثمان بن عفان ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ الله بَنَى الله لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ ».

وفي رواية أحمد والطيالسي[٢] بسندٍ صحَّحه الشيخ الألبانيُّ من حديث ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ بَنَى لله مَسْجِدًا ، وَلَوْ كَمِفْحَصِ قَطَاةٍ لِبَيْضِهَا ـ أي : كمقدار عش الطائر ـ بَنَى الله لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ».

وقد يتألم الآن كثيرٌ من أهل الفقر ممن يعجزون عن بناء المسجد حتى ولو كان بمقدار عش الطائر ، ولكنني أبشِّرُ ـ هذا الصنف الكريم من المسلمين بكلام النبيِّ الأمين ﷺ ؛ كما في « الصحيحين »[٣] من حديث أبي هريرةَ ﷺ أنه ﷺ قال : « مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ ،أَعَدَّ الله لَهُ نُزُلًا فِي الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ ».

إن فضلَ الله على هذه الأمة لا ينتهي ، فإن عَجَزْتَ أن تبني مسجدًا فلا تعجز أن تُحصل هذا الأجر والفضل .

والنُّزل ـ في اللغة: هو ما يُهيَّأُ للضيف من كرامة .

وأرجو أن تتخيَّل نزلًا في الجنة يعدُّه الكريم ـ جَلَّ وَعَلا.

وغير ذلك من الأجر الكثير ؛ كما سبق في فضل الصلاة .

فأحببتُ أن أبينَ الفرق بين بناء المسجد كعملٍ من أعمال القربات والطاعات ، وبين بناء المسجد والتباهي به ، فالمنهيُّ عنه بناء المساجد

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الصلاة ، باب من بنى مسجدًا (٤٥٠) ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل بناء المساجد والحث عليها (٥٣٣) .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٤١) ، والطيالسيُّ (٢٦١٧) ، وابن أبي شيبة (٣١٥٨) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٦١٢٩) .

(٣) سبق .

بنية التباهي، بالزخرفة التي تشغل الناس عن الخشوع في الصلاة بين يدي الله ـ جلَّ وعلا ـ فهذه من العلامات التي أخبر عنها النبيُّ ﷺ، وقد وقعت كما قال رسول الله ﷺ، والله أعلم . .

*****

العلامة الثانية عشرة: التطاول في البنيان

ففي « الصحيحين »[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال لجبريل عندما سأله عن وقت قيام الساعة ؛ فقال : « مَا الْـمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ . وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا ... وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبَهْمِ فِي الْبُنْيَانِ ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا» .

وفي الحديث الذي نحن بصدده من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال جبريل : فَأَخْبِرنِي عَنِ السَّاعَةِ ؟ قَالَ : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ». قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا ؟ قَالَ : « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْـحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ »[(٢)].

فالتطاول في البنيان من علامات الساعة ؛ كما أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى .

وفي رواية الإمام أحمد[(٣)] بسندٍ قال عنه الشيخ الألبانيُّ : لا بأس به في

(١، ٢) سبق تخريجهما .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣١٨، ٣١٩) ، قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٤٢) : «وفي إسناد أحمد شهر بن حوشب» . وقال الألباني في « الصحيحة » (١٣٤٥) : « وهذا إسنادٌ لا بأس به في الشواهد ، شهر وهو ابن حوشب سيء الحفظ ،ولكن الحديث صحيح ثابت في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة نحوه ، ومن حديث عمر عند مسلم وغيره دون الزيادة » وانظر « صحيح الجامع » (٥٦٠) .

الشواهد ؛كما في « السلسلة الصحيحة » : أن النبيَّ ﷺ قال حينما سأله ابن عباس: يَا رَسُولَ الله ! مَنْ أَصْحَابُ الشَّاءِ وَالْحُفَاةُ الْجِيَاعُ الْعَالَةُ ؟ فَقَالَ : « الْعَرَبُ ».

ونحن نرى هذا التطاول في البنيان ، حتى إنك ترى الأبراج العالية الآن في كل مكان ؛ بل وترى ناطحات السحاب في الدول الغربية ، ترى عمارات شاهقة جدًّا يزيد عدد أدوارها على مئة دورٍ ومئة طابق ، كما في نيويورك وغيرها ، وهذه علامة أخبر عنها النبيُّ ﷺ وقد وقعت بمثل ما أخبر ﷺ .

وفي رواية في « صحيح البخاري »[1] من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ » .

*****

العلامة الثالثة عشرة :ولادة الأمة ربّتها

فكما سبق في حديث جبريل : قَالَ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا : إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ».

وفي روايةٍ لمسلمٍ : « إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا »[2].

وقد اختلف العلماء في معنى هذه العبارة النبوية على عدَّة أقوال ، ذكر منها الحافظ ابن حجر أربعة أقوال :

الأول : قال الخطابيُّ : معنى « إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّتَهَا » أو « رَبَّهَا » أي : اتساع الإسلام ، واستيلاء أهله على بلاد الشرك ، وسبي ذراريهم ؛ فإذا

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الفتن ، باب (٢٥)(٧١٢١) .

(٢) سبق تخريجه .

ملك الرجل الجارية واستولدها كان الولد منها بمنزلة ربها ، أي رب هذه الأمة ؛ لأن الولد ينسب لأبيه السيد ، فيصبح الولد سيدًا لأبيه ، ولا زالت أُمُّهُ أَمَةً ؛ لأنه ولد سيدها [1].

وقال الإمام النوويُّ [2] ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره : هذا القول هو « قول الأكثرين » من أهل العلم .

الثاني : أن تبيع السادة أمهات أولادهم ، ثم تدور بين الأيدي ، وربما تصل الأمة بعد ذلك لولدها ليعاملها معاملة العبيد ، وهي في الوقت ذاته أمه . وهو قريبٌ من القول الأول .

القول الثالث: أن تلد الأمة حرًّا من غير سيدها ؛أي : قبل أن تكون أمة بوطء شبهة أو في زنا أو في حرام ، ثم تباع الأَمَةَ ، كما في الصورتين السابقتين بيعًا صحيحًا ، وتدور في الأيدي حتى ترجع مرة أخرى إلى ابنتها أو إلى ابنها .

أما القول الرابع ـ وهو الراجح عندي والله أعلم ـ كما ذكر الحافظ ابن حجر : أن معنى قول النبيِّ ﷺ: « أن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ». أي: أن يكثر العقوق في الأولاد ، فيعامل الولد أمه معاملة السيد لأَمَتِه ؛ فالصورة الأولى كانت موجودة في عهد النبيِّ ﷺ ، والنبيُّ ﷺ يذكر هذه العلامة كعلامة بين يدي الساعة ؛ فهذا هو القول الراجح عند الحافظ ابن حجر ، وهو الذي أستريح إليه ، وأرجحه على الأقوال السابقة أيضًا .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « هذا أَوْجَهُ الأَوْجُهِ عندي لعمومه ، ولأَنَّ المقام يدلُّ على أن المراد حالة تكون مع كونها تدلُّ على فساد الأحوال

---

(١) « فتح الباري » (١/ ١٥٣) ط الحديث ، وانظر « معالم السنن » للخطابي (٧/ ٦٧) .

(٢) « فتح الباري » (١/ ١٥٣) ، و« شرح النووي » لمسلم (١/ ١٥٨) .

مستغربة . ومحصلة الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور ؛ بحيث يصير المُربَّى مُرَبِّيًا ، والسافلُ عاليًا ،وهو مناسب لقوله ﷺ في العلامة الأخرى : « أَنْ تَصِيرَ الحُفَاةُ مُلُوكَ الأَرْضِ »[١] .

فهذه علامة من علامات الساعة أن يكثر العقوق ، وتنقلب الموازين ، وتضطرب المقاييس ، فيصبح المُرَبّى مُرَبِّيًا ، فبدلًا من أن يربِّي الوالدُ ولَدَهُ يصبح الابن مربيًا لوالده ، وتصبح البنت مربية لأمها ! وأظنُّ أنه لن يخالف عاقلٌ على وَجْه الأرض أن هذه الصورة قد وقعت الآن بمثل ما قاله الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ، والله تعالى أعلم .

*****

العلامة الرابعة عشرة :تقارب الأسواق

ففي مسند الإمام أحمد بسندٍ رجاله رجال الصحيح[٢] من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَظْهَرَ الْفِتَنُ ، وَيَكْثُرَ الْكَذِبُ ، وَتَتَقَارَبَ الأَسْوَاقُ ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ » ، قِيلَ : وَمَا الْهَرْجُ ؟ قَالَ : « الْقَتْلُ ».

ولا شك ـ والله أعلم ـ في قوله : « وَتَتَقَارَبَ الأَسْوَاقُ » هو أن الثورة العلمية الحديثة الهائلة عن طريق المواصلات والاتصالات قد قرَّبت أسواق العالم ؛ لا أقول أسواق البلدة ؛ فتقارب الأسواق له معانٍ كثيرة : منها : سرعة العلم بما يكون في الأسواق العالمية من زيادة في السعر أو

(١) «فتح الباري» (١/ ١٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٥١٩) ، وابن حبان في «صحيحه» (٦٧١٨) ـ موارد (١٨٨٢) ، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٧/ ٣٢٧) : « رواه أحمد ،ورجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سمعان وهو ثقه » ، وصحَّح إسناده الشيخ الأرناؤوط .

نقصانه ، فتستطيع الآن البورصة العالمية في أمريكا أو اليابان أو في طوكيو أو في أيِّ مكان عن طريق شاشةٍ هنا في مدينتك أن تتعرَّف على أسعار العملات ، وعلى أسعار السلع في التو واللحظة ؛ فهذا تقارب في الأسواق ؛ هذا معنى .

المعنى الآخر :اختزال الأماكن عن طريق هذا التقدم المذهل في المواصلات ، فيستطيع الإنسان بالسيارة أن يصل ليحصِّل أغراضه من سوق في مدينة أخرى ، ويرجع في ساعات قلائل ، في الوقت الذي كان يمكثه الرجل الأول في شهور تلو شهور ، فيستطيع الإنسان الآن أن يذهب ـ مثلًا ـ بالسيارة إلى القاهرة إلى سوقٍ كبيرٍ ، كأسواق الموسكي ـ مثلًا ـ ليحصل على أغراضه ، ثم يرجع في نفس اليوم ؛ بل ويستطيع الإنسان ـ مثلًا ـ أن يذهب إلى سوق في الإمارات ليرجع في نفس الوقت بالطائرة أو في اليوم التالي .

فتقاربُ الأسواق ؛ إما أن يعرف الإنسانُ سِعْر السوق العالمي عن طريق هذا التقدم العلميِّ في وسائل الاتصالات ؛ في التليفونات أو الشاشات الحديثة ، أو عن طريق شبكة الإنترنت ، أو يذهب إلى بلدةٍ أخرى ، فيختزل المسافة عن طريق هذا التقدُّم المذهل في عالم المواصلات ، وسرعة السير ، أو تتقارب الأسعار في الأسواق ، فيقتضي التُجَّار ببعضهم البعض في تحديد سعر السلعة من مكان إلى آخر [1] ؛ فهذا تقارب في الأسواق ؛ كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ ـ والله تعالى أعلم.

---

(١) « أشراط الساعة » للدكتور يوسف الوابل (١٥٩، ١٦٠) ، و« إتحاف الجماعة » للشيخ حمود التويجري (١/ ٤٩٨، ٤٩٩) .

العلامة الخامسة عشرة
ظهور الشرك في قبائل من أمة النبيّ محمد ﷺ

وهذه علامة عجيبة جدًّا ؛ ففي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذيُّ [(١)] وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » من حديث ثوبان ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ » .

وفي رواية في « الصحيحين » [(٢)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلْيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ ».

وأَلْيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ : أي : أعجازهن تضطرب ، كما كانت تضطرب نساء العرب في الجاهلية .

وذُو الْخَلَصَةِ : اسم لصنمين كلٌّ منهما يُدعى: ذا الخلصة ؛ أحدهما لدوس ، والآخر لقبيلة خثعم .

وقد وقع ذلك تمامًا ؛ كما أخبر النبيُّ ﷺ واضطربت أعجازُ نساء

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الفتن والملاحم ، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٥٢) ، والترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون (٢٢١٩) وقال : « حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب ما يكون من الفتن (٣٩٥٢) ، وأحمد (٥/ ٢٨٤، ٢٧٨) ، والحاكم (٤/ ٤٩٥، ٤٩٦) وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبي ، والطيالسي (٩٩١) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (١٧٧٣) ، و« الصحيحة » (٢/ ١٦٨٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الفتن ، باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان (٧١١٦) ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة (٢٩٠٦)

دوس حول هذا الصنم في أرض الجزيرة، ولحقت قبائل كثيرة من العرب بالمشركين في عبادة الأوثان والأصنام، فكانوا يذهبون لهذا الصنم، ليقدموا له القرابين والنذور، وانتشرت عبادة الأوثان والأصنام في أرض الجزيرة العربية إلى أن مَنَّ الله على هذه البلاد بمجِّدد هذا العصر، وهو الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ مع الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود رحمه الله، فالعالِمُ يحتاج إلى سلطان لينصره؛ ولذلك قال عثمان رضي الله عنه: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن»[1]، ومن فضل الله هُدِّمت وخربت على يد جماعة من الدعاة الذين أرسلهم الإمام عبد العزيز رحمه الله وأزيلت بالكلية في عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود[2].

والشرك ظلمٌ عظيم، وذنب لا يغتفر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨].

ولا تقتصر صورة الشرك على عبادة الأصنام؛ بل له أشكال عديدة، وصورٌ كثيرةٌ حذَّر منها النبيُّ ﷺ في أحاديثه الكثيرة، سواء كان الشرك كبيرًا أو صغيرًا، ظاهرًا أو خفيًّا.

ففي الحديث الذي رواه الترمذيُّ وأبو داود وأحمد[3] عن ابن عمر

---

(١) جاء عن عمر موقوفًا، وكذا عن عثمان موقوفًا كذلك؛ أخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٨٨) عن عثمان، والخطيب في «تاريخه» (٤/ ١٠٧) عن عمر، ونسبه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٠) لعثمان.

(٢) انظر «إتحاف الجماعة» (١/ ٥٢٢، ٥٣٣)، وسراة غامد وزهران (٣٤٧، ٣٤٩) نقلًا عن «أشراط الساعة» ليوسف الوابل، وفقه الله (١٦٢).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب كراهية الحلف بالآباء (٣٢٥١)، والترمذي، كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (١٥٣٥) وقال: «حديث حسن»، =

ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ».

وفي الحديث الذي رواه أبو داود وأحمد [١] عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عَقْرَ فِي الْإِسْلَامِ». أي: لا ذبح لغير الله؛ سواء عند القبر أو عند غيره.

والنبيُّ ﷺ يقول لابن عباس ﷺ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، جَفَّتِ الأَقْلَامُ وَرُفِعَتِ الصُّحُفُ» [٢].

وفي الحديث الذي رواه الترمذي والطبراني وغيرهما بسندٍ صحيح [٣]:

= وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٤، ٦٧، ٦٩، ٨٦، ١٢٥)، وابن حبان (١١٧٧)، والطيالسي (١٨٩٦)، والحاكم (٤/ ٢٩٧) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وصححه الألبانيُّ في «الإرواء» (٢٥٦١)، و«الصحيحة» (٢٠٤٢) و«صحيح الجامع» (٦٢٠٤).

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الجنائز، باب كراهية الذبح عند القبر (٣٢٢٢)، وأحمد (٣/ ١٩٧)، وابن حبان (٣١٤٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٦٦٩٠)، والبيهقي في «السنن» (٤/ ٥٧)، والشعب (٦٨٦١)، وعبد بن حميد (١٢٥٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٤٣٦)، و«صحيح الجامع» (٧٥٣٥).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٥٩) (٢٥١٦)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٢، ٣٠٧)، والحاكم (٣/ ٦٢٣، ٦٢٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤/ ٤٣٠)، وعبد بن حميد (٢٥٥٦)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧)، و«المشكاة» (٥٣٠٢).

(٣) أخرجه الترمذيُّ، كتاب تفسير القرآن، باب (١٠) (٣٠٩٥) وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث»، والطبري في «التفسير» (١٤/ ٢٠٩، ٢١١)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٩٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٠١٣٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، و«الصحيحة» (٣٢٩٣).

أن النبيَّ ﷺ لما دخل عليه عديٌّ بن حاتم قرأ قول الله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] . فقال : إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ ـ أي :ما عبدنا الأحبار والرهبان ـ فقال النبيُّ ﷺ : « بَلَى ، إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الحَلالَ ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الحَرَامَ فَاتَّبَعُوهمْ ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ » !!

فالشرك أظلم الظلم ، وأقبح ذنب على وجه الأرض ،وما من نبيٍّ بُعث إلا وحذَّر قومه أول ما حذرهم من التنديد ـ أي من الشرك ـ وما من نبيٍّ ولا رسول بعث في قومه إلا ودعى قومه أوَّلَ ما دعاهم إلى التوحيد ، قال تعالى : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل :٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣]

وفي «صحيح مسلم »[(١)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه ﷺ قال : «مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ » .

فظهور الشرك ؛كما قال النبيُّ ﷺ علامةٌ من العلامات ، وقد ظهرت !!

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يردَّ الأمة إلى التوحيد الصحيح ردًّا جميلًا ،

---

(١)أخرجه مسلم ،كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ، ومن مات مشركًا دخل النار (٩٣) ، وروي من حديث ابن مسعود عند البخاري (١٢٣٨) ، وانظر طرفيه هناك ، ومسلم (٩٢) .

وأن يختم لنا ولكم بالتوحيد ، إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه ، ونعوذ بالله أن نشرك به شيئًا ونحن نعلمه ، ونستغفره لما لا نعلمه .

*****

العلامة السادسة عشرة : ظهور الفحش ، وقطيعة الرحم ، وسوء الجوار

فهذه من العلامات التي أخبر عنها النبيُّ ﷺ كعلامة من العلامات الصغرى للساعة ، ولا شك أنها قد وقعت بمثل ما قال المصطفى ﷺ .

ففي الحديث الذي رواه أحمد في « مسنده » والحاكم في « مستدركه »[(١)] من حديث عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخَوَّنَ الأَمِينُ ، وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ ، وحَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَحُّشُ ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ ، وَسُوءُ الْجِوَارِ » . وفي رواية : « وَسُوءُ الْمُجَاوَرَةِ » .

وروى الطبرانيُّ في « الأوسط »[(٢)] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ : الْفُحْشُ ، وَالتَّفَحُّشُ ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ ».

وفي « مسند أحمد » والبخاري في «الأدب المفرد» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ ، وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ ، حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ ، وَقَطْعَ الأَرْحَامِ ، وَشَهَادَةَ الزُّورِ ، وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ ، وَظُهُورَ الْقَلَمِ »[(٣)] .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٩) ، والحاكم (١/ ١٤٧) ، وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٥٥٨) ، والبزار في «مسنده» (٢٤٣٥) ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠٨٥٢) ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٢٢٨٨) ، وأحمد شاكر في « المسند » .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١٣٥٦) ، وفي « مسند الشاميين » (٢٦١٤) ، وقال الهيثميُّ في « المجمع » (٧/ ٢٨٤) : « رجاله ثقات ، وفي بعضهم خلاف » .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٧ ، ٤١٩) ، والحاكم (٤/ ١١٠) وصححه ووافقه الذهبيُّ ، والبخاريُّ في=

وفي رواية «الْعِلْمُ» .

وقد وقع ما أخبر عنه عليه الصلاة والسلام ، والأمر يحتاج إلى شيء من التفصيل :

أولًا : الفحش :

قال ابن الأثير [(١)]: هو كلُّ ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي .

وكثيرًا ما يراد بالفُحش أو بالفاحشة الزنا ؛ كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾[النساء:١٩] .

فالمراد بالفاحشة هنا ـ على الراجح من أقوال أهل العلم : الزنا ، وإلا فقد فسَّر الشافعيُّ رحمه الله الفاحشة في الآية بخروج المرأة من بيت زوجها بغير إذن الزوج ؛ لكنَّ جماهير المفسرين على أن الفاحشة هي الزنا .

وقال ابن منظور في «لسان العرب» [(٢)]: «الفحش هو البذيء ، والقبيح من الأقوال والأفعال ؛ فقد أضاف القول الفاحش إلى الفحش مع الفعل» .

وأظن أنه لن يخالف الآن عاقلٌ على أن الفحش من القول والفعل قد ظهر ؛ بل وانتشر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان [(٣)] ، وصحَّحه الألبانيُّ

= «الأدب المفرد» (١٠٤٩) ، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٧/ ٦٣٥) : «رواه كلُّه أحمد ، والبزار ببعضه» ، وزاد : «وأن يجتاز الرجلُ المسجد فلا يصلي فيه» . وهو في «مسند البزار» (برقم ١٤٥٨) ، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٦٤٧).

(١) «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٤١٥).

(٢) «لسان العرب» (٦/ ٣٢٥) .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٦٩٤)، والطبراني في «الكبير» =

ﷺ من حديث أسامة بن زيد ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الله تعالى يُبْغِضُ الْفاحِشَ المتَفَحِّشَ ».

وفي الحديث الذي رواه الترمذيُّ وابن حبان وغيرهما [(١)] ، بسندٍ صحيح من حديث أبي الدرداء ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ ، وَإِنَّ الله يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ ».

فظهور الفحش في القول والعمل علامةٌ من علامات الساعة ؛ كما ذكر النبيُّ ﷺ .

ثانيًا : قطيعة الرحم:

وهذه علامةٌ أخرى من العلامات ؛ كما ذكر الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ ، فالقريب لا يصل قريبه ؛ بل حَصَل ـ الآن ـ من التقاطع ، بل والتدابر والتباغض بين الأقرباء ما الله به عليم ؛ فقد يمضي الأسبوع ؛ بل وقد يمضي الشهر ؛ بل وقد يمضي العام ولا يصل الأخ أخاه ، ولا يصل الرجلُ رحمه ؛ بل ولا حتى عن طريق الهاتف إن تعذَّر عليه أن يصلهم بخطواته ؛ فقطيعة الرحم قد انتشرت الآن في زماننا بصورة لم يسبق لها مثيلٌ في زمنٍ من الأزمان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

= (١/ ١٦٥، ١٦٦) و« الأوسط » (١/ ١٠٦)، وصححه الألبانيُّ في « الإرواء » (٧/ ٢١٠) و« الصحيحة » (٨٧٦) و « صحيح الجامع » (١٨٧٧) .

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في حسن الخلق (٤٧٩٩) ، والترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٢) وقال : « حديث حسن صحيح » ، وأحمد في « مسنده » (٦/ ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٨) ، وابن حبان (٥٦٩٣، ٥٦٩٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٦٤) ، وصححه الألبانيُّ في « الصحيحة » (٨٧٦) و« صحيح الجامع » (٥٦٣٢) .

والنبيُّ ﷺ قد حذَّر من قطعية الرحم ؛ فقال ﷺ كما في «الصحيحين»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ ».

فَصِلَةُ الرحم علامةٌ عمليةٌ من علامات الإيمان بالله ـ جلَّ وعلا ـ وباليوم الآخر .

وتدبر معي هذا الحديث الذي رواه «البخاريُّ ومسلم»[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «إن الله خَلَقَ الْخَلْقَ حتَّى إذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ ، فَقَالَتْ : هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ ، قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَذَلِكَ لَكِ ». ثم قال رسول الله ﷺ : اقرءوا إنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾[محمد:٢٢ـ٢٣] .

وفي لفظ البخاريِّ أن الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ قال للرحم : « مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ ».

وفي « الصحيحين »[3] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب إكرام الضيف (٦١٣٨) ، وانظر أطرافه (٥١٨٥) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب الحث على إكرام الضيف ولزوم الصمت (٤٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾(٤٨٣٠)، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٤) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب البيوع ، باب من أحب البسط في الرزق (٢٠٦٧)، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ،كتاب البر والصلة والآداب ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٧) .

أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ ».

فكم مِنْ عُمُرٍ قَلَّت آماده وطالت أمداده ، وكم من عمر طالت آماده وقلت أمداده !! فتدبَّر ـ معي ـ بركة عمر النبيِّ ﷺ؛ فكم عاش النبيُّ ﷺ؟ عاش ثلاثًا وستين عامًا ؛ لكن انظر إلى بركة عمره ، وانظر إلى أمة النبيِّ ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ، لتقف على بركة عمره ﷺ!!

كم وحدَّ الله من أناس ؟! وكم أطاعَ الله من الخلق ؟! وكم انتقل من الشرك إلى التوحيد من البشر ؟! وكم انتقل من ظُلُمات المعصية إلى نور الإيمان من الخلق ؟! وستظلُّ الأمة في زيادة إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ، وستأتي هذه الأمة كُلُّها في ميزان النبيِّ ﷺ يوم القيامة .

فإذًا قطيعة الرحم تمحق بركة العمر ، وبركة الرزق ، وصلة الرحم تبارك الرزق ، وتبارك العمر ، بفضل الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ وكلُّ شيءٍ بقدَرِهِ سبحانه وتعالى ،وقد يظن كثيرٌ من المسلمين أن صلة الرحم معناها : إن زارني عمي أزوره ، وإن زارني خالي أكرر الزيارة ، وإن زارتني عمتي وخالتي أذهب لزيارتها ! فهذه تسمَّى تبادل زيارات ، وتبادل مصالح ومنافع ؛ لكن الصلة أخي الكريم هي أن تصل من قطعك .

ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه ﷺ قال : « لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا » [(١)].

فهذه هي الصلة ،وتدبر هذا الحديث الجميل ؛لأن كثيرًا من الناس يقول : أنا أصل هؤلاء، ولكنهم يقطعوني ، ولا يصلوني !!

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب ليس الواصل بالمكافئ (٥٩٩١) .

ففي « صحيح مسلم »[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ الله ! إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي ، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ ، وَأَحْلُمُ عَلَيْهِمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ ؛ فَقَالَ : « لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ الله ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ ».

والمَلّ : هو الرمادُ الذي ينتج عن الحريق ، ولا تزال فيه حرارته بعد إطفاء الحريق . فمن أبشع الذنوب قطيعة الرحم ؛ ولذا ، قال النبيُّ ﷺ ، كما في « الصحيحين »[(٢)] عن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال ﷺ : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ ».

وأخبر النبيُّ ﷺ أنها ستكون علامة من العلامات بين يدي الساعة وقد وقعت كما أخبر النبيُّ ﷺ .

ثالثًا : سوء المجاورة :كعلامة من العلامات التي وقعت كما أخبر النبيُّ ﷺ .

فالنبيُّ ﷺ أوصى بالجار توصيةً ظن منها بعد وصية جبريل له بالجار أن الجار ستنزل فيه آية للتوريث ؛ فقال النبيُّ ﷺ : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ »[(٣)].

وقال كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الأدب ، باب إثم القاطع (٥٩٨٤) ، ومسلم ،كتاب البر والصلة والآداب ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٦) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الأدب ، باب الوصاة بالجار (٦٠١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها ، ومسلم ،كتاب البر والصلة ، باب الوصية بالجار والإحسان إليه (٢٦٢٤) ، ورواه البخاريُّ (٦٠١٥) ، ومسلم (٢٦٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ ... » [(١)]. وفي لفظٍ : « فَلاَ يُؤْذِي جَارَهُ ».

وفي « صحيح البخاريّ » [(٢)] عن أبي هريرة وأبي شريح رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ : « وَالله لاَ يُؤْمِنُ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ » قِيلَ : مَنْ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ».

وفي «صحيح مسلم» [(٣)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنْ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » .

أي : من لا يأمن جاره شروره ، وأخلاقه السيئة والفاسدة .

وروى أحمد وابن حبان والحاكم [(٤)] وغيرهم عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : « هِيَ فِي النَّارِ». قَالَ: يَا رَسُولَ الله ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا ، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ ـ أي القطعة من الأقط وهو شيء يتخذ من مخيض لبن الغنم ـ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : « هِيَ فِي الجَنَّةِ » .

وفي «الصحيحين » [(٥)] ـ وهذا لفظُ مسلمٍ ـ عن أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٦٠١٦).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الإيمان ، باب تحريم إيذاء الجار (٤٦) .

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٠) ، وابن حبان (١٣/ ٧٦) (٥٧٦٤) ، والحاكم (٤/ ١٨٣) ، وابن وهب في «الجامع» (٣١١) ، وهناد في «الزهد» (١٠٣٤) ، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٣٧٣، ٥٨٥) ، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (٢٤٧) ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٦٠) .

(٥) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٤٥) واللفظ له .

قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ - أَوْ قَالَ: لأَخِيهِ - مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ».

وروى الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم [1] وهو حديث صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ ».

أسأل الله أن يردنا إلى الحق والدين ردًّا جميلًا

*****

العلامة السابعة عشرة :تشبُّبُ المشايخ

أي سيدَّعي بعض الشيوخ الذين ظهر الشيب على عوارضهم الشباب ، وذلك بخضاب الشعر الأبيض باللون الأسود ؛ هذا من علامات الساعة التي ذكرها النبيُّ ﷺ.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يَكُونُ قَوْمٌ يَخْضِبُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بِالسَّوَادِ كَحَوَاصِلِ الْحَمَامِ لاَ يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ ».

رواه أحمد في « مسنده »وأبو داود والنسائي وغيرهم [2] .

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في حق الجار (١٩٤٤) وقال : « حديث حسن غريب » ، وأحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٨) ، والدارمي (٢٤٣٧) ، وعبد بن حميد في «مسنده» (٣٤٤) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٥) ، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٥٣٩) ، وابن حبان في «صحيحه» (٥١٩) ، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٤٣) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبيُّ ، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٠٣) .

(٢) أخرجه أبو داود ،كتاب الترجل ، باب ما جاء في خضاب السواد (٤٢١٢) ، والنسائي ، كتاب الزينة ، باب النهي عن الخضاب بالسواد (٥٠٩٠) ، وأحمد (١/ ٢٧٣) ، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦٠٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٧/ ٣١١) ، وفي « الشعب » (٦٤١٤) ، والبغوي في « شرح السنة » (٣١٨٠) ، وصححه الألبانيُّ في «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام» (١٠٦) ، و« صحيح الجامع » (٨١٥٣) .

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «إسناده قويٌّ».

وقال العلامة أحمد شاكر ـ رحمه الله تعالى: « إسناده صحيح » .

وقال الألباني ﷺ: « أخرجه أبو داود ،والنسائيُّ ،وأحمد والضياء في المختارة ،وغيرهم ، وقال : إسناده صحيح على شرط البخاريِّ ومسلم » .

والعجيب أنني وقفت على هذا الحديث في كتاب « الموضوعات » للإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ فقد حكم عليه بالوضع ، وتعقبه الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ فقال [1]: « لقد أخطأ ابن الجوزي في ذلك » ، وسبب الخطأ أنه حكم عليه بالوضع لرجلٍ متهم في السند ، يقال له : عبد الكريم بن أبي المخارق ، وهو متهم بالكذب ؛ فردَّ عليه الحافظ ، وقال : بأن الرجل الذي أوهم فيه ابن الجوزي وعلى مداره حكم على الحديث بالوضع قد أخطأ فيه ؛ فهو ليس من رواية عبد الكريم ابن أبي المخارق ،وإنما هو من رواية عبد الكريم الجزري الثقة المخرج له في «الصحيح » ، ومن هنا ؛ فإن الحديث صحيحٌ على شرط الشيخين ؛ كما قال شيخنا الألبانيُّ ـ رحمه الله تعالى.

والذي يظهر من الحديث ـ والله أعلم: أن هؤلاء الذين يظهر الشيب على وجوههم ، فيصبغون ، ويخضبون الشعر الأبيض بالسواد ، فيه خداعٌ وتدليسٌ .

قال الإمام ابن الجوزيُّ ﷺ [2]: «يحتمل أن يكون المعنى : لا يُريحون رائحة الجنة لفعلٍ يصدر منهم أو اعتقاد ، لا لعلة الخضاب ،ويكون

---

(١)« القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد » (٣٩).

(٢)« الموضوعات » لابن الجوزي (٣/ ١١٣) ، ط ابن رجب .

الخضاب سيماهم ؛ كما قال النبيُّ ﷺ في الخوارج : « سِيمَاهُمُ التَّحْلِيق » وإن كان تحليق الشعر ليس حرامًا » .

فقد ثبت أن النبيَّ ﷺ قد حلق شعره ؛ فسمةُ التحليق للخوارج سمةٌ تُبيِّنُهم ؛ لكنها ليست على سبيل التحريم لحلق الشعر ، فلقد حلق النبيُّ ﷺ في النسك ، وقد نهى ﷺ عن تخضيب الشعر الأبيض بالسواد ؛ كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم[1] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَبِي قُحَافَةَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَرَأْسُهُ وَلِحْيَتُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضًا ـ وهو نبات شديد البياض كأنه الثلج ـ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « غَيِّرُوا هَذَا بِشَيْءٍ ، وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ » .

فيجوز للرجل أن يخضب شعر لحيته وشعر رأسه الذي ابيضَّ بلونٍ آخر ؛ كالحناء ـ مثلًا ـ غير اللون الأسود ؛ لأن النبيَّ ﷺ نهى عن ذلك لما فيه من الخداع والتدليس .

واختلف العلماء في حكم التحريم والكراهة للخضاب :

قال ابن الجوزيُّ رحمه الله[2] : « واعلم أنه قد خضب جماعة من الصحابة بالسواد ، منهم الحسن ، والحسين ، وسعد بن أبي وقاص ، وخلقٌ كثير من التابعين ، وإنما كرهه قومٌ لما فيه من التدليس ، فأما أن يَرْقَى إلى درجةِ التحريم إذا لم يدلس فيجب فيه هذا الوعيد ، فلم يقل به أحد » .

ولكني أقول : لا ينبغي أن يُصْرفَ النصُّ عن ظاهره ما لم تدع الحاجة ،

(١) أخرجه مسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب استحباب خضاب الشيب بصفرة أو حمرة وتحريمه بالسواد (٢١٠٢) .

(٢) «الموضوعات» (٣/ ١١٣) .

فيحمل قول النبيِّ ﷺ في هذا الحديث : « لاَ يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ »على مَنْ يستحلُّ ذلك ؛ فالاستحلال كبيرة ، وأنا أستريح لهذا المعنى ـ والله أعلم.

ولذلك قال الإمام النوويُّ ـ رحمه الله تعالى[(١)] : « يَحْرُمُ خضاب الشعر بالسواد على الأصح ،وقيل : يكره كراهة تنزيه ،والمختار التحريم ؛ لقوله ﷺ : «اجْتَنِبُوا السَّوَادَ » .

وهذه علامةٌ أظنها قد انتشرت أيضًا ، نسأل الله ﷻ أن يرزقنا وإياكم الاتباع .

*****

العلامة الثامنة عشرة :كثرة الشح

والشحُّ هو : البخلِ والحرص ، فهو أشد من البخل وأبلغ في المنع منه[(٢)] وأظنُّ أن أحدًا لا يشكُّ أن الشح والبخل والحرص قد انتشر في الأمة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

ففي الحديث الذي رواه الطبراني[(٣)] في « الأوسط » ورجاله رجال الصحيح باستثناء محمد بن الحارث بن سفيان وهو ثقة أنه ﷺ قال : « إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَظْهَرَ الشُّحُّ » .

وفي «الصحيحين » عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ ، وَيَنْقُصُ الْعِلْمُ ، وَيُلْقَى الشُّحُّ »[(٤)].

---

(١) «مسلم شرح النووي » (١٤/ ٨٠) .

(٢) راجع «اللسان» لابن منظور (٧/ ٤٢) ، و«القاموس المحيط» (٢٨٩) .

(٣) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٧٤٨)، وقال الهيثميُّ في « المجمع » (٧/ ٣٢٧) : « رجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث بن سفيان وهو ثقة » .

(٤) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الفتن ، باب ظهور الفتن (٧٠٦١) ، ومسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (١٥٧).

وفي «معجم الطبراني»(1) عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لاَ يَزْدَادُ الأَمْرُ إِلاَّ شِدَّةً، وَلاَ يَزْدَادُ النَّاسُ إِلاَّ شُحًّا».

والشحُّ خُلُقٌ مذمومٌ نهى عنه الإسلام؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

والنبيُّ ﷺ يقول؛ كما في «صحيح مسلم»(2) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ».

قال القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى: «يحتمل أن هذا الهلاك الذي أخبر عنه ﷺ في الدنيا بأنهم سفكوا دماءهم؛ فهذا هلاك في الدنيا، ويحتمل أنه هلاك الآخرة، والثاني أظهر، ويحتمل أن الشح سبب لهلاك هؤلاء في الدنيا والآخرة، حملهم الشح على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»(3).

وحذَّر الله نبيَّه ﷺ من الشحِّ؛ فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥ـ١٠].

(1) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٥٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٤): «رجاله رجال الصحيح»، ورُوي بمعناه عن أنس رضي الله عنه عند الحاكم (٤/ ٤٨٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٨٥)، وأبي أمامة رضي الله عنه عند الطبرانيّ في «الكبير» (٨/ ١٨٢، ٢٢٧)، و«مسند الشاميين» (١٩٤١)، وعمران بن حصين رضي الله عنه عند أبي نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٦٢).

(2) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٨).

(3) «شرح النووي» لمسلم عند الحديث السابق.

فالمعطاء ييسره الله لليسرى، والشحيحُ البخيلُ ييسره الله للعسرى، وكلُّ شيء بيد الله ـ جَلَّ وعَلاَ ـ فقد يظن الشحيح أن بخله وحرصه سيزيد ماله، ولا والله؛ فالجودُ والكرمُ لا ينقص المال؛ فالصدقة لا تنقص المال؛ كما قال النبيُّ ﷺ؛ كما في الحديث الذي رواه أحمد والترمذي[1]، وهو صحيحٌ من حديث أبي كبشة الأنماري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « ثَلاَثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلاَّ زَادَهُ الله عِزًّا، وَلاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلاَّ فَتَحَ الله عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ؛ إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَعِلْمًا؛ فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ. وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ، يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ. وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلاَ يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ. وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلاَ عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ ».

فالشحُّ لا يزيد المال، والإنفاق ـ كذلك ـ لا ينقص المال بموعود الله، وبموعود الصادق رسول الله ﷺ؛ قال ـ جلَّ وعلا: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦٨].

(١) سبق تخريجه.

وفي «الصحيحين»[1] عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ؛ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا».

والشح والإيمان لا يجتمعان في قلب عبدٍ أبدًا؛ كما ثبت في «سنن النسائي» و«مسند أحمد»[2] من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «.. وَلاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الإِيمَانُ وَالشُّحُّ»، وفي لفظٍ: «وَلَا يَجْتَمِعُ شُحٌّ وَإِيمَانٌ فِي قَلْبِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ».

أسأل الله سبحانه أن يرزقنا الكرم والجود، وأن يطهر قلوبنا من الشح والبخل والحرص، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

*****

العلامة التاسعة عشرة: ذهاب الصالحين والأخيار

فمن أشراط الساعة أن يقلَّ الصالحون والأخيار، وأن يكثر الفجَّار والأشرار، ثم لا يبقى في آخر الزمان إلا شرارُ الخلق، بحيث لا يوجد في الأرض أحدٌ يقول: لا إله إلا الله، وعلى هؤلاء الأشرار الكفَّار تقوم الساعة؛ كما روى البخاريُّ ومسلِم عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ عَلَى شِرَارِ النَّاسِ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (١٤٤٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك (١٠١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٦، ٣٤١، ٤٤١)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٨١)، والنسائي في «السنن» كتاب الجهاد (٦/ ١٢-١٤)، وحسَّنهُ الألبانيُّ في «صحيح النسائي».

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن (٦٠٦٧)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة (٢٩٤٩).

والمراد بذلك ـ كما سأفصِّل إن شاء الله تعالى في العلامات الكبرى ـ حينما يُرْسِلُ الله ﷻ ريحًا طيبةً فتقبض أرواح المؤمنين على وَجْه الأرض، وحينئذٍ ـ وهذا هو محلُّ الشاهد ـ لا يبقى في الأرض بعد هذه الريح إلا شرار الخلق . وعليهم تقوم الساعة[١]، وهذا الكلام المجمل سأفصله إن شاء الله تعالى فيما بعد .

وفي «صحيح مسلم»[٢] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال في حديث طويل .. وفيه : «ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلاَّ قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ، حَتَّى تَقْبِضَهُ»، قَالَ : سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ . قَالَ : «فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ، وَأَحْلاَمِ السِّبَاعِ، لاَ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ : أَلاَ تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ . وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ...» .

ويقول النبيُّ ﷺ كما في الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده»، والحاكم في «المستدرك»، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبيُّ إن كان الحسن سمعه من ابن عمرو، وصحَّحه العلامة الشيخ أحمد شاكر[٣]

---

(١) انظر «صحيح مسلم»، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧) .

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤٠) .

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٠) مرفوعًا وموقوفًا، والحاكم (٤/ ٤٣٥) وقال : «صحيح على شرط الشيخين إن كان الحسن سمعه من عبد الله بن عمرو» ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في=

من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَأْخُذَ اللهُ شَرِيطَتَهُ - وهي لفظة من الأضداد أي التي تقع في الوقت ذاته على الأشراف والأراذل - مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ ، فَيَبْقَى فِيهَا عَجَاجَةٌ - يعني الغوغاء وهم من لا خير فيهم - لاَ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا».

أي : يأخذ الله أهل الخير والدين ، ويبقى غوغاء وأراذل الناس ،ومَنْ لا خير فيهم ، وهذا لا يكون إلا عند قبض العلم ، وعند اتخاذ الناس رؤوسًا جهالًا ، ويقلُّ أهل الخير والصلاح .

روى الإمام أحمد في « مسنده » وأبو داود والنسائي وابن ماجه في «سننهم» ، والحاكم في « المستدرك » ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، وأقرَّه الذهبيُّ [(١)] من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه عن النبيِّ ﷺ قال : « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُغَرْبَلُونَ فِيهِ غَرْبَلَةً يَبْقَى مِنْهُمْ حُثَالَةٌ - وهو ما يتبقى من الأرز الرديء الذي يختلط به القشر وغيره ، والمراد بذلك الأشرار أو أقل الناس صلاحًا ودينًا - قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ - أي : اختلطت وأُخلفت - وَأَمَانَاتُهُمْ ، وَاخْتَلَفُوا ، فَكَانُوا

= « المجمع » (٨/ ٢٥) : « رواه أحمد مرفوعًا وموقوفًا ، ورجالهما رجال الصحيح » ، وقال الشيخ شعيب : « رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أن فيه عنعنة الحسن وهو البصري ، وقد روي مرفوعًا وموقوفًا ، والأشبه وقفه » .

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » (٢/ ١٦٢، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٢١) ، وأبو داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي (٤٣٤٢، ٤٣٤٣) ، وابن ماجة ،كتاب الفتن ، باب التثبت في الفتنة (٣٩٥٧) ، والحاكم (٢/ ١٧١) ، (٤/ ٣١٥، ٤٨١، ٥٧٠) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٥٥٩٣) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (١٠٠٣٣) ، والبزار في « مسنده » (٢٤٨٤) ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠٧٤١) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٧١١٥) ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٢٠٥) ، و« صحيح الجامع » (٥٦٣ ، ٥٧٠، ٤٥٩٤، ٨١٨٥) .

هَكَذَا ـ وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ـ قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ! فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : تَأْخُذُونَ مَا تَعْرِفُونَ ، وَتَدَعُونَ مَا تُنْكِرُونَ ، وَتُقْبِلُونَ عَلَى أَمْرِ خَاصَّتِكُمْ ، وَتَدَعُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُمْ ».

وذهاب الصالحين يكون عند كثرة المعاصي ،وكما قال الحافظ من قبل : قد لا يراد بذهاب الصالحين أن ينعدم الصالحون بالكلية قبل مرحلة ألا يبقى في الأرض إلا شرار الخلق ، قد لا يراد هذا المعنى ،وإنما يراد القلَّة ؛ فقد أطلق اللفظ على الغالب ، أو خرج مخرج الغالب ، وقلة الصالحين عند فساد الناس وعند كثرة المعاصي ؛ بل وحينئذٍ إذا نزل بأهل الأرض سَوْط عذاب الله ﷻ لا ينجو الصالحون ؛ بل يهلك الصالحون مع الطالحين وبين يدي رب العالمين يحاسب الله ﷻ كلَّ أحد بنيته وبعمله .

كما دلت الأدلة الكثيرة على ذلك؛ فمن ذلك :

روى «البخاريُّ ومسلم» [1] من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا ــ وفي لفظٍ : قام من عندها يومًا من نومه فزعًا ـ وهو يقول : «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ » وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا ـ فَقَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟قَالَ : « نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ ».

وهل ينكر عاقلٌ ـ الآن ــ أن الخبث قد كثر !! بل وقد طَمَّ وَعَمَّ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٦)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٢٨٨٠).

وملأ الأرض والبحر والجو ؛ فلقد ظهر الفساد من الخلق في البر على اليابسة ، وفي البحر على المراكب والسفن؛ بل وفي الجو على متن الطائرات، يُبارِزُ ربَّ الأرض والسموات بالكبائر وعلى رأس هذه الكبائر الخمر ؛ قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١] .

نسأل الله تعالى أن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا .

من أجل ذلك يجب على كلِّ مؤمن أن يكون دائماً آمراً بالمعروف ، وناهياً عن المنكر ؛ لأنه لو علم أهل الباطل أن وجود الدعاة و المصلحين في صالح أهل الباطل قبل أيِّ أَحَدٍ ، ما وضعوا العقبات والسدودَ والعراقيل في وَجْه المصلحين ،ولا في وجه الدعاة ؛ لأن وجود الدعاة صمام أمان للأرض ، ولأهل الباطل ، ولأهل المعاصي !! كيف ذلك ؟!

لأنه إذا وُجد المصلحون فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر كانت الأرض بمن فيها بعيدةً عن استئصال الله الجزئي لأهلها ؛ فالاستئصال نوعان ـ كما سأفصل بعد ذلك: استئصال كُلِّي ، واستئصال جُزئيٌّ .

قال النبيُّ ﷺ كما في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد [(١)] وصححه الشيخ الألباني ـ رحمه الله تعالى : أنَّ أبا بَكْرٍ

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي (٤٣٣٨)، والترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨)، وفي تفسير القرآن (٣٠٥٧)، وابن ماجه في الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥)، والنسائي في «الكبري» كما في تحفة الأشراف (٦٦١٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٠٤)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٩١)، وأحمد (١/ ٢، ٥، ٧، ٩)، وقال الشيخ شاكر : «إسناده صحيح»، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٦٧١)، «صحيح الجامع» (١٩٧٣، ١٩٧٤).

ﷺ ارتقى المِنْبَرَ يوْمًا فحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:١٠٥] ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ وَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ الله ﷻ أَنْ يَعُمَّهُمْ جَمِيعًا بِعِقَابٍ منْ عِنْدِهِ »

وفي لفظٍ: « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ الله أَنْ يَعُمَّهُمْ جَمِيعًا بِعِقَابٍ مِنَ عِنْدَهُ ،ثُمَّ يَدْعُونَهُ فَلاَ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ ».

وهذا هو الواقع الذي تحياه البشرية ـ الآن ـ فضلاً عن الأمة، ومن رقيق ما قرأتُ ؛ ما رواه البخاريُّ [١] من حديث النعمان بن بشير ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالْوَاقِعِ فِيهَا،كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا ،وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا،فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ؛ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا ».

وأختمُ هذا الفصل بهذه الآية من سورة الرعد ؛ ألا وهي قول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد:٤١] ؛ فلأهل العلم في تأويلها أوجه جمعها الحافظ ابن كثير رحمه الله وغيره [٢] ، ومن هذه الأوجه في تفسير الآية: تنقص أطرافها ؛ أي : خرابها بموتِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة ؟ والاستهام فيه (٢٤٩٣)، وكتاب الشهادات (٢٦٨٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (لسورة الرعد:٤١).

علمائها ، وفقهائها ، وأهل الخير منها.

ورحم الله من قال:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها متى يمُتْ عالمٌ منها يمت طَرَفْ

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حلَّ بها وإن أبى عاد في أكنافها التلَفْ

*****

العلامة العشرون : ارتفاع الأسافل والأراذل

فمن أشراط الساعة : أن تكون أمور الناس بين يدي الأسافل والأراذل، وأن ينحَّى أَهْلُ الصلاح وأهل الدين وأهل الخير عن كلِّ خير ينفع العباد والبلاد !!

روى أحمد [(١)] وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ ،وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ ،وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ»، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: « السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ ».

وقد سبق في الحديث عن تضييع الأمانة أن النبيَّ ﷺ قال: « إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » [(٢)].

وكذلك حديث حذيفة في قبض الأمانة ... وفيه : «حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ ، مَا أَظْرَفَهُ ، مَا أَعْقَلَهُ ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ » [(٣)].

وروى أحمد والترمذيُّ [(٤)] عن حذيفة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « لاَ تَقُومُ

(١ -٣) سبق تخريجها.

(٤) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الفتن، باب (٣٧)، (٢٢٠٩) وقال : «حديث حسن » ، وأحمد (٥/ ٣٨٩) وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٣١) و«المشكاة» (٥٣٦٥).

السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ ابْنُ لُكَعٍ». وفي رواية في حديث جبريل الذي نحن بصدد شرحه: «وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا.. وَإِذَا كَانَ الْحُفَاةُ رُؤُوسَ النَّاسِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا».

*****

العلامة الحادية والعشرون: التماس العلم عند الأصاغر

روى عبد الله بن المبارك في «الزهد» والطبراني في «الكبير»[1] من حديث أبي أمية الجمحي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ثَلَاثَةً، إِحْدَاهُنَّ: أَنْ يُلْتَمَسُ الْعِلْمُ عِنْدَ الأَصَاغِرِ».

وسئل الإمام عبد الله بن المبارك قيل له: مَنْ هم الأصاغر؟ فقال ﷺ: «هم الذين يقولون في الدين برأيهم؛ فأما صغيرٌ يروي عن كبير فليس بصغير». فليس المراد بالأصاغر: صغار السن!، فمن المعلوم أن ابن عباس ﷺ كان عضو مجلس الشورى الذي اختاره فاروق الأمة عمر، وهو الذي لم يبلغ السابعة عشرة من عمره؛ فأما الأصاغر المراد بهم هنا: الجهلة الذين يتكلَّمون في دين الله تعالى بآرائهم، ولا ينقلون عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة، ولا عن أهل العلم !!

وقال ابن المبارك أيضًا: «أتاهم العلم من قبل أصاغرهم ـ أي: أهل البدع»[2].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦١) والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٦١)، والخطيب البغدادي في «نصيحة أهل الحديث» (٦)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٠٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٩٥) وفي «صحيح الجامع» (٢٢٠٧).

(٢) «الزهد» لابن المبارك ص (٣١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال « لا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا أَتَاهُمُ الْعِلْمُ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمِنْ أَكَابِرِهِمْ ، فَإِذَا أَتَاهُمُ الْعِلْمُ مِنْ قِبَلِ أَصَاغِرِهِمْ تَفَرَّقَتْ أَهْوَاؤُهُمْ وَهَلَكُوا » (١).

*****

العلامة الثانية والعشرون : ظهور الكاسيات العاريات

وهي من العلامات الصغرى التي أخبر عنها النبيُّ ﷺ، فوقعت العلامة بمثل ما أخبر ﷺ.

والنبيُّ ﷺ يصف الحال وصفًا في غاية الدِّقة ، وكأنما يعيش معنا في هذه الأيام ! ويصف أحوال نسائنا ، إلا من رحم ربك جَلَّ وَعَلا.

ففي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم بسندٍ صححه العلامة أحمد شاكر ـ رحمه الله تعالى ـ (٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: « سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى السُّرُوجِ كَأَشْبَاهِ الرِّجَالِ، يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُءُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ ، الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ ، لَوْ كَانَتْ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لَخَدَمْنَ نِسَاؤُكُمْ نِسَاءَهُمْ كَمَا

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ١١٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٤٤٦، ٢٠٤٨٣) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٤٩) ، و إبراهيم بن أدهم في «مسنده» (٣٥)، والخطيب في «نصيحة أهل الحديث» (٧)، واللالكائي(١٠٣) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٣٤٩) : « رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ، ورجاله موثقون ».

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٣) وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٥٣)، والحاكم (٤/ ٤٣٦) وقال : «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ، وقال الذهبيُّ : « عبد الله يعني القتباني ، وإن كان قد احتج به مسلم فقد ضعفه أبو داود والنسائيُّ » ، وصححه الشيخ الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٢٦٨٣).

يَخْدِمْنَكُمْ نِسَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ ».

والبخْتُ: نوع من أنواع الجمال الخراسانية التي كانت تُعَدُّ من أغلى ما يمتلكه العربيُّ في أرض الجزيرة العربية، وهذا البعير يُعْرف بقوته وبخدمته لصاحبه ما دام سنامه مرتفعاً قويًّا لم يَمِلْ بعدُ ؛ فإذا مال هذا السنام دلَّ هذا على ضَعفْ البعير، وعلى عَدَم رغبة صاحبه فيه رغبة كبيرة فيسمَّى (عجاف) ؛ فالنبيُّ ﷺ يشبه رؤوس النساء الكاسيات العاريات على رؤوسهم كأسنمة البخت العجاف ؛ أي : تُسَرِّحُ المرأةُ منهنَّ شعرها بطريقةٍ معينةٍ ، فترفع شعرها على رأسها كما رفع السنام على ظهر البعير ، وهذا ما يسمَّى بقصَّةِ الأسد عند النساء ، وأصبحنا الآن نرى لقصةِ شعرِ المرأة ؛ بل ولتصفيف شعرها محلَّات خاصة ؛ تسمَّى بالكوافير !إلى غير ذلك .

فالنبيُّ ﷺ يصف أحوال النساء في عصرنا الآن وصفًا دقيقًا كأنما يعيش بيننا ، ويصفُ حالة رآها بعينه ؛ يقول : « الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ »!!

وسأقف عند هذه اللفظة لأوضِّح قاعدةً أصولية في غاية الدقة ، ألا وهي : الحكم على الإطلاق ، والحكم على العين ـ أي : التعيين.

فلا ينبغي أن تأتي لامرأةٍ متبرجةٍ بعينها وتقول لها : أنت معلونة ! لا يجوز ذلك ؛ بل يجبُ عليك أن تقيم عليها الحجة الرسالية الخاصة ، وأن تبين لها الحقَّ بالحكمة والرحمة والأدب والتواضع ؛ فشتان بين أن تقول : لعن الله الكاسيات العاريات ؛ فهذا حكم على الإطلاق ، وبين أن تقول : فلانة الكاسية العارية معلونة ! ، فرقٌ كبيرٌ بين الحكم على الإطلاق وبين الحكم على سبيل التعيين ؛ فالحكم على معين من الناس

سواء كان رجلًا أو مرأةً لابد فيه من تحقق شروط ، وانتفاء موانع ؛ فهذه لطيفةٌ مهمةٌ لا ينبغي أن نتجاهلها .

فلذلك قال ﷺ: « الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ ، لَوْ كَانَتْ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لَخَدَمَهُنَّ نِسَاؤُكُمْ ، كَمَا خَدَمكُمْ نِسَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ ».

أي : لبعدكم عن الله وعن منهج الله ، وهذه ثمرةٌ حتميةٌ مُرَّةٌ للبعد عن منهج الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ ألا وهي ثمرة الذلِّ والهوان !!

وأنا أعلم الآن أن الأمة تعيشُ هذه المرحلة ؛ فهي تجني ثمار البعد عن الله تبارك وتعالى ، وهي ثمرةٌ مُرَّة ؛ فلقد أذل الله الأمة لمن كتب الله عليهم الذل والذلة من إخوان القردة والخنازير من أبناء يهود ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وفي رواية للحاكم [(١)]: « سَيَكُونُ فِي آخِرِ هَذِهِ الأُمَّةِ رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى المَيَاثِرِ ،حَتَّى يَأْتُوا أَبْوَابَ مَسَاجِدِهِمْ ، نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ ».

المَيَاثِرِ: هي جَمْع مِيثرة ــ بكسر الميم ــ وهي الثوب الذي تُجَلَّل به الثياب، وتطلق المياثر على مراكب الأعاجم التي تعمل من حرير أو من ديباج، والمراد بها : السروج العظام أو السيارات العظيمة .

واللفظ المشهور في «صحيح مسلم» [(٢)]من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاَتٌ، مَائِلاَتٌ ،

---

(١) انظر التخريج السابق .

(٢) أخرجه مسلم، كتاب اللباس والزينة ، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات (٢١٢٨).

رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا».

فما معني قوله: «كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ»؟! في ذلك أقوال لأهل العلم(١):

الأول: «كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ» أي: تلبس المرأة ثياباً شفافة خفيفة، تشفُّ هذه الثياب ما تحتها؛ فتظهر المرأة وكأنها عارية، وأظنُّ أن هذا الوصف نراه الآن منتشراً عند كثيرٍ من النساء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الثاني: أن المرأة تلبس ثيابًا ضيقة، فتُظهر هذه الثيابُ مفاتنَ المرأة تمامًا وكأنها لا تلبس شيئًا، وكأنها عارية تظهر كلَّ مفاتن المرأة سواء من الأمام أو من الخلف؛ أسأل الله أن يستر نساءنا وبناتنا، إنه على كُلِّ شيءٍ قدير.

فتظهر المرأة مع أنها تلبس الثياب وكأنها عارية، إما للثياب الشفافة التي تظهر ما تحتها، وإما للثوب الضيق الذي أظهر كل مفاتن المرأة بصورةٍ تجعل المرأة أشدَّ فتنة من المرأة العارية، والنبيُّ ﷺ يحكم على هؤلاء بأنهن من أهل النار؛ فهل تَقْوى المرأةُ المسلمةُ ـ التي فعلت هذا ـ على النار؟! أيتها الأخت المسلمة: هل تصبرين على حر النار؟، يا من خرجْت بالثياب الشفافة، ويا من خرجت بالثياب الضيقة هل تصبرين على حر النار؟، هل تعلمين أن الطعام في النار نار؟! هل تعلمين أن الشراب في النار نار؟! هل تعلمين أن الثياب في النار نار؟! فهل تقدرين على الزَّقُّوم والغسلين والضريع؟ فالضريع: هو نوعٌ من الشوك ينبتُ في أرض الجزيرة، والغسلين: عصارة أهل النار من قيح وصديد،

---

(١) «شرح مسلم» للنووي (١٤/ ١٠٩، ١١٠) و«فتح الباري» (١٠/ ٣٧٥) و«فيض القدير» (٤/ ٢٠٨).

والزَّقُّوم : شجر ينبت في النار !! فهل تقدرين على هذا ؟ وإذا استغاث أهل النار وطلبوا الماء فيغاث أهل النار بماء كالزيت الذي يغلي من شدة الغليان والنيران ؛ قال تعالى : ﴿ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد:١٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف:٢٩] ؛ وقال تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم:١٥-١٧] ؛ وقال تعالى: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾

[الحج:١٩-٢١]

فالطعام نار، والشراب نار، والثياب نار؛ فهل تصبرين أختاه على حرِّ النار؟! الله الله في الحجاب الشرعي ! الله الله في الستر والعفاف!!

فو الله لا تقدر المرأة على حرِّ الشمس في يوم شديد الحرارة ، ولا تقدر على أن تمس يدُها نارَ البوتاجاز !! فاعلمي أيتها الأخت الفاضلة المسلمة بأن هذه النيران التي لا تصبرين على حرها في الدنيا إنما هي جزءٌ من سبعين جُزْءًا من نار جهنم ؛ كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ ». قَالُوا : وَالله إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ الله ، قَالَ: «فَإِنَّهَا (أي : نار

الآخرة) فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَستِّينَ جُزْءاً، كُلُّهاَ مِثْلُ حَرِّهَا »[١] .

فيا أيتها الأخت المسلمة : أنادي عليك ، وأنا والله الذي لا إله غيره أحبُّ لك الخير الذي أحبُّه لابنتي ، وأحبُّ لك الستر الذي أحبه لزوجتي ، وأحب لك العفاف الذي أحبُّه لأمي وعمتي وخالتي ؛ فأنت دُرَّة مصونَة ، وأنت جوهَرة ثمينة ، وأنت لؤلؤة مكنونة ، ومحالٌ لأيِّ عاقلٍ أن يُلْقي بِدُرَّتِه وجوهرته لكلِّ عينٍ خائنة ، ولكلِّ أيدٍ آثمةٍ لتَصِلَ إليها بالباطل والإثم والعدوان؛ فلا تقولي أبدًا : اقنعني بالحجاب !! وإنما إن أردتِ السؤالَ : فأنا أصحِّحُ لك السؤال ، وأقول لك : قولي : اقنعني بالإسلام !! فإن كنتِ مسلمة ، فالذي أمرك بالحجاب هو الله ، فما عليك إلا أن تقولي ما قالته المسلمة الأولى الطيبة الطاهرة : سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير.

أسأل الله أن يستر نساءنا وبناتنا ، وأن يشرح صدورهن للإسلام وللحق ؛ إنه على كل شيءٍ قدير .

وأنا أعلم يقينًا أنه لن يخالف مسلم الآن ، أن الثياب التي نراها الآن عاريةٌ مفتحةٌ من كلِّ الجوانب والأركان ، و لم تكن البتة على عهد المصطفى ﷺ .

فهذه الأحاديث من معجزات النبيِّ محمدٍ ﷺ ؛ فقد وقع ما أخبر به المصطفى ﷺ في عصرنا هذا بصورة دقيقة بمثل ما قال!!

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٥) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب في شدة حر نار جهنم وبُعد قعرها (٢٨٤٣) .

العلامة الثالثة والعشرون : صدق رؤيا المؤمن

وكُلَّما كان المرء صادقًا مع الله تعالى في إيمانه به سبحانه وتعالى وبرسوله ﷺ كانت رؤياه في النوم صادقة ؛ فعلى قَدْر الصدق مع الله يكون الصدق في الرؤيا المنامية .

ففي «الصحيحين» [١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْـمُسْلِمِ تَكْذِبُ ، وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا ، وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ ».

قال ابن أبي جمرة : معنى أن رؤيا المؤمن في آخر الزمان لا تكاد تكذب أنها تقع غالباً على الوجه الذي لا يحتاج إلى تعبير ، فلا يدخلها الكذب ، بخلاف ما قبل ذلك، فإنها قد يخفى تأويلها ، فيفسرها المفسر أو المؤول ، فلا تقع كما قال، فيصدق دخول الكذب فيها بهذا الاعتبار ، أي : باعتبار ما فسره المفسر أو المؤول عما يقع على أرض الواقع.

ثم قال ابن أبي جمرة : «والحكمة في اختصاص ذلك في آخر الزمان أن المؤمن في ذلك الوقت يكون غريباً ؛ كما في الحديث الصحيح [٢]: « بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ ،فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ »، فيقلُّ أنيس المؤمن ومُعينه في ذلك الوقت ، فيكرم المؤمن بالرؤيا الصالحة» [٣].

وقد اختلف العلماء في تحديد الزمن الذي يقع فيه صِدْق رؤيا المؤمن

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التعبير، باب القيد في المنام (٧٠١٧) ، ومسلم ، كتاب الرؤيا (٢٢٦٣).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) «فتح الباري» (١٢/ ٤٩١، ٤٩٢) ط الحديث .

اختلافًا على أقوال :

الأول: أن ذلك يقع عندما تقترب الساعة، وعندما يقبض العلم بقبض أكثر أهل العلم ، وتكثر الفتن، ويكثر القتال، وتندرس معالم الشريعة، ويصبح الناس على ما كان عليه أهل الفترة ، فحينئذٍ يحتاجون إلى من يجدد لهم إيمانهم ، وإلى من يذكِّرهم بالله سبحانه وتعالى كما كانت الأمم تذكر قبل ذلك بالأنبياء، لكن لما تعذَّرت النبوة بعد نبينا محمد ﷺ ، فإن الله ﷻ يعوض الناس في هذا الزمان بالرؤيا الصادقة الصالحة التي هي جزءٌ من النبوة الآتية بالتبشير والإنذار ، ويؤيد هذا القول حديث أبي هريرةَ الذي ذُكر من قبل : «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ ، وَيُقْبَضُ العِلْمُ» .

ورجح الحافظ ابن حجر هذا القول[1] .

القول الثاني: أن الرؤيا الصادقة تقع في زمان يقلُّ فيه عدد المسلمين الصادقين ، ويغلب فيه الكفر والجهل، ويغلب الفسق على معالم أهل الأرض ؛ فحينئذ يؤنس المؤمن ويعان بالرؤيا الصادقة ، إكراماً له ، وتسلية من الله ﷻ ، وعلى هذا يتبين لنا أن الرؤيا الصادقة التي يراها المؤمن لا ترتبط بزمانٍ معين ؛ بل كلَّما قرب فراغ الدنيا، وأخذ أمرُ الدِّين في الاضمحلال، وظهرت البدع والمعاصي والفتن تكون رؤيا المؤمن حينئذٍ صادقة .

أسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المؤمنين .

القول الثالث: أن رؤيا المؤمن تصدق في آخر الزمان؛ أي في زمن عيسى عليه السلام خاصة ؛ لأن أهل زمان عيسى هم أحسنُ وأفضلُ هذه

---

(١) المصدر السابق ، و«شرح مسلم» للنووي (٨/ ٢٧) ط الحديث .

الأمة حالاً بعد الصحابة ؛ من أجل ذلك كانت رؤياهم التي تُرى في هذا الزمان صادقة ولا تكذب أبدًا [١] .

*****

العلامة الرابعة والعشرون :كثرة الكتابة وانتشارها

ففي «مسند الإمام أحمد» [٢] بسندٍ صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال:« إِنَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ ...وَظُهُورَ الْقَلَمِ ».

وفي لفظٍ للبخاري في «الأدب المفرد» : «وَفُشُوَّ العِلْمِ» [٣] .

فلم يكن القلم موجوداً كالأقلام التي نراها الآن، إنما كان يُكْتَبُ على الحجارة، وبالنقش ، وعلى الجلد ، وعلى عسب النخل، ويحفظ الصحابة في الصدور ، ولم يكن يُعْرف هذا القلم .

والمراد بظهور القلم: كثرة الكتابة وانتشارها ، وأنا أظنُّ أنه لا نعرف زماناً من الأزمنة قد كثرت فيه الكتابة أو الكلمة المطبوعة أو المكتوبة بمثل ما نراه في هذا الزمان ، ويبين النبيُّ ﷺ المراد بظهور القلم وأنه الكتابة في لفظٍ في «سنن النسائي» وغيره [٤] ، عن عمرو بن تغلب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:« إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ... وَأَنْ يَكْثُرَ التُّجَّارُ ، وَيَظْهَرَ العِلْمُ ».

وهو علم الدنيا ؛ ففي «السنن الكبرى» للبيهقي بسندٍ صححه الألبانيُّ

---

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٤٩١، ٤٩٢) .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٤٠٧، ٤٠٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٦٤٧).

(٣) «الأدب المفرد» (١٠٤٩).

(٤) أخرجه الطيالسي (٢٧٦٣)، بترتيب الساعاتي ، والنسائي ، كتاب البيوع ، باب التجارة (٤٤٦٨)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح سنن النسائي» .

في «صحيح الجامع» وضعفه في غيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ ،جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ، حِمَارٍ بِالنَّهَارِ ، عَالِمٍ بِالدُّنْيَا ، جَاهِلٍ بِالآخِرَةِ »[1].

فالمراد بظهور القلم : كثرة الكتابة، ولقد انتشرت الآن في الأرض أدوات الطباعة الحديثة التي تطبع آلاف الكلمات في دقائق معلومات ، ومع هذا ، فقد ظهر الجهل في الناس ، وقَلَّ فيهم العلم النافع وهو علم الكتاب والسنة، ولم تغن عنهم كثرة الكتب شيئًا .

ولله دَرُّ محمد إقبال رحمه الله إذ يقول : «إن المعارف والمعاني والعلوم الحديثة تُحْسِنُ أن تعلِّمَ أبناءنا العلوم ، ولكنها لا تُحْسِنُ أن تُعَلِّم عيونهم الدموع ، ولا قلوبهم الخشوع » .

*****

العلامة الخامسة والعشرون :كثرة الكذب وعدم التثبُت من الأخبار

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ ».

والحديث رواه مسلم في «مقدمة الصحيح»[2].

وفي لفظٍ : « يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ ،يَأْتُونَكُمْ مِنَ

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٢) ، والبيهقيُّ في «الكبرى» (١٠/ ١٩٤) وأبو الشيخ الأصبهاني في «الأمثال في الحديث النبوي» (٢٣٤) ، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٨٧٨، ١٨٧٩) و «الصحيحة» (١٩٥)، وهذا في الطبعة القديمة ، وقد حذفه الشيخ رحمه الله في الطبعة الجديدة ، وحكم عليه بالضعف في «السلسلة الضعيفة» (٢٣٠٤) ، وقد صححه الشيخ الأرناؤوط في تعليقه على «الموارد» ـ موارد الظمآن ـ (برقم:١٩٧٥) .

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح ، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط في تحملها برقم (٦).

الأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، لاَ يُضِلُّونَكُمْ وَلاَ يَفْتِنُونَكُمْ».

وفي «صحيح مسلم»[1] عن عامر بن عبدة البجلي قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَتَمَثَّلُ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ، فَيَأْتِي الْقَوْمَ فَيُحَدِّثُهُمْ بِالْحَدِيثِ مِنَ الْكَذِبِ فَيَتَفَرَّقُونَ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ: سَمِعْتُ رَجُلًا أَعْرِفُ وَجْهَهُ وَلاَ أَدْرِي مَا اسْمُهُ يُحَدِّثُ».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «إِنَّ فِي الْبَحْرِ شَيَاطِينَ مَسْجُونَةً أَوْثَقَهَا سُلَيْمَانُ ، يُوشِكُ أَنْ تَخْرُجَ ،فَتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ قُرْآنًا»[2].

قال النوويُّ رحمه الله : «معناه : تقرأ شيئًا ليس بقرآن، وتقول : إنه قرآن ، لِتَغُرَّ به عوام الناس ، فلا يغترون».

فالله الله في التثبت من الأخبار ؛ فإياك أن تكذب على الله ، أو على رسول الله ، أو على الناس ، أو حتى على نفسك ؛ فإن المؤمن لا يكذب ، فالمؤمن الحق صادق لا يكذب أبدًا ؛ إلا بالضوابط الشرعية في الحالات التي استثنيت ، في الكذب على الزوجة ، أو في الإصلاح بين الناس ، أو في الكذب على العدو[3]، فيما عدا ذلك فالمؤمن لا يكذب ، ولا يعرف للكذب طريقًا ، والتثبت في الأخبار من علامات الإيمان ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات:٦] .

(١، ٢) المصدر السابق .

(٣) انظر: «صحيح مسلم» كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه (٢٦٠٥) .

فينبغي أن نتثبت وأن نتروَّى ، لاسيما ونحن نعيش الآن زمانًا نرى فيه الإشاعة تطير، فتتلقف الإشاعة أبواق الدعاية الكاذبة ، فلا يخلو ـ ربما ـ مكان إلا وقد عرف أهله بهذه الإشاعة الكاذبة، وقديمًا طيَّر رأسُ النفاق عبد الله بن أُبَيّ بن سلول إشاعةً كاذبةً مزَّقت كبد المصطفى ﷺ ، وآلمت فؤاده ، فقد طيَّر إشاعة خبيثة اتَّهم فيها أم المؤمنين عائشة بالزنا مع صفوان بن المعطل السلمي ﷺ وعنها[1] .

فبسبب هذا الكذب وكثرته في هذا الزمان، صار الإنسان لا يستطيع أن يميز بين الأخبار؛ بل واتُّهم كثيرٌ من الناس بالباطل بسبب هذا الكذب ولأجل عدم التثبت في الأخبار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أسأل الله أن يستُرَ عليَّ وعليكم في الدنيا والآخرة ، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال .

*****

العلامة السادسة والعشرون
كثرة شهادة الزور وكتمان شهادة الحق

وهذه من العلامات التي ذكرها النبيُّ ﷺ ، والتي ستكون بين يدي الساعة.

ففي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده» والبخاري في «الأدب المفرد» بسندٍ صحيح[2] من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن

---

(١) وحادثة الإفك مخرجةٌ في «الصحيحين» (البخاري ٤٧٥٧، ومسلم ٢٧٧٠) .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٤٠٧)، والحاكم (٤/ ١١٠)، وقال : «صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي ، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (١٠٤٩) ، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٦٤٧).

النبيَّ ﷺ قال: « إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ...وَشَهَادَةَ الزُّورِ، وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ ».

وشهادة الزور هي الكذب المتعمد في الشهادة لإبطال الحق ، وكذلك كتمان الشهادة لإسقاط حقٍّ من الحقوق ، وهذه من العلامات التي تكون بين يدي الساعة ، وقد وقعت الآن بمثل ما أخبر الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، كَثُرَتْ شهادة الزور، وقَلَّتْ الشهادة لإظهار الحق وكتمت ، والله سبحانه يقول: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣].

ففي « الصحيحين »[1] من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» قَالُوا: بَلَى ، يا رَسُولَ الله ! قَالَ : «الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ؛ فَقَالَ : « أَلاَ وَشَهَادَةُ الزُّورِ » ؛ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ.

فشهادة الزور كبيرةٌ كبيرةٌ !!وهي الكذب المتعمد، وتستطيع الآن بعشرة جنيهات أو بألفِ جنيه ـ بحسب حجم الشهادة ، وخطر القضية ـ أن تستأجر رجلًا ممن ينتسبون إلى الإسلام أمام محكمة من المحاكم ، ليقف أمام القاضي ليشهد شهادة الزور ، وهو يعلم يقينًا أنه كاذب ، فيتقدم ويقسم بالله أنه سيقولُ الحق ! ، وبعد هذه الشهادة وهذا القَسَم يكذب، وهو يعلم يقينًا أنه كذَّاب ، وهذا هو اليمين الغموس الذي يغمس صاحبه في نار جهنم ـ والعياذ بالله .

وأذكر وأنا أعمل في القصيم في السعودية ، وقدَّر الله ﷻ أن أصلي

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور (٢٦٥٤)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٧).

الظهر في مسجدٍ من مساجد بريدة في يوم من الأيام ، وكنت أصلِّي مأمومًا ، وبعد انتهاء الصلاة قام رجلٌ ربما تجاوز السبعين من عمره ، وقال : يا إخواني !! أحذِّركم من شهادة الزور ، وظلَّ يكرِّرُ هذه اللفظة حتى بَكَى وَأَبكَى جُلَّ مَنْ في المسجد لهيئته ، ثم استطرد ليبيِّن ؛ فماذا قال ؟ قال : والله ما رأَيتُ النور إلا بالأمس القريب ، فأنا مسجونٌ منذ أربعين سنة ! بسبب شهادة زور !! ، تصوَّر ضاع عمره في السجن ، وانتهت حياته ، بسبب شهادة زور .. إنما هو بيع للدِّين تمامًا من أجْلِ الدنيا، من أَجْل حِفْنةٍ عفنةٍ من الجنيهات ، أو من أجل مجاملةٍ كاذبةٍ حقيرة ، يتقدَّم الرجل في قضية من القضايا ، ويأتي برجلٍ قريب له، أو مسلمٍ بعيدٍ عنه، بمالٍ حقيرٍ ، ليتقدم هذا الشاهد، ليقف بين يدي القاضي، ليكذب ـ متعمدًا ـ على الله ﷻ؛ وهذه كبيرةٌ من أكبر الكبائر، وقد استشرت الآن وانتشرت كعلامة من العلامات التي ذكرها النبيُّ ﷺ ، ولخطر هذه الشهادة قرنها النبيُّ ﷺ بالشرك بالله، وعقوق الوالدين ؛ لأنها سبب الظلم والجور وضياع الحقوق ، وظهورها دليلٌ على ضعف الإيمان وعدم الخوف من الرحيم الرحمن ؛ نسأل الله النجاة من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

*****

العلامة السابعة والعشرون : كثرة النساء وقلة الرجال

ففي «الصحيحين» (١) عن أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « مِنْ أَشْرَاطِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وظهور الجهل (٨٠)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧١).

السَّاعَةِ : أَنْ يَقِلَّ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرَ الْـجَهْلُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا ،وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ ».هذا لفظ البخاري.

وفي «الصحيحين»(١) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «وَيُرَى الرَّجُلُ الْوَاحِدُ يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْنَ بِهِ ».

والمراد بقوله: «حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ »أي : من يقوم على شؤونهن وحوائجهن ؛ فليس بالضرورة أن يكون قائمًا عليهن بالزواج أو بالوطء في صورةٍ من صور الوطء كالسبي وغيره، وإنما حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد، أي : يقوم على شئونهن وحوائجهن . والظاهر أن ذلك يكون بسبب المعارك والحروب التي يكثر فيها قتل الرجال فتكثر النساء، وهذا قولٌ لبعض أهل العلم.

ولكنني أميل إلي رأي الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ إذ يقول : «والظاهر أن هذه العلامة إنما هي علامة محضة بتقدير الله ـ جلَّ وعلا ـ لا لأيِّ سببٍ آخر »(٢).

والعجيب أن المتابع منكم لو وقف مع الإحصاءات السكَّانية لعَلِم صِدْق سيد البشرية، وإن كُنَّا لسنا بحاجةٍ إلى إحصاء جغرافيٍّ أو سكانيٍّ لنؤكد به صِدْق الحبيب النبيِّ ﷺ ؛ لكن الإحصاءات تؤكد الآن تَفَوُّق عدد النساء على الرجال في العالم بصفةٍ عامة، وفي بعض الدول بصفة

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد (١٤١٤)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (١٠١٢).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٢٥)ط الحديث.

خاصة ، إذ إن النسبة تتفاوت من مكانٍ إلى مكان آخر ؛ فمثلًا نسبة النساء في العراق أكثر من نسبة الرجال بالنسبة إلي دولة كدولة مصر مثلًا، وهكذا فالنسبة تتفاوت من مكان لآخر ، ومن زمانٍ لآخر ، ومن بلدٍ لآخر ، لكن الإحصاءات تؤكِّد الآن أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال.

والعجيب أنه منذ شهر تقريبًا كنت أتابع نَدْوةً في إذاعةِ لندن بين مجموعة من المتخصصين ، ويومها تذكَّرت هذا الحديث للنبيِّ الصادق الأمين ﷺ .هذه الدراسة تؤكِّد بالدليل المادي العلمي المجرد أن نسبة النساء في أوروبا بالكامل تفوق نسبة الرجال ، ثم خلصت الدراسة إلى أن هذه النسبة في تزايد مستمرٍّ حتى عام ٢٠٢٠ ، وهذا يؤكد قول الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى: أن هذه العلامة إنما هي تقدير الله تعالى؛ ربما يكون ذلك بدون أيِّ سببٍ من الأسباب؛ كالحروب والفتن وغيرها، وهذه علامة من العلامات التي ذكرها النبيُّ ﷺ؛ نسأل الله أن يحفظ نساءنا وبناتنا وأولادنا ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

العلامة الثامنة والعشرون :كثرة موت الفجأة

والفجأة : بالفتحة أو بالضمة، واللغتان صحيحتان .

فعن أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « مِنَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ ... وَأَنْ يَظْهَرَ مَوْتُ الْفَجْأَةِ». والحديث رواه الطبرانيُّ في «الصغير» و«الأوسط» عن شيخه الهيثم بن خالد وهو ضعيف ، لكن الشيخ الألبانيَّ ـ رحمه الله تعالى ـ حسن الحديث بالشواهد [(١)].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٣٧٦) و«الصغير» (٢/ ١٢٩)، وعبد الرزاق في«مصنفه» (٦٧٨٠) ، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٧٠٥) ، والضياء في «المختارة» كما في «الصحيحة» =

وأظنُّ أن هذه العلامة وهذا الحديث النبوي لا يحتاج إلى تعليق، وأظن أن عندكم من أمثال القصص والحكايات عن موت الفجأة الكثير ؛ فقد كثر موت الفجأة – السكتة القلبية وجلطة المخ ـ نسأل الله أن يشفي مرضى المسلمين ، ترى الرجل يخرج من بيته ، وهو لا يعلم أن الله ﷻ أرسل إليه ملك الموت ليكون في استقباله في الطريق أو في العمل أو هنا أو هناك ، وسبحان الله ! كان الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول:

اغتنم في الفراغ فَضْل ركوع فعسى أن يكون موتُك بغتة
كم صحيحٍ رأيتَ من غيرِ سُقْم ذَهَبتْ نفْسُه الصحيحةُ فلتة

فيا أيها الشاب الحبيب لا تُسوِّف ، فإن الموت يأتي فجأة ، لا تقل : أغتنم شبابي ، وأستمتعُ بصحتي ، حتى إذا ما كبرتْ سني تفرغت لعبادة الله ـ جلَّ وعلا ، لا تغتر بصحتك ، ولا تغتر بقوتك ، ولا تغتر بعافيتك ؛ فقد يكون الرجل صحيحًا سليمًا معافى ، وفجأة يأتيه قدر الله ﷻ ألا وهو الموت ؛ فإن أقرب غائب ننتظره جميعًا هو الموت ؛ قال الله جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق:١٩] .

نسأل الله أن يختم لنا ولكم بخاتمة الإيمان، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

*****

= (٥/ ٣٦٧) ، ورواه أبو عمرو الداني في «الفتن» (٣٩٥، ٣٩٩)، عن الشعبي عن رسول الله ﷺ ، وابن أبي شيبة (٣/ ٤٨) عن الشعبي ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٢٥): « رواه الطبراني في «الصغير» «والأوسط» عن شيخه الهيثم بن خالد المصيصي وهو ضعيف » ، وحسنه بطريقيه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٨٩٩) «والصحيحة» (٢٢٩٢).

العلامة التاسعة والعشرون: تمنِّي الموت من شدَّة البلاء وكثرة المصائب

فعن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ».

والحديث رواه البخاريُّ ومسلم[1].

وفي روايةٍ[2]: «وَالَّذِي نفسِي بيَدِهِ لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ، فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ؛ فيقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَـذَا الْقَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلاَّ الْبَلاَءُ».

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «سَيأتِي عليكُمْ زَمانٌ لوْ وجَدَ أحدُكُمْ الموتَ يُباعُ لاشتَرَاه»[3].

وأنا أسأل: هل هناك الآن من الناس من يتمنَّى الموت أم لا؟ نعم هناك الكثير.

قال الحافظ العراقيُّ: «لا يلزم كونه في كلِّ بلد، ولا كونه في كلِّ زمن، ولا في جميع الناس؛ بل يصدق اتفاقه للبعض في بعض الأقطار، وفي بعض الأزمان، وفي تعليق تمنِّيه بالمرور إشعار بشدة ما نزل بالناس من فساد الحال، إذ المرء قد يتمنَّى الموت من غير استحضار لهيئته، فإذا شاهد الموتى، ورأى القبور نشز بطبعه، ونفر بسجيته من تمنِّيه، فلقوة

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور (٧١١٥)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (١٥٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها» (١٨١، ٣٣٠، ٣٣١) وانظر «فيض القدير» (٦/ ٤١٨)، و«عمدة القاري» (٢٤/ ٢١).

الشدة التي وقعت به لم يصرفه عن الموت ما شاهده من وحشة القبور، ولا يناقض هذا النهيُّ عن تمني الموت؛ لأن مقتضى هذا الحديث الإخبار عما يكون، وليس فيه تعرُّض لحكمٍ شرعيٍّ »[1] .

وقال الحافظ ابن عبد البر ــ رحمه الله تعالى: «وظن بعض الناس أن هذا الحديث معارضٌ للنهي عن تمني الموت؛ وليس كذلك، وإنما يقع هذا لشدةٍ تَنْزِلُ بالناس من فساد الحال في الدين أو ضعفه أو خوف ذهابه لا لضرر ينزلُ في الجسم »[2] .

وقد سبق الجمْعُ بين حديث النهي عن تمني الموت، وحديث: « اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ،وَتَوَفَّنِي مَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي ».

قال الإمام الطيبي رحمه الله[3]: «لا؛ فالنبيُّ ﷺ يقول: «وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلاَّ الْبَلاَءُ »؛فهو يتمنَّي الموت لبلاءٍ أصابه في دنياه، لا لدينه؛ فهم يجمعون بين البلاء الذي يخشاه الإنسان على دينه، والبلاء الذي يخشاه الإنسان على دنياه، فيتمنَّى حينئذٍ الموت لهذا الابتلاء الذي أصابه سواء كان هذا الابتلاء في الدين أو في الدنيا .

والنبيُّ ﷺ قد أخبر؛ كما في «صحيح البخاري»[4] من حديث أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه أنه ﷺ قال: « يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ ».

---

(١) «فيض القدير» (٦/ ٤١٨).

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ١٩٣)بتصرف ط . الحديث.

(٣) المصدر السابق بتصرف.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان باب من الدين الفرار من الفتن (١٩).

فإذا خاف الإنسانُ على دينه، فدعا الله ﷻ فله سلف ، وإذا نزل بالإنسان بلاء في أمر الدنيا وخشي على نفسه من أن يزلّ ، فدعا الله ﷻ بهذا الدعاء فله سلف ، والحديثُ كعلامةٍ من العلامات الصغرى يبين فيه النبيُّ ﷺ أمرًا سيقع ، ولا يبين فيه حكمًا شرعيًّا بالجواز من عدمه ؛ لكنني أتعرض لقضية الجواز من عدمها ؛ فأقول : إنْ تمنَّى أحدُنا الموت لفتنةٍ يخشاها على دينه أو لفتنة يخشاها على دنياه ، فليلتزم بدعاء النبيِّ ﷺ فيقول : « اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ،وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي »[1].

ومن جميل ما قال سهل بن عبد الله التستري[2] ـ رحمه الله تعالى :

«لا يتمنَّى الموت إلا ثلاث : رجلٌ جاهلٌ بما بعد الموت ، أو رجلٌ يفرُّ من أقدار الله تعالى عليه ، أو رجلٌ مشتاقٌ أو محبٌّ للقاء الله ﷻ».

نسأل الله أن يختم لنا ولكم بالإيمان ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

العلامة الثلاثون
وقوع التناكر وعدم المعرفة بين كثير من الناس

ففي «مسند أحمد» بسندٍ صححه الشيخ الألباني على شرط مسلم من حديث حذيفة بن اليمان ؓ قال: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ السَّاعَةِ ،فَقَالَ : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا وَمَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهَا: إِنَّ بَيْنَ يَدَيْهَا فِتْنَةً وَهَرْجًا » ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! الْفِتْنَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا، فَالْهَرْجُ مَا هُوَ؟ قَالَ : « بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: الْقَتْلُ، وَيُلْقَى بَيْنَ

---

(١) سبق تخريجهُ عند البخاري (٦٣٥١) ، ومسلم (٢٦٨٠).

(٢) ذكره القرطبيُّ في «تفسيره» (سورة يوسف آية (١٠١)(٩/ ٢٢٩)).

النَّاسِ التَّنَاكُرُ، فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدًا »[١].

وأنا أسأل: لو نظر أحدُنا عن يمينه وعن يساره هل تعرف من يجلس بجوارك ؟ والجواب: لا يعرف أحدُنا مَنْ بجواره ، وصدق النبيُّ ﷺ ؛ فوقوعُ التناكر بين الناس أصبح واقعًا !!

وأنا أقول: حينما تستولي الشهوات والماديات وتطغى على حياة الناس، وتنزل بالناس الأنانية الرهيبة، فتشعر أن كثيرًا من الناس لا يعيش فقط إلا من أجْل نفسه، ولا يهتمُّ البتةَ بغيره، ولا تكون هناك على الإطلاق أيَّةُ قِيم أخلاقية؛ بل تغلب المنافع المادية والمصالح الدنيوية الزائلة ، وتكون المعيار الحقيقيَّ أو الرئيس أو الكبير في التعامل ؛ فلا يشعر الإنسان بإخوانه ! وتنقطع الأواصر الإيمانية والأخوة في الله بين كثيرٍ من الملتزمين فضلًا عن عوام المسلمين ، ولو فتشت الآن عن الأخوة في الله ، وعن الحب في الله ، وعن الروابط الإيمانية العظيمة التي أرسى أسسها القرآنُ ، ورفع بنيانها العظيم محمدٌ ﷺ ، لو فتشت عنها في أيامنا هذه لبكيت دمًا بدل الدمع ، هذا واقع بين إخواننا الملتزمين ؛ فقد يحضر الأخ بجوار أخيه عشرات المحاضرات ولا يفكر في أن يتعرَّف عليه، وربما لا يُلقي السلام إلا على أخيه صاحب اللحية ، وإن وجد إلى جواره أخًا في المسجد يصلي معه وهو لا يعرفه لا يلقي عليه السلام ، ولا يبشُّ ولا يهش في وجْهِهِ !! وإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٨٩)، ورواه أبو يعلى في «مسنده» (٧٢٢٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٧/ ٣٠٩) : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » ، وفي (٧/ ٦٢٧)ط الفكر ذكر له شاهدًا ثم قال : «رواه الطبرانيُّ ، وفيه من لم يسم» ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٧٧١).

فالأخوَّةُ في الله هي التي تنبني على الحبِّ، فلو أخذتُكُم إلى الوراء قليلًا لأذكِّركم بحجم الهُوَّة الرهيبة بين أخوَّتنا الآن وبين الأخوَّة التي أرسى دعائمها القرآن، ورفع بنيانها العظيم محمدٌ ﷺ، لرأينا أننا قد انحرفنا بعيدًا عن الأخوة الإيمانية العظيمة التي تُبنى على الإيمان، وعلى الحب في الله، يكفي أن أُذَكِّرَ بحديثٍ واحدٍ: فحينما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة، وحدث مهرجان الحبِّ الذي لا نظير له في التاريخ، ولن يتكرر أبدًا، لا أقول: تصافحت فيه الأيدي بالأيدي؛ بل تصافحت فيه الأرواح بالأرواح، والقلوب بالقلوب، والنفوس بالنفوس!!

والحديث في «صحيح البخاري»(١) من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: «لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لاَ حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقُ قَيْنُقَاعَ، قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، قَالَ: ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَزَوَّجْتَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «وَمَنْ؟» قَالَ: امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: «كَمْ سُقْتَ؟» قَالَ: زِنَةَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ ـ أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] (٢٠٤٨)، وانظر طرفه هناك.

وقد يئنُّ الآن كثيرٌ من الأخوة، ويقول: فأين مَنْ يُعْطِي عطاءَ سعد بن الربيع؟ والجوابُ : وأين من يتعففُ عِفَّةَ عبد الرحمن بن عوف ؟!! فلا تسأل عن هذه وتنسى تلك، فأنا أؤكد لك وأقول : ما ارتقى سعد بن الربيع وأمثاله إلى هذه الدرجة السامقة إلا يوم أن ارتقى إلى ذات الدرجة عبد الرحمن بن عوف وأمثاله !

لقد جاء رجلٌ ليسأل أحدَ السلف عن قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٤] ، أين هم؟فقال له:ذهبوا مع من لا يسألون الناس إلحافًا ؛ فأين العفة ؟!

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا الأخوة فيه،وأن يرزقنا الحبَّ فيه ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

فوقوع التناكر وعدم المعرفة بين كثير من الناس علامةٌ من العلامات التي ذكرها النبيُّ ﷺ بقوله : «وَيُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التَّنَاكُرُ فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدًا ».

ولذلك سأربط هذه العلامة بالعلامة الآتية ؛ ألا وهي:

العلامة الحادية والثلاثون :أن تكون التحية و السلام للمعرفة فقط

نعم .. يسلِّم الرجل على من يعرفه فقط!

ففي «مسند أحمد » و«معجم الطبراني الكبير» وصححه شيخنا الألباني في «الصحيحة»[1] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « إِنَّ مِنْ

(١)أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧، ٤٠٥- ٤٠٧)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٩٦) ، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥١٣٧، ٥١٤٠)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٧/ ٦٣٥): «رواه أحمد والبزار =

أَشْرَاطِ السَّاعَةِ : أَنْ يُسَلِّمَ الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ لاَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلاَّ لِلْمَعْرِفَةِ ».

وهذا أمرٌ مشاهدٌ في هذا الزمان ؛ فكثيرٌ من الناس لا يسلِّمون إلا على مَنْ يعرفون ، وهذا خلاف السنة!!

وروى أحمد وغيره عن ابن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ .. » الحديث [1].

فقد حثَّ النبيُّ ﷺ أن تُلقِي السلام على إخوانك من المسلمين ، من عرفت منهم ومن لم تعرف ، وبيَّن أن هذا من أفضل الإسلام ، ومن أسباب المودة والمحبة ؛ كما روى مسلم [2] عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ،وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَولاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شيءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ ».

وفي «الصحيحين» [3] عن عبد الله بن عمرو ﷺ : أنَّ رجلًا سأَلَ رسُولَ الله ﷺ:أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ :«تُطْعِمُ الطَّعَامَ ،وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ ».

وروى مسلم [4] عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « خَمْسٌ تَجِبُ لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ : رَدُّ السَّلاَمِ ...».

وفي لفظٍ : « حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ » قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ

= ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح » ، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٦٤٨).

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٧) وقد سبق الحديث عند علامة ظهور القلم، فانظره.

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، وأن محبة المؤمنين من الإيمان ، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها (٥٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان ، باب إطعام الطعام من الإسلام (١٢)، وانظر طرفيه هناك، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (٣٩).

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب السلام ، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام (٢١٦٢).

الله؟! قَالَ: « إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ .. » الحديث.

وبيَّن النبيُّ ﷺ فضل السلام ؛ فقال في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ «في عمل اليوم والليلة» وغيرهم(١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ ؛ فَقَالَ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ ، ثُمَّ جَلَسَ ؛ فقالَ النبيُّ ﷺ :« عَشْرٌ ». ثُمَّ جَاءَ آخرُ فَقَالَ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فقَالَ : « عِشْرُونَ »، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ؛ فَقَالَ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ فقَالَ :« ثَلاَثُونَ ».

فما أعظم هذه التحية لو تدبَّرها كلُّ مسلم ومسلمة .

*****

العلامة الثانية والثلاثون :ظهور الكذابين أدعياء النبوة

فمن العلامات التي ظهرت بمثل ما أخبر به النبيُّ ﷺ ظهور الكذابين والدجالين الذين يزعمون الرسالة والنبوة ، وهم قريبٌ من ثلاثين كذَّابًا ، وقد خرج بعض هؤلاء الكذَّابين في العهد النبوي ، وفي عهد الصحابة رضي الله عنهم وبعد ذلك ، ولا زالوا يظهرون حتى في عهدنا الحديث ، وليس التحديد في الأحاديث التي سأذكرها الآن مرادًا به كل من ادَّعى النبوة على سبيل الإطلاق ؛ فهؤلاء أكثر بكثير من هذا العدد

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٤٣٩) وأبو داود ، كتاب الأدب، باب كيف السلام (٥١٩٥)، والترمذي ، كتاب الاستئذان ، باب ما ذكر في فضل السلام (٢٦٨٩)، والنسائي في كتاب «عمل اليوم والليلة» (٣٣٧) ، والدارمي (٢٦٤٠)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح سنن أبي داود» .

المذكور ، وإنما كما قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى [١] : « المراد بهؤلاء الذين خصَّهم النبيُّ ﷺ بهذا العدد هم مَنْ قامت لهم شوكة ، وكثر أتباعهم ، ومن اغتر بهم حال ظهورهم ».

ففي «الصحيحين» [٢] من حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلاَثِينَ ،كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ الله ».

وفي سنن أبي داود والترمذي [٣] بسندٍ صحيح من حديث ثوبان ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى يَعْبُدوا الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلاَثُونَ كَذَّابُونَ ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لاَ نَبي بَعْدِي ».

وأحاديث ظهور الكذَّابين والدجاجلة كثيرة ، وقد وقع في بعضها جزمٌ بالعدد ، وفي بعض الروايات أنهم قريب من الثلاثين ؛ كما جاء في حديث «الصحيحين» المتقدم .

ولعلَّ الروايات التي جاءت على سبيل التحديد إنما جاءت على طريقة جبر الكسر ؛ أي العد، وممن ظهر من هؤلاء الكذابين والدجالين

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٧٥٠)ط الحديث بتصرف في المعني.

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة (٣٦٠٩) ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (١٥٧).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم ، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٥٢)، والترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون (٢٢١٩) وقال : «حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب ما يكون من الفتن (٣٩٥٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود» والترمذي وابن ماجه .

من مدَّعي الرسالة والنبوة في عهد النبيِّ ﷺ: مسيلمة الكذاب ؛ فلقد وادَّعى النبوة في آخر زمن النبيِّ ﷺ، وأرسل إليه رسول الله ﷺ وكاتبه وسمَّاه : مسيلمة الكذَّاب ، وأراد مسليمة أن يشاطر النبيَّ ﷺ في الرسالة ، والنبوة اصطفاء الله المحض الذي لا اختيار لمخلوق فيه أبدًا، لا تحصل الرسالة والنبوة بالعبادات ولا برياضة النفس كما يقول بعض أهل التصوف ؛ بل إن الرسالة والنبوة محضُ فضلِ الله على من يختارهم من عباده لهذه الرسالة العظيمة ، ولهذه الوظيفة الشريفة ؛ فالله سبحانه يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨].

وزعم مسيلمةُ كذبًا أن وحيًا يَنْزِلُ عليه، وظلَّ يهذي بكلمات على سجع ونسق القرآن الكريم حتىَّ فَضَحَهُ ربُّ العالمين، وبَيَّن الله سبحانه كذبه، حتى عند من يريدون للنبيِّ ﷺ الكيد ويناصبونه العداء ، فلما سمع المشركون عن مسيلمة ذهبوا إليه ، وظنوا أن في ظهور مسيلمة أمرًا جديدًا يستطيعون به محاربة النبيِّ ﷺ! لكنهم هم الذين حكموا عليه بالكذب؛ حينما قرأ عليهم بعض آياته الشيطانية التي زعم أنها نزلت عليه، كما ينزل الوحيُ والقرآن على قَلْب النبيِّ محمدٍ ﷺ؛ فقالوا له بعد أن سمعوا قوله وكلامه : والله إنك تعلم أننا نعلم أنك كذَّاب!!

أرسل إليه رسول الله ﷺ، لكنه لم يذعن ، وانتشرت فتنتهُ، وكثر أتباعه ، وأنا أقولُ دومًا : ما من دعوةٍ تظهر سواء كانت دعوة حق أو دعوة بَاطل إلا وسيظهر لها أتباع وأعوان، فهي سُنَّة الله في خلقه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فقد كثر أتباع مسيلمة ، وعظُم شرُّه على المسلمين حتىَّ تُوفِّيَ النبيُّ ﷺ،

ولا زال مسيلمة يدَّعي النبوة إلى أن منَّ الله ﷻ على الأمة ، وتولَّى الخلافة أبو بكر ﷺ ، وفي ظلِّ هذه الأزمات الطاحنة التي أصابت الأمة بعد موت النبيِّ ﷺ هاجم الرومُ حدودَ وأطراف الدولة الإسلامية ظنًّا منهم أن الإسلام قد انتهى، وقد قُضي عليه بموت صاحب الرسالة محمد ﷺ ، وظهر أدعياء النبوة .. فتنٌ أحاطت بالأمة من كل ناحية ، ولكنني أقولُ : من الرجال مَنْ تتحوَّل المحَنُ بين أيديهم إلى منح ، ومن هذا الطراز : أبو بكر ﷺ الذي تحولت المحن كلُّها بين يديه إلى منح بفضل الله ـ جلَّ وعلا.

فسيَّر أسامة بن زيد ليؤدِّب القبائل التي انحازت إلى الروم في اعتدائها على أطراف الدولة الإسلامية ، وقال يومًا قولته الشهيرة : «والله لو تخطفتني السباع» ، وفي لفظٍ : «لو جرت الكلابُ بين أرجل أمهات المؤمنين، والله لأنفذت بعث أسامة »[1] ، ولما ذهبوا إليه يرجون منه أن يُبقي أسامة حتى تظل المدينة قوية بهذا الجيش لمقاتلة المرتدين أَبَى ورفض ، وقال: «ما كنت أبدًا لأعطل بعثًا أمر به رسول الله ﷺ » ، ولما طلبوا منه أن يعزل أسامة ﷺ أبى ، وقال لعمر : «ثكِلَتْك أمك يا عمر ، أيولِّيه رسول الله ﷺ وأعزله أنا !» ، فصمم الصدِّيق على أن يسير جيش أسامة، وكان في أمره بركة ، فلما سار جيش أسامة تأدبت كلُّ القبائل، وقالوا: لولا أن أبا بكر يملك جيشًا قويًّا جرارًا لمقاتلة المرتدين في المدينة ما أنفذ هذا الجيش الزائد عن حاجته ليقلم به أظفار المعتدين على

---

(١) أخرجه البيهقي في «الاعتقاد» (٣٩٥) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٢/ ٦٠) و (٣٠/ ٣١٦) وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ٣٠٥)، وقال: «و عباد بن كثير هذا أظنه الرملي لرواية الفريابي عنه، وهو متقارب الحديث ، فأما البصري الثقفي فمتروك الحديث ، والله أعلم » .

أطراف الدولة الإسلامية ، فجعل الله ﷻ خروج الجيش بركةً على الأمة وعلى دين محمد ﷺ .

ثم أرسل الصديق جيشًا جرارًا بقيادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه فالتقى خالد بن الوليد مع جيش مسيلمة الكذاب، ودارت معركة طاحنة سقط فيها عددٌ كبيرٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ ، إلى أن منَّ الله ﷻ عليهم بالفتح على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه ، واستطاع في هذه المعركة أن يقتل مسيلمة الكذاب، ونجَّى الله ﷻ الأمة من شرِّه .

ثم ظهر بعد ذلك الأسود العنسي الذي ادعَّى النبوة في اليمن [1] فقتله أصحاب النبي ﷺ قبل موت النبيِّ ﷺ ، ثم قُتل مسيلمة بعده ، وظهرت في عهده امرأةٌ خبيثةٌ تُسمَّى سجاح [2] ؛ هذه المرأة الخبيثة التي ادَّعت النبوة هي الأخرى، وتزوجها مسليمة، وقالوا : نبيَّةٌ تزوجت نبيًّا ؛ بل كذَّابةٌ تزوجت كذَّابًا، ثم لما قُتل مسيلمة تابت ، ورجعت إلى الإسلام .

وظهر طليحة بن خويلد الأسدي، ثم تاب، ورجع إلى الإسلام وحسن إسلامه[3].

وظهر المختار بن أبي عبيدٍ الثقفي الذي ادَّعى النبوَّة، وأظهر أول الأمر محبة آل بيت النبيِّ ﷺ ، وانطلق بين الناس يطالب بدم الحسين؛

---

(١) انظر: «الأعلام» للزركلي (٥/ ١١١) و «الكامل في التاريخ» (١/ ٣٦٢) (ذكر أخبار الأسود العنسي) لابن الأثير.

(٢) انظر : تاريخ الطبري (٢/ ٤٩٦) ، وهي سجاح بنت الحارث ، تنبأت بعد موت رسول الله بالجزيرة في بني تغلب . وانظر: «مروج الذهب» (١/ ٢٩١) للمسعودي ، و«الأعلام» (٣/ ٧٨) .

(٣) انظر : «تاريخ الطبري» (٢/ ٤٩٥) ، و «مروج الذهب» (١/ ٢٩١) ، و «الثقات» لابن حبان (٢/ ١٦٣) ، و «الأعلام» (٣/ ٢٣٠).

جريًا على الفتنة السيئة التي تولَّى كبرها عبد الله بن سبأ ، فكثر أتباعه أيضًا، وتغلَّب على الكوفة في أول خلافة عبد الله بن الزبير ، ثم أغواه الشيطان بعد ذلك لما كثر أتباعه من حوله فادَّعى النبوة، وزعم أن جبريل يُنزل عليه الوحي من السماء، كما كان ينزل على رسول الله ﷺ[(١)] .

ومنهم الحارث الكذَّاب الذي خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقُتل ، وظهر في خلافة بني العباس جماعة ادَّعت النبوة ؛ كما قال الحافظ ابن حجر[(٢)] .

وظهر في العصر الحديث في أيامنا : ميرزا أحمد القادياني في الهند ؛ ادَّعى النبوة ، وزعم أنه المسيح الموعود ، وكثر أتباعه أيضًا ، وانبرى له كثيرٌ من العلماء[(٣)] في الهند والباكستان وفي غيرهما من بلاد المسلمين، وبينوا أنه أحد الدجالين الذين أخبر عنهم الصادق الأمين ﷺ .

ولا يزال خروج هؤلاء الكذابين واحدًا بعد الآخر، حتى يظهر آخر الدجالين والكذابين، ألا وهو : المسيح الدجال؛ فهذا آخر دجال سيظهر ، كما أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ . وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده» وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم[(٤)] ـ بسند فيه جهالة ـ من حديث سمرة بن جندب أن

---

(١) انظر «فتح الباري» (٦/ ٧٥٠) بتصرف في المعنى.

(٢) انظر «الفتح » (٦/ ٦١٧) ، و«البداية والنهاية» (٩/ ٢٧) ، و«تاريخ الإسلام» (٢/ ١٤٧) .

(٣) راجع «الأعلام» للزركلي (١/ ٢٥٦) ، و«الصحيحة» (٢/ ٤٢٧) ، (٤/ ٤٩٨) (٥/ ٢٣٥) و«الضعيفة» (١/ ١٥٤) للعلامة الألباني .

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٦) ، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٣٩٧) ، وابن حبان في «صحيحه» (٢٨٥٦) ، والحاكم في «مستدركه» (١/ ٤٧٨) ، وقال : «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ، والطبراني في «الكبير» (٧/ ١٩٠) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» =

رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم كسفت الشمس على عهده: « والله لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلاَثُونَ كَذَّابًا آخِرُهُمُ الأَعْوَرُ الدَّجَّالُ ».

وروى أحمد وابن أبي شيبة وابن حبان في «صحيحه»(١) بسندٍ صحيحٍ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ كَذَّابِينَ، مِنْهُمْ: صَاحِبُ الْيَمَامَةِ، وَصَاحِبُ صَنْعَاءَ الْعَنْسِيُّ، وَمِنْهُمْ: صَاحِبُ حِمْيَرَ، وَمِنْهُمْ: الدَّجَّالُ وَهُوَ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً ».

قال ـ جابر: وقال أصحابي: «هم قريبٌ من ثلاثين كذابًا».

أسأل الله أن يقينا شره وفتنته.

ومن هؤلاء الكذابين أربعة نسوة:

ففي رواية الإمام أحمد(٢) عن حذيفة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ وَدَجَّالُونَ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ، مِنْهُمْ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ، وَإِنِّي خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي ». وقد ظهر ما أخبر به النبيُّ ﷺ.

= (٧/ ٤٩٦) (٣٧٥١٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٣٣٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٤٤٨): « رواه أحمد والطبراني في «الكبير» وفي (٧/ ٦٥٥) وقال: رواه أحمد والبزار ببعضه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ثعلبة بن عباد وثقه ابن حبان »، وقال الشيخ الألباني في «قصة المسيح الدجال» (٦٧): «في سنده ضعف»، وقال الشيخ شعيب في تحقيقه للمسند: «إسناده ضعيف لجهالة ثعلبة بن عباد».

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٤٥) وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٥٠٠)(٣٧٥٣٣)، وابن حبان (كما في «موارد الظمآن» (١٨٩٣)، وفي «صحيحه» (٦٦٥٠) وإسناده قوي؛ كما قال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن حبان.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٩٦) والطبراني في «الكبير» (٣/ ١٦٩) و «الأوسط» (٥٤٥٠) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٧٩) وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٦٤١): «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و «الأوسط» والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح»، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٢٥٨) و «الصحيحة» (١٩٩٩).

العلامة الثالثة والثلاثون :اتباع أمة محمد ﷺ لسننَ الأمم الكافرة !

وهذه من الفتن التي وقعت في هذا العصر بصورةٍ لم نشهد لها مثيلًا من قبل.

ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ » ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ : « وَمَنِ النَّاسُ إِلاَّ أُولَئِكَ؟ ».

أما لفظُ أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في «الصحيحين»[(٢)] أنه ﷺ قال : « لَتَتَبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ،وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرَ ضَبٍّ لاَتَّبَعْتُمُوهُمْ » ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ :« فَمَنْ ؟».

وروى الترمذي وأحمد وغيرهما[(٣)] عن أبي واقد اللَّيْثِيِّ أن رسولَ الله ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ: لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا :يَا رَسُولَ اللهِ ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبيﷺ : «لتتبعن سنَنَ من كان قبلكم» (٧٣١٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب في ذكر بني إسرائيل (٣٤٥٦)، (٧٣٢٠) ، ومسلم ، كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٦٦٩).

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الفتن ، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (٢١٨٠) وقال : «حديث حسن صحيح» ، وأحمد (٥/ ٢١٨) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٦) ، والحميدي في «مسنده» (٨٤٨) ، وابن حبان في «صحيحه»(٦٧٠٢) ، وأبو يعلى (١٤٤١) ، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٠١) ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي» ، و«صحيح الجامع» (٣٦٠١) ، و«المشكاة» (٥٤٠٨).

لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « سُبْحَانَ الله ! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف:١٣٨] وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ».

وقد وقعت هذه العلامة بمثل ما أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ، فلقد اتبعت أمة محمد ﷺ سنَن فارس والروم، وسنَن اليهود والنصارى شبراً بشبر ، وذراعًا بذراع !! ذابت الأمة ، وظهر الذوبان بصورةٍ مؤلمةٍ في هذا العصر الحديث ، ومُسخت الهوية الإسلامية ، وإذا مسخت الهوية فقد ذابت الأمة ؛ لأنه لا يستطيع الإنسان أبدًا أن يحدد موقفه من غيره إلا إذا نجح ابتداءً في أن يحدد هويته : مَنْ أنا ؟ ومن أكون؟ وما هو بيتي ؟ فما ذابت الأمة في بوتقة الأمم الكافرة ، وقلَّدت هذه الأمم في كلِّ شيء ابتداءً في العقائد والأفكار ـ وهذا مكمن الخطورة ـ ثم بالعادات والتقاليد ، إلا من رحم ربك ـ جلَّ وعلا ـ من أفراد ، ولا يمكن على الإطلاق أن تخلو الأمة منهم في زمان أو مكان من أبناء الطائفة المنصورة التي أخبر عنها الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ، أسأل الله أن نكون منهم بمنِّهِ وكرمه، لكن الأمة ـ في الجملة ـ ذابت في بوتقة الشرق والغرب .. ذابت في بوتقة الأمم الكافرة .. ذابت عقديًا ، ذابت تعبديًا .. وذابت فكريًا وسلوكيًا وأخلاقيًا .. وذابت عقائديًا يوم أن نحَّت شريعة الله ــ جلَّ وعلا ــ وأخرَّت القرآن الكريم والسنَّة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وحكَّمت في كثير من أمورها وأحوالها القوانين الشرقية والغربية الكفرية الواضحة ، وذابت الأمة في

أخلاقيات وسلوكيات هذه الأمم الكافرة؛ فترى الآن كثيرًا ممن ينتسبون إلى الإسلام يقلِّدون هذه الأمم حتى في الملبس، وفي طريقة المأكل، والمشرب؛ بل في طريقة التفكير، ولست مغاليًا إن قُلْتُ ذلك؛ هيا اعرض استمارة استبيان وَفيها مجموعة من الأسئلة، واعرض هذه الاستمارة على مجموعة مترادفة من طلاب الجامعة في بلدٍ مسلم، وعلى نفس المجموعة في بلد كافر، واعرض نفس الأسئلة، وسترى أن الإجابات تقريبًا ستكون متشابهة، ومن أعظم الأدلة العملية العصرية الأخيرة على وحدة التفكير ما رأيناه ـ مثلًا ـ في متابعة حادث وفاة أميرة ويلزم ديانا، ورأينا معالجة الحدث في أوروبا وأمريكا هي هي نفس المعالجة التي قرأناها في بلاد المسلمين، فالعقل يفرز إفرازًا واحدًا؛ لأن العقول ذابت لهذا السيد الذي يقود العالم الآن وهو الغرب، وذابت العقول المسلمة لما شُوِّهت الهوية، وزُلزلت، وضاعت، وأصبح العقل المسلم يفكِّر بنفس الطريقة التي يفكِّر بها العقلُ الغربيُّ الذي سيقود البشرية كلَّها الآن على حين غفلةٍ من أمة القيادة التي ما خلقها الله إلا لتقود، لا عنصرية ولا قومية ولا وطنية؛ وإنما الأمة الخاتمة هي التي كُلِّفت بحمل الرسالة الخاتمة لا للمسلمين فحسب؛ بل لكلِّ إنسان على ظهر الأرض؛ إذ إن هذه الأمة مسئولةٌ عن كلِّ البشر على وجه الأرض، بل وربما يتعلق كثير من الخلق في رقاب أبناء أفراد هذه الأمة من القادرين على التبليغ والدعوة يوم القيامة بين يدي الله ﷻ، ويقولون: يا رب هؤلاء ما دعونا، وما بلغونا شيئًا عن قرآنك ولا عن دينك وإسلامك، ولا عن نبيك محمد ﷺ.

لكن ـ بكلِّ أسف ـ أصبح العقل المسلم تابعًا ومقودًا بعد أن كان قائدًا !! وكما أقول: مستحيل أن تحدد موقفك من غيرك من الأمم التي تحيط بك إلا إذا حدَّدت موقفك من نفسك ابتداءً .. إلا إذا أوقفتَ هذا الذوبان الفكري، والخلقي، والنفسي في بوتقة الشرق الملحد والغرب الكافر.

لاشك أن هويتنا الأصلية هي الإسلام، وأن الإسلام كانتماء هو القاسم المشترك الوحيد لأمة متكاملة كبيرة كأمة النبيِّ ﷺ، لا شيء غير الإسلام، وإذا ما نحَّينا الإسلام جانبًا، فمن المستحيل أن نجد قاسمًا مشتركًا نلتقي عليه، كالوطن، أو كاللغة، أو كالأرض، ما كانت اللغة أبدًا قاسمًا مشتركًا، بدليل أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ التقت قلوبهم، وامتزجت في مهرجان حبٍّ لم نشهد له مثيلًا يوم أن آخى النبيُّ ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكان من بين هؤلاء سلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وبلال الحبشي، وحمزة القرشي .. اختلفت الألسنة، والأمزجة، واللغة، والعادات، ولكن هؤلاء جميعًا وجدوا قاسمًا مشتركًا فجمعهم على رابطة الإسلام، ولله درُّ سلمان إذ يقول ـ حينما افتخر بعض القوم بقبائلهم :

أبي الإسلام لا أبا لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم[1]

فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبكي وهو يردد قول سلمان، ويقول: «نعم، صدق سلمان».

فالقاسم مشترك؛ فهذه مرحلةٌ خطيرةٌ شُوِّشت فيها العقيدة، ومُسخت فيها هوية المسلم، وأصبح المسلم يعيش الآن حالةَ غبشٍ

(١) «أضواء البيان» (تفسير الحجرات:١٣).

عقديٍّ وتعبديٍّ وفكريٍّ ونفسيٍّ، بحيث لا يستطيع كثيرٌ من المسلمين الآن أن يحددوا الأرض التي يقفون عليها ، من ينصر؟ من يوالي؟ من يعادي؟ من يحب؟ من يبغض؟ ، وهذه حالة أنا أتصور أنها من أخطر الحالات التي وقعت فيها الأمة في العصر الحديث، ومن أعظم المعارك التي كسبها أعداء الإسلام أن جعلوا كثيرًا من المسلمين يعيشون حالة الغبش التي نشهدها الآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم.

فلا يوجد قاسمٌ مشتركٌ تلتقي عليه الأمة الآن على اختلاف ألوانها وأجناسها وأوطانها وأشكالها إلا الإسلام، وهذا ما بيَّنَهُ لنا التاريخ .

فالتاريخ يبين لنا أن العالم الإسلامي كان أمة واحدةً ، تظلِّلُ هذا العالم كلَّه رايةُ لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ﷺ ، وكان المسلم يخرج من المغرب في أقصى الشرق مرورًا في الوسط ببغداد لا يحمل جواز سفر، ولا هوية حسية مادية .. لا يحمل جنسية قومية، ولا هوية وطنية؛ وإنما كان يحمل فقط هوية الإسلام والإيمان!!

يحدثنا التاريخ أن ابن بطوطة الذي جاب الأرض وانتقل من قُطرٍ إلى قُطرٍ إسلامي آخر وهو لا يحمل هوية وطنية ولا قومية ، اللهم إلاَّ أنه يحمل الهوية الإسلامية العظيمة ، يحدثنا التاريخ أن هذا الرجل ما انتقل من بلد من بلاد المسلمين واستقر فيها وعامله أهل هذا البلد أنه رجل أجنبي أو رجل غريب! كلَّا كلَّا .

والمسلم الآن في بعض الدول الإسلامية يقال له على أعلى المستويات : الأجنبي ؛ بل ولا تستطيع الآن أن تتحرك إلى بلد مسلم إلا بهوية ؛ وربما لا يسمح لك!!

فلقد نجح الأعداء في أن يضعوا هذه الحواجز والسدود والأسلاك الشائكة التي تسمَّي بالحدود ، ليمزقوا العالم الواحد ، والأمة الواحدة، فيذكر أن ابن بطوطة هذا ربما شغل المناصب الكبيرة ، وتولَّى الوزارات في بعض الدول التي نزل فيها وهو عابر سبيل ، وتولى المناصب الكبيرة كالقضاء ، لماذا؟ لأن الأمة في هذا الوقت لا تنظر إليه على أنه رجلٌ أجنبي ما دام يحمل هوية الإسلام والإيمان ، ما دام يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، وعلى أرض الواقع أثبت لنا التاريخ والواقع أن الأمة مع كلِّ هذه المحاولات والصراعات والضربات لا تزال ترغب هوية الإسلام، ولا تزال ترى أن الإسلام فقط هو المنهج الذي يمثل أصفى وأنقى خصائصها، ويجدِّد بل ويحدِّد أيضًا هويتها، ويرسم الطريق الأمثل الوحيد للخروج من أزمتها إلى أهدافها الحضارية الإسلامية العالمية الكبيرة، وليس من دليل على صدق ما أقول كهذا الدليل الذي نراه الآن في كل أنحاء الأرض ، ألا وهو تلك الجحافل الهائلة الساجدة من أبناء هذه الصحوة من شيوخ ، ونساء ، وشباب ؛ وفتيات في عمر الزهور والورود ، وتولِّي هذه الكوكبة الكريمة في أنحاء الأرض ظهرها لواشنطن وبنكوك ومدريد وباريس وتل أبيب ، وتولِّي وجهها من جديد إلى كعبة الله ـ جلَّ وعلا ـ قال الله لنبيه المصطفى ﷺ فيها : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[البقرة:١٤٤] .

نعم .. إن هذه الكوكبة التي ترجع الآن إلى الله ؛ بل وتبذل أرواحها ودماءها في سبيل إثبات هذه الهوية المسلمة لَمِنْ أعظمِ الأدلة العملية على

أن الهوية التي تعتزُّ بها الأمة ـ ولا زالت ـ رغم هذه الضربات الطاحنة، والمعارك الضاربة التي أراد أعداؤنا فيها أن يمسخوا هويتنا المسلمة تمامًا ؛ لا زالت الأمة تؤكد أنها تعشق الإسلام، وتحبُّ دين الله ﷻ ، وإن هذه التجمعات التي نراها الآن في كل أسبوع وفي كل جمعة لمن أعظم الأدلة كذلك على أن هذه الأمة قد خالط الإسلام دماءها ، وأنها قد ملَّت من كلِّ الأطروحات ، ومن كل المناهج ابتداءً من المنهج الليبرالي، ومرورًا بالمنهج الديمقراطي، ومرورًا بالمنهج الاشتراكي ، تبين الأمة الآن في هذه العودة الهائلة في شيوخها ونسائها وشبابها أن هويتها التي تعتز بها هي هوية الإسلام .. هي هوية دين النبيِّ ﷺ .

ووالله لا مخرج أبدًا لهذه الأمة إلا بهذه الهوية ؛ فهي القاسم الوحيد الذي يمكن أن تلتقي عليه كلُّ دولِ المنطقة ممن يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ ؛ فالعرب لم يكن لهم قيمةٌ قبل الإسلام، مَنْ سمع عن عمر بن الخطاب قبل الإسلام ؟ مَنْ سمع عن أبي بكر قبل الإسلام؟ من سمع عن العرب، وعن أبطال العرب قبل الإسلام؟!!

فما ظهرت كرامة العرب إلا بالإسلام ، وما عزَّ العربُ إلا بالإسلام، قالها فاروق الأمة عمر [(١)] : « إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ، فَأَعَزَّنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا الله بِهِ ؛ أَذَلَّنَا الله».

والأمة ما ذلَّت إلا يوم أن ذابت هويتها في هوية الشرق والغرب ، وأصبحت تلك الهوية ممسوخة ، حتى قال قائل من أفراد هذه الأمة قولةً

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٦١ ، ٦٢) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، والألباني كما في «الصحيحة» (١/ ١١٨) تحت حديث (٥١).

خبيثةً خطيرةً تبين مدى الذوبان، ومدى الهوان ، ومدى الضعف الذي حلَّ بالأمة ؛ فقال : «لقد عزمنا على أن نأخذ كلَّ ما عند الغربيين حتى الالتهابات التي في رئاتهم ، والنجاسات التي في أمعائهم»!!

هلاَّ أخذت أطيب ما عند الغربيين؟ نُقَدِّر قولك ، ونجعله على الرأس ؛ إذ إننا لسنا ضيقي الأفق، ولسنا متشددين، ولا متزمتين ، ولا مغلقين، ولا منغلقين، لنقول: لا ، لكلِّ جديد يَفِدُ إلينا من الخارج ، إذا كان هذا الجديد لا يصطدم مع عقيدتنا ولا مع أخلاقنا ولا مع ديننا ، هذا ضيق أفق ، وفهم باطل.

بل إننا نقول : نعم لكلِّ جديدٍ يَفِدُ إلينا من الشرق ، ويَفِدُ إلينا من الغرب ، ما دام هذا الجديد لا يصطدم مع عقيدتنا ، ولا مع أخلاقنا ؛ مرحبًا به ، لكن الأمة ، وبكلِّ أسف راحت تنقل أعفن وأقذر ما وصل إليه الغرب في الجانب العقدي ، والأخلاقي ، والفكري ، والسلوكي ، وتركت أروع ما وصل إليه الغرب في الجانب العلمي والمادي ، وهذا هو الذوبان الذي حذَّر منه ﷺ، ولقد وقف بعض أهل العلم مع لفظة الضبِّ الواردة في الحديث الصحيح [(١)] ، واستخرجوا فائدة عجيبة ، ألا وهي أن الضب هو الحيوان الوحيد الذي لا يسمح أبدًا حتى لشريكة حياته - أي الأنثى - أن تقاسمه جحره ، ومع ذلك لضعف الأمة وهوانها وذلها لو دخل اليهود والنصارى جحر هذا الضب الذي لا يقبل أبدًا شريكًا له سيشاركون اليهود والنصارى فيه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ فانظر إلى هذا التعبير النبوي البليغ « حَتَّى لَوْ دخَلَوا جُحْرَ ضَبٍّ لاتَّبَعْتُمُوهُمْ » .

---

(١) تقدَّم قريبًا ؛ وأوله : « لتتبعن سنن من كان قبلكم . . . ».

وبكلِّ أسفٍ شارك في هذا المسخ لهوية المسلمين كثيرٌ ممن يقودون الآن دفة التربية ، ودفة التوجيه في بلاد المسلمين بحسن نية أو بسوء نية ، بقصد أو بدون قصد !!

وينبغي على شباب الصحوة وعلى النساء كذلك ممن يتربون الآن على مائدة القرآن والسنة الصحيحة على الأقل ، ينبغي على هؤلاء أن يفطنوا إلى هذه المؤامرة الخطيرة الحقيرة التي بسببها ذابت هوية الأمة في العقود الماضية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأنا أرى الآن أن الأمة بدأت تفطن إلى هذا الخطر ، وبدأ كثير من الشباب ـ حتى من صغار الشباب ، ومن صغار بناتنا وأخواتنا ـ أصبح كثير منهم ينتبه إلى هذا المأزق الحرج ؛ فلو سألت الآن شابًّا صغيرًا من شبابنا عن سبب وسرِّ أزمة الأمة لقال لك : إنه البعد عن الإسلام والقرآن والسنَّة ؛ فالأمة بلا نزاع ـ في الجملة ـ ولا أقول: كل الأمة، بدأت تتحول في غالبها من مرحلة أزمة الوعي إلى مرحلة وعي الأزمة.

ولقد كانت نصيحة لويس التاسع لما أُسِر في دار ابن لقمان بالمنصورة . أسأل الله أن يديم النصر والعز على المنصورة .

صرَّح لويس تصريحًا خبيثًا خطيرًا ؛ فقال لقومه : إن أردتم أن تهزموا المسلمين ، فلا تقاتلوهم بالسلاح وحْدَهُ ، فقد هُزمتم أمامهم في معركة السلاح ، ولكن حاربوهم في عقيدتهم ؛ فهي مكمن القوة فيهم ، وأخذ الصليبيون الحاقدون في أوربا بنصيحة هذا الملك المأسور ، وبدأ الغرب يخطط لغزو المسلمين غزوًا جديدًا ، لا غزوًا عسكريًّا ، وإنما غزوًا فكريًّا بكلِّ ما فيه من عقيدة وأخلاق ، وهو أخطر أنواع الغزو الحديث إلى

يومنا هذا ، وأنا أقرر بأمانة : أننا لازلنا إلى هذه اللحظة مهزومين هزيمة نكراء في هذا الغزو الفكري الجديد!

فالمسلم يُغْزى الآن فكريًا في غرفة نومه ، ويجلس المسلم الآن في غرفة نومه ليشاهد الزنا بعينيه ، مما يبثه وينقله إليه الأعداء ، وليس في الأفلام الجنسية الداعرة فحسب ؛ بل في المسلسلات والأفلام الأجنبية ؛ بل وفي العربية ، غزو فكري ؛ لأننا اتبعنا سنن القوم شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع ؛ بل وقد تُصْدم حينما تربي ولدك تربية ترضي الله ﷻ فلا يرى ولدك تلفازًا في البيت ، ولا يسمع كلمة نابية ولا خارجة ، فيذهب إلى المدرسة ليجتمع مع الأطفال الذين رأوا وسمعوا ؛ فينقل إليك بعد ذلك من الكلمات ما يذهل عقلك ، ويخلع قلبك ؛ لأنك تبني وغيرك يَهْدِمُ ، تربي في البيت ويخرج الولد إلى الشارع . . إلى الجامعة . . إلى الإعلانات . . إلى الإعلام ؛ فيهدم كلَّ ما أصلت وما قعَّدت ، وما بنيت ! فتنةٌ من جميع النواحي والجوانب .

غزوٌ فكريٌّ خطط الأعداء له ، وبدؤوا بخطوات مرسومةٍ ، وبدؤوا بمرحلتين : هدم وبناء ، هدم للهوية الإسلامية ، وبناء للهوية الغربية .

وبدؤوا بالدعوة إلى إحياء وإظهار الحضارات القديمة التي سبقت حضارة الإسلام ، فبدؤوا بمصر. ومصر هي البوابة للعالم الإسلامي كلِّه بلا نزاع ، إما أن تصدر مصر للعالم الإسلامي الخير ، وإما أن تصدر الشر، ولذلك فإن الحرب على مصر لا تقارن بأيِّ حرب على أي بلد آخر ؛ فلو حوربت دولة على وجه الأرض بمثل ما حوربت به مصر ما بقي لها على وجه الأرض من سبيل .

أسأل الله أن يحفظ مصر ، وأن يجعلها أمنًا أمانًا سخاءً رخاءً ، وبوابة خير للإسلام وللبشرية كلِّها ؛ إنه على كل شيءٍ قدير .

بدؤوا بمصر ؛ فدعا هؤلاء الأعداء إلى إحياء الحضارة الفرعونية ، ويدؤوا يعزفون على هذا الوتر ، وانتقلوا إلى كل دول المسلمين في المنطقة ، فبدؤوا يدندنون على الحضارة الفرعونية ، حتى قال حافظ إبراهيم متأثرًا بهذه الدعوة الخطيرة التي لم ينتبه إليها كثيرٌ من الناس ، قال :

أنا مصريٌّ بناني من بَنَى هَرَم الدَّهر الذي أعيا الفنى

ثم بدؤوا يفجرون الدعوة إلى الوطنية وإلى القومية ؛ فأصبح المسلم لا يرى وطنه إلا متمثلًا في بلده الذي يعيش فيه .. وطنك مصر فقط ، لكن إذا ذبح مسلم في البوسنة لا يهمه ذلك ولا يشغله ، في فلسطين ، في كوسوفو، في كشمير ، في طاجكستان ، في تركستان ، في الفلبين ، في الصومال ، في أي مكان يرى المسلم أخاه المسلم يذبح ذبح الخراف ، ويرى ذلك بعينيه على شاشة التلفاز ؛ فلا يتأثر قلبه ، لماذا ؟ لأنه ثمرةٌ مرة لدعوة خبيثة خطيرة أُصِّلَت وأُسِّسَت ، ألا وهي الدعوة إلى الوطنية والقومية ، بحيث أصبح كثير من المسلمين لا يرى وطنه إلا في حدوده الضيقة التي يعيش فيها فحسب ، حتى قال أحمد شوقي ـ رحم الله الجميع ، وغفر الله لنا ولهم ـ وهو يتحدث عن مصر كوطنه :

وَجْه الكنانة لا يغضب ربكم أن تجعلوه كوجه معبودا

وَلُّوا إليه في الدروس وجوهكم وإذا فرغتم فاعبدوه هجورًا

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

فكلُّنا نحب مصر، ولكن لا نعطي حق الله لمصر ؛ فلا ينبغي أن تزلزل عقيدتنا ، ولا أن تمسخ هويتنا إلى هذا الحد !!

وترى دعوة إلى الحضارة القديمة ؛ حتى قال عميد الأدب العربي : «إن مصر ستظل فرعونية ، ولو وقف الإسلام حجر عثرة في طريق فرعونيتنا ، لنحينا الإسلام جانبا لتبقي مصر فرعونية » !! فهي حربٌ خطيرة ، ورهيبة ، ومسخ للهوية .

ولا شك على الإطلاق أنه لا مخرج لهذا الأمة من هذه الأزمة إلا إذا عادت إلى هويتها المسلمة ، إلى قرآن ربها ، وإلى سنة نبيها ، واعتزازنا بهذه الهوية ، وأعداؤنا يعلمون علم اليقين أن الأمة لا عزة لها ، ولا كرامة لها إلا إذا عادت إلى الإسلام ، وإلى هويتها الحقيقية ، وإلى جذورها الحقيقية في الأرض التي تضمن لها البقاء والسيادة والسعادة .

قال اللورد كرومر : «لابد من المحافظة على المظاهر الزائفة للإسلام ، حتى يظل المسلمون في اطمئنان خادع ، وإلى أن إسلامهم مازال بخير في الوقت الذي تُقتلع فيه عقيدتهم من جذورها »!!

فهم يعلمون أن الكرامة في هذه الأمة هي عودتها إلى هويتها .

ولذلك قال مناحم بيجين ـ الإرهابي الكبير: « لقد نجحنا طيلة السنوات الماضية بفضل جهودنا ، وجهود أصدقائنا في المنطقة ؛ أن يظل الإسلام بعيدًا عن المعركة ، ويجب أن نحاول جاهدين بكل ما نملك أن يظل الإسلام بعيدًا عن ساحة المعركة » .

نعم ..لا يريدون للهوية المسلمة أن تظهر في أي جانب من الجوانب .

وهذه علامةٌ قد ظهرت كما أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق

عن الهوى ﷺ؛ أسأل الله ﷻ أن يردَّ الأمة إلى الحق ردًّا جميلًا، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال.

*****

العلامة الرابعة والثلاثون: تكالُبُ أمم الكفر على أمة الإسلام

ففي الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده»، وأبو داود في «سننه»، وأبو نعيم في «حليته» وغيرهم، وصححه شيخنا الألبانيُّ بمجموع طرقه [(١)] من حديث ثوبان ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»؛ فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهَنَ»؛ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله! وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ».

وأظنُّ أن واقع الأمة لا يحتاج إلي كثيرِ إيضاح؛ فإن الأمة قد أصبحت قصعة مستباحةً لأحقر أمم الأرض، وطمع في الأمة الضعيفُ قبل القوي، والذليلُ قبل العزيز، والداني قبل القاصي، وأصبحت الأمة الآن غثاءً كما قال الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى!!

لقد أصبحت الأمة الآن غثاءً من النفايات البشرية، تعيش على ضفاف مجرى الحياة الإنسانية كدُويْلاتٍ متناثرةٍ متصارعة، تفصل بينها حدودٌ جغرافية مصطنعة، ونعراتٍ قومية جاهلية بغيضة، وترفرف على سماء الأمة رايات القومية والوطنية، وتحكم الأمة قوانين الغرب

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على أمة الإسلام (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٨٢)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٠١) (١٤٥٢)، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٨١٨٣) و«الصحيحة» (٩٥٨).

العلمانية ، وتدور بالأمة كلِّها الدوامات السياسية ، فلا تملك الأمة نفسها عن الدوران ؛ بل ولا تختار لنفسها حتى المكان الذي ستدور فيه !!!

ذلَّت بعد عزَّة ، وجهلت بعد علم ، وضعفت بعد قوة ، وأصبحت ؛ كما أقول دومًا وأكرر ؛ أصبحت الأمة في ذيل القافلة البشرية ، بعد أن كانت الأمة بالأمس القريب تقود البشرية كلَّها بجدارةٍ واقتدار ، وأصبحت الأمة الآن تتسوَّلُ على موائد الفكر الإنساني والعلمي ؛ بعد أن كانت الأمة بالأمس القريب منارة تهدي الحيارى والتائهين ممن أحرقهم لفح الهاجرة القاتل ، وأرهقهم طول المشي في التيه والظلام ؛ وإن ما رأيناه في السنوات القليلة الماضية من تكالبِ أحقرِ وأذلِّ وأخسِّ الأمم على أمة النبيِّ ﷺ لمن أعظم الأدلة العلمية على تحقق النبوءة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحية .

ترى الآن اليهود والصليبين ؛ بل وترى عُبَّاد البقر ، ترى تقريبًا كلّ أمم الكفر تتكالب على أمة الإسلام ، انظر إلى حجم الدول التي جنَّدت طاقتها وقدراتها وجنودها للقضاء على دولة عربية مسلمة كدولة العراق مثلًا ، جنَّدت كل الطاقات ، وضاعت الآن في الأمة المقدسات ، ضاع القدس بعد ضياع الأندلس ، وبإذن الله لن تضيع القدس إلى غير رجعة ، وهذا ما أصَّلناه وبيَّناه ؛ لكنني أتكلَّم الآن عن واقع الأمة في زماننا الراهن .. ضاعت المقدسات ، وانتهكت الأعراض ، وانتهك الشرف ، وضاعت الأرض ، وضاعت الأندلس ، والبوسنة ، وكوسوفو ، والإسلام الآن والمسلمون يتعرض لأعنف الضربات ، وأشد الهجمات في السودان ، في الجنوب ، في فلسطين ، في كشمير ، في الصومال ، في

الفلبين ، . . . . تقريبًا في كلِّ مكان بلا استثناء .

ففي كلِّ بلد على الإسلام دائرة ينهدُّ من هولها رضوى وثهلان
ذبح وصلب وتقتيل بإخوتنا كما أعدَّت لتشفي الحقدَ نيران
يستصرخون ذوي الإيمان عاطفةً فلم يُغِثْهم بيوم الروع أعوان
فهل هذه غيرةٌ أم هذه ضعةٌ للكفر ذكرٌ وللإسلام نسيان

واقع مرٌّ تكالبت كلُّ أمم الكفر على أمة الإسلام . كما تتكالب الأكلة على القصعة ، كل أمم الكفر تطمع في أمة الإسلام ، لماذا ؟ .

لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حبا هذه الأمة العظيمة بمقومات وإمكانات ، لو عرفت أمة التوحيد قدرها ؛ لأصبحت أعزَّ أمة على وَجْه الأرض ، كما أراد الله لها سبحانه وتعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وأنا أقول : خيرية الأمة المحمدية ليست ذاتية ، ولا عصبية ، ولا عرفية ، ولا عربية ، ولكنها خيرية مستمدة من الرسالة العظيمة الشريفة التي كُلِّفت أمة الإسلام بحملها إلى الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ما استمدت الأمة الإسلامية هذه الخيرية إلا من هذه الرسالة ، إلا من هوية الإسلام والتوحيد والإيمان .. حباها الله بالإسلام ، ومنَّ عليها بالقران ، وبعث إليها محمدًا ﷺ ، ثم اختار لها المكان الوسط في الأرض كلِّها .

فأمةُ الإسلام أمةٌ وسط في الاعتقاد ، في الفكر ، في السلوك ، حتى في الأرض ، ثم حباها بالنعم التي يحسدها عليها كلُّ أمم الكفر : البترول ؛ بل أعظم كلِّ هذه الثروات : الإنسان ، وأمة الإسلام أمة ولودٌ ، أمةٌ

معطاءةٌ والعالم كلُّه يخشى في السنوات القليلة المقبلة من التفوق السكانيِّ المسلم ؛ من كثرة عدد المسلمين على وجه الأرض ، فإن أرحام نساء أوربا تعجز عن ملاحقة أرحام المسلمات ، وهذا بتقدير رب الأرض والسماوات ؛ فأمم الكفر تتكالب على خيرات هذه الأمة ، ولا تريد أبدًا لهذه الأمة أن تسود ، وتعلم أمم الكفر أن أصل السيادة لهذه الأمة في كل زمان ومكان هو تمسُّكُها بالإسلام ؛ لقد كنا أذل قوم فأعزَّنا الله بالإسلام ، فمهما ابتغينا العز في غيره أذلَّنا الله .

وبكلِّ أسف ؛ قال موشى ديان - وصدق وهو كذوب: « أمة العرب لا تقرأ ، وإن قرأت لا تفهم ، وإن فهمت لا تعمل ، وإن عملت لا تُخْلص ، وإن أخلصت لا تستمر » .

تشخيص لهذا الأمة حين تنفك عن هويتها المسلمة ، وتنحرف بعيدًا عن منهج الله ، وعن منهج رسول الله ﷺ .

فحالُ أمتنا حالٌ عجيبة ... وهي لعمر الله بائسة كئيبة
يجتاحها الطوفان طوفان المؤامرة الرهيبة
ويخطط المتآمرون كي يغرقوها في المصيبة
وسيحفرون لها قبورًا ضمن خطتهم رحيبة

ومن آخر هذه القبور قالوا : السلام ، قالوا : السلام . قلت :

يعود الأهْلُ للأرض السليبة ... وسيلبس الأقصى غدا أثوابًا قشيبة
فإذا السلام هو التنازل عن القدس الحبيبة
فبئس سلامهم إذًا وبئست هذه الخطط المريبة

ولا حول ولا قوة إلا بالله !!

هذا هو الواقع الذي يبينه لنا النبيُّ ﷺ، وقد وقع بالفعل كما أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، إلا أن هذا الواقع لا ينفي أبدًا أن تبقى في الأمة طائفةٌ ظاهرةٌ على الحق لا يضرُّها من خذلها أو من خالفها حتى يأتي أمر الله .

أسأل الله أن نكون منهم بمنّه وكرمه ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

العلامة الخامسة والثلاثون : غربة الإسلام

وهذه من العلامات التي أخبر عنها النبيُّ ﷺ؛ فقال كما في «صحيح مسلم» [1] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا » . وفي لفظٍ في «صحيح مسلم» [2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « بَدَأَ الْإِسْلَامَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ » .

ولقد ورد هذا الحديث باختلاف سياقه وعباراته من طرق كثيرة جدًّا موصولًا، ومرسلًا، وقد روى هذا الحديث عن النبيِّ ﷺ عددٌ من الصحابة، يربو على العشرين صحابيًّا .

فمن الغرباء ؟

ورد في روايات كثيرة يُقَوِّي بعضها بعضًا أنه ﷺ قال: « فَطُوبَى

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وأنه يأرز بين المسجدين (١٤٦) .

(٢) المصدر السابق برقم (١٤٥) .

لِلْغُرَبَاءِ» ، قِيلَ : وَمَنْ الغُرَبَاءُ ؟ قال : «النُّزَّاعُ مِنَ القَبَائِلِ»[١] . وفي هذه اللفظة مقال.

قال الآجريُّ رحمه الله : أنشدني عبد الله بن حميد أبو بكر المؤدب في معنى هذا الحديث[٢]:

بدأ الإسلام حين بدأ غريبًا وكيف بدا يعود على الدلائل

فطوبى فيه للغرباء طوبى لجميع الآخرين والأوائل

كما قال الرسول فقيل : مَنْ هم؟ فقال : النازعون من القبائل

وفي رواية من حديث جابر مرفوعًا : «إنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» ، قَالَ : وَمَنْ الغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ : «الذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ» . وفي لفظٍ : «عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ»[٣].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب بدأ الإسلام غريبًا (٣٩٨٨) ، وأحمد (١/ ٣٩٨)، والدارمي (٢٧٥٥) ، وأبو يعلى (٤٩٧٥) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٨٣) (٣٤٣٦٦) ، والطبراني في «الكبير» (١٠٠٨١) ، والطحاوي في «المشكل» (٦٨٦) ، والبزار في «مسنده» (٢٠٦٩) ، والآجري في «الغرباء» (٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وقال الشيخ الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» : «صحيح ، دون : النزاع من القبائل» .
والنزاع: الغريب الذي نزع من أهله وعشيرته ، وهجر وطنه في الله تعالى .

(٢) «الغرباء» للآجري (١٩) .

(٣) أخرجه اللالكائي في «شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٧٣، ٨٩٧٧) ، والطحاوي في «المشكل» (٦٨٩) ، والآجري في «الغرباء» (٤)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ١٥٢) «والأوسط» (٤٩١٥، ٨٧١٦) ، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٢٠٠) وهناد في «الزهد» (١٢٤٥) ، وتمام في «الفوائد» (١٠٠٠) ، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عند اللالكائي (١٧٤) ، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٩) ، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٦٤) ، وفي «مسند الشهاب» (١٠٥٥) ، وانظر: «الصحيحة» (١٢٧٣) .

عنده : « طُوبَى للْغُرَبَاء » فَقِيلَ : مَن الغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ الله ؟ ، قَالَ : « أُنَاسٌ صَالِحُونَ فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِير ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ »[(١)].

وفي رواية لعبد الله بن عمرو ﷺ: قِيلَ : مَنِ الغُرَبَاءُ ؟ قَالَ : « الفَرَّارُونَ بِدِينِهِمْ يَبْعَثُهُمْ اللهُ تَعَالَى مَعَ عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ﷺ »[(٢)].

وفي لفظٍ عند الترمذي[(٣)] من حديث عمرو بن عوف ﷺ، أنه ﷺ قال عن الغرباء : « الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي » .

ومعلوم أن الإسلام قد بدأ غريبًا ؛ حيث أن النبيَّ ﷺ كان وحده في أرض الجزيرة يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد ، يعيش ﷺ في عالم مليء بالشرك والإلحاد والوثنية والكفر والزندقة ، جاء ليغير هذا الواقع، وليعيد الناس لعبادة الله الواحد الأحد ، وليقيم الناس على منهج الله ﷻ، وانطلق بين الناس ليقول : أيها الناس اعبدوا الله ، وحده لا شريك له ، واتركوا ما يعبد آباؤكم . ولك أن تتخيل ، أن الرجل كان يذبح أخاه من أجل ناقة .

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢ / ١٧٧ ، ٢٢٢) ، والطبراني في «الأوسط» (٨٩٨٦) ، وانظر: «الغرباء» للآجري (٦) ، و«الزهد» لابن المبارك (٧٧٥) ، و«مسند ابن المبارك» (٢٣)، والبيهقي في الزهد (٢٠٣) ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٦١٩) ، و«صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٨٨) .

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (١٤٩) ، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٢٠٤) ، وانظر: «الفتن» لنعيم بن حماد (١٦٨) ، و«الزهد لأحمد» (٧٧) ، و«الزهد» لابن المبارك (١٥١٣) ، و«الغرباء» للآجري (٣٧) ، و«السنن الواردة في الفتن» لأبي عمرو الداني (١٦٠) ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧١) .

(٣) أخرجه الترمذي ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا (٢٦٣٠) وقال : «حديث حسن صحيح» ، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ١٦) (رقم ١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٠) ، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٥٩) ، وقال الشيخ الألباني : «ضعيف جدًا» ؛ كما في «ضعيف الجامع» (١٤٤١) و«المشكاة» (١٧٠) .

فأرجو أن تتصور كيف تكون حمية هذا الرجل من أجل آلهة يعبُدُهَا ويذبح لهذه الآلهة آلاف النوق ؟! وبمجرد ما قام النبيُّ ﷺ ليبين عقيدة التوحيد في هذه البيئة كان أول من تصدَّى له عمه أبو لهب [1] ؟ فقال : تبًّا لك سائر اليوم يا محمد ، ونزل قول الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ [المسد : ١-٥] .

فبمجرد ما أُعلنت كلمةُ التوحيد في أرض مكة أرعدت مكة وأبرقت ، ودقَّتْ طبولَ الحرب و أوعدت ، وصبَّت جام غضبها على النبيِّ ﷺ ، وعلى كلِّ مَنْ وحَّد الله معه !! انظروا إلى الغربة ، وإلى معنى الغربة ، وإلى حقيقة الغربة ؛ فآمن مع النبيِّ ﷺ نفرٌ قليلٌ من أصحاب الفطر السليمة ، والعقول السوية ، من أصحاب المعادن النفيسة الكريمة ، فالتفُّوا حول النبيِّ ﷺ وآزروا دعوته ، وكانوا في الغالب من أهل مكة ، وقليل منهم من القبائل الأخرى التي تقطن خارج مكة ، وكان هؤلاء الأتباع يشعرون بالغربة الحقيقية في بلادهم وديارهم ، وبين أهليهم .

وما زال النبيُّ ﷺ والمؤمنون الصابرون المجاهدون معه في سبيل نصرة هذا الدين يزدادون ويكثرون يومًا بعد يوم ؛ حتى أُقيمت دولة الإسلام بعد سنواتٍ لا تساوي في عمر الزمن شيئًا على الإطلاق . أقيمت دولة الإسلام في المدينة ، وفتح الإسلام مكة بكلِّ عزٍّ وكرامة ،

---

(١) انظر البخاريَّ ، كتاب التفسير ، باب : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ رقم (٤٩٧٢) ، وانظر أطرفه في (١٣٩٤) ، و«صحيح مسلم» كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢٠٨) .

وزالت غربة الإسلام تمامًا في عهد النبيِّ ﷺ بعد ما أكمل الله الدين ، وأتم النعمة ، ونزل عليه قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

ولم يمت النبيُّ ﷺ إلا بعد أن أقر الله عينه بنصرة الدين والإسلام ، والتمكين لأهله ، ودحر الوثنية ؛ بل واليهودية التي كانت معه في المدينة ، وخلَّص جزيرة العرب من شَرِّ الشرك .

وبوفاة النبيِّ ﷺ حدث أول ثلم في الإسلام ، بدأت الغربة ، ثم بدأت تزول وتقلّ ، حتى زالت بالكلية قبل موت النبيِّ ﷺ .

ثم عندما مات النبيُّ ﷺ بدأ هذا المنحنى يرتفع مرة أخرى ؛ إذ إن أول خلافٍ حقيقيٍّ قد حدَثَ بعد وفاة النبيِّ ﷺ كان في اختيار من يخلف النبيَّ ﷺ في حادثة السقيفة ؛ في سقيفة بني ساعدة(١)، ولكن لم تغرب شمس هذا اليوم إلا وقد زال هذا الخلاف بالكلية ، يوم أن بايعوا أبا بكر ﷺ ويومها قال عمر قولته الجميلة الرقراقة في حق أبي بكر وروي كذلك عن عليٍّ : « الصلاة هي أفضل ديننا ، ويرضى النبيُّ ﷺ أبا بكر لديننا ولا نرضاه نحن لدنيانا »(٢) .

---

(١) انظر البخاريَّ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب قول النبيِّ ﷺ : «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٦٨) ، وانظر : (٦٨٣٠) ، وأحمد في «المسند» (١/ ٢١ ، ٥٥ ، ٣٩٦ ، ٤٠٥) ، وابن حبان (٤١٣ ، ٤١٤) ، والحاكم (٣/ ٧٠) ، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٥/ ٤٣٩) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧١٦٥ ، ٣٧٠٤٣ ، ٣٧٠٤٤).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١٨٣) ، والخلال في «السنة» (٣٣٣) ، والآجري في «الشريعة» (١٢٥٣) ، وابن عساكر (٣٠/ ٢٦٥) ، و(٤٢/ ٤٤٢) من طريق أبي بكر الهذلي عن الحسن عن علي قوله : وفيه الهذلي وهو متروك ، ورواه الآجري (١٢٥٢) ، واللالكائي (٢٤٥٥) من طريق النزال بن سبرة عن علي ، وسنده ضعيف ؛ ففيه هلال بن العلاء وهو منكر

فتقدم الصدِّيق فبايعه عمر، وبايع الصديق: أبو عبيدة، ثم بايع الصديق: الأنصار الأخيار الأطهار، ثم بايع الصحابةُ ﷺ، وأول ثلم وقع في الإسلام كان يوم أن تُوفي المصطفى ﷺ.

ثم بانتهاء عصر الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر ﷺ حدث ثلم آخر، إذ كان عمر ﷺ البابَ الذي حفظ الله ﷺ به أمة النبيِّ ﷺ من الفتن؛ كما قال حذيفة ﷺ [(١)].

وبانتهاء عصر الخلافة الراشدة وهي ثلاثون سنة؛ كما أخبر النبيُّ ﷺ بقوله: «الْخِلافَةُ ثَلاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ تَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ مُلْكًا» [(٢)].

وحدث ثلم ثالث بانتهاء عصر الخلفاء الاثنى عشر! وحدث ثلم رابع!

والحديث في «صحيح مسلم» [(٣)] من حديث جابر بن سمرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ يَزَالُ الإِسْلاَمُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ».

وبانقراض القرون المفضلة حدث ثلم خامس!

والغربة التي ذكرها النبيُّ ﷺ تنقسم إلى صورتين:

= الحديث، وورد عن عمر كما في شرح السندي لمسند الشافعي (٣٦٢)، و«دليل الفالحين» (٤/ ٢٦٦)، و«البحر المحيط» (٣/ ٥٠١).

(١) راجع «الصحيحين» (البخاري ٣٥٦٨)، و(مسلم ١٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥ / ٢٢٠، ٢٢١)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في الخلافة (٤٦٤٦)، والترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلافة (٢٢٢٦) وقال: «وهذا حديث حسن» والنسائي في «الكبرى» (٨١٥٥)، والطبري في «صريح السنة» (٢٦)، وحسن إسناده الشيخ شعيب في «تخريج السير» للذهبي (٣/ ١٥٧، ١٥٨)، وانظر بحثا موسعًا فيه في «الصحيحة» (٤٥٩).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨٢١، ١٨٢٢).

الأولى هي : غربة أهل الإسلام في أهل الأديان

أي : في أهل الكفر ، في كلِّ زمان ومكان ؛ فالمسلمون في الكفار ؛ كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض ، أو كالشامة في جنب البعير ، أو كالرقمة في ذراع الدابة ، والرقمة هي الشيء الذي يرتفع عن ذراع الدابة بحيث تراه بارزًا واضحًا .

معنى ذلك أن أهل الإيمان في أهل الكفر شرعًا وقدرًا قلة قليلة ؛ قال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص:٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ كما في « الصحيحين »[(١)] قال : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قُبَّةٍ فَقَالَ : « أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ » قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ: « أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ » قُلْنَا : نَعَمْ قَالَ : « أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ » .

وفي «الصحيحين»[(٢)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « يَقُولُ اللهُ ﷻ : يَا آدَمُ ، فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب الحشر (٦٥٢٨) وانظر طرفه هناك ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (٢٢١).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قصة يأجوج و مأجوج (٣٣٤٨) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله : « يقول الله لآدم أخرج بعث النار » (٢٢٢) .

فَيَقُولُ : أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ ، قَالَ : وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ قَالَ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ » قَالَ : فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ .

وفي رواية : « فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ» قَالُوا : يَارَسُولَ الله !! أَيُّنَا ذَلِك الواحدُ ؟ ، (وفي لفظٍ : أَيُّنَا ذَلكَ الرَّجُلُ ؟) فَقَالَ : « أَبْشِرُوا ؛ فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، وَمِنكُمْ وَاحِدٌ » ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ : « والَّذي نَفْسِي بيَده ! إِنِّي لَأَرْجُو (وفي رواية : لأَطْمَعُ) أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ » ، فَحَمَدْنَا الله وكَبَّرْنَا، (وفي لفظٍ : فَكَبَّرْنَا) ؛ فَقَالَ : « والَّذي نَفْسِي بيده ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ » ، فَحَمَدْنَا الله وكَبَّرْنَا ، ثُمَّ قَالَ : « والَّذي نَفْسِي بيَده ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ (وفي رواية : «شَطْرَ») أَهْلِ الْجَنَّةِ ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الحِمَارِ » .

وفي« الصحيحين »[(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ، وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي ، فَقِيلَ لِي : هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ فَنَظَرْتُ ؛ فَإِذَا سَوَادٌ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الطب ، باب من اكتوى أو كوى غيره (٥٧٠٥) وفي (٥٧٥٢) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢٢٠) .

عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي : انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ؛ فَقِيلَ لِي : هَذِهِ أُمَّتُكَ ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ » .

وفي رواية عند أحمد و البيهقي في «البعث» بسندٍ جوَّده الحافظ ابن حجر وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ بشواهده في « السلسلة الصحيحة »[1] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ فَوَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي ﷻ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا ».

فهذه كرامةٌ للأمة ؛ بل إن شئت فقُل : للحبيب المصطفى ﷺ .

وممـا زادني فخـرًا وتيهًـا وكـدت بـأخمصي أطـأ الثريَّـا
دخولي تحت قولك يا عبادي وقـد أرسـلْتَ أحمـد لي نبيًّـا

فالصورة الأولى من صور الغربة : هي غربة أهل الإسلام في أهل الأديان . وهذه الحقيقةُ ثابتةٌ شرعًا وقدرًا ، وهي قلة المؤمنين بالمقارنة بالمشركين و الكافرين و المنافقين ، وهذه الحقيقة تؤصِّلُ لنا بعض القواعد والأصول التي لا ينبغي لأيِّ مسلم أن يتجاهلها بصفةٍ عامة ، ولشبابنا بصفة خاصة .

أولًا : من يطمع من شبابنا المخلص المتحمس في أن يطهر الأرض كلها من الشرك ، ومن أهل الكفر ، هذا خيالي ومثالي ، ولا تنبني أمنية على واقع شرعًا وقدرًا .

(١) أخرجه أحمد (٢ / ٣٥٩) ، والبيهقي في «كتاب البعث» (٤١٦) ، وقال الحافظ في «الفتح» (١١ / ٤١٠) : «سنده جيد » ، وصححه الشيخ الألباني بشواهده في « الصحيحة » (١٤٨٤) وله شواهد من حديث أبي أمامة وعتبة بن عبد السلمي وأبي سعيد الأنماري ﷺ جميعًا .

ثانيًا: الذين يظنون أو ينظرون إلى هذه الحقيقة ، ويقولون : إن أهل الكفر كثرة ، وبأن أهل الإيمان قلة ، فهذا معناه ألا نعافر ، وأن لا نتعب أنفسنا ، وأن لا نأخذ بالأسباب ، وأن نقعد عن الدعوة ، وعن دعوة هؤلاء الكافرين والمشركين إلى الإسلام !!وهذا أيضًا فهم خاطئ ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لما تحرك النبيُّ ﷺ وأصحابه إلى التوحيد ممن قدَّر الله ﷻ لهم الهداية سلفًا ؛ فلا ينبغي على الإطلاق أن نجنح بخيالنا في هذه أو أن نتقاعد في تلك ، وإنما يجب علينا مع علمنا اليقيني بهذه الحقيقة الشرعية والقدرية أن نتحرك لدعوة هؤلاء الناس إلى الله ، وأن نقيم عليهم حجة الله ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥] ؛ ليهتدي من قدَّر الله ﷻ له سلفًا الهداية ، وهناك من أهل الشرك من قدَّر الله ﷻ له سلفًا الهداية والتوحيد والإيمان ، وينبغي على أهل الإيمان أن يبلغوا دعوة الله ، ودينه وشرعه.

أما الصورة الثانية من صور الغربة : فهي غربة أهل السنة في الأمة . وهذه الصورة نراها الآن ظاهرة بجلاء ، ولا أبالغ إذا قُلْتُ : وغربة أهل السنة من الصابرين عليها ، والمتمسكين بها ؛ قد تكون في كثير من الأحيان أشد من غربة أهل الإسلام في أهل الأديان ، فالمتبع المتمسك بسنة النبيِّ ﷺ ، كلَّما زاد تمسكًا ، كلَّما شعر بأنه يَقْبِض على جمر بين يديه ، يكثر أعداؤه ، ويكثر مخالفوه ، وهذه سنةٌ شرعية وقدرية . لقد أصبحت السنة الآن في هذا الزمن غريبة ؛ بل ربما يتهم أصحابها كذلك . ولا حول ولا قوةَ إلا بالله . ولله درُّ القائل:

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا ... فقد صاروا أقلَّ من القليلِ

ويجد هذا الغريب المتبع لسنة النبيِّ الحبيب ﷺ كَرْبَ الغربة ، وشدة الغربة ، وألَمَ الغربة على النفس حين يكون المنابذون له وأعداؤه من أهله وإخوانه في الدين ، من المنتسبين معه في الدين العظيم ، حينئذٍ تكون الفتنة أعنف ، ويكون الابتلاء أقسى !!

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله وهو يتحدث عن الغربة وأنها تنقسم إلى ظاهرة ، وباطنة ؛ قال[1] : « فالظاهرة :غربة أهل الصلاح بين الفساق ، وغربة الصادقين بين أهل الرياء والنفاق ، وغربة العلماء بين أهل الجهل وسوء الأخلاق ، وغربة أهل الآخرة بين علماء الدنيا الذين سلبوا الخشية والإشفاق ، وغربة الزاهدين بين الراغبين في كلِّ ما ينفد ، وليس هو بباق».

فالمسلم لا يتعجب أن يحاربه الكفار ؛ بل ربما يكون درويشًا إن لم يتوقع من الكفار أن يعلنوا الحرب عليه ،وهو أمرٌ عادي ؛ بل ربما يكون العجب إن لم يحارب الكفار أهل الإسلام ، لكن أن يعادي المسلم المتبع أهْلَ ملته وأهل دينه ؛ فهذه هي الكارثة ،وهذه هي الفتنة بحق !!

ولذلك قال سفيان الثوري رحمه الله : « استوصوا بأهل السنة خيرًا فإنهم غرباء» [2]فإن شعرت بالغربة فضع أنفك في التراب شكرًا لله ؛ لأنك قد حصلت على شهادة ضمنية بأنك من أهل السنة المتبعين لسيد البشرية ﷺ .

والله الذي لا إله غيره ؛ إنها لكرامة أن يقال عن المتبع: إرهابي! ومتطرف،

(١) انظر: «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» (٣٢٨) ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي . ط الفاروق .

(٢) أخرجه اللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة » (٤٩) ، وذكره الذهبيُّ في«السير» (٧/ ٢٧٣) ، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس » (١٠) .

ومتخلف ، ورجعي ، وجامد ، ومتأخر ، وسطحي ، أصولي ، وصولي ، فضولي ، فوضوي!! إلى آخر هذه التهم المعلبة التي تُكَالُ الآن في الليل والنهار لأهل السنة ؛ فاستوصوا بأهل السنة خيرًا فإنهم غرباء .

وقال الحسن ـ رحمة الله عليه [(١)]: «يا أهل السنة ، ترفقوا ، رحمكم الله ، فإنكم من أقل الناس» .

وقال يونس بن عبيد: «ليس شيءٌ أغرب من السنة ، وأغرب منها من يعرفها » ، وقال : « أصبح من إذا عُرِّف السنة فَعَرِفها غريبًا ، وأغرب منه من يُعَرِّفُها» [(٢)].

ويقول ابن رجب رحمه الله : « وإنما ذل المؤمن في آخر الزمان لغربته بين أهل الفساد من أهل الشبهات والشهوات ، فكلُّهم يكرهه و يؤذيه ، لمخالفة طريقه لطريقهم ، ومقصوده لمقصودهم ، ومباينته لهم فيما هم عليه » [(٣)].

وقال سفيان [(٤)] : «إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سنة وآخر بالمغرب ، فابعث إليهما بالسلام ، وادع الله لهما، فما أقلَّ أهل السنة».

وقال أبو بكر بن عياش رحمه الله : « السنة في الإسلام أعز من الإسلام في سائر الأديان » [(٥)] .

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة » (١٩) .

(٢) أخرجه اللالكائي (٢١، ٢٢، ٢٣) و أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١) ، والآجري في « الشريعة» (٢١١٣) .

(٣) «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» (٣٢١).

(٤) أخرجه أحمد في كتاب «الورع» (١٩٧) ، واللالكائي (٥٠) ، وأبو نعيم في« الحلية» (٧/ ٣٤).

(٥) أخرجه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (١٨) ، وابن عدي في«الكامل» (٤/ ٢٩).

وهذا الأمر لا ينبغي أيضًا أن يسوِّغ لنا اليأس ، والقنوط ، والقعود، بحجة أننا غرباء وقلة ، فلا نتحرك لنقيم الحجة ، ونبلغ السنة لغيرنا !! لا ؛ لا يجوز لنا ذلك ، ولو كان الأمر كذلك لما تحرك النبيُّ ﷺ بدعوته في الأمة ، ولما تحرك الصحابة ﷺ بالدعوة في الأمة ؛ بل يجب على أهل السنة أن يتحركوا بالسنة ، وأن يسيروا بهذا النور ، ولا يخشوا في الله لومة لائم .

وكُنْ - أيها الحبيب - على يقين بأن النتائج كلَّها لك خير ما دُمْتَ صادق النية متَّبعًا لهدي سيد البشرية ﷺ .

قال الشاعر:

غريبٌ يقاسي الهمَّ في أرض غربة فيا رب قرِّب دار كلِّ غريب
وأنا الغريب فلا ألام على البكا إن البكاء حسنٌ لكلِّ غريب

وبالجملة : فالغربةُ قد تكون متمثلةً في غربة الشرع ، وقد تكون متمثلة في غربة المكان ؛ فقد يكون الإسلام غريبًا في بلد دون بلد ، وقد يكون الإسلام ظاهرًا في بلدٍ عن بلد آخر ، وقد تكون الغربةُ في الزمان ، وهي الغربة المطبقة الآن على الأرض بصفة عامةٍ إلاَّ مَنْ رحم الله من أفراد في أماكن محدودة .

وصدق من قال :

أيها الغافل في ظلِّ نعيم وسرور كُنْ غريبًا واجعل الدنيا سبيلًا للعبور
واعدد النفس طوال الدهر من أهل القبور وارفض الدنيا ولا تركن إلى دار الغرور

وقال أيضًا :

وترى المؤمن في الدنيا غريبًا مستفزًا فهو لا يجزع من ذل ولا يطلب عزًّا

وتراه من جميع الخلق خلوا مشمئزًا   ثم بالطاعة ما عاش وبالخير ملزًّا

أسأل الله ﷻ أن يقر أعيننا جميعًا بعزِّ الإسلام والمسلمين .

أما أن يأتي الزمان الذي تستحكم فيه الغربة ، وتعم الجاهليةُ الأرضَ كلَّها ، فهذا لا يكون أبدًا إلا بعد موت عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ وبعد خروج يأجوج ومأجوج ، وبعد إرسال الله للريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين في الأرض ، حينئذٍ تعود الغربة كاملة لتطبق على الأرض ، ولتعم الأرض كلَّها ؛ ألا وهي: غربة الإسلام ، حينما لا يبقى في الأرض رجلٌ يقول : لا إله إلا الله [1] ! وحين لا يبقى في الأرض إلا شرار الخلق[2] ، وعلى هؤلاء تقوم الساعة ؛ كما أخبر بذلك النبيُّ ﷺ ؛ أسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم من الغرباء ؛ لأن النبيَّ ﷺ قال : «فَطُوبَى للغُرَبَاءِ» ومن القلة القليلة ؛ لأن الله يقول ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص:٢٤] .

*****

العلامة السادسة والثلاثون : تمني رؤية النبي ﷺ بين يدي الساعة

ورؤية النبيِّ ﷺ من أشهى ما يرجوه أيُّ مسلم الآن على وجه الأرض في ظلِّ هذه الفتن العارمة!!

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب ذهاب الإيمان آخر الزمان (١٤٨) من حديث أنس رضي الله عنه، ولفظه: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : الله ، الله » .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الفتن باب قرب الساعة (٢٩٤٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه : «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس» .

روى البخاريُّ ومسلم [(١)] عن أبي هريرةَ ﷺ أنه ﷺ قال في حديث له ، وفيه : « وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِكُمْ زَمَانٌ ،لأَنْ يَرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ أَهْلِهِ وَمَالِهِ» .

وهذا واقعٌ نعيشه ونحياه ، يتمنَّى أحدُنا رؤيةَ رسول الله ﷺ ويحبُّ ذلك أكثر من أن يكون له مثل أهله وماله . أسأل الله أن يجمعنا به في جنات نعيم وإن قصَّرت بنا أعمالنا ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

العلامة السابعة والثلاثون : ذهاب الخشوع من القلوب

لقد أخبر النبيُّ ﷺ بأن الخشوع هو أول ما يرفع من هذه الأمة !

ففي الحديث الذي رواه الطبرانيُّ [(٢)] وصححه الألبانيُّ من حديث أبي الدرداء ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : «أَوَّلُ شَيْءٍ يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ :الخُشُوعُ ، حَتَّى لاَ تَرَى فِيْهَا خَاشِعًا»؛ وهذا من أعظم البلاء .

وفي رواية من حديث شداد بن أوس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال :« أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ : الخُشُوعُ»[(٣)] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٨٩) ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل النظر إليه ﷺ وتمنيه (٢٣٦٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في«الكبير» كما في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٢٦) (٢٨١٣) ، وقال : « إسناده حسن » ، «ومسند الشاميين » (١٥٧٩) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع » (٢٥٦٩) و«صحيح الترغيب»(٥٤٢) .

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧/ ٢٩٥) و«مسند الشاميين» (٢٦٣٧) وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٢٦) (٢٨١٤) :« رواه الطبراني في«الكبير» وفيه عمران بن داور القطان ، ضعَّفه ابن معين والنسائي ووثقه أحمد وابن حبان » وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٥٧٦) و « صحيح الترغيب » (٥٤٤) .

وعن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ : « كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَالَ : «هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لاَ يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ ». فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه : كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ ؟ ! فَوَاللهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا؛ فَقَالَ : « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ ؟» قَالَ جُبَيْرٌ: فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، قُلْتُ :أَلاَ تَسْمَعُ إِلَى مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ؟! فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ؛ قَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ، إِنْ شِئْتَ لأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ: الْخُشُوعُ ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ، فَلاَ تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا». وهذا الحديث رواه الترمذيُّ والحاكم ، وقال الترمذيُّ :«حديث حسن غريب» ، وصححه الحاكم في «المستدرك » ، ووافقه الذهبيُّ (١).

وعن جبير بن نفير قال : قال عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه : أن رسولَ الله ﷺ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ يَوْمًا ؛ فقَالَ : « هَذَا أَوَانُ يُرْفَعُ الْعِلْمُ » ، فَقَالَ لهُ رَجُلٌ منَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لهُ لَبِيدُ بنُ زِيَادٍ: يَا رَسُولَ الله ! يُرْفَعُ العِلْمُ وقدْ أُثْبِتَ (في الكتابِ) وَوَعَتْهُ القُلُوبُ؟ فَقَالَ لهُ رسُولَ الله ﷺ : « إِنِّي كُنْتُ لأَحْسِبُكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ » . ثمَّ ذَكَرَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى علَى مَا في أَيْدِيهِمْ منْ كتابِ الله . قالَ : فَلَقِيتُ شَدَّادَ بنَ أَوْس فَحَدَّثْتُهُ

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء في ذهاب العلم (٢٦٥٣) وقال : «حديث حسن غريب» ، والدارمي (٢٨٨) والحاكم (١/ ١٧٩) وصححه ، ووافقه الذهبي، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٠٢٢) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٩٩٠) و«اقتضاء العلم العمل» (٨٩) .

بحديثِ عَوْفِ بنِ مَالِك . فقالَ: صَدَقَ عَوْفٌ ، ألاَ أَدُلُّكَ بِأَوَّلِ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى . قَالَ :« يُرْفَعُ الخُشُوعُ حَتَّى لا تَرَى خَاشِعًا». رواه أحمد والطبراني وابن حبان في «صحيحه» والحاكم وأبو نعيم ، وهذا لفظ الحاكم ، وقال :«صحيح ، وقد احتج الشيخان بجميع رواته» ، ووافقه الذهبيُّ ، وقال الألبانيُّ :« لا بأس به في الشواهد»(١) . ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:١٦] .

نعم .. قد تدخل المسجد الجامع ، وترى فيه صفوفًا كثيرة ، ولا ترى فيه خاشعًا واحدًا لله ﷻ حتى وإن رأيت الجوارح خاشعة ؛ فإن الجوارح ربما تخشع على قلوب لم تتذوق طعم الخشوع لله ، ستعجب إذا علمت أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ : «مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الآيَةِ إِلاَّ أَرْبَعُ سِنِينَ»(٢) .

وهو القائل نفسه ﷺ(٣) :« مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ ، فَإِنَّ

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٦) ، وابن حبان (٤٥٧٢ ، ٦٧٢٠) ، والحاكم (١/ ١٧٨) وصححه ، ووافقه الذهبي ، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٤٣) وفي «الأوائل» (٨١) ، و«مسند الشاميين» (٥٥) ، والنسائي في «الكبرى» (٥٩٠٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٣٨ ، ٢٤٧) وابن أبي عاصم في «الأوائل» (١٠٩) وصححه الشيخ الألبانيُّ في « اقتضاء العلم العمل» (٥٨).

(٢) أخرجه مسلم ،كتاب التفسير، باب في قوله تعالى:﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٣٠٢٧) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٠٥) ، وضعفه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٩٣) . وله طُرُقٌ عن ابن مسعود ؛ كما عند أبي داود في «الزهد» (١٣٢) ، والبيهقي في

الحَيَّ لاَ تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَأَبَرَّهَا قُلُوبًا ، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا ، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا ، اخْتَارَهُمْ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ، وَإِقَامَةِ دِينِهِ ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ ، وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ»، ومع ذلك يعاتبهم ربُّ العالمين بقوله : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ، والله سبحانه يقول : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] .

فمن منا الآن يقف في الصلاة كاملة من لحظة أن يقول : الله أكبر إلى قوله : السلام عليكم ، ولم يخطر بباله غير الله ، والله لو أقسمت بالله وقلت : أقل القليل ، والله ما بعدتُ ، وأول من أتهم نفسي !! فشتان شتان بين سجود القلب لله ، وبين سجود البدن ؛ فقد يسجد البدن ، والقلب بعيد ، والقلب في واد سحيق لم يتذوق طعم الخشوع ، ولا لذة المناجاة ، ولا لذة القرب من الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله . فلا يخشع القلب لآية من كتاب الله ، ولا تدمع العين لمواعظ الله ، ولا شك أن جمود العين دليلٌ على قسوة القلب وعلى عدم خشوع القلب !قال الله ﷻ في حق القرآن : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١] فالجبل والحجارة تخشع ، وقلوبنا لا تخشع !!

وقال تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ

= «السنن الكبرى» (١٠/ ١١٦) ، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١١١٨) لكنها فيها مقال .

مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤] .

فالحجارة منها ما يهبط من خشية الله ، ومن قلوبنا قلوبٌ من لا تهبط لحظة من خشية الله !! ولا حول ولا قوة إلا بالله .

إن بحثت عن قلبك وعن أثر الخشوع في قلبك فلم تجده ، فابك على نفسك دمًا بدل الدمع ، كيف لا يتأثر قلبك بآيات الله ، ولا بكلام رسول الله ﷺ ؟إن لم تجد قلبك في مثل هذا ؛ فأرجو أن ترجع إلى بيتك لتبكي على حالك ، وأن تشكو حالك إلى الله ، وأن تسأل الله أن يمنَّ عليك بقلبٍ فإنه لا قلب لك ؛ فاطلب قلبك في ثلاث مواطن : عند سماع القرآن ، وفي مجالس الذكر ، وفي أوقات الخلوة . فإن لم تجد قلبك في هذه المواطن ، فسل الله أن يمن عليك بقلب خاشع ، فإنه لا قلب لك .

والخشوع في أَصْلِ اللغة هو : الذلُّ والانخفاض والسكون .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه:١٠٨] ومنه ما وصفت به الأرض من الخشوع ؛ قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت: ٣٩] .

والخشوع ؛ كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله [(١)] : « هو قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل ، وقيل الخشوع : الانقياد للحق».

وقال الجنيد :«تذلل القلوب لعلام الغيوب».

ولا شك أن علماءنا جميعًا قد أجمعوا على أن محل الخشوع هو القلب ،

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١) ط دار الكتاب العربي . بيروت ، بتصرف.

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول : «إِيَّاكُمْ وَخُشُوعَ النِّفَاقِ» ، وفي لفظٍ : « تَعَوَّذُوا بِالله مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ » ؛ فَقِيلَ لَهُ : وَمَا خُشُوعُ النِّفَاقِ ؟ قَالَ : أَنْ تَرَى الجَسَدَ خَاشِعًا ، وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ »[(١)].

ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا قد طأطأ رقبته في الصلاة ؛ فقال له عمر : «يا صاحب الرقبة ، ارفع رقبتك ، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب »[(٢)].

ورأت الشفاء بنت عبد الله فتيانًا يقصدون في مشيتهم ، ويتكلَّمون رويدًا؛ فقالت : مَنْ هؤلاء ؟ فقالوا: نُسَّاك .فقالت : «كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع ، وإذا تكلَّم أسمع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا أطعم أشبع ، وكان هو الناسك حقًّا »[(٣)].

وقال الفضيل بن عياض : « كان يُكْره أن يُرى الرجلُ من الخشوع أكثر مما في قلبه »[(٤)].

وكان حذيفة رضي الله عنه يقول : «أَوَّلَ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمْ الْخُشُوعُ ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الصَّلَاةَ ، وَرُبَّ مُصَلٍّ لَا خَيْرَ فِيهِ ، وَيُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ الجَمَاعَةِ ، فَلَا تَرَى فِيهِمْ خَاشِعًا»[(٥)]

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٢٤٣) والبيهقي في «الشعب» (٦٩٦٦، ٦٩٦٧) ، وانظر: « الزهد» لابن المبارك (١٤٣) ، وأحمد في «الزهد» (ص١٤٢) .

(٢) «مدارج السالكين » (١/ ٥٢١) ، و«الذل والانكسار» لابن رجب (١/ ٢٩٣) ضمن مجموع رسائل ابن رجب .

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٩٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٤/ ٢٨٨) ، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (٣٥٦) ، والطبري في «تاريخه» (٢/ ٥٧٢) ولكن سنده ضعيف.

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

(٥) أخرجه الحاكم (٤/ ٥١٦) ، وابن أبي شيبة (٧/ ١٤٠) (٣٤٨٠٨) ، وأبو نعيم في «الحلية»=

وقال سهل [١]: «من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان».

وأودُّ أن أقول : إن القلب لا ينفكُّ عن حالات غفلة يسرقها منه الشيطان ، وقد شبه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى القلوب بثلاثة بيوت ؛ فقال : «قَلْب: كبيتِ السلطان مليء بالجواهر والدرر والكنوز والذهب ، وعليه من الحراس من كل جانب وناحية ، فهل يفكر لصٌّ في اقتحام هذا البيت ليسرق منه درة أو جوهرة ؟! فهذا هو حالُ قلب المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان ، وعرف طعم الخشوع ، فجعل على هذه الجواهر والدرر والكنوز من الجنود و الحراس ما يحفظون هذا النور .

والقلب الثاني : قلْبُ رجلٍ مؤمن كبيت رجل مليء بالدرر والجواهر والذهب ، ولكن لا حرس عليه ، فهل يتردد لصٌّ في أن يقتحم هذا البيت ليسرقه ؟! لا يتردد . كذلك قلب المؤمن الذي هو مليء بالإيمان والخير ، ولكنه لم يجعل لهذا الخير جندًا وحراسًا ، وإنما أهمل قلبه ، وترك هذا الخير ، وجعله عُرْضة للشيطان ، حينها يستطيع الشيطان أن يقتحم هذا القلب في الوقت الذي يريد ، ليختلس منه ما يريد !!

وأما القلب الثالث : فهو قَلْبُ عبدٍ كبيت رجل خرب لاشيء فيه ، قال : وهذا لا يفكر لصٌّ في دخوله ؛ لأنه لاشيء فيه ؛ فهذا حال قلب أهل المعاصي والكبائر ممن عكفوا على الذنوب .

فلا يتصور أن يذهب الشيطان إلى مجموعة في بار جلسوا يعاقرون الزنا ، ويشربون الخمر؛ إلا إن فكر في جريمة أكبر ؛ لكنه يفكر في أهل

= (١/ ٢٨١) ، وأحمد في «الزهد» (ص١٧٩) .

(١) انظر «تفسير الثعالبي» (٣/ ٦٤) ، و«مدارج السالكين» (١/ ٥٢١) .

الطاعة كيف يصرفهم عن هذه الطاعة ، وكيف يخرجهم من الخير إلى المعصية ، ولكن العبد المؤمن النقي التقي الذي ذاق حلاوة الإيمان ، إن تنبه بعد أَنْ زلَّت قدمه ، فاستغفر ، وأناب، وتاب إلى الله ـ عزَّ وجل ـ حصَّل أضعاف أضعاف الخير الذي سُلِب منه في حين الغفلة ، حين اختلس الشيطان منه شيئًا من الخير الذي في قلبه .

فالخشوع هو التذلل للأمر ، والاستسلام للحكم ، والتفصيل في ذلك في كتاب ابن القيم الماتع « مدارج السالكين» لمن أراد المزيد .

ولكن السؤال الآن :كيف أُحَصِّلُ الخشوع ؟

يقول ابن القيم رحمه الله[1] : «اعلم أن نمو الخشوع إنما يكون بترقب آفات النفس والعمل ، ورؤية كلِّ ذي فضل عليك ؛ فإن انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبها لك يجعل القلب خاشعًا لا محالة لمطالعة عيوب النفس والأعمال من النقائص ؛ كالكبر ، والعجب ، والرياء، وضعف الصدق ، وقلة اليقين ، وتشتت النية ، أما رؤية كلِّ ذي فضل عليك أن تراعي حقوق الناس لتؤديها ، وأن لا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم فلا تعارضهم ؛ فإن هذا من رعونات النفس ، وحماقتها ، ولا تطالبهم بحقوق نفسك ، وتعترف بفضل ذي الفضل منهم ، وتنس فضل نفسك . ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره ، وكان يقول كثيرًا: مالي ، ولا مني ، ولا فيَّ ، وكان يقول : أنا المكدي وابن المكدي ، وهكذا كان أبي وجدِّي .

وكان إذا أُثني عليه في وجهه ؛ يقول: والله إني إلى الآن لا زِلْتُ أجدِّد

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣ ، ٥٢٤) بتصرف في المعنى.

إسلامي كلَّ وقت، وما أسلمت بَعْدُ إسلامًا جيدًا !!

يقول ابن القيم: وبعث إليَّ ابن تيمية في آخر عمره قاعدةً في التفسير بخطِّه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه؛ يقول فيها:

أنا الفقير إلى رب البريات   أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي   والخير إن يأتنا من عنده آت
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة   ولا عن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازم أبدًا   كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي
وهذي الحال حال الخلق أجمعهم   وكلُّهم عنده عبدٌ له آت

وكذلك مما يقوِّي الخشوع في قلبك: أن تؤمن بقدر الله ﷻ وأن تذل له، وأن تستسلم، وأن تعلم يقينًا بأن القدر بخيره وشره لك هو الخير.

قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣].

أسأل الله ﷻ أن يرزقنا الخشوع، وأن يتقبل منَّا ومنكم صالح الأعمال؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

*****

العلامة الثامنة والثلاثون: عودة أرض العرب مروجًا وأنهارًا

والمروج: جمع مرج، والمرج هي: الأرض الواسعة التي يكثر فيها الزرع والنبات.

قال النبيُّ ﷺ كما في «صحيح مسلم»[1] من حديث أبي هريرة ﷺ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (١٥٧).

قال ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا».

وفي هذا الحديث دلالة على أن بلاد العرب سيكثر فيها الماء، وسيكثر فيها الزرع، وستتحول أرض العرب الصحراء إلى أرض خضراء؛ وإلى حدائق وغابات، والذي يؤيد هذا؛ أنه قد ظهر في بلاد العرب كثيرٌ من العيون والآبار، والتي حوَّلت كثيرًا من الأرض الصحراء إلى جنات خضراء.

ومن أهل العلم من قال: بأن هذه العلامة تكون في زمن عيسى عليه السلام حينما تُخرِجُ الأرض بركتها؛ لكن المدقق أيضًا الآن يرى أن كثيرًا من صحراء العرب قد تحوَّلت إلى جنات خضراء.

ويدلُّ على ذلك؛ ما رواه «مسلم»[(١)] عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ. فَكَانَ يَجْمَعُ الصَّلاَةَ. فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالعَصْرَ جَمِيْعًا. وَالمَغْرِبَ وَالعِشَاءَ جَمِيْعًا. حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمًا أَخَّرَ الصَّلاَةَ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالعَصْرَ جَمِيْعًا، ثُمَّ دَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ. فَصَلَّى المَغرِبَ وَالعِشَاءَ جَمِيْعًا. ثُمَّ قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غَدًا، إِنْ شَاءَ الله، عَيْنَ تَبُوكَ. وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يُضْحِيَ النَّهَارُ. فَمَنْ جَاءَهَا مِنْكُمْ فَلاَ يَمَسَّ مِنْ مَائِهَا شَيْئًا حَتَّى آتِيَ». فَجِئْنَاهَا وَقَدْ سَبَقَنَا إِلَيْهَا رَجُلاَنِ. وَالْعَيْنُ مِثْلُ الشِّرَاكِ(أي: النعل) تَبِضُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ. قَالَ: فَسَأَلَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ: «هَلْ مَسَسْتُمَا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا». قَالاَ: نَعَمْ. فَسَبَّهُمَا النبيُّ ﷺ وَقَالَ لَهُمَا مَا شَاءَ الله أَنْ يَقُولَ. قَالَ: ثُمَّ غَرَفُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعَيْنِ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى اجْتَمَعَ فِي شَيْءٍ. قَالَ: وَغَسَلَ رَسُولُ الله ﷺ فِيهِ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِيهَا فَجَرَتِ الْعَيْنُ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (أَوْ قَالَ: غَزِيرٍ)،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبيِّ ﷺ (٧٠٦).

حَتَّى استَنبَقَى النَّاسُ، ثُمَّ قَالَ: «يُوشِكُ، يَا مُعَاذًا إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، أَنْ تَرَى مَا هَا هُنَا قَدْ مُلِئَ جِنَانًا»، فصلَّى الله وسلَّم على الصادق الذي لا ينطق عن الهوى.

*****

العلامة التاسعة والثلاثون: حسر نهر الفرات عن جبل من الذهب

ففي الحديث الذي رواه «البخاريُّ ومسلم» [1] ـ واللفظ له ـ من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ: لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو».

وفي لفظ: «يُوشِكُ الْفُرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَمَنْ حَضَرَهُ فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا».

وفي رواية [2]: «يُوشِكُ الْفُرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَإِذَا سَمِعَ بِهِ النَّاسُ سَارُوا إِلَيْهِ، فَيَقُولُ مَنْ عِنْدَهُ: لَئِنْ تَرَكْنَا النَّاسَ يَأْخُذُونَ مِنْهُ لَيُذْهَبَنَّ بِهِ كُلِّهِ، قَالَ: فَيَقْتَتِلُونَ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ».

وقد ذكر الحافظ ابن حجر [3] ـ من باب الأمانة العلمية ـ أن هذه العلامة تظهر عند ظهور المهدي ﷺ، وأذكر أنني قد ذكرت قبل هذا: أن جريدة الأخبار قد نشرت هذا الخبر، وربما نشرت وكالات الأنباء

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الفتن، باب خروج النار (٧١١٩) ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب (٢٨٩٤).

(٢) أخرجها مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب (٢٨٩٥) من حديث أبي بن كعب ﷺ.

(٣) «فتح الباري» (١٣/ ١٠١) ط الحديث.

هـذا الخبر على أنه كشفٌ علميٌّ ؛ اكتشاف جبل من الذهب في نهر الفرات في سوريا ، ثم قرأت في جريدة الأهرام بعد هذا الخبر بأيام قليلة خبرًا عن بعثة علمية روسية أمريكية مرسلة لدراسة هذه الظاهرة ؛ ولا شك أن النبوءة النبوية لم تتحقق بكلِّ جزئياتها المذكورة في الأحاديث ، فالنبوءة النبوية تتحدث عن انحسار ماء الفرات عن جبل من الذهب ، ثم الاقتتال ،نعم .. ظهر الجبل واكتشف ، لكن لم ينحسر نهر الفرات بَعْد ،ولم يتقاتل عليه الناس ، وأنتم ترون الآن الاتفاقيات العسكرية والاقتصادية بين تركيا وإسرائيل من ناحية ، وتقفون أيضًا على الخلاف الشديد بين تركيا والعراق وسوريا من ناحية أخرى .

وهذا أمرٌ جديدٌ ؛ فمن المعلوم أن الحرب القادمة لن تكون حرب بترول ، وإنما ستكون حرب ماء ؛ فمياه المسلمين الآن تتسرب إلى إسرائيل حتى من ماء النيل ، ومن ماء الفرات عن طريق الاتفاقات والأحلاف العسكرية الجديدة بين إسرائيل وتركيا ، ثم هذا العداء والخلاف الرهيب بين تركيا والعراق من ناحية وسوريا من ناحية أخرى ، ولا شك أننا في انتظار بقية أجزاء النبوءة النبوية أن تحدث بمثل ما أخبر به الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ .

فكما أن شطر النبوءة النبوية قد ظهر . فنحن ما زلنا في انتظار أجزاء النبوءة النبوية أن تظهر بمثل ما أخبر النبيُّ ﷺ ؛ والله أعلم .

*****

العلامة الأربعون : انتفاخ الأهلة

روى الطبرانيُّ في «الكبير» وابن عديٍّ في «الكامل» والعقيليُّ في «الضعفاء» [(١)] عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «مِنَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ انْتِفَاخُ الأَهِلَّةِ» .

وله شاهدٌ رواه الطبرانيُّ في «الأوسط» و«الصغير» و«مسند الشاميين» [(٢)] عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال : «مِنَ اقْتِرَابِ السَّاعَة : انْتِفَاخُ الأَهِلَّةِ ، وَأَنْ يُرَى الهِلاَلُ لِلَيْلَةٍ ، فَيُقَالُ : لِلَيْلَتَيْنِ» .

وعن أنس ﷺ أنه ﷺ قال : «إِنَّ مِنْ أمارات السَّاعَةِ : أَنْ يُرَى الهِلاَلُ لِلَيْلَةٍ ، فَيُقَالُ : لِلَيْلَتَيْنِ» [(٣)] ، وهذا يبين لنا أن الهلال يكون كبيرًا عند طلوعه ،وهذا خلاف ما هو عليه ؛ لأنه في أول طلوعه يفترض أن يكون صغيرًا . ولكن لقرب الساعة ــ وكعلامة من علامات الساعة ــ يرى الهلال وهو ابن ليلة كأنه ابن ليلتين ؛ والله أعلم .

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٩٨) ، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٨٩ ، ٣١٨) ، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٣٥١) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٤٦) : «رواه الطبرانيُّ في «الكبير» ، وفيه عبد الرحمن بن يوسف ذكر له في الميزان هذا الحديث ، وقال إنه مجهول» ؛ «ميزان الاعتدال» (٢/ ٦٠٠) ، وصححه الألباني بشواهده ؛ كما في «صحيح الجامع» (٥٨٩٨) وانظر : «الصحيحة» (٢٢٩٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٨٦٤) ، و«الصغير» (٨٧٧) ، و«مسند الشاميين» (٣٣٥٦) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٤٦) : «رواه الطبراني في «الصغير» وفيه عبد الرحمن بن الأزرق الأنطاكي ولم أجده» ، وصححه الألبانيُّ بشواهده السالفة في «الصحيحة» (٢٢٩٢) .

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط (٩٣٧٦) ، و«الصغير» (١١٣٢) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٢٥) : «رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» عن شيخه الهيثم بن خالد المصيصي وهو ضعيف» ، وحسن إسناده الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٨٩٩) ، وراجع «الصحيحة» (٢٢٩٢).

العلامة الحادية والأربعون: مجاوزة الحد في الدعاء والطهور

روى أبو داود وابن ماجه وأحمد (١) وغيرهم أن عَبْدَ الله بْنَ مُغَفَّلٍ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ! سَلِ الله الْجَنَّةَ وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطَّهُورِ وَالدُّعَاءِ».

وهذا حادثٌ في أزماننا، يتكلَّف كثير من الأئمة وغيرهم في الدعاء والسجع فيه، ولا يلتزم بأدعية الكتاب والسنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، وتجد آخرين يُسرفون في الماء، وهو اعتداءٌ كذلك؛ فعلى العبد أن يتمسك بالسنة في أدعيته وطهوره وكل مناحي حياته؛ فتلك هي النجاة والسلامة من الشرور كلِّها.

*****

العلامة الثانية والأربعون: دخول كلمة الإسلام كل بيت

روى أحمد والحاكم والطبراني والبيهقي وغيرهم (٢) عن تميم الداري

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الطهارة، باب الإسراف في الماء (٩٦)، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب كراهية الاعتداء في الدعاء (٣٨٦٤)، وأحمد في «المسند» (٤/ ٨٦، ٨٧)، (٥/ ٥٥). وابن حبان كما في «موارد الظمآن» (١٧١)، و«الإحسان» (٦٧٦٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٩٦) و«الإرواء» (١٤٠).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٠٣)، والحاكم (٤/ ٤٧٧) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبيُّ، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ١٨١) والطبراني في «مسند الشاميين» (٩٥١)، وروي من طريق المقداد بن الأسود رضي الله عنه رواه أحمد (٦/ ٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٧٠١)، والحاكم (٤/ ٤٧٦) وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٢٥٤) و«مسند الشاميين» (٥٧٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ١٨١)، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣).

ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ - أي الدين - مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلاَ يَتْرُكُ الله بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ الله هَذَا الدِّينَ ، بِعِزِّ عَزِيزٍ ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ ، عِزًّا يُعِزُّ الله بِهِ الإِسْلاَمَ ، وَذُلاًّ يُذِلُّ الله بِهِ الْكُفْرَ ».

وكان تميم الداري يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان منهم كافرًا الذل والصغار والجزية .

ويوضح ذلك ؛ ما رواه مسلم [1] عن عائشة رضي الله عنها قالت : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لاَ يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللاَّتُ وَالْعُزَّى». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ، إِنْ كُنْتُ لأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ الله : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣] أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا ، قَالَ « إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ الله ، ثُمَّ يَبْعَثُ الله رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَيَبْقَى مَنْ لاَ خَيْرَ فِيهِ ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ ».

قال الشيخ الألباني رحمه الله [2]: « ومما لا شك فيه : أن تحقيق هذا الانتشار يستلزم أن يعود المسلمون أقوياء في معنوياتهم ، ومادياتهم ، وسلاحهم ، حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على قوى الكفر والطغيان ، وهذا ما يبشرنا به الحديث » ؛ فنسأل الله أن يعزَّ الإسلام والمسلمين ، وأن يذلَّ الشرك والمشركين ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة (٢٩٠٧) .
(٢) «السلسلة الصحيحة» (١/ ٣٢) .

العلامة الثالثة والأربعون :الحصار الاقتصادي على العراق

وهي علامة من العلامات التي ذكرها النبيُّ ﷺ، ووقعت العلامة في هذه السنوات القليلة بمثل ما أخبر به النبيُّ ﷺ تمامًا ، وصدقَ ربي إذ يقول : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم:٣، ٤] .

ففي الحديث الذي رواه الإمام مسلم[١] عن أبي نضرة قال :كنا عند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فقال : يُوشِكُ أَهْلُ الْعِرَاقِ أَنْ لاَ يُجْبَى إِلَيْهِمْ قَفِيزٌ وَلاَ دِرْهَمٌ ، قُلْنَا : مِنْ أَيْنَ ذَاكَ ؟ قَالَ : مِنْ قِبَلِ الْعَجَمِ ، يَمْنَعُونَ ذَاكَ ، ثُمَّ قَالَ : يُوشِكُ أَهْلُ الشَّامِ أَنْ لاَ يُجْبَى إِلَيْهِمْ دِينَارٌ وَلاَ مُدْيٌ ، قُلْنَا : مِنْ أَيْنَ ذَاكَ ؟ قَالَ : مِنْ قِبَلِ الرُّومِ ، ثُمَّ سَكَتَ هُنَيَّةً ، ثُمَّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْثِي الْمَالَ حَثْيًا ، لاَ يَعُدُّهُ عَدَدًا ». قَالَ : قُلْتُ لأَبِي نَضْرَةَ وَأَبِي الْعَلاَءِ (والقائل هو: الجُرَيْرِيُّ) : أَتَرَيَانِ أَنَّهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؟ فَقَالاَ : لاَ.

ومن المعلوم أن عمر بن عبد العزيز لم يكن في عهده حِصَار من أي نوع من الأنواع للعراق أو الشام أبدًا ؛ بل كانت العراق تشهد عزًّا وكرامةً في أيام الخلافة ، إذًا هذا الخليفة الذي تحدث عنه الحديث بلا نزاع هو المهديُّ الذي سأُفَصِّلُ الحديث عنه .

وهذا الحديث المهمُّ الذي رواه مسلم ،وله حكم الرفع للنبيِّ ﷺ؛ لأن الصحابيَّ لا يتكلَّم في أمرٍ من أمور الغيب من عند نفسه ، إنما يتكلَّم بكلام مسموع من الصادق المصدوق ﷺ .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩١٣) .

وهذا الحديث يتضمَّن ثلاثة أخبار من أخبار الغيب والمستقبل، ألا وهي:

الأول: حصارٌ على العراق.

الثاني: حصارٌ على بلاد الشام.

ومعلوم أن بلاد الشام تشتمل على سوريا ولبنان والأردن وفلسطين.

والثالث: خليفة يخرج في آخر الزمان.

تعبيراتٌ في غاية الدقة عما يحدث الآن في العراق، والذي يسميه الإعلام العربي والغربي: الحصار الاقتصادي العالمي على العراق، ولفظة: «يُوشِكُ أَهْلُ الْعِرَاقِ أَنْ لاَ يُجْبَى إِلَيْهِمْ قَفِيزٌ وَلاَ دِرْهَمٌ».

القفيز: هو المكيالُ المعروفُ عِنْد أهل العراق، والدرهم المعروف، فمن المعلوم أن الحصار الاقتصادي إن ضُرب على يد بلدٍ يمنع عن هذا البلد الطعام والميرة، لكن الحديث يقول: «وَلاَ دِرْهَمٌ»! وأنتم تعلمون أن أمريكا قد جمَّدت أموالًا طائلة للعراق بعد أحداث الكويت، فجُمِّد مالُ العراق خارج العراق، في بنوك الشرق والغرب، فمُنع العراق من ماله، ولعلَّ المتابع مِنَّا قد سمع بالأمس القريب فقط تصريحًا خطيرًا جدًّا لرئيس لجنة المساعدات الإنسانية في العراق أن الحصار الاقتصادي على العراق طيلة السنوات الماضية يتسبب في قتل ستة آلاف شخص في كل شهر، وأصبحت الأخوة الإيمانية أخوة باردة باهتة، فأصبحنا نسمعُ مثل هذه الأحداث، ولا تتحرك جوارحنا، ولا تحترق قلوبنا، وكأنَّ الأخوَّة لم تلفحها حرارة الإيمان بالله ﷻ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

فإن وجدت أخوة بلا إيمان؛ فاعلم أنه التقاء مصالح، وتبادل منافع فحسب، وإن وجدت إيمانًا بلا أخوة صادقة فاعلم بأنه إيمان ناقص؛

لأنَّ الأخوة ثمرة حتميةٌ للإيمان ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، فلفظة : « يُوشِكُ » أدق تعبيرًا من كلمة الحصار الاقتصادي ؛ لماذا ؟

لأن الحصار يقتضي حصار البلد المحاصر تمامًا ، لكن قوله : « يُوشِكُ » لا تقتضي الحصار الكلِّي ، وإنما هو حصار مقصور من بعض الدول ، ومن بعض عصابات المافيا التي تبيع الأسلحة ، وتسرِّب الطعام مقابل الأموال إلى دولة العراق عن طريق تركيا أو عن طريق سوريا أو عن طريق الأردن !!

ومعلومٌ أن الدول الخاضعة لمجلس الأمن ولقرارات مجلس الأمن هي التي فرضت الحصار الاقتصادي على العراق .

وتدبر كلمة : «العَجَم» ؛ حينما سئل جابر : من الذي يمنع القفيز والدرهم ؟ فقال : «العَجَم» .

والعجم تطلق في اللغة على كلِّ مَنْ سِوَى العرب ؛ فهذه اللفظة تفيد أن كلَّ دول العالم تقريبًا ستشارك في هذا الحصار الاقتصادي باستثناء العرب ؛ فمجلس الأمن لَمَّا اتخذ قرار المقاطعة بدُوَلِهِ الخمس الدائمة العضوية ، وهي : أمريكا ، وروسيا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، والصين .

ومعلوم أن الدولة العربية التي تدخل عضوًا من أعضاء المجلس بالتناوب كانت في هذه الفترة التي اتخذ فيها القرار كانت اليمن ، وهي الدولة العربية الوحيدة التي رفضت القرار ، وكلُّ شعوب العالم العربي تقريبًا ، وإن كان بعض الزعماء قد أذعنوا لقرارات مجلس الأمن ، إلا أن شعوب العرب بلا استثناء لا زالوا إلى يومنا هذا إلى اجتماع مجلس وزراء خارجية الدول العربية في ذلك الوقت لا زالوا يرفضون الحصار

الاقتصادي على العراق ، ولا زالوا ضد تقسيم العراق .

فانظر إلى لفظة : «العجم» فهي تعني كلَّ ما سِوَى العرب ، وبالفعل قد شاركت كلُّ دول العالم تقريبًا في فرض هذا الحصار الاقتصادي على العراق باستثناء العرب والمسلمين ، وعلى هذا يمكن أن يقال : بأن المنع عن العراق أعجمي ؛ لأن كلَّ شعوب الأرض ما عدا العرب رسميًّا بمقتضى موقف اليمن في مجلس الأمن قد شاركت في فرض الحصار عن رضا وعن طواعية ؛ لأن مجلس الأمن يومئذ بدُوَلِهِ الدائمة ـ فيما عدا اليمن ـ هو الذي فرض هذا الحصار الغاشم على العراق ؛ لذا يقول في الحديث : «الْعَجَمُ يَمْنَعُونَ ذَاكَ » .

ومن المعلوم أنه لم يحدث في تاريخ الإسلام من قبل وقوع حصار اقتصادي بهذه الصورة للعراق أبدًا !!

أما الحصار الآخر ، وهو حصار الشام ، فأنتم تعلمون أن حصارًا فُرِضَ على سوريا قبل العراق ، وأن حصارًا لا زال مفروضًا إلى الآن على فلسطين ؛ فهذه من العلامات التي وقعت بمثل ما أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، والله تعالى أعلم [(١)] .

ومن الجائز وقوعها مرة أخرى كما ذكرت قبل ذلك في أول العلامات ، ولا زلنا ننتظر الحدث الثالث في الحديث ، ألا وهو : خروج الخليفة الذي يحثي المال حثيًا ولا يعده عدًّا ، وهو المهديُّ ﷺ ـ كما سنبين إن شاء الله .

---

(١) نقول ذلك لأننا في كل علامة لا نستطيع الجزم بوقوعها في وقتٍ محدد أو زمن محددٍ ، لكننا نورد ذلك من باب الاحتمال ، حتى لا نقع في التخرُّص على رسول الله ﷺ.

العلامة الرابعة والأربعون: نفي المدينة لشرارها ثم خرابها آخر الزمان

أخبر النبيُّ ﷺ أن من علامات الساعة نفي المدينة لخبثها ،وهم شرار الناس ؛ كما ينفي الكير خبث الحديد .

روى «مسلم»[(١)] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَدْعُو الرَّجُلُ ابْنَ عَمِّهِ وَقَرِيبَهُ : هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ ! هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ ! وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! لاَ يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلاَّ أَخْلَفَ اللهُ فِيهَا خَيْرًا مِنْهُ ، أَلاَ إِنَّ الْمَدِينَةَ كَالْكِيرِ ، تُخْرِجُ الْخَبِيثَ . لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَنْفِيَ الْمَدِينَةُ شِرَارَهَا كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ ».

قال الإمام النووي[(٢)] رحمه الله : « قال القاضي عياض : الأظهر أن هذا مختصٌّ بزمن النبيِّ ﷺ ؛ لأنه لم يكن يصبر على الهجرة والمُقام معه إلا مَنْ ثبت إيمانه ، وأما المنافقون وجهلة الأعراب فلا يصبرون على شدة المدينة ، ولا يحتسبون الأجر في ذلك ـ إلى أن قال النووي : وهذا الذي ادعى أنه الأظهر ليس بالأظهر ، وحمل ذلك على زمن الدجال ،وقال : يحتمل أن يكون في أزمان متفرقة ».

وقال الحافظ ابن حجر[(٣)] رحمه الله بعد أن حكى كلام القاضي والنووي: « ويحتمل أن يكون المراد كلاً من الزمنين :زمن النبيِّ ﷺ ويؤيده قصة الأعرابيِّ ، والحديث في « الصحيحين »[(٤)] من حديث جابر بن عبد الله

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الحج ، باب المدينة تنفي شرارها (١٣٨١) .

(٢) « مسلم بشرح النووي» (٥/ ١٦٧) ط الحديث .

(٣) « فتح الباري » (٤/ ١٠٥ ، ١٠٦ط السلفية) بتصرف.

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل المدينة ، باب المدينة تنفي الخبث (١٨٨٣) ، وانظر أطرافه

ﷺ أن أعرابيًّا بَايَعَ رَسُولَ الله ﷺ فَأَصَابَ الأَعْرَابِيَّ وَعْكٌ بِالْمَدِينَةِ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقِلْنِي بَيْعَتِي. فَأَبَى، ثُمَّ جَاءَهُ، فَقَالَ: أَقِلْنِي بَيْعَتِي. فَأَبَى، ثُمَّ جَاءَهُ، فَقَالَ: أَقِلْنِي بَيْعَتِي، فَأَبَى، فَخَرَجَ الأَعْرَابِيُّ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّمَا الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طِيبُهَا».

والزمن الثاني: زمن الدَّجال؛ كما في «الصحيحين»[(١)] من حديث أنس ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إِلاَّ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا[(٢)] إِلاَّ عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ صَافِّينَ تَحْرُسُهَا، فَيَنْزِلُ بِالسَّبَخَةِ، فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ، يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»، ثم قال ابن حجر: وأما ما بين ذلك (أي: الأزمان) فلا ... فإن كثيرًا من فضلاء الصحابة قد خرجوا بعد النبيِّ ﷺ من المدينة كمعاذ بن جبل، وأبي عبيدة، وابن مسعود، وطائفة، ثم خرج عليٌّ، وطلحة، والزبير، وعمار، وآخرون، وهم من أطيب الخلق، فدلَّ على أن المراد بالحديث تخصيص ناسٍ دون ناس، ووقتٍ دون وقت، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[التوبة:١٠١]، والمنافق خبيث بلا شك»، انتهى.

= هناك، ومسلم، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها (١٣٨٣).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة (١٨٨١)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة (٢٩٤٣).

(٢) جمع نقب؛ قال ابن وهب: المراد بها المداخل، وقيل: الأبواب، وأصل النقب: الطريق بين جبلين، وقيل: الأنقاب الطرق التي يسلكها الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [ق:٣٦]، راجع «الفتح» (٤/ ١١٤).

وأما خروج الناس بالكلية من المدينة ، فذلك في آخر الزمان ، قرب قيام الساعة[(١)] ، كما في « الصحيحين »[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ : « تَتْرُكُونَ الْمَدِينَةَ عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ ، لاَ يَغْشَاهَا إِلاَّ الْعَوَافِ ـ يُرِيدُ عَوَافِيَ السِّبَاعِ وَالطَّيْرِ ـ وَآخِرُ مَنْ يُحْشَرُ رَاعِيَانِ مِنْ مُزَيْنَةَ يُرِيدَانِ الْمَدِينَةَ يَنْعِقَانِ بِغَنَمِهِمَا فَيَجِدَانِهَا وَحْشًا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَا ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ خَرَّا عَلَى وُجُوهِهِمَا » .

قال ابن كثير[(٣)] رحمه الله : « والمقصود أن المدينة تكون باقية عامرة أيام الدجال ، ثم تكون كذلك في زمان عيسى ابن مريم رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى تكون وفاته بها ، ودفنه بها ، ثم تخرب بعد ذلك » .

ثم ذكر حديث جابر رضي الله عنه قال : أخبرني عمر بن الخطاب ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَيَسِيرَنَّ الرَّاكِبُ فِي جَنَبَاتِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ : لَقَدْ كَانَ فِي هَذَا حَاضِرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَثِيرٌ »[(٤)] .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله : روى عمر بن شبَّة بإسنادٍ صحيح عن عوف بن مالك ، قال : دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْنَا ، فَقَالَ : « أَمَا وَالله لَيَدَعَنَّهَا أَهْلُهَا مُذَلَّلَةً أَرْبَعِينَ عَامًا لِلْعَوَافِي أَتَدْرُونَ مَا الْعَوَافِي ؟ الطَّيْرُ وَالسِّبَاعُ » .

---

(١) كما قال النوويُّ ، انظر : « فتح الباري » (٤/ ١٠٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل المدينة ، باب من رغب عن المدينة (١٨٧٤) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب في المدينة حين يتركها أهلها (١٣٨٩) .

(٣) « النهاية في الفتن والملاحم » (١/ ١٥٨) .

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٠) ورواه عن جابر رضي الله عنه دون ذكر عمر رضي الله عنه (٣/ ٣٤١، ٣٤٧) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وحسَّنه لغيره الشيخ شعيب .

ثم قال الحافظ : وهذا لم يقع قطعًا [١] .

فدَلَّ هذا على أن خروج الناس من المدينة بالكلية يكون في آخر الزمان ، بعد خروج الدجال ، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويحتمل أن يكون ذلك عند خروج النار التي تحشر الناس ، وهي آخر أشراط الساعة ، وأول العلامات الدالة على قيام الساعة ، فليس بعدها إلا الساعة .

ويؤيد ذلك كون آخر من يحشر يكون منها ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « وَآخِرُ مَنْ يُحْشَرُ رَاعِيَانِ مِنْ مُزَيْنَةَ يُرِيدَانِ الْمَدِينَةَ يَنْعِقَانِ بِغَنَمِهِمَا فَيَجِدَانِهَا وَحْشًا » [٢] .

أي: خالية من الناس ، أو أن الوحوش قد سكنتها ، والله أعلم [٣] .

*****

العلامة الخامسة والأربعون : كثرة المطر وقلة النبات

وهذه علامة من علامات الساعة أن ينزل المطر وبكثرة ؛ ومع ذلك لا تنبت الأرض !!

روى أحمد وابن حبان [٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُمْطِرَ السَّمَاءُ مَطَرًا لاَ تُكِنُّ مِنْهُ بُيُوتُ المدرِ ـ أي : بيوت الطين المتماسك اليابس ـ وَلاَ تُكِنُّ مِنْهُ إلاَّ بُيُوتُ الشَعْرِ » .

---

(١) « فتح الباري » (٤/ ١٠٨) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) « أشراط الساعة » ليوسف الوابل (٢٢٥ـ ٢٢٩) .

(٤) أخرجه أحمد في « مسنده » (٢/ ٢٦٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٧٧٠) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٣١) : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٣٢٦٦) .

وروى أحمد وأبو يعلى[1] وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : قال رَسُولُ الله ﷺ : « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُمْطَرَ النَّاسُ مَطَرًا عامًّا ، وَلا تَنْبُتُ الأَرْضُ شَيْئًا » .

وفي « صحيح مسلم »[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « لَيْسَتِ السَّنَةُ ـ أي : القحط ـ بِأَنْ لاَ تُمْطَرُوا . وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا ، وَلاَ تُنْبِتُ الأَرْضُ شَيْئًا ».

وهذا واقع مشاهد الآن ؛ فكثير من الناس يشتكي قلة الزرع مع كثرة الأمطار ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وربما يزداد هذا الأمر وبكثرة في الأعوام المقبلة ، ليتحقق وعد الصادق ﷺ .

*****

العلامة السادسة والأربعون : تكليمُ السباع والجمادات للإنس

روى أحمد وابن حبان وغيرهما[3] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : عَدَا الذِّئْبُ عَلَى شَاةٍ فَأَخَذَها ، فَطَلَبَهُ الرَّاعِي فَانْتَزَعَهَا مِنْهُ ، فَأَقْعَى الذِّئْبُ

---

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » (٣/ ١٤٠) ، وأبو يعلى (٤٣٤٠) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٧/ ٣٣٠) : « رواه أحمد والبزار وأبو يعلى .. ورجال الجميع ثقات » ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٢٧٧٣).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة (٢٩٠٤) .

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٨٣ ، ٨٤) ، وابن حبان ؛ كما في « موارد الظمآن » (٢١٠٩) ، و«الإحسان» (٦٤٩٤)، والحاكم (٤/ ٤٦٧ ، ٤٦٨) وقال : « حديث حسن صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبي ، وأخرج الجزء الأخير منه الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في كلام السباع (٢١٨١) وقال : « حديث حسن غريب » ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٨٧٧) ، والبزار (٢٤٣١) ، وأبو نعيم في « الدلائل » (٢٧٠) ، والبيهقي في « الدلائل » (٦/ ٤١ـ ٤٣) ، وقال : « هذا إسناد صحيح » ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (١٢٢) ، وروي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد وغيره .

عَلَى ذَنَبِهِ ، قَالَ : أَلاَ تَتَّقِي الله ، تَنْزِعُ مِنِّي رِزْقًا سَاقَهُ الله إِلَيَّ؟ !. فَقَالَ : يَا عَجَبِي ! ذِئْبٌ مُقْعٍ عَلَى ذَنَبِهِ يُكَلِّمُنِي كَلاَمَ الإِنْسِ؟ ! فَقَالَ الذِّئْبُ : أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ ؟! مُحَمَّدٌ ﷺ بِيَثْرِبَ يُخْبِرُ النَّاسَ بِأَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، قَالَ : فَأَقْبَلَ الرَّاعِي يَسُوقُ غَنَمَهُ ، حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ ، فَزَوَاهَا إِلَى زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ ، فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ فَنُودِيَ : الصَّلاَةُ جَامِعَةٌ ، ثُمَّ خَرَجَ ، فَقَالَ لِلرَّاعِي : « أَخْبِرْهُمْ »، فَأَخْبَرَهُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « صَدَقَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُكَلِّمَ السِّبَاعُ الإِنْسَ ، وَيُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ ، وَشِرَاكُ نَعْلَيْهِ ، وَيُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ بَعْدَهُ ».

*****

العلامة السابعة والأربعون :نقض عُرى الإسلام عروة عروة

روى أحمد وابن حبان والحاكم [(١)] عن أبي أمامة الباهلي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « لَيُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلاَمِ عُرْوَةً عُرْوَةً ، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا ، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا : الْحُكْمُ ، وَآخِرُهُنَّ : الصَّلاَةُ ».

لَيُنْقَضَنَّ : أي تَنْحَلُّ ، كما تقول : نقضت الحبل ، أي : حللته ، وانتقض الأمر بعد التئامه ، أي: فسد .

و« عُرَى الإِسْلاَمِ » جمع عروة ، وهي في الأصل ما يعلق به من طرف الدلو والكوز ونحوهما ، فاستعير لما يتمسك به من أمر الدين ويتعلق به

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥١) ، وابن حبان ، كما في « موارد الظمآن » (٢٥٧) ، والإحسان (٦٧١٥) ، والحاكم في « مستدركه » (٤/ ٩٢) وقال : « عبد العزيز هذا هو ابن عبيد الله بن حمزة بن صهيب ، وإسماعيل هو ابن عبيد الله بن المهاجر ، والإسناد كلُّه صحيح » ، وتعقبه الذهبي بقوله : « عبد العزيز ضعيف » ، و صححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٥٠٧٥).

من شعب الإيمان .

والمعنى : أن عرى الإسلام وآكد أموره تنحَلُّ عروة عروة كعروة القميص المعروفة ، فإذا انقضت عروةٌ تعلق الناس وتمسكوا بالتي تليها .

فـ « وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا » أي: أول عرى الإسلام نقضًا : الحكم ، أي : القضاء ؛ كما قال المُناوي في «فيض القدير» [1] : « وقد كثر ذلك في زماننا حتى في القضية الواحدة ، تنقض وتبرم مرات بقدر الدراهم .

« وَآخِرُهُنَّ الصَّلاَةُ » حتى أن أهل البوادي الآن وكثيرًا من أهل الحضر لا يُصلون رأسًا ، ومنهم من يُصلي رياءً وتكلفًا » .

فكيف يقول لو رأى زماننا هذا؟ والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

*****

العلامة الثامنة والأربعون : رفع القرآن آخر الزمان

وهذه علامة من العلامات ، أن يُسْرى على كتاب الله ﷻ ، فلا تبقى منه آية في الأرض !!

روى ابن ماجه والحاكم والضياء المقدسيُّ [2] عن حذيفة ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « يَدْرُسُ الإِسْلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ ، حَتَّى لاَ يُدْرَى مَا صِيَامٌ ، وَلاَ صَلاَةٌ ، وَلاَ نُسُكٌ ، وَلاَ صَدَقَةٌ ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ

---

(١) «فيض القدير» (٥/ ٣٣٥) .

(٢) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب ذهاب القرآن والعلم (٤٠٤٩) ، والحاكم (٤/ ٤٧٣ ، ٥٤٥) وقال : « حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ، وسكت عنه الذهبي في الموضع الأول ، ووافقه في الثاني ، وقال البوصيري في « الزوائد » : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » ، وقوى الحافظ إسناده في « الفتح » (١٣/ ١٦) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٨٠٧٧) ، و « الصحيحة » (٨٧) .

اللهِ ﷻ فِي لَيْلَةٍ ، فَلاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ : الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ ، يَقُولُونَ : أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا » فَقَالَ لَهُ صِلَةٌ : مَا تُغْنِي عَنْهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَهُمْ لاَ يَدْرُونَ مَا صَلاَةٌ ، وَلاَ صِيَامٌ ، وَلاَ نُسُكٌ ، وَلاَ صَدَقَةٌ ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلاَثًا ،كُلُّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ ، فَقَالَ : يَا صِلَةُ ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ ، ثَلاَثًا » .

قال الألباني ﷺ(١) : « وفي الحديث نبأ خطير ، وهو أنه سوف يأتي يوم على الإسلام يمحى أثره ، وعلى القرآن فيرفع ، فلا يبقى منه ولا آية واحدة ، وذلك لا يكون قطعًا إلا بعد أن يسيطر الإسلام على الكرة الأرضية جميعها ، وتكون كلمته فيها هي العليا ؛ كما هو نص قول الله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣] ، وكما شرح رسول الله ﷺ ذلك في أحاديث كثيرة سبق ذكر بعضها .

وما رُفع القرآن الكريم في آخر الزمان إلا لإقامة الساعة على شرار الخلق ؛ الذين لا يعرفون شيئًا من الإسلام البتة ، حتى ولا توحيده ! وفي الحديث إشارة إلى عظمة القرآن ، وأن وجوده بين المسلمين هو السبب لبقاء دينهم ورسوخ بنيانه ، وما ذلك إلا بتدارسه وتدبره وتفهمه ، ولذلك تعهَّد الله تبارك وتعالى بحفظه إلى أن يأذن الله برفعه» .

*****

(١) « الصحيحة » (١/ ١٧٣) ط المعارف .

العلامة التاسعة والأربعون
خراب الكعبة على يد الأحباش، وصفة من يخربها

ففي «الصحيحين»[(١)] عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: «يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ».

وفي «صحيح البخاري»[(٢)] عن ابن عباس ﷺ أنه ﷺ قال: «كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا».

وروى أحمد[(٣)] وغيره عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَيَسْلُبُهَا حِلْيَتَهَا، وَيُجَرِّدُهَا مِنْ كِسْوَتِهَا، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ: أُصَيْلِعَ، أُفَيْدِعَ، يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ وَمِعْوَلِهِ».

وروى أحمد، وابن حبان، وابن أبي شيبة[(٤)] وغيرهم أن أبا هريرة ﷺ أخبر أبا قتادة، أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُبَايَعُ لِرَجُلٍ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلاَّ أَهْلُهُ، فَإِذَا اسْتَحَلُّوهُ؛ فَلاَ يُسْأَلُ عَنْ هَلَكَةِ الْعَرَبِ، ثُمَّ تَأْتِي الْحَبَشَةُ، فَيُخَرِّبُونَهُ خَرَاباً لاَ يَعْمُرُ بَعْدَهُ أَبَداً، وَهُمُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحج، باب هدم الكعبة (١٥٩٦)، وانظر: (٥٩١)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٠٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحج، باب هدم الكعبة (١٥٩٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٣/ ٦٤١): «رواه أحمد والطبرانيُّ في «الكبير»، وفيه ابن إسحاق، وهو ثقة، ولكنه مدلس»، وقال الشيخ شعيب: «بعضه مرفوع صحيح، وبعضهُ يُروى موقوفًا ومرفوعًا، والموقوف أصح».

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩١، ٣١٢، ٣٢٨، ٣٥١)، وابن حبان (٦٨٢٧)، والطيالسي (٢٣٧٣)، والبغوي في «مسند ابن الجعد» (٢٨١٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٦٢)، والحاكم (٤/ ٤٥٢) وصححه، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٥٧٩).

الَّذِينَ يَسْتَخْرِجُونَ كَنْزَهُ ».

وروى البخاريُّ[(١)] عن أبي سعيد الخدري أن النبيَّ ﷺ قال: « لَيُحَجَّنَّ الْبَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ » وفي لفظٍ: « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يُحَجَّ الْبَيْتُ ».

قال الحافظ[(٢)] رحمه الله: « قال البخاريُّ: والأول أكثر (أي: اللفظ الأول). لاتفاق مَنْ تَقَدَّم ذكْرُه على هذا اللفظ، وانفرد شعبة بما يخالفهم، وإنما قال ذلك؛ لأن ظاهرهما التعارض؛ لأن المفهوم من الأول: أن البيت يُحَجُّ بعد أشراط الساعة.

ومن الثاني: أنه لا يُحج بعدها.

ولكن يمكن الجمع بين الحديثين؛ فإنه لا يلزم من حج الناس بعد خروج يأجوج ومأجوج أن يمتنع الحج في وقتٍ مَا عِنْد قُرْب ظهور الساعة.

ويظهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بقوله: « لَيُحَجَّنَّ الْبَيْتُ » أي: مكان البيت، كما سيأتي، أن الحبشة إذا خربوه لم يعمر بعد ذلك ».

وقد يسأل سائل: متى تكون هذه العلامة؟

والجواب: أن هناك اختلافًا بين العلماء حول تحديد وقتها؛ فعن كعب الأحبار: أنه زمن عيسى عليه السلام، وقيل: بعد زمنه وبعد هلاك يأجوج ومأجوج. وقيل: إن هدم الكعبة بعد خروج الدابة، وقيل: بعد

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٩٧] (١٥٩٣).

(٢) « فتح الباري » (٣/ ٥٣٢، ٥٣٣) ط السلفية.

الآيات كلّها قرب قيام الساعة حين ينقطع الحاج ولا يبقى في الأرض مَنْ يقول : الله ، الله ، ويؤيد هذا : أن زمن عيسى عليه السلام كلّه بركة وأمان وخير ، وهذا أليق بكرم الله ، والذي تقتضيه الحكمة ؛ فإن البيت أحدُ أركان الدين ومبانيه ، فالحكمة تقتضي بقاءه ببقاء الدين .

فإذا جاءت الريح الباردة الطيبة وقبضت المؤمنين ، فبعد ذلك يهدم البيت ويرتفع القرآن(١) .

*****

العلامة الخمسون : هدنة تقع بين المسلمين وبين بني الأصفر

ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ(٢) من حديث عوف بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ : مَوْتِي ، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ ، فَيَظَلُّ سَاخِطًا ، ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلاَّ دَخَلَتْهُ ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ فَيَغْدِرُونَ ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً ، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا » .

وبنو الأصفر يراد بهم : الروم ، والروم هم : أوروبا وأمريكا .

والهدنة هي : مصالحة ، وفترة من فترات الاتفاق والتصالح ، وبنو الأصفر هم الروم وهم أوربا وأمريكا ـ كما تقدم ـ .

والغاية في الحديث هي : الراية ، وسمِّيت الراية بالغاية ؛ لأنها غايةُ الجيش

---

(١) « لوامع الأنوار البهية » (٢/ ١٢٤) ، نقلًا عن مرويات « علامات الساعة » لأشرف السيوطي (١٦٦) ، ط أولاد الشيخ .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجزية والموادعة ، باب ما يحذر من الغدر (٣١٧٦) .

والمقصود بـ « تحت كلِّ غاية اثنا عشر ألفًا » أي : من الجنود المقاتلين .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد ،وأبو داود ،وابن ماجه ،وابن حبان ، وغيرهم[(١)] عن ذي مخبر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « سَتُصَالِحُونَ ـ وفي لفظٍ : سَتُصَالِحُكُمُ ـ الرُّومَ صُلْحًا آمِنًا ،ثُمَّ تَغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عَدُوًّا ، فَتَنْتَصِرُونَ وَتَغْنَمُونَ وَتَسْلَمُونَ ، ثُمَّ تَنْصَرِفُونَ حَتَّى تَنْزِلُوا بِمَرْجٍ ذِي تُلُولٍ ،فَيَرْفَعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الصَّلِيبِ الصَّلِيبَ ، وَيَقُولُ : غَلَبَ الصَّلِيبُ ، فَيَغْضَبُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ،فَيَقُومُ إِلَيْهِ فَيَدُقُّهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ الرُّومُ وَيَجْتَمِعُونَ لِلْمَلْحَمَةِ » .

وفي لفظٍ[(٢)] : « فَيَقْتُلُهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ الرُّومُ ، وَتَكُونُ الْمَلاَحِمُ وَيَجْتَمِعُونَ ، فَيَأْتُونَكُمْ فِي ثَمَانِينَ غَايَةً ، مَعَ كُلِّ غَايَةٍ عَشَرَةُ آلاَفٍ » .

فالحديث يبين لنا معركتين : المعركة الأولى : هي المعركة التحالفية العالمية الأوروبية الأمريكية الإسلامية ، هذه المعركة يسميها كثيرٌ من الكتاب والمفكرين ، وعلماء أهل الكتاب : معركة هرمجدون[(٣)] ، وهذه المعركة هي التي ستكون المقدمة الحقيقية للملاحم الكبرى ؛ التي

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب ما يذكر من ملاحم الروم (٤٢٩٢ ، ٤٢٩٣) ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الملاحم (٤٠٨٩) ، وقال البوصيريُّ في «الزوائد» : «إسناده حسن» ، وأحمد في « المسند » (٤/ ٩١) (٥/ ٣٧١ ، ٤٠٩) ، والبيهقيُّ في « الكبرى » (٩/ ١٥٤) ، وابن حبان (٦٧٠٨ ، ٦٧٠٩) ، والحاكم (٤/ ٤٦٧) ، وصححه ووافقه الذهبيُّ ، والطبرانيُّ في « الكبير » (٤/ ٢٣٥ ، ٢٣٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٩٤٤٩) ، وصححه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٣٦١٢) و« المشكاة » (٥٤٢٨) .

(٢) أخرجه أحمد في « مسنده » (٤/ ٩١) .

(٣) وهذه التسمية ليست في الكتاب والسنة ، فنحن لا نحتجُّ بهذه المسميات البتة ؛ وإنما عمدتنا هو كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ .

سينتصر فيها المسلمون بقيادة المهدي عليه السلام .

وهذه الحرب الأولى أظن أن مقدماتها واضحة الآن ،فنحن والروم الآن في صلح آمن ، والمعسكر الشيوعي أو الشرقي الصين وروسيا قد أبرموا معاهدات جديدة ،ولأول مرة في التاريخ ، في أبريل ١٩٩٦م يزور رئيس روسيا الصين ، ولأول مرة يحدث اتفاق وتعاهدات ، وتعاقدات بين روسيا والصين .

وفي الأسبوع الماضي فقط كان وزير خارجية روسيا يزور الصين ، والأعجب أنه الآن بدأت العلاقات الروسية الأمريكية بعد الحرب الباردة تتوتر إلى أقصى درجات التوتر ، ولعل وزيرة الخارجية الأمريكية تلك العجوز الشمطاء ، قد عادت من روسيا بالأمس فقط ، وهي تجرُّ أذيال الخيبة بعد عدم اتفاقٍ واضحٍ بين روسيا وبين أمريكا في كثيرٍ من القضايا .

وعلى رأس هذه القضية : قضية العراق ، وقضية السلاح النووي .

وكما أقولُ دائمًا : إن الله يدبر الأمر ، ونحن في غفلة ، لا تظن أن هذا الكون متروك لعُبَّاد البقر من الأمريكان ، أو للملاحدة الكفرة من الروس ، يدبرونه كيف شاءوا ! لا ــ وربِّ الكعبة ــ ولا تظنوا أن الله غافل عما يقع في الأرض !! حاشا لله ،وكلاً ؛ إن الله يسمع ويرى ،وليس أحدٌ أغير على التوحيد وأهله من الله ، وليس أحد أغير على أمة محمد ﷺ من الله ، ولكن الأمة ـ كما أكرر ـ ليست أهلًا للنصرة ، وإلا ــ فورب الكعبة ـ لنصرها الله ـ جَلَ وَعَلا ـ بزلزال أو بإعصار يصيب هؤلاء .

فالله ﷻ قادرٌ على أن يدمر أهل الظلم ؛ قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ

صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴾ [الحاقة: ٤-٧] ؛ ثم بعد ذلك يسأل ربنا تبارك وتعالى ؛ فيقول : ﴿ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴾

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ﴾ [الفيل] ؛ وقال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾ [الفجر: ٦-١٤] .

إذًا فالمعركة الأولى في المعركة التحالفية العالمية ،والتي نرى مقدماتها الآن بصورة واضحة لا تزيد المؤمن التقي إلا يقينًا في الرب العليِّ ، وتصديقًا للحبيب النبيِّ ﷺ .

وحتى في إسرائيل ، فنحن نعلم أن قادة إسرائيل كانوا يخططون لحرب ، لا يأتي عام ٢٠٠٠ إلا وقد وقعت هذه الحرب !!

وكذلك ما كُنَّا نسمع عن تحالف تركيٍّ إسرائيليٍّ ، وما سمعنا أبدًا بعد ما أبادت أمريكا هورشيما ونجازاجي لأول مرة في التاريخ الحديثِ ، نسمع عن اتفاق أمريكيٍّ ياباني وأنتم تعلمون العداء بين أمريكا وبين اليابان ،وكما يقول علماء الاستراتيجية في أمريكا وأوروبا : لا ندري مَنْ ستسبق أصابعُه ، فيضغط على زرِّ الحرب المدمرة ، والتي ستكون غالبًا حربًا نووية ، وستعجبون إذا قلت : إنه أخبرني الأخوة في أمريكا عن

رجلٍ من العلماء المتخصصين ظهر على شبكة CNN وقال كلامًا في غاية الخطورة أفزع أمريكا والمتابعين جميعًا ، وهذا الكلام أنا لا أجيد الآن أن أنقُلهُ نقلًا علميًا دقيقًا ؛ لأنني بكلِّ أسف طلبت من أخواني أن يحضروه لي مكتوبًا ، لكنهم لم يوفقوا في ذلك ، فأتيت بمقال لخص هذا الكلام الخطير في جريدة التايم الأمريكية ،وهو كلامٌ في غايةِ الخطورة متعلقٌ بقضية مسألة الكمبيوتر وعام ٢٠٠٠، ولا يفهم أحدٌ أنني أحدد زمانًا لقيام هذه الحرب العالمية التحالفية النووية التي يسميها بعض هؤلاء باسم هرمجدون ؛ فلا يعلم مخلوقٌ على وَجْه الأرض الزمان الذي سيكون بمثابة الإرهاصات والمقدمات لظهور المهدي ،ولا حتى الساعة التي سينزل فيها المهدي ،ولا متى ستقوم الساعة ، إذ إن هذا كلَّه من العلم الذي يختصُّ به ربنا ؛ لا يعلمه ملك مقرب ، ولا نبيٌّ مرسل ، ولو كان المصطفى ﷺ !!

وهرمجدون كلمةٌ عبريةٌ مكونة من مقطعين : المقطع الأول هو : كلمة هر ، والثاني : مجدون . وكلمة هر بالعبرية تعني : جبل ،ومجدون : وادي معروف بأرض فلسطين ،هذه المنطقة هي ساحة المعركة القادمة التي سيكون فيها المسلمون حلفاء للروم .

والعجيب أن الحديث عن هذه المعركة بدأ الآن يظهر بصورةٍ ملفتة للنظر ، وهي معركة نووية !!

وقد ظهر الآن في أمريكا حديثٌ عن المواجهة النووية الوشيكة ،وكما تعلمون أن كلَّ السلاح الحديث مبرمج بالكمبيوتر . ومن أَشْهُرٍ قريبة ماضية سمعنا عن تعطُّل الكمبيوتر في الشركة المسئولة عن جهاز البيجر

أو عن جهاز البليف في أمريكا ، فتعطلت كلُّ أجهزة البيجر في أمريكا بالكامل لتعطل جهاز الكمبيوتر .

فإذا علمنا أن الكمبيوتر إن تعطَّل تعطلت معه هذه المكينة الحديثة ، والعقل لا ينكر ـ ولا أقول ينكر المؤمن الصادق ـ بل لا ينكر العقل أن الحرب الأخيرة تكون ،كما أخبر الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ بالسيوف ، كما أثبتت الأحاديث الصحيحة ؛ كما سأذكر إن شاء الله تعالى .

وقد سئلتُ في أمريكا هذا السؤال ،وأنتم تعلمون أن المسلم الذي تربى في أمريكا مسلم أمريكانيٌّ يريد أن يقتنع بكل شيء ،ويريد أن يأخذ الدليل العقلي قبل الدليل النقلي ، ولو كان صحيحًا ؛ فسأل بعضهم كيف ستكون الحرب الأخيرة هكذا ونحن نرى المكينة الحديثة ... وإلى آخره ؟

فقلت : أنا لا أعلم كيف ستكون ؛لكنني أعتقد اعتقادًا جازمًا صدق النبيَّ ﷺ أن هذا سيكون .ولكن كيف ؟لا أدري ! .

ثم جاء أحدُ الإخوة ليصطحبني إلى صلاة الفجر من المكان الذي أبيتُ فيه ، وإذا بالأخ يركب سيارة مرسيدس موديل ٩٨ حديثة جدًّا ، وقمة في الفخامة ، وما أن ركبنا السيارة ، وبدأ يتحرك إلا ونزل ضبابٌ حَجَبَ الرؤية تمامًا ، حتى في داخل السيارة ، فما كنتُ أرى الأخ ولا يراني مع أنه كان يضيء مصباح السيارة ، فتوقَّفَتْ كلُّ السيارات في الشارع !! قُلْت : سبحان الله يا فلان .. ألا تذكر الرجُلَ الذي كان يسألني منذ يومين ؟ قال : نعم ، قُلْت : سبحان الله ! ها هي السيارة موجودةٌ ، وهي أحدث موديل ،مليئة بالبنزين ويركبها القائد ، وأنزل الله جنديًّا من عنده ، فعطَّلها في مكانها ، أَمْرٌ عَجَبٌ !! فقد تكون هذه

الميكنة موجودة أمامه ؛ لكنها تتعطل ليتحقق كلام الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ ؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١] ، والذي أرعب به العالمُ أمريكا ،حينما قال : بأن الكمبيوتر مبرمج إلى قبل ما عام ٢٠٠٠ ، وهم الآن في حيص بيص ، والقضية خطيرة جدًّا ، وتشغل الآن عقول العلماء هنالك ، والأعجب من ذلك أن السلاح النوويَّ الأمريكيَّ والروسيَّ موجَّهٌ بعضه لبعض ؛ فتنةٌ كبيرةٌ جدًّا ، وإذا جلس الإنسان يفكِّر كيف تدور وتتم الأحداث ؟ ربما يطيش عقله ؛ فسبحان من يدبر الكون ! قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾[آل عمران :١٥٤] .

وستعجبون إذا علمتم أن العلماء ـ بل والرؤساء ـ على أعلى مستوى في العالم يعتقدون اعتقادًا جازمًا في هذه الحرب المقبلة وينتظرونها .

يقول رونالد ريجان ـ رئيس أمريكا الأسبق : « إن هذا الجيل بالتحديد هو الجيل الذي سيرى هرمجدون» . وقال : «كلُّ شيء سينتهي في بضع سنوات ، ستقوم المعركة العالمية الكبرى : معركة هرمجدون ، أو سهل مجيدو ».

ويقول جيمس سواجرت : « كنت أتمنى أن أستطيع القول أننا سنحصل على السلام ،ولكني أؤمن بأن هرمجدون مقبلة .. إن هرمجدون قادمة ، وسيخاض غمارها في وادي مجيدو ، وإنها قادمة ، إنهم يستطيعون أن يوقِّعوا على اتفاقيات السلام التي يريدون ، إن ذلك لن يحقق شيئًا » ، ثم قال : « هناك أيام سوداء قادمة » !!

ويقول جري فلوي ـ وهو من الأصوليين المتعصبين الصليبيين ، وهذا الرجل كان من المقربين جدًّا لرونالد ريجان ، ويقال بأنه هو الذي تنبأ لجورج بوش بأنه سيكون أعظم رئيس في عام ١٩٩٨م ، وكان

جورج بوش يقرب هذا الرجل تمامًا ـ يقول : « إن هرمجدون حقيقة مركبة ، لكن نشكر الله ؛لأنها ستكون نهاية أيام العالم » .

وتقول الكاتبة الأمريكية جريس هالسل في كتابها «النبوءة والسياسة»: « إننا نؤمن كمسيحين أن تاريخ الإنسانية سينتهي بمعركة تُدْعى أمجدون ، وأن هذه المعركة سوف تُتَوَّجُ بعودة المسيح الذي سيحكم بعودته على جميع الأحياء ، والأموات على حدٍّ سواء » ، وتقول : « إن هرمجدون نووية لا مفر منها بموجب خطه إلهية » .

ويقول لندسي صاحب كتاب « نهاية أعظم كرة أرضية » : «لا داعي للتفكير في ديون أمريكا الخارجية ، ولا في ارتفاع الضرائب، ولا في مستقبل الأجيال القادمة ؛ فالمسألة بضع سنوات ،وسيتغير كلُّ شيء في العالم جذريًّا » .

إذًا : تلك المعارك هي بداية للفتن والملاحم الكبيرة التي ستقع ، وسيقود جيوش المسلمين فيها المهدي ؛ الذي هو من نسل فاطمة بنت المصطفى ﷺ ، أسأل الله أن يعصمنا جميعًا من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه .

بهذا قد انتهينا من سرد العلامات الصغرى التي ستكون بين يدي الساعة [1] ؛ فإن أصبت فمن الله وحده ،وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان ، ودونكم في الفصل القادم العلامات الوسطى ـ إن صح التعبير ـ التي تكون بين العلامات الصغرى والكبرى ، وأسال الله التوفيق والسداد .

---

(١) وقد استفاض في بيانها أخونا الدكتور يوسف الوابل حفظه الله في كتابه القيم «أشراط الساعة» ؛ فليرجع إليه من أراد المزيد .

العلامات الوسطى

وهـي حلقـة الوصـل إن صـحَّ التعبـير بـين العلامـات الصـغرى والعلامات الكبرى للساعة ؛ هذه العلامة الوسطى هي :

ظهور المهدي عليه السلام

فلقد أنهينا الحديثَ عن ما صحَّ من العلامات الصغرى ، ومنْ لم يحقِّق تحقيقًا علميًّا ؛ ربما يتحدث عن علامات كثيرةٍ يزيدُ عددها عما ذكرنا بكثير ، لكن التحقيق للروايات سندًا ومتنًا سيصل بنا إلى هذا العدد الذي ذكرنا بحول الله ﷻ.

فمن المهدي ؟ وما صفته ؟ وما العلامة المؤكدة والمميزة لظهوره ؟ وما هي الحروب والملاحم والفتن التي سيقود فيها المهديُّ جيوشَ المسلمين في الأيام الأخيرة بين يدي الساعة ؟

والجواب : المهديُّ رجلٌ صالحٌ من المسلمين من آل بيت النبيِّ ﷺ من ولد الحسن بن عليٍّ بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، واسمُ المهدي كاسم النبيِّ ، واسم أبيه كاسم أبي النبي ؛ فهو محمدٌ ، أو أحمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسني ـ رضوان الله عليه ـ وهو بشرٌ من البشر ،ليس بنبيٍّ ولا معصوم .

يخرج آخر الزمان ، في وقتٍ سيقدِّره الله العليم الخبير ، إذ لا يعلم وقت ظهور المهدي ملكٌ مقربٌ ، ولا نبيٌّ مرسلٌ ؛ فهو من الأمور التي اختصَّ الله ﷻ بعلمها ، وسوف يخرج في آخر الزمان بعد الهدنة التي ستكون بين المسلمين والروم التي ذكرناها سابقًا .

والإيمان بخروجه من جملة الإيمان بالله ، ومن معتقد أهل السنة .

قال السفاريني في « لوامع الأنوار »[١] : « وما أتى بالنصِّ فكلُّه حقٌّ بلا شطط ، منها : الإمام الخاتم الفصيح ، محمد المهدي والمسيح » .

وقال صديق حسن خان في كتابه « الإذاعة »[٢] : «لاشك أن المهدي يخرج في آخر الزمان من غير تعيين لشهر وعام ، لما تواتر من الأخبار في الباب ، واتفق عليه جمهور الأمة خلفًا عن سلف ، إلا من لا يعتد بخلافه » .

ثم قال : « فلا معنى للريب في أمر ذلك الفاطمي الموعود المنتظر ، المدلول عليه بالأدلة ؛ بل إنكار ذلك جرأةٌ عظيمة في مقابلة النصوص المستفيضة المشهورة البالغة إلى حد التواتر » .

ويخرج المهديُّ في آخر الزمان ، يؤيد الله ﷻ به الدين ، ويرشد الناس إلى الحق ،ويردهم عن الضلال والتيه ، يملك سبع سنين ،وفي بعض الروايات : « يملك ثمان سنوات ، أو تسع سنوات » . يملأ الأرض عدلًا كما ملئت الأرض ظلمًا وجورًا ، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعم بها قط ، وتخرج الأرض في عهده نباتها ،وتمطر السماء قطرها ، ويُعْطى المال بغير عدد !!

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى[٣] : « في زمان المهدي تكون الثمار كثيرة ،والزروع غزيرة ،والمال وافر ، والسلطان قاهر ، والدين قائم ، والعدو راغم ، والخير في أيامه دائم » .

ولقد وصف النبيُّ ﷺ المهدي وصفًا دقيقًا ، كما وصف عيسى بن مريم ﷺ ، وكما وصف الدجال ـ عليه لعائن الله المتتالية ـ فوصفه النبيُّ ﷺ بأنه أجلى الجبهة « أي واسع الجبهة يقلُّ الشعر عن جانبيه » أي : عن

---

(١) « لوامع الأنوار » (٢/ ٧٠) . (٢) « الإذاعة » (١٥٢ ، ١٥٣) .

(٣) «النهاية في الفتن والملاحم» (١/ ٣١) .

جانبي الجبهة .

وأخبر النبيُّ ﷺ بأنه أقنى الأنف ،وهو الأنف الذي له أرنبة دقيقة ، وله حدب في الوسط أو دقة في الوسط ، فالقنا في الأنف : طوله ورقة أرنبته مع حدَب في وسطه ، وهذا وصفٌ يبين جمال الخِلْقَة ، وحسن الصورة والمنظر ، فهو أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يصلحه الله في ليلة واحدة .

وقد وقف أهل العلم عند قول النبيِّ ﷺ « يُصْلِحُهُ اللهُ »[(١)] .

فقولٌ يقول : يطهره الله ﷻ من كلِّ ذنب وخبث ؛ والقول الثاني : أي : يهيئه الله ﷻ ويعدُّه للخلافة [(٢)] ، وهذا القول هو الذي يميل إليه القلب ؛ والله أعلم ؛ فالله ﷻ يؤيده بنصره وعونه ، إذ إنَّ ظهور المهدي عليه السلام ليس أمرًا كسبيًّا منه ، كما أن النبوة ليست أمرًا كسبيًا ، وإنما لأن ظهور المهدي أمرٌ قدريٌّ في الوقت الذي يشاؤه ويريده الربُّ العليُّ ، والأحاديث الواردة بشأن المهدي عليه السلام بلغت حدَّ التواتر ، وهذه قولة في غاية الأهمية ــ كما سأبين إن شاء الله تعالى ــ والتواتر عند جمهور العلماء يفيد العلم القطعيَّ ، ومن ثَمَّ ، فالعلم به واجب ، والإيمان به فرضُ عينٍ على كلِّ مسلم ومسلمة .

ومن هذه الأحاديث ؛ ما رواه الحاكمُ في « المستدرك » وصححه على شرط الشيخين ،وأقره الذهبيُّ ، والألبانيُّ [(٣)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « يَخْرُجُ في آخِرِ أُمَّتِي الـمَهْدِيُّ ، يَسْقِيهِ الله

---

(١) سيأتي قريبًا .

(٢) انظر : «النهاية في الفتن» لابن كثير (١/ ٢٩) .

(٣) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٥٧ ، ٥٥٨) ، وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (رقم / ٧١١) .

الغَيْثَ ، وَتُخْرِجُ الأَرْضُ نَبَاتَهَا ، وَيُعْطِي المَالَ صِحَاحًا ، وَتَكْثُرُ المَاشِيَةُ ، وَتَعظُمُ الأُمَّةُ ، يَعِيشُ سبعًا أو ثمانيًا- يعني : حِجَجًا » .

وفي الحديث الذي رواه أحمد و أبو يعلى ـ وقال الهيثميُّ : « رواه أبو يعلى وأحمد بأسانيد رجالها ثقات »[(١)] وضعفه الألبانيُّ ولبعضه شواهد ـ من حديث أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « أُبَشِّرُكُمْ بِالْمَهْدِيِّ يُبْعَثُ فِي أُمَّتِي عَلَى اخْتِلَافٍ مِنَ النَّاسِ ، وَزَلاَزِلَ [(٢)] ، فَيَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلًا ، كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا ، يَرْضَى عَنْهُ سَاكِنُ السَّمَاءِ وَسَاكِنُ الأَرْضِ ، يَقْسِمُ المَالَ صِحَاحًا » . فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : مَا صِحَاحاً ؟ قَالَ : « بِالسَّوِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ ، فَيَكُونُ كَذَلِكَ سَبْعَ سِنِينَ أَوْ ثَمَانِ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ ، ثُمَّ لاَ خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَهُ ـ أَوْ قَالَ : ثُمَّ لاَ خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ بَعْدَهُ » .

وفي الحديث الذي رواه أحمد في « مسنده » وابن ماجه في « سننه » ، وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع »[(٣)] من حديث علي ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ يُصْلِحُهُ اللهُ فِي لَيْلَةٍ » .

وفي الحديث الذي رواه أبو داود في « سننه » ،والحاكم في «مستدركه» ، وحسَّن إسناده الألبانيُّ في « صحيح الجامع »[(٤)] من حديث

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٣/ ٣٧، ٥٢) ، وقال الهيثميُّ في « المجمع » (٧/ ٣١٣ ، ٣١٤) : « رواه الترمذيُّ وغيره باختصار كثير ، ورواه أحمد بأسانيد ، وأبو يعلى (٩٨٧) مختصرًا ، ورجالها ثقات » وضعَّفه الشيخ الألباني في «الضعيفة » (١٥٨٨) .

(٢) فبعض أهل العلم قال : إن الله يُهيِّئ الأرض للمهدي بزلزلة عظيمة ، والله أعلم ؛ فهذا قول أهل العلم لا دليل عليه إطلاقًا من كلام النبيِّ ﷺ ، وهذه من الأمور الغيبية التي لا ينبغي أن نقطع فيها بقول إلا إن ثبت لدينا هذا بالقول الصريح من القرآن أو الصحيح من سنة النبيِّ ﷺ .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٨٤) وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب خروج المهدي (٤٠٨٥) ، وصححه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٦٧٣٥) ، و « الصحيحة » (٢٣٧١).

(٤) أخرجه أبو داود ، كتاب المهدي ، باب (١) (٤٢٨٥) ، والحاكم (٤/ ٥٥٧) ، وقال : «صحيح

أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « الـمَهْدِيُّ مِنِّي ، أَجْلَى الْجَبْهَةِ ، أَقْنَى الأَنفِ ، يَمْلأُ الأَرْضَ قِسطًا وَعَدْلاً ، كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا ، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ ».

وفي الحديث الذي رواه الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » وحسَّن إسناده الإمام ابن القيم [(١)] ـ رحمه الله تعالى ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ الْمَهْدِيُّ : تَعَالَ صَلِّ بِنَا، فَيَقُولُ : لاَ ، إِنَّ بَعْضَهُمْ أَمِيرُ بَعْضٍ تَكْرِمَةَ الله هَذِهِ الأُمَّةَ ».

وروى أبو نعيم في « كتاب المهدي » ، وصحَّح الحديث الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » [(٢)] ، وحسَّنه آخرون بشواهده من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ :

« مِنَّا الَّذِي يُصَلِّي عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خَلْفَهُ » .

وفي الحديث الذي رواه أبو داود ،وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع» [(٣)] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « لاَ تَنْقَضِي الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي ».

= على شرط مسلم » ، وقال الذهبي : « عمران ضعيف ولم يخرج له مسلم » ، وحسَّنه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٦٧٣٦) ، و « المشكاة » (٥٤٥٤) .

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » (كما في المنار المنيف ص ٩٤) ، دار العاصمة ، وقال ابن القيم : « وهذا إسناد جيد » .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « كتاب المهدي » كما في « الكنز » (٣٨٦٧٣) ، و« فيض القدير » (رقم ٨٢٦٢) (٦/ ١٧) وأشار له السيوطي بالضعف ، وكذا المُناوي ، وصححه الألبانيُّ في « الصحيحة » (٢٢٩٣) ، و « صحيح الجامع » (٥٩٢٠) .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٨٢) ، كتاب المهدي ، والترمذي (٢٢٣٠ ، ٢٢٣١) ، وقال « هذا حديث حسن صحيح » ، وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٧٢٧٥) .

وفي رواية : « يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي ».

« يُوَاطِئُ » : يشبه ويماثل .

ومن بين الأحاديث التي ثبتت في « الصحيحين » تشير إلى المهدي بجلاء ؛ ما رواه البخاريُّ ومسلم [1] ، من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « كَيْفَ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ ».

وفي «صحيح مسلم»[2] ، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال :سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ؛ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ : تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ : لاَ، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ الله هَذِهِ الأُمَّةَ ».

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْثِي الْمَالَ حَثْيًا لاَ يَعُدُّهُ عَدَدًا ». وهذا اللفظ لمسلم [3] .

قَالَ الجريري : قُلْتُ لأَبِي نَضْرَةَ وَأَبِي الْعَلاَءِ : « أَتَرَيَانِ أَنَّ هَذَا الْخَلِيفَةَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؟ قَالاَ : لاَ » .

فهذه الأحاديث الثابتة في « الصحيحين » تدلُّ على أمرين :

الأمر الأول : أنه عند نزول عيسى بن مريم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ من السماء يكون الخليفة للمسلمين رجلًا منهم .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب نزول عيسى ابن مريم (٣٤٤٩)، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا ﷺ رقم (١٥٥/ ٢٤٥ ، ٢٤٩).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ (١٥٦).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩١٣).

والأمر الثاني : أن حضورَ أميرِهم للصلاة وهو الخليفة ، يطلب من عيسى ابن مريم أن يتقدم ليصلِّي لهم ، يدلُّ دلالة قاطعة على صلاح وهدى وتقى في هذا الأمير الذي يأبى عيسى بن مريم أن يصلي خلفه كرامة من الله ﷻ لهذه الأمة الذي تقدم أحدُ أفرادها ليكون إمامًا لنبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام.

ومما مضى يتبين لنا أن الأحاديث في شأن المهديِّ قد تواترت تواترًا معنويًّا ، وقد نصَّ على ذلك كثيرٌ من أهل العلم ؛ منهم الحافظ أبو الحسن الآبريُّ ،وهو الحافظ أبو الحسن محمد بن الحسين السجستاني ، وكان مجوِّدًا ثبتًا ، روى عن ابن خزيمة وطبقته ، قال في كتاب «مناقب الشافعي» : « قد تواترت الأخبار واستفاضت عن رسول الله ﷺ بذكر المهديِّ ،وأنه من أهل بيته ،وأنه يملكُ سبع سنين ، وأنه يملأ الأرض عدلًا ، وأن عيسى عليه السلام يخرج ، فيساعده على قتل الدجال ، وأنه يؤم هذه الأمة ويصلي عيسى خلفه »[(١)] .

وقال محمد البرْزَنْجي في كتابه « الإشاعة في أشراط الساعة » :

« .. ومنها المهدي وهو أولها ،واعلم أن الأحاديث الواردة فيه على اختلاف رواياتها لا تكاد تنحصر » .

وقال أيضًا : « وقد علمت أن أحاديث وجود المهدي وخروجه آخر الزمان ،وأنه من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة عليها السلام قد بلغت حد التواتر المعنوي ، فلا معنى لإنكارها »[(٢)] .

---

(١) راجع « فتح الباري » (٦/ ٥٦٩) ، (شرح كتاب أحاديث الأنبياء من صحيح البخاري) ، « والمنار المنيف » (ص٨٩ط العاصمة) .

(٢) «الإشاعة» (ص٨٧ـ١١٢) ، من كتاب «أشراط الساعة» للدكتور يوسف الوابل (ص٢٦٠) ،=

وقال العلامة السفارينيُّ ـ وهو عالم بالأصول والحديث والأدب : « وقد كثرت بخروج المهدي الروايات حتى بلغت حدَّ التواتر المعنوي ، وشاع ذلك بين علماء السنَّة حتى عُدَّ من معتقداتهم »..

ثم سرد جملة من الأحاديث والآثار في خروج المهدي ، وفي أسماء بعض الصحابة ممن رواها ، ثم قال : «وقد رُوي عمن ذكر من الصحابة وغيرهم بروايات متعددة ،وعن التابعين من بعدهم ما يفيد مجموعه العلم القطعي .

فالإيمان بخروج المهدي واجب ،كما هو مقرَّرٌ عند أهل العلم ومدوَّنٌ في عقائد أهل السنة والجماعة »[1] .

وقال الإمام الشوكانيُّ ـ رحمه الله تعالى[2] : « الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثًا فيها الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والمنجبر، وهي متواترة بلا شك ، ولا شبهة ؛ بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول ،وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي فهي كثيرةٌ أيضًا . لها حكم الرفع ، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك » .

وقد قال الحافظ ابن حجر[3] : « ومثال المرفوع من القول حكمًا لا

---

* وراجع « إتحاف الجماعة » للتويجري (٢/ ٢٨٩ـ ٢٩٢).

(١) « لوامع الأنوار البهية » (٢/ ٨٤) نقلًا عن « أشراط الساعة » (٢٦١) للوابل ، و « أدعياء المهدية » لمحمد بيومي (٦ـ ٨) ، و«الإذاعة» لصديق حسن (١٥٣) .

(٢) « التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المتظر والدجال والمسيح » كما في « الإذاعة » لصديق حسن (ص١٢٤) ط المدني .

(٣) « شرح النخبة » (١٠٦ ، ١٠٧) ط مكتبة الغزالي ، الطبعة الثانية .

تصريحًا : أن يقول الصحابيُّ الذي لم يأخذ عن الإسرائيليات ما لا مجال للاجتهاد فيه ، ولا له تعلُّق ببيان لغةٍ ،أو شرح غريب ؛ كالإخبار عن الأمور الماضية من بَدْء الخلق وأخبار الأنبياء ، أو الآتية ؛ كالملاحم ، والفتن ،وأهوال يوم القيامة ،وكذا الإخبار عما يحصل بفعله ثواب مخصوص أو عقاب مخصوص ، وإنما كان إخباره له حكم المرفوع ؛ لأن إخباره بذلك يقتضي مخبرًا له ، وما لا مجال للاجتهاد فيه يقتضي موقفًا للقائل به ، ولا موقف للصحابة إلا النبيُّ ﷺ أو بعض من يخبر عن الكتب القديمة . فلهذا وقع الاحتراز عن القسم الثاني ، وإذا كان كذلك فله حكم ما لو قال : قال رسول الله ﷺ ؛ فهو مرفوعٌ سواء كان مما سمعه منه أو عنه بواسطة » . اهـ .

وقضية المهدي مما لا مجال للرأي فيها ؛ لذا فهذه الآثار المروية عن الصحابة من قبيل المرفوع .

وقال صديق حسن خان رحمه الله : « الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرةٌ جدًّا تبلغ حدَّ التواتر [(١)] ، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد » .

والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة ،وكذا الواردة في الدجال ،وكذا نزول عيسى ابن مريم عليه السلام [(٢)] .

فبالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة ؛ كالسنن الأربعة ، والمسانيد ، والمصنفات المشهورة التي تحدثت عن المهدي ؛ فهناك جمعٌ من العلماء قد

---

(١) أي : المعنوي .

(٢) « الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة » ، لصديق حسن (ص١٢٢ ، ١٢٣).

صنَّفوا مصنفات مستقلة في المهدي ﷺ، فقد جمع الحافظ أبو بكر بن أبي خيثمة الأحاديث الواردة في المهدي، كما ذكر ذلك ابن خلدون في « مقدمته » نقلًا عن السهيلي .

وألَّف السيوطيُّ جزءًا سماه :« العرف الوردي في أخبار المهدي » .

وذكر الحافظ ابن كثير في كتابه « النهاية في الفتن والملاحم » أنه أفرد جزءًا للمهدي ،ولعليٍّ المتقي الهندي رسالةً في شأن المهدي ، ولابن حجر المكي « القول المختصر في علامات المهدي المنتظر » .

وللملَّا عليٍّ القاري كتابًا باسم : « المشرب الوردي في مذهب المهدي » ، وللشوكاني : «التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح».

وقال صديق حسن خان : « وقد جمع العلامة محمد بن إسماعيل الأمير اليماني الأحاديث القاضية بخروج المهدي ،وأنه من آل محمد ﷺ،وأنه يظهر في آخر الزمان »[1].

ومع هذا كلِّه ، وبكلِّ أسف ظهرت طائفةٌ في هذا الزمان تنكر المهدي ﷺ وتصفُ أحاديث المهدي بالبطلان !! بل ومنهم من تطاول وتجرأ؛ فقال : إن المهديَّ أسطورةٌ من الأساطير اخترعها الشيعة ، ثم تسربت أحاديث المهدي التي وضعها الشيعة إلى كتب أهل السنة ؛ من هؤلاء الذين اشتهر عنهم إنكار المهدي : ابن خلدن !! .

فقد قال ابن خلدون[2] : « فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة

---

(١) « الإذاعة » لصديق حسن خان (ص١٢٤).

(٢)« تاريخ ابن خلدون » (١/ ٣٢٢) .

في شأن المهدي وخروجه في آخر الزمان ،وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل » .

ونحن نقول : لو صحَّ حديثٌ واحدٌ عن النبيِّ ﷺ في أمر المهدي لكفى به حجة ، فكيف وقد تواترت الأحاديث بذلك [1] !!.

وبكلِّ أسف تبع ابن خلدون في العصر الحديث الشيخُ محمد رشيد رضا ، وكذلك فريد وجدي ، وأحمد أمين ، وعبد الله بن زيد آل محمود [2] .

ومن المعلوم كما ذكرت أن هؤلاء ليسوا من فرسان الحديث ،ولا من صيارفته ، ولا من علمائه المشتغلين به لا رواية ولا دراية .

فلا ينبغي على الإطلاق أن يُقدَّم قولُ هؤلاء على قول الأئمة الأثبات ممن ذكرنا أسماءهم الآن .

ومن أخطر الشُّبه التي أوردها هؤلاء ممن أنكروا وجود المهدي : أن أحاديث المهدي لم تثبت في « الصحيحين » !

والشبهة الثانية : أن كثيرًا من هذه الأحاديث قد تسرَّب إليها كثيرٌ من الوضع ،وكثيرٌ من الإسرائيليات !!

والردُّ على هاتين الشبهتين سهلٌ وميسورٌ جدًّا ؛ فأقول ـ مستعينًا بالله :

أما الشبهة الأولى : بأن أحاديث المهدي لم تثبت في « الصحيحين » :

فمن المعلوم بلا نزاع أن السنة الصحيحة كلَّها لم تُدَوَّن في «الصحيحين» فقط ، وهذا مما لا خلاف عليه بين أهل العلم ؛ فدعوى أن أحاديث المهدي لم تثبت في « الصحيحين » دعوى باطلة ، يغني بطلانها عن

---

(١) راجع « أشراط الساعة » للدكتور يوسف الوابل (ص٢٦٧) .

(٢) انظر : « الصحيحة » (٢٢٣٦) .

إبطالها ؛ فكلُّ ما صحَّ عن النبيِّ ﷺ في غير « الصحيحين » وفي دواوين السنة يجب على المؤمن أن يأخذ به وأن يؤمن به .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله [١] : « إن البخاريَّ ومسلمًا لم يلتزما بإخراج جميع ما يحكم بصحته من الأحاديث ، فإنهما قد صححا أحاديث ليست في كتابيهما ،كما ينقل الترمذي وغيره عن البخاريِّ تصحيح أحاديث ليست عنده ، بل في السنن وغيرها » .

ونقل الحافظ ابن حجر [٢] من رواية الإسماعيلي عن الإمام البخاري نفسه رحمه الله أنه قال : « لم أُخرج في هذا الكتاب إلا صحيحًا ، وما تركتُ من الصحيح أكثر » .

وقال الإمام مسلم : « ليس كلُّ شيء عندي صحيحٌ وضعته ها هنا ، وإنما وضعتُ ها هنا ما أجمعوا عليه » [٣] .

وقال النوويُّ في « شرح مسلم » [٤] : « .. وهذا الإلزام ليس بلازم في الحقيقة ؛ فإنهما - أي البخاريَّ ومسلمًا - لم يلتزما استيعاب الصحيح ، بل صحَّ عنهما تصريحهما بأنهما لم يستوعباه ، وإنما قصدا جمع جمل من الصحيح ، كما يقصد المصنف في الفقه جمع جملة من مسائله لا أنه يحصر جميع مسائله .. »

وأما الشبهة الثانية : أن الأحاديث قد دخلها كثيرٌ من الإسرائيليات ،

---

(١) (مختصر علوم الحديث) ، لابن كثير (ص٢٣) ، ط الكتب العلمية ، الطبعة الأولى .

(٢) « فتح الباريّ » ، (مقدمة ٩) ، ط الريان .

(٣) «صحيح مسلم » (رقم: ٦٣/ ٤٠٤) كتاب الصلاة ، باب التشهد في الصلاة ، وراجع (علوم الحديث) لابن الصلاح (ص١٦) ، ط الكتب العلمية .

(٤) «شرح مسلم » (١/ ٢٤) .

وأن بعضها من وَضْع الشيعة وغيرهم :

فهذا حقٌّ وصحيحٌ ، لكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح والضعيف ، وصنفوا الكتب في الموضوعات ، وبينوا الروايات الصحيحة من الضعيفة من الروايات الحسنة ، ووضعوا قواعد دقيقةً في الحكم على الرجال ، حتى لم يبق صاحبُ بدعة أو كذاب إلا وأظهروا أمره ؛ فحفظ الله ﷻ سنة النبيِّ ﷺ من عبث العابثين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين .

وهذا من حفظِ ربِّ العالمين لسنةِ سيِّد المرسلين ؛ بل ولهذا الدين .

ولا ينبغي أن نَضْعُفَ أمام هذه الدعوى التي تقول بأن الشيعة يقولون بأن المهدي منهم وهو الإمام محمد بن الحسن العسكري المنتظر من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن !!

وقد فصَّلْتُ القول فيه وفي معتقدهم عند الكلام عن الشيعة .

قال ابن كثير رحمه الله[1] : «... المنتظر الذي يتوهم الرافضةُ وجوده ، ثم ظهوره من سرداب سامرَّاء ، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية ، بل هو من هَوَسِ العقول السخيفة ، وتوهم الخيالات الضعيفة » .

فلا ينبغي على الإطلاق أن نَضْعف أمام احتجاج الشيعة بأن المهدي المنتظر هو مهديهم ـ وليس كذلك ـ لننكر الأحاديث الثابتة الصحيحة في المهدي عليه السلام .

وأختمُ هذا التحقيق العلميَّ المهمَّ عن المهديِّ بحديثٍ مشهورٍ على ألسنة بعض العلماء ؛ بل وفي مصنفاتهم ، وفي كتبهم ، يقول : « لا مهديَّ إلا عيسى ابن مريم » .

---

(١) « التفسير » (سورة المائدة) الآية (١٤) .

وهذا الحديث رواه ابن ماجه، والحاكم، عن أنس بن مالك ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ: «لاَ يَزْدَادُ الأَمْرُ إِلاَّ شِدَّةً، وَلاَ تَزْدَادُ الدُّنْيَا إِلاَّ إِدْبَارًا، وَلاَ النَّاسُ إِلاَّ شُحًّا، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ عَلَى شِرَارِ النَّاسِ، وَلاَ الْمَهْدِيُّ إِلاَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ».

وهذا الحديثُ ضعيفٌ [(١)]؛ لأن مداره على محمد بن خالد الجندي؛ قال الذهبيُّ فيه [(٢)]: «قال الأزدي: منكر الحديث».

وقال أبو عبد الله الحاكم: مجهول.

(قلت: أي الذهبي) حديثه: «لا مهدي إلا عيسى» وهو خبر منكر، أخرجه ابن ماجه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهو حديث ضعيف» [(٣)]، وقال أيضًا: «وهذا الحديث ضعيف، وقد اعتمد أبو محمد بن الوليد البغدادي وغيره عليه، وليس مما يعتمد عليه. ورواه ابن ماجه عن يونس، عن الشافعي. والشافعيُّ رواه عن رجل من أهل اليمن، يقال له محمد بن خالد الجندي، وهو مما لا يحتج به» [(٤)].

وقد خالف في ذلك الحافظ ابن كثير ﷺ وقال: «إنه حديثٌ مشهور بمحمد بن خالد الجندي الصنعاني المؤذن، شيخ الشافعي، وروى عنه غير

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٩)، كتاب الفتن، باب شدة الزمان، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٤١، ٤٤٢)، كتاب الفتن، وحكم الشيخ الألبانيُّ عليه بأنه حديثٌ منكر؛ كما في «الضعيفة» (١/ ١٧٥)(٧٧).

(٢) «الميزان» (٣/ ٥٣٥) (ترجمة محمد بن خالد الجندي).

(٣) «منهاج السنة» (٤/ ١٠١، ١٠٢) ط مكتبة ابن تيمية.

(٤) «منهاج السنة» (٨/ ٢٥٦).

واحدٍ أيضًا، وليس هو بمجهول كما زعمه الحاكم، بل قد روي عن ابن معين أنه وثقه »[1] .

وقال أبو عبد الله القرطبي[2] رحمه الله : « يحتمل أن قوله ـ عليه الصلاة والسلام : «ولا مهدي إلا عيسى» أي: لا مهدي كاملًا معصومًا إلا عيسى، وعلى هذا تجتمع الأحاديث ويرتفع التعارض » هذا مع فرض صحة الحديث .

وقال القرطبي في « التفسير»[3] : « وقيل : المهدي هو عيسى فقط ،وهو غير صحيح ؛ لأن الأخبار الصحاح قد تواترت على أن المهدي من عترة رسول الله ﷺ ، فلا يجوز حمله على عيسى ، والحديث الذي ورد في أنه : « لا مهدي إلا عيسى » غير صحيح .

قال البيهقيُّ في كتاب « البعث والنشور » : « لأن راويه محمد بن خالد الجندي وهو مجهول ، يروي عن أبان بن أبي عياش ــ وهو متروك ــ عن الحسن عن النبيِّ ﷺ ، وهو منقطع .

والأحاديث التي قبله في التنصيص على خروج المهدي ، وفيها بيان كون المهدي من عترة رسول الله ﷺ أصح إسنادًا » .

قلتُ : قد ذكرنا هذا وزدناه بيانًا في كتابنا (كتاب التذكرة) وذكرنا أخبار المهدي مستوفاة ، والحمد لله » . انتهى .

والسؤال الخطير الآن هو : كيف نعلم ظهور المهدي؟ لقد خرج أناس

---

(١) «النهاية في الفتن» (١/ ٣٢)تحقيق الزيني (أشراط الساعة » للوابل ص٢٧٣) .

(٢) « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » (٧٦٠) ، ط الصفا .

(٣) «القرطبيُّ في «التفسير» (: المائدة : ٢٤) .

كثيرون يدَّعي كلٌّ واحدٍ منهم أنه المهدي ،ونحن نذكر فتنة الحرم المكي [(١)]!

لكن كيف نعلم نحن إنْ ظهر المهدي في عصرنا ؟

والجواب : أن النبيَّ ﷺ قد ذكر لنا علامة أكيدة مميزة للمهدي عليه السلام دون غيره من الأدعياء الكذابين .

كما في الحديث الذي رواه مسلم [(٢)] من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ عَبِثَ فِي مَنَامِهِ (أي :تحرك) فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ، صَنَعْتَ شَيْئًا فِي مَنَامِكَ لَمْ تَكُنْ تَفعَلُهُ ؟! فَقَالَ : « الْعَجَبُ إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَؤُمُّونَ بِالْبَيْتِ (أي : الحرام) بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، قَدْ لَجَأَ بِالْبَيْتِ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ خُسِفَ بِهِمْ » . فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ . قَالَ : « نَعَمْ ، فِيهِمُ الْمُسْتَبْصِرُ [(٣)]، وَالْمَجْبُورُ [(٤)]، وَابْنُ السَّبِيلِ [(٥)] ، يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا ، وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى يَبْعَثُهُمُ ، الله عَلَى نِيَّاتِهِمْ » .

أي : يبعثون على ذلك يوم القيامة من اختلاف نياتهم ، فيجازي كُلَّ أحدٍ على نيته [(٦)] .

يخرج المهدي عليه السلام وينطلق مباشرةً من أي الأماكن ؟ليس عندنا دليل يحدد لنا ذلك .

لكن ذكر بعض أهل العلم أنه يخرج من المشرق ، ومنهم من ذكر أنه

---

(١) انظر : « الصحيحة » (٢٢٣٦).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن ، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (٢٨٨٤)، وأحمد (٦/ ١٠٥).

(٣) أي : القاصد له عن عمد .

(٤) أي : المكره .

(٥) أي : السالك الطريق معهم ليس منهم .

(٦) راجع «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض (٨/ ٤١٦) .

يخرج من المغرب [١]، لكن ليس لدينا دليل ثابت عن النبيِّ ﷺ في ذلك .

فيخرج المهديُّ ، ويبايع المهديَّ عليه السلام فئةٌ قليلة لا عَدَدَ لهم ولا عُدَد ولا قوة ، في بيت الله الحرام ، ويبايعونه قسرًا [٢] .

وفي «المسند» و«مستدرك الحاكم» [٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « يُبَايَعُ لِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَام ... » ؛ وله شاهدٌ عن أم سلمة عند أحمد وأبي داود [٤] .

ثم يسمع بالمهدي أهل الأرض ، فيخرج إلى المهدي جيشٌ للقضاء على المهدي ، يقودُ هذا الجيش في بعض الروايات رجلٌ يقال له السفياني ، والسفيانيُّ يختلف عن القحطاني ، والتحقيق أيضًا ؛ كما قال الحافظ ابن حجر : « إن القحطاني يختلف عن الجهجاه » [٥] . كما سأذكر .

والسفيانيُّ : صنَّف كلُّ من كتب في الفتن والملاحم ، وأشراط الساعة فصولًا كاملة في السفياني ، حتى إن نعيم بن حماد ، كما وقفت على كتابه في «الفتن» قد أفرد للسفياني عشرة فصولٍ كاملةً ، يتكلَّم فيها عن السفياني وصفته ، ومن المعاصرين من قارن وصف السفياني في أحاديث «الفتن»

---

(١) راجع «التذكرة» للقرطبي (ص٧٦٠).

(٢) راجع «إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة» (٢/ ٢٨٠ ــ ٢٨٣) للتويجري .

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩١، ٣١٢) ،والحاكم (٤/ ٤٥٢)، وصححه الألبانيُّ في « الصحيحة » (٥٧٩) و (٢٧٤٣) .

(٤) أخرجه أبو داود (٤٢٨٦، ٤٢٨٨) ،كتاب المهدي ، وأحمد (٦/ ٣١٦) ، والحاكم (٤/ ٤٣١) وله شاهدٌ عند الحاكم (٤/ ٥٠٣) عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا ،وراجع « الضعيفة» (٣٧٣٧).

(٥) راجع « الفتح » (١٣/ ٨٣، ٨٤) ، لابن حجر ، وانظر : (٦/ ٦٣٠) .

لنعيم بن حماد وطابقها على صدام حسين! وليس لدينا دليلٌ على ذلك، إنما هو ضربٌ من المجازفة، وهناك من قال: إن القحطاني هو السفياني، وهو الجهجاه، وهو صدَّام، وهذا تعسفٌ شديدٌ لفهم الأدلة !!!

والقحطانيُّ: حديثُهُ في «الصحيحين»[1] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَانَ يَسُوقُ النَّاسَ بِعَصَاهُ ».

قال أهل العلم[2]: ليس المراد من قوله ﷺ: « يَسُوقُ النَّاسَ بِعَصَاهُ »، أنه يمسِكُ العَصَا، ويضرب بها الناس، وإنما هذا يدل على أنه الراعي الذي يحوط على رعيته، وأن رعيته منقادةٌ له، مستقيمةٌ لأمره، ولم يُرِدْ نَفْسَ العصا.

قال القرطبيُّ: « وإنما ضرب بها مثلًا لطاعتهم له، واستيلائه عليهم إلا أنَّ في ذكرها دليلًا على خشونته عليهم، وعسفه بهم.

وقد قيل: إنه يسوقهم بعصاه كما تساق الإبل والماشية، وذلك لشدة عنفه وعداواته ».

والقحطانيُّ: ليس هو الجهجاه، خلافًا لما قاله القرطبيُّ رحمه الله[3]؛ فقد قال: « ولعل هذا الرجل القحطاني هو الرجل الذي يقال له الجهجاه، وأصل الجهجهة الصياح بالسبع ... ثم قال: وهذه الصفة توافق ذكر

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الفتن، باب تغيير الزمان حتى تعبد الأوثان (٧١١٧)، ومسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩١٠).

(٢) انظر: «التذكرة» للقرطبي (ص٧٨٠) ط الصفا، و«الفتح» (١٣/ ٨٣، ٨٤).

(٣) « التذكرة » للقرطبي (٥٧١) ط فياض.

العصا. والله أعلم» .

قال الحافظ في «الفتح»[(١)] : «يَردُّ هذا الاحتمال إطلاقه كونه من قحطان ؛ فظاهره أنه من الأحرار ، وتقييده في جهجاه بأنه من الموالي ما تقدم أنه بعد المهدي وعلى سيرته وأنه ليس دونه» .

ويؤيدُ كلامَ الحافظ؛ ما رواه أحمد[(٢)] وهو عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : «لاَ يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى يَمْلِكَ رَجُلٌ مِنَ الْمَوَالِي ، يُقَالُ لَهُ: جَهْجَاهُ».

والعجيب أنني وقفت على كلامٍ عجيبٍ نقله الحافظ ابن حجر ـ رَحِمَهُ الله تَعَالَى ـ[(٣)] ذكر فيه أن القحطاني يكون بعد المهدي عليه السلام وعلى سيرته ، وعلى أخلاقه ؛ أي : على سيرة ، وأخلاق المهدي عليه السلام ـ كما سبق ـ وذكر في ذلك أثرًا لا يعتمد عليه[(٤)] ، أما السفيانيُّ فلم يثبت على الإطلاق فيه حديث مع كثرة الأحاديث ، وأمثل ما ورد في ذلك ؛ ما رواه الحاكم في «المستدرك» وصححه على شَرْطِ الشيخين وأقره الذهبيُّ[(٥)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا للنبيِّ ﷺ قال : «يَخْرُجُ رجُلٌ يُقَالُ لَهُ :

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٨٣، ٨٤) ط الريان .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٩) وإسناده صحيح على شرط مسلم ، كما قال الشيخ شعيب ،وهو عند مسلم بدون لفظة : «من الموالي» (٢٩١١) .

(٣) راجع «فتح الباري» ، كتاب الفتن (١٣/ ٨٤) ط الريان.

(٤) وقد فصَّل في هذه المسألة تفصيلًا بديعًا أخونا الشيخ/ أحمد أبو العينين في كتابه «أشراط الساعة» (٢٥٦ - ٢٦٧) ط دار ابن عباس.

(٥) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٢٠) ،كتاب الفتن ، وقال : «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبيُّ ، ولكن فيه علل ؛ فالوليد بن مسلم يدلس تدليس التسوية ولم يصرح بالتحديث إلى نهاية السند ، وكذلك يحيى بن أبي كثير ثقة يدلس ويرسل ولم يصرح كذلك بتحديث ، والأقرب أن الحديث من الغرائب .

السُّفْيَانِيُّ فِي عُمْقِ دِمَشْقٍ ، وَعَامَّةُ مَنْ يَتْبَعُهُ مِنْ كَلْبٍ .. وَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي الحَرَمِ ، فَيسِيرُ إِلَيْهِ السُّفْيَانِيُّ بِمَنْ مَعَهُ ، حَتَّى إِذَا صَارَ بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ خُسِفَ بِهِم ، فَلاَ يَنْجُو مِنْهُم إِلا المخْبِرُ عَنْهُم » .

وفي رواية في « صحيح مسلم » ـ ستأتي ـ « إلا الشَّرِيدُ » أي : الهارب .

ولاحظْ أن هذه هي العلامة الأكيدة المميزة للمهدي ﷺ ؛ فإذا ظهر رجل هنالك في مكة ، وأُعلِن عنه أنه المهدي ، وخرج جيش لقتاله فخسف الله بهذا الجيش الأرض علمنا أن الرجل هنالك هو المهدي .

وهذا ما ذُكِر في حديث عائشة ، والذي سينصر المهدي على كلِّ أمم الأرض هو الله ـ جلَّ وعلا .

وفي الحديث الذي «رواه مسلم» (١) من حديث حفصة ـ رِضوانُ الله عَلَيْهَا ـ أن النبيَّ ﷺ قال : «سَيَعُوذُ بِهَذَا الْبَيْتِ ـ يَعْنِى : الْكَعْبَةَ ـ قَوْمٌ لَيْسَتْ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَلاَ عَدَدٌ وَلاَ عُدَّةٌ ، يُبْعَثُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ (٢) مِنَ الأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ ».

وفي الحديث الذي «رواه مسلم» (٣) أن النبيَّ ﷺ قال : « لَيَؤُمَّنَّ هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ يَغْزُونَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوْسَطِهِمْ ، وَيُنَادِي أَوَّلُهُمْ آخِرَهُمْ ، ثُمَّ يُخْسَفُ بِهِمْ ، فَلاَ يَبْقَى إِلاَّ الشَّرِيدُ الَّذِي يُخْبِرُ عَنْهُمْ ».

والسُّؤالُ الآن : هل خسف الله الأرض بالجيش الذي سيخرج لقتال

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٣/ ٧) ،كتاب الفتن ، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت .

(٢) البيداء : أرض ملساء لا شيء فيها .

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٨٣/ ٦) ، كتاب الفتن .

المهدي ؟ نعم ، إذًا معنى ذلك أن كل المسلمين على وجه الأرض في هذه اللحظة سيعلمون أن الرجل الذي ظهر بمكة هو المهدي ،وحينئذ يرحل إلى المهديّ كل مسلم على وجه الأرض إلى مكة ليبايعه ، ثم يتقدم مع المهدي هذه الجحافل المؤمنة ليقود بهم الملاحم الأخيرة .

*** وما هي أهم الملاحم والحروب التي سيقود فيها المهدي ﷺ كتائب المسلمين في آخر الزمان ؟**

فبعد أن يخسف الله ﷻ الأرض بالجيش الذي خرج لملاقاة المهدي ، ويعلو ذكر المهدي ، وينتشر صيته ، ويأتيه المسلمون من كلِّ بقاع الدنيا ليبايعوه ، ليشد المسلمون الصادقون الذين يشتاقون إلى الجهاد تحت راية خليفة يرفع راية التوحيد والسنة ، يشد المسلمون على يد المهدي ، ويبايعونه على النُّصرة ، وعلى الجهاد لإعلاء كلمة الله ـ تبارك وتعالى ـ تحت شعار إحدى الحسنيين: إما النصر ، وإما الشهادة .

فيجتمع للمهدي جيش كبير جدًّا من الموجودين من كل بقاع الأرض لا يجد هذا الجيش بقيادة المهدي وقتًا للراحة ، ولا للنوم ، وإنما يخوضون كثيرًا من الملاحم ، والحروب ، والمعارك التي تحمر فيها الحدقُ ، ليرتفع فيها صهيل الخيول ، وتسمع فيها قعقعة السيوف ، والرماح ، وتبلغ فيها القلوب الحناجر ، ويسقط فيها كثيرٌ من القتلى والجرحى ، حتى تخوض الخيول في بِرَكٍ من الدماء ، والأشلاء .. ولك أن تتصور أن العالم كلَّهُ سيقف على قلبِ رجلٍ واحدٍ لقتال المهدي ، وأبشر ، فأقول : ما من معركة سيخوضها المهدي إلا وسينصره الربُّ العليُّ ـ سبحانه .

المعركة الأولى : غزو جزيرة العرب .

المعركة الثانية : غزو بلاد فارس .

المعركة الثالثة : غزو بلاد الروم .

المعركة الرابعة : فتح القسطنطينية .

المعركة الخامسة : قتال اليهود والنصر عليهم .

المعركة السادسة : قتال الترك .

فلقد ارتقى النبيُّ ﷺ المنبر يومًا ؛ فوصف لأصحابه ما سيكون إلى قيام الساعة ، وذلك بعد صلاة الصبح ؛ كما في الحديث الذي «رواه مسلم» من حديث أبي زيد عمرو بن أخطب ﷺ قال : « صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ ، فَنَزَلَ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا ، حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا »(١) .

فأعلمُ الصحابة أحفظُهم لكلام رسول الله ﷺ ؛ فلقد أطلع الله ﷻ النبيَّ ﷺ على ما سيكون إلى قيام الساعة ، فأخبر به ، حفظ من حفظ ، ونسي من نسي .

ففي « صحيح مسلم »(٢) من حديث نافع بن عتبة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا الله ، ثُمَّ تَغْزُونَ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا الله ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا الله ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ الله » .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن ، باب إخبار النبيِّ ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩٢)، عن عمرو بن أخطب ﷺ ، ورواه أيضًا من حديث حذيفة (٢٨٩١) ، كتاب الفتن أيضًا .

(٢) أخرجه مسلم ،كتاب الفتن ، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال (٢٩٠٠) .

قَالَ نَافِعٌ: يَا جَابِرُ بن سمرة: «لاَ نَرَى الدَّجَّالَ يَخْرُجُ حَتَّى تُفْتَحَ الرُّومُ».

وفي الحديث الذي رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع»[(١)] من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «عُمْرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابُ يَثْرِبَ، وَخَرَابُ يَثْرِبَ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدَّجَّالِ».

وفي «الصحيحين»[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ وَرَاءَ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ والشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ الله، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلاَّ الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ».

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ[(٣)] من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا خُوزًا وَكَرْمَانَ» (وهي بلادٌ مشهورة يحدُّها من الغرب بلاد فارس، ومن الشمال خراسان، ومن الجنوب الخليج الفارسي أو بحر فارس، وهذه المنطقة هي بلاد الصين وروسيا واليابان).

فالنبيُّ ﷺ يقول: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا خُوزًا وَكَرْمَانَ مِنَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٤)، كتاب الملاحم، باب في أمارات الملاحم، وأحمد (٥/ ٢٣٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٠٩٦) و «المشكاة» (٥٤٢٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قتال اليهود (٢٩٦٢)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة (٢٩٢٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب علامات النبوة (٣٥٩٠) و(٢٩٢٩) كتاب الجهاد، باب قتال الترك.

الأَعَاجِمِ ، حُمْرَ الْوُجُوهِ ، فُطْسَ الأُنُوفِ ، صِغَارَ الأَعْيُنِ ، وُجُوهُهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ ، نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ » . أي : كالتروس المستديرة التي غطيت بالجلد ، أراد أنهم عراض الوجوه غلاظها .

والأفطس : هو الذي في قصبة أنفه انخفاض وافتراش [١] .

وفي رواية مسلم [٢] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ التُّرْكَ ، قَوْمًا وُجُوهُهُمْ كَالْمَجَانِّ الْمُطْرَقَةِ ، يَلْبَسُونَ الشَّعَرَ، وَيَمْشُونَ فِي الشَّعَرِ ».

وفي رواية للبخاري [٣] : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا التُّرْكَ ، صِغَارَ الأَعْيُنِ ، حُمْرَ الْوُجُوهِ ، ذُلْفَ الأُنُوفِ ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ ، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ ».

ـ قيل في تفسير قوله ﷺ : « نِعَالُهُمُ الشَّعَرَ » أن المراد به طول شعورهم حتى تصير أطرافها في أرجلهم موضع النعال ، وقيل المراد : أن نعالهم من الشعر بأن يجعلوا نعالهم من شعر مضفور [٤] .

وقوله ﷺ : « ذُلْفُ الأُنُوفِ » معناه : فطس الأنوف ، أي قصارها ، مع انبطاح ، وقيل : غلظٌ في أرنبة الأنف ، وقيل : تطامن فيها ، وكلُّه متقارب [٥] .

---

(١) راجع « لسان العرب » لابن منظور .

(٢) أخرجه مسلم (٢٩١٢) ، (ص٢٢٣٣) ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب قتال الترك (٢٩٢٨) ، ومسلم ، كتاب الفتن (٢٩١٢)(٦٤).

(٤) انظر : « الفتح » (٦/ ٣٠٨) .

(٥) انظر : « شرح مسلم » للنووي (١٨/ ٣٧)

وفي رواية عند أحمد[١] بسندٍ صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا صِغَارَ الأَعْيُنِ ، عِرَاضَ الْوُجُوهِ ، كَأَنَّ أَعْيُنَهُمْ حَدَقُ الجَرَادِ ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ ... ».

والمجان : جمع مجن ، وهي التروس ،كما تقدم[٢] .

وقِفْ بعد هذا الإجمال على هذه التفاصيل :

الملحمة الأولى: فتح بلاد العرب :

فالجيش الذي سيخرج لقتال المهدي من بلاد العرب ،وثبت في بعض الروايات أن الذي سيقود الجيش هو السفياني[٣] ، يخرج إليه ، فينصر الله سبحانه المهدي بمددٍ غيبيٍّ من عنده سبحانه وتعالى ، بأمرٍ قدريٍّ بحتٍ لا دَخْلَ فيه لبشر ، ولا دخل فيه لجيش ؛ لأن جيش المهدي في هذه اللحظات سيكون قليلًا جدًّا .

فلقد صرَّحت بعضُ الروايات الضعيفة التي أستأنس بها ولا أستشهد بها ، أن عدة من يبايع المهدي في هذه اللحظات هي نفس عدة من بايعوا النبيَّ ﷺ وقاتلوا معه في غزوة بدر[٤] ، إنه عددٌ قليلٌ جدًّا .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣١) ، وابن ماجه ،كتاب الفتن ، باب الترك (٤٠٩٩) وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٤٢٩) .

(٢) انظر : « التذكرة » ، للقرطبي(٧٣١) .

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٢٠)، وقد تقدم قريبًا ، وراجع « الفتن » لنعيم بن حماد (ص٢٠٢) باب الخسف بجيش السفياني الذي يبعثه إلى المهدي ط المكتبة التجارية ، و « التذكرة » للقرطبي (٧٥١) ، باب خروج المهدي وخروج السفياني عليه ،وعامة ما ورد في السفياني لا يصح .

(٤) كما عند نعيم بن حماد في كتابه « الفتن » (ص٢١٧) ، باب خروج المهدي من مكة إلى بيت المقدس ،وراجع « البرهان في علامات مهدي آخر الزمان » (رقم ١٣٣، ١٦٦) للهندي .

فلذلك يؤيد الله المهديَّ في هذه المعركة الأولى ، والتي ستبين أن هذا الرجل هو المهدي حقًّا ، يؤيد الله المهدي بنصرٍ غيبي ، فيخسف الله ﷻ الأرض بهذا الجيش الذي خرج لملاقاته .

وبعد هذه المعركة يخرجُ المهديُّ ﷺ ويبسط سلطانه على كلِّ جزيرة العرب التي ستفتحُ أبوابها ،ويتحقق قولُ النبيِّ ﷺ : « تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللهُ ﷻ » ؛ كما في «صحيح مسلم» وقد سبق معنا قريبًا .

إذًا الذي سيفتحُ جزيرة العرب دون قتال ، أو نزال بين جيش المهدي وبين هذا الجيش العربي المسلم هو: الله جلَّ وَعَلاَ .

المعركة الثانية :غزو فارس :

وستخرج بلاد فارس بحدِّها وحديدها بعد فتح الله للمهدي بلادَ العربِ ، ستخرج بلاد فارس لملاقاته ، فيخرجون لقتال المهدي ﷺ فيهزمهم المهديُّ شرَّ هزيمة ، ويتحقق قولُ النبيِّ ﷺ : « ثُمَّ تَغْزُونَ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ » [(١)] ، فيمتد سلطان المهدي من جزيرة العرب، ويتجه ناحية الشرق إلى ناحية بلاد فارس ؛ فيسيطر عليها سيطرة كاملةً بموعود الحق تبارك وتعالى وبموعود النبيِّ ﷺ .

المعركة الثالثة:قتال الروم [(٢)]:

وتلك هي الملحمةُ الكبرى ، وهي أشد الملاحم وأعنفها على الإطلاق .

ففي الحديث الذي «رواه مسلمٌ» [(٣)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ

(١) سبق .

(٢) انظر في التعريف بالروم: «معجم البلدان» رقم (٥٨١٣) لياقوت الحموي ط الكتب العلمية .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن ، باب في فتح القسطنطينية (٢٨٩٧).

ﷺ قَالَ : «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بالأَعْمَاقِ [١] أَوْ بِدَابِقٍ [٢]...».

(وهي مدينة قريبة من دمشق) .

قال ﷺ : « فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْـمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، فَإِذَا تَصَافُّوا لِلقِتَالِ ، قَالَتِ الرُّومُ : خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ ، فَيَقُولُ الْـمُسْلِمُونَ : لاَ ، وَالله لاَ نُخَلِّي بَيْنكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا ، فَيُقَاتِلُونَهُمْ ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لاَ يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ أَبَدًا ، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ ، أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ الله ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ ، لاَ يُفْتَنُونَ أَبَدًا ، فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطُنْطِينِيَّةَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ ، إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ : إِنَّ الْـمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ ،(أي : الدجال) فَيَخْرُجُونَ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ ، يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ ، إِذْ أُقِيمَتْ الصَّلاَةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَأَمَّهُمْ ، فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ الله ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ ، فَلَوْ تَرَكَهُ لاَنْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ الله بِيَدِهِ ، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ ».

ويصف النبيُّ ﷺ هذه المعركة وصفًا دقيقًا في رواية أخرى في « صحيح مسلم » [٣] عَنْ يُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ : « هَاجَتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ بِالْكُوفَةِ ، فَجَاءَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ هِجِّيرَي [٤] إِلاَّ : يَا عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ ، جَاءَتِ السَّاعَةُ ، قَالَ : فَقَعَدَ عَبْدَ الله بْنُ مَسْعُودٍ ، وَكَانَ مُتَّكِئًا ، فَقَالَ : إِنَّ السَّاعَةَ لاَ تَقُومُ حَتَّى لاَ يُقْسَمَ مِيرَاثٌ ، وَلاَ يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ ، ثُمَّ قَالَ

---

(١) وهي كورة قرب دابق بين حلب وأنطاكية (معجم البلدان رقم ٨٠٣) .

(٢) وهي قرية قرب حلب (معجم البلدان رقم ٤٥٤٠).

(٣) أخرجه مسلم ،كتاب الفتن ، باب إقبال الروم في كثرة القتل عند خروج الدجال (٢٨٩٩).

(٤) أي : دأبه وشأنه ، قاله القاضي عياض في « إكمال المعلم » (٨/ ٤٣٧)ط الوفاء .

بِيَدِهِ هَكَذَا ـ وَنَحَّاهَا نَحْوَ الشَّامِ ، وَقَالَ : عَدُوٌّ يَجْمَعُونَ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ ، وَيَجْمَعُ لَهُمْ أَهْلُ الإِسْلاَمِ . قُلْتُ : الرُّومَ تَعْنِي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُمُ الْقِتَالِ رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ ، فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ ـ وهي التي تقدم للقتال ـ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً فَيَقْتَتِلُونَ . حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ ، فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ ، كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ ، لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا ، فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ ، كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعِ ، نَهَدَ إِلَيْهِمْ بَقِيَّةُ أَهْلِ الإِسْلاَمِ ـ أي : تقدم ـ فَيَجْعَلُ اللهُ الدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ ـ أي الدائرة عليهم ـ فَيَقْتَتِلُونَ مَقْتَلَةً لَمْ يُرَ مِثْلُهَا ، حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَبَاتِهِمْ ، فَمَا يُخَلِّفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيْتًا ، فَيَتَعَادُّ بَنُو الأَبِ ، كَانُوا مِائَةً فَلاَ يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلاَّ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ ، فَبِأَيِّ غَنِيمَةٍ يُفْرَحُ ؟ أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ ؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعُوا بِبَأْسٍ ، هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ . فَجَاءَهُمُ الصَّرِيخُ ؛ إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَلَفَهُمْ فِي ذَرَارِيهِمْ فَيَرْفُضُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَيُقْبِلُونَ ، فَيَبْعَثُونَ عَشَرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةً ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنِّي لأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ ، وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ ، وَأَلْوَانَ خُيُولِهِمْ ، هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ » أَوْ « مِنْ خَيْرِ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ » .

يتضح لنا أن هذه المعركة العنيفة بين المسلمين والروم والتي سميت بالملحمة الكبرى التي لم يُرَ مثلها .

وفي الحديث الذي سبق الذي رواه أحمد ، وأبو داود ، والحاكم ، وصححه الألبانيُّ في « صحيح الجامع »[1] من حديث أبي الدرداء ﷺ أن النبيَّ ﷺ

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٧) ، وأبو داود (٤٢٩٨) كتاب الملاحم ، باب في المعقل من الملاحم ، والحاكم (٤/ ٤٨٦) ، كتاب الفتن ، وصححه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٤٢٠٥) .

يقول : « فُسْطَاطُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ الْكُبْرَى بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا : الْغُوطَةُ [١] ، فِيهَا مَدِينَةٌ يُقَالُ لَهَا : دِمَشْقُ ، خَيْرُ مَنَازِلِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمِئِذٍ » .

وفي رواية : « خَيْرُ مَدَائِنِ الشَّامِ ».

فأول شيء أن الروم حينما يجمعون ، ويأتون للمسلمين تحت ثمانين غاية ، أو راية ، تحت كل راية اثنا عشر ألفاً ، كما قال النبيُّ ﷺ [٢] .

يقولون للمسلمين : خلُّو بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون لأهل الروم : « لا والله لا نخلِّي بينكم وبين إخواننا» [٣] ، وهذا يدُّل علي أن كثيراً من نصاري الغرب ، أي : أوربا وأمريكا ، سيُسْلِمون ، وسيدخلون في دين الله أفواجًا ، فيريد الروم أن ينتقموا من هؤلاء الذين تركوا معسكرهم وأسلموا لله ﷻ ، وتبدأ المعركة التي قال النبيُّ ﷺ في حقِّها : «فَيَقْتَتِلُونَ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً لَمْ يُرَ مِثْلُهَا » [٤] وينصر الله ﷻ في هذه المعركة المهدي عليه السلام وكتائب جيش التوحيد .

فلقد ذكر النبيُّ ﷺ أنهم يُعَلِّقُون سيوفهم على الزيتون ، وأن الله يريهم الدم على حربة المسيح ، وذكر النبيُّ ﷺ عشرة فوارس يعرف أسماءهم ويعرف ألوان خيولهم ، والمعارك الأخيرة إنما تقع بهذه الأسلحة بعد نهاية الأسلحة الحديثة !!

وأنا أعلم أن من المسلمين من لا يصدِّقُ هذا الكلام !! ولو كان من عند النبيِّ ﷺ ، مِنْ هؤلاء الذين يَعْبُدون العقل من دون الله ﷻ

---

(١) الغوطة : موضع بالشام .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجزية والموادعة ، باب ما يحذر من الغدر (٣١٧٦)، من حديث عوف بن مالك أن النبيَّ ﷺ قال : « اعدد ستًّا بين يدي الساعة ... » .

(٣) تقدَّم ، وهو في « صحيح مسلم » .

(٤) تقدَّم .

ويقدمون العقل على النقل وإن صحَّ ، وبداية : إنا لا أقلل من شأن العقل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ ما معناه : « إن نور الوحي لا يطمس نور العقل أبداً ، بل يباركه ويزكّيه ويقويه »(١) .

لكن لا ينبغي أن يُقدَّمَ العقلُ على صحيح النقل إن صحَّ النقل عن الله وعن رسوله ﷺ ؛ فينبغي أن تسلِّم وأن تعلَم يقينًا بأن الله سيهيئ الكون في لحظةٍ يريدها ، ليقع ما أخبر به نبيه الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ، كيف ذلك ؟ ليس لمخلوقٍ على وَجْهِ الأرض أن يقف على كيفية ذلك .

فعلماء الغرب يتكلّمون عن أحداثٍ هائلة قد تفني فيها الأسلحة الحديثة ، فالغرب في فزعٍ وَرُعْبٍ شديدٍ في هذه الأيام من خلال تَفجُّر هذه المشكلة الرهيبة المرعبة التي تسمَّى بأزمة أو بكارثة الكمبيوتر لعام ٢٠٠٠ م .

وبداية أنا لا أقدِّم هذا الكلام لعلماء الغرب لنؤكِّد به صدْقَ نبينا ، كلاَّ ؛ فإن المؤمن الصادق لا يحتاج إلى كلام من شرقي ، أو من غربي ليصدق به كلام النبيِّ ﷺ ، وإنما أسوق هذا لبعض ضعاف القلوب والنفوس ممن لا يصدقون الكلام إلا إذا كان منسوبًا إلى الشرق أو الغرب ، وقد ذكرتُ قبل ذلك أن هذه الأسلحة البيولوجية ، والنووية ، والصواريخ ، والطائرات ، والدبابات إلى آخره ، قد تبقى بمكانها وبجنديٍّ من الجنود التي قال الله في حقها : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١] .

تُسْلَبُ هذه الأسلحة خصائصها وأعمالها ، ومن أعمالها كما مَثَّلْتُ قبل ذلك بالحادث التي حدث لي في أمريكا لما نزل الضباب الكثيف من

(١) راجع كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية « درء تعارض العقل والنقل » ، فإنه من أنفس الكتب في هذا الباب .

السماء ، وحجب الرؤية تماماً فتوقفت جميع السيارات !

ولقد نشرت جريدة أخبار يوم السبت ٢٣/ ١/ ١٩٩٩ بعنوان : هل تنطلق الأسلحة النووية بسبب مشكلة الكمبيوتر عام ٢٠٠٠م .

فمع اقتراب عام ٢٠٠٠ وهو موعد تفجير مشكلة الكمبيوتر المتوقعة والمعروفة باسم مشكلة ٢٠٠٠ حذَّر العديد من العلماء من مخاطر انطلاق أسلحة نووية بشكلٍ تلقائي نتيجةً للخلل المتوقع أن يصيب الحاسبات النووية ، والمعروف أن النظام الذي صُمِّمت به أجهزة الكمبيوتر الحالية يعمل وفقاً لتواريخ تنتهي عام ١٩٩٩ ، وبعدها يعود النظام إلى عام ١٩٠٠ بدلاً من عام ٢٠٠٠ مما دفع الكثيرين من الخبراء من التحذير من كوارث عديدة ستحدث نتيجة لهذا الخلل ، منها توقف حركة السفن ، والطائرات ، والبنوك ، والمستشفيات ، والمصاعد ، وقد عكفت جميعُ دول العالم تقريباً على تعديل أنظمة أجهزة الكمبيوتر العاملة لديها لتجنب حدوث هذه المشكلة ، ورغم ذلك ، فالتحذيرات من مشكلة عام ٢٠٠٠ لا تتوقف ، ويعتبر التحذير من احتمال انطلاق أسلحة نووية هو الأخطر على الإطلاق ، ورغم الضوابط والاحتياطات التي تتخذها الدول النووية إلا أن الخطأ وارد ، ولا يمكن أن نتجاهله سواء كان مصدر هذا هو العنصر البشري ، أو أجهزة الكمبيوتر ، وجدير بالذكر أن خبراء الأمم المتحدة أكَّدوا أكثر من مرة أن النظام الوحيد المضمون للسيطرة على الأسلحة النووية هو إزالة هذه الأسلحة بشكلٍ كاملٍ مطلق ، ويقول هؤلاء الخبراء : إن الأسلحة النووية الموجودة في العالم الآن ذات قوة تدميرية تزيد مليون مرة على قنبلة

هيروشيما ، وهي قوةٌ تكفي لتدمير الكرة الأرضية عدة مرات !!

ونشرت مجلة النصر التي تصدر عن إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة المصرية في العدد رقم ١٥ عدد يناير ١٩٩٩ ، بعنوان : « الكمبيوتر وكارثة عام ٢٠٠٠ » !!

والتحقيق كبير في أكثر من صفحة ، وسأكتفي بذكر العناوين التي كتبت بالخط العريض في هذا التحقيق :

- المخابرات الأمريكية لن تتنازل عن حصار المشكلة .
- انجلترا تتقدم ببطء واليابان في حالة قلق .
- الشركات الأمريكية العملاقة قد تنهار .
- كمبيوتر عام ٢٠٠٠ يكلف العالم ٧٠٠٠ مليار دولار .
- عندما تدق الساعة لتعلن منتصف ليلة ٣١ ديسمبر هذا العام سيعود بنا الكمبيوتر مائة عام للوراء . كأنه يريد أن يعلن عن رأيه في التمسك بالقرن الذي ولد فيه ، أو يريد أن يقوم بدور آلة الزمن ، ويعود بالعالم إلى القرن الماضي ، عمومًا آخر الأرقام حول حَلِّ مشكلة عام ٢٠٠٠ للكمبيوتر تقول : بأنه سيكلف العالم ٧٠٠٠ مليار دولار ؛ فما هي مشكلة الكمبيوتر ، وكيف تستعد دول العالم لها ؟ !!

ثم يقول : سوف يجتمع مجموعةٌ كبيرةٌ من المسؤولين الحكوميين ، وخبراء الصناعة في الأسبوع القادم لمناقشة كيفية تأثير مشكلة الكمبيوتر لعام ٢٠٠٠ م ، وسوف يناقش المؤتمر احتمال فشل الأنظمة وكيفية تأثيرها على الأعمال المحلية والحكومية والحياة اليومية .

ومشكلة عام ٢٠٠٠ م أو خلال الألفية يمكن اختصاره ، إلا أن كثيرًا

من أنظمة الكمبيوتر التي تستخدم سوف تقرأ التاريخ بآخر رقمين من السنة ، مثل ٩٨ بدلاً من ١٩٩٨ ، وعندما تأتي عام ٢٠٠٠ م فإن أجهزة الكمبيوتر ستقرؤها على أنها ١٩٠٠بدلًا من ٢٠٠٠ ، وسيؤدي هذا لحدوث مشاكل لا حصر لها كانقطاع الكهرباء في المصانع الكبرى ، وخلل في إشارات المرور ، واضطرابات في البنوك ، وخطأ في قراءة تحليلات المعامل العلمية ، و ... ، وإلى آخره ؛ فكلُّ الأجهزة التي تعمل تقريبًا في الأرض بالكمبيوتر ستتعرض إلى حالة خلل أو توقف !!

وهذا خبرٌ آخر : مئات الأقمار الصناعية تنجوا من شهب الأسد المدمرة ، في الوقت الذي نجت فيه مئات الأقمار الصناعية من شهب تسمَّى بشهب الأسد التي احترقت في الغلاف الجوي للكرة الأرضية ، قضى عشرات الآلاف ليلة أمس الأول في العراء في درجة حرارة تصل إلى عشرين درجة تحت الصفر ، انتظارًا لرؤية هذا العرض الكوني الفريد للألعاب النارية في ظاهرة فلكية نادرة ظهرت أكثر وضوحًا في قارة آسيا ، وذكرت وكالات الأنباء أن الظاهرة التي تتكرر كلَّ نحو ٣٣ عاماً شهدها بعض المحظوظين بينما حالت السحب الكثيفة دون مشاهدة البعض الآخر لها ، ولم يزد حجم معظم الشهب والنيازك الصغيرة التي تساقطت على الأرض لم يزد عن حجم حبات الرمل ، وبلغت سرعتها ٢٠٥٠ ألف كيلو في الساعة ، مما أكسبها قوة تدمير هائلة أثارت مخاوف العلماء من احتمال تعرض الأقمار الصناعية لأضرار جسيمة غير أن الظاهرة مرت بسلام !!!

هل ازددنا حبًّا لله ، وهل ازددنا حبًّا لرسول الله ﷺ ؟

وأنا أقول : بأني على يقين مطلق بأن الله ـ تبارك وتعالى ـ سيهيئ الكون في الوقت الذي يشاؤه بالكيفية التي يريدها ، ليحدث في الأرض هذا التغيير الذي أخبر به نبيه الصادق ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، متي ذلك ؟ وكيف ذلك ؟ كلُّ هذا لا يعلمه ملكٌ مقربٌ ، ولا نبيٌّ مرسلٌ ؛ إنما هو في علم الربِّ العليِّ وحده ـ تبارك وتعالي ـ لنعلم أن الكون كلَّه بيد الله ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمرن : ٢٦] .

المعركة الرابعة: فتح القسطنطينية[1]:

والقسطنطينية : هي الأستانة ، واسطنبول عاصمة بلاد تركيا ، وكانت هذه الدولة هي عاصمة الخلافة الإسلامية ، حتى جاء كمال أتاتورك الذي مثَّل رأس الأفعى اليهودية في القضاء على الخلافة ، ووقَّع معاهدةَ الذل والعار ، معاهدة لوزان عصمت إينونو الذي أعلن يومها هو وأستاذه أتاتورك أنهما سيطيحان برأس كلِّ خليفة مسلم من جديد يحاول أن يدس أنفه من جديد في قضية الخلافة ، أو في مسائل الحكم ، وبعد هذه المعاهدة فُرض على دولة الخلافة المهزومة أن ترفع الشريعة الإسلامية عن مظلة الحكم ، وأن تستبدل الشريعة الإسلامية بالقانون المدني الوضعي الذي يصطدم اصطدامًا مباشرًا مع شريعة الله ومع

---

(١) كان اسمها بيزنطية ، فنزلها قسطنطين الأكبر ، وبنى عليها سورًا فسماها باسمه ، وهي دار ملكهم اليوم ، واسمها اسطنبول ، وهي دار ملك الروم ، بينها وبين بلاد المسلمين البحر المالح ، عمَّرها هذا الملك من ملوك الروم ، راجع « معجم البلدان » (رقم ٩٦١٣) لياقوت الحموي ت ٦٢٦ هـ .

شريعة رسول الله ﷺ.

ومن هذا اليوم ٢٤ مارس ١٩٢٤ والأمة تتجرع كؤوس الذل والهوان، يوم أن نحيت الشريعة، واستُبْدِلَتْ بهذا الدستور المدني الوضعي البحت، ومن يومها والعلمانيون لا يريدون البتة لشرع الله أو لشريعة الله أن تسود، واستبدلت الأمة من يومها بالبعير بعرًا، وبالثريا ثرىً، وبالرحيق المختوم حريقًا محرقًا، فأحرقها ودمَّرها، ولازالت الأمة الآن تجني كؤوس الذل والهوان والمرارة يوم أن سقطت الخلافة الرشيدة التي كانت رمزاً لوحدة الأمة على اختلاف دولها، وعلى اختلاف أجزائها، لكن لما زالت الخلافة ومُزقت الأمة إلى دول؛ بل ومُزِّقَت الدول إلى دويلات، بل والدويلات إلى دويلات، بل استطاع أعداءُ الإسلام أن يضعوا مسمارًا قذرًا بين الدول الإسلامية يسمَّى بمسمار الحدود، يطرق على رأس هذا المسمار بعنف وبقوة لإشعال نار الفتن والخلافات والصراعات بين الدول المسلمة من آنٍ لآخر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال المفكر الصليبي الحقير لورنس براون: إن المسلمين سيصبحون لعنة على العالم إن شكَّلوا إمبراطورية واحدة. أما إن صاروا متفرقين، فإنهم سيكونون حينئذ بلا وزن أو تأثير !!

فاستطاع العلمانيون الأتراك إلى يومنا هذا أن يخلعوا ثوب الإسلام عن هذه الدولة، لكنَّ الله ﷻ سلم، ولا زالت تركيا تريد الإسلام، ونحن نعلم أن تركيا قد أجرت تحالفًا عسكريًّا مريبًا مع إسرائيل؛ بل وسمحت تركيا لإسرائيل أن يستخدم أجواءها الطيرانُ اليهودي، بل

وأجرت مناورات عسكرية مع اليهود؛ وفجَّرت تركيا قضيةً كبيرةً جدًّا، ألا وهي قضية المياه، فلقد وقَّعت تركيا اتفاقية مع إسرائيل، وثارت مشكلات بين تركيا والعراق، وتركيا وسوريا على منع تركيا للمياه لهذه الدول؛ فكل هذه المشاكل والخلافات تبين لنا أن الأعداء قد نجحوا أن يفصلوها عن جسد الأمة الإسلامية، والمسلمون هنالك الذين يرغبون في الإسلام لا حول لهم ولا قوة.

وقد أخبر النبيُّ ﷺ بأن القسطنطينية ستفتح، ولكن سنعجب إذا علمنا أنها لن تفتح بسيفٍ ولا برمحٍ ولا بفرسٍ، ولكن ستفتح بكلمة: «الله أكبر»، أو «لا إله إلا الله، والله أكبر»، هذا هو سلاحهم.. التكبير والتهليل !!!

ففي «صحيح مسلم»[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَمِعْتُمْ بِمَدِينَةٍ جَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَرِّ، وَجَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ؟»، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْزُوَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَاقَ، فَإِذَا جَاءُوهَا نَزَلُوا، فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلاَحٍ، وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ، قَالُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَاللهُ أَكْبَرُ، فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا الَّذِي فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَاللهُ أَكْبَرُ، فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الآخَرُ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَاللهُ أَكْبَرُ، فَيُفَرَّجُ لَهُمْ، فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْمَغَانِمَ، إِذْ جَاءَهُمُ الصَّرِيخُ، فَقَالَ: إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَرَجَ، فَيَتْرُكُونَ كُلَّ شَيْءٍ وَيَرْجِعُونَ».

وأقف مع قول النبيِّ ﷺ: «حَتَّى يَغْزُوَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَاقَ»، فبنو إسحاق هم الروم من سلالة العيصِ بن إسحاق بن

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل..» (٢٩٢٠).

إبراهيم ؛ فهم أولاد بني إسرائيل - وهو يعقوب [(١)].

وقد قال القاضي عياض رحمه الله [(٢)]: وكأن اللفظة قد استشكلت عليه - فقال : « قال بعضهم : المعروف المحفوظ: فيغزوها سبعون ألفًا من بني إسماعيل » .

ولكن الإمام النوويَّ رحمه الله ردَّ عليه ومال إلى أن اللفظة الثابتة في « صحيح مسلم » أصح [(٣)].

وأزال الحافظ ابن كثير رحمه الله [(٤)] هذا اللبس وهذا الإشكال ؛ فقال : « وهذا يدلُّ على أن الروم يسلمون في آخر الزمان ، ولعل فتح القسطنطينية يكون على يدي طائفة منهم كما نطق به الحديث المتقدمُ ، أنه يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق » .

المعركة الخامسة: قتال اليهود :

ومن المعلوم أن النبيَّ ﷺ يقول ، كما في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ : يَا مُسْلِمُ ، يَا عَبْدَ الله ، وَرَائِي يَهُودِيٌّ ، تَعَالَ فَاقْتُلْهُ ، إِلاَّ الْغَرْقَدَ ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ » [(٥)]، والعجيب أنهم يُكْثِرون - الآن - من زراعته .

---

(١) انظر: « النهاية في الفتن » لابن كثير (باب ذكر الملحمة مع الروم الذي آخره فتح القسطنطينية) (٥٣) .

(٢) « إكمال المعلم بفوائد مسلم » (٨/ ٤٦٤) ط دار الوفاء .

(٣) راجع « شرح مسلم » للنووي (١٨/ ٢١).

(٤) كما في « النهاية » (٥٣) .

(٥) أخرجه البخاريُّ كتاب الجهاد والسير (٢٩٢٦)، ومسلم ، كتاب الفتن (٢٩٢٢) وقد تقدَّم.

فهم يصدقون النبيَّ ﷺ ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٤٦].

وكلُّنا يعلم حديث عبد الله بن سلام [(١)].

فهم ينقضون العهد مع الأنبياء ؛ بل مع رب الأرض والسماء ، ولا زالت الأمة تصدق اليهود بأنهم سيوفون مع الحكَّام والرؤساء!!

حال أمتنا حالٌ عجيبة ... وهي لعمر الله بائسة كئيبة
يجتاحها الطوفان طو ... فان المؤامرةِ الرهيبة
ويخطط المتآمرون كي ... يُغرقوها في المصيبة
وسيحفرون لها قبورًا ... ضمن خطَّتهم رحيبة
قالوا السلام ! قُلْتُ يعو ... د الأهل للأرض السليبة
وسيلبس الأقصى غدًا ... أثوابًا قشيبة
فإذا سلامهم هو التنا ... زل عن القدس الحبيبة
فبئس سلامهم إذاً وبئـ ... ـست هذه الخطط المريبة

فاليهود يعلمون صدق النبيِّ ﷺ ؛ فهم يكثفون زراعةَ هذا النوع من الشجر ـ نوع من شجر الشوك ـ ولا تعجب كيف ينطق الشجر والحجر ، فأنت في زمن العجائب يومئذ !!

فلماذا لا تتعجب كيف ينطق التلفاز ؟ ولماذا لا تعجب وأنت تسمع الذي يتحدث فيه وتراه؟ كيف لا تعجب من ذلك ، وتعجب من نطق

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب مناقب الأنصار (٣٩٣٨).

الشجر والحجر ؛ فالجذع حزن لفراق النبيِّ ﷺ (١) ؛ والحجر كان يسلِّم على النبيِّ ﷺ (٢) ، فلا تعجب من ذلك ، فأنت في زمن العجائب ، زمن المهدي ، والدجال ، وعيسى ، ويأجوج ومأجوج .

المعركة السادسة: معركة خوزا وكرمان :

وهي ـ الآن ـ بلاد الصين وروسيا واليابان ، وقد وصفهم النبيُّ ﷺ وصفًا دقيقًا ، كما ذكرت قبل ذلك في الأحاديث (٣) ، وبهذا ينصر الله ﷻ المهديَّ عليه السلام في كلِّ هذه المعارك ، ليتحقق وعدُ الله ، وليتحقق وعدُ الرسول ﷺ ، ليتحقق وعد الله بأن يَعُمَّ الإسلامُ أرجاء الأرض ، وأن يظهر الله ﷻ دين نبيه ﷺ ؛ كما قال سبحانه : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف :٨، ٩] .

وليتحقق وعدُ النبيِّ ﷺ ؛ كما في «مسند أحمد» ، و« مستدرك الحاكم» (٤)

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٨٤).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبيِّ ﷺ وتسليم الحجر عليه (٢٢٧٧).

(٣) سبق تخريجها في أول الكلام عن المعارك التي سيخوضها المهديُّ ، ومن ذلك قول النبيِّ ﷺ : «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا خُوزًا وَكَرْمَانَ مِنَ الأَعَاجِمِ ...» وهو في «الصحيح».

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣) ، والحاكم (٤/ ٤٣٠) كتاب الفتن ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (٣) (١/ ٣٢) ، قال الألباني : « ومما لا شك فيه : أن تحقيق هذا الانتشار يستلزم أن يعود المسلمون أقوياء في معنوياتهم وماديانهم وسلاحهم ، حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على قوى الكفر والطغيان ، وهذا ما يبشرنا به هذا الحديث عن أبي قبيل ، قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسئل : أيُّ المدينتين تُفتح أولًا : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوقٍ له حِلَقٌ ، قال : فأخرجَ منه كتابًا ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تُفتح أولًا ؟ أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : «مدينة هرقل تفتح أولًا». يعني : «قسطنطينية » رواه أحمد ، ورومية هي : روما ، كما « معجم البلدان » وهي عاصمة إيطاليا اليوم .

من حديث تميم الداري ﷺ أنه ﷺ قال : « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ ـ أَيْ : الدين ـ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلاَ يَتْرُكُ الله بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ الله هَذَا الدِّينَ ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ ، عِزًّا يُعِزُّ الله بِهِ الإِسْلاَمَ ، وذُلاًّ يُذِلُّ الله بِهِ الْكُفْرَ ».

أسألُ الله ﷻ أن يقرَّ أعيننا بنصرة الإسلام وعزِّ الموحدين .

وقبل أن أختم الحديث عن المهدي أسوق هذا الكلام المهم لشيخنا الألباني ﷀ حيث يقول[1] : « واعلم ـ يا أخي المسلم ـ أن كثيرًا من المسلمين اليوم قد انحرفوا عن الصواب في هذا الموضوع ؛ فمنهم من استقرَّ في نفسه أن دولة الإسلام لن تقوم إلا بخروج المهدي ، وهذه خرافة وضلالة ألقاها الشيطان في قلوب كثير من العامة ، وبخاصة الصوفية منهم ، وليس في شيء من أحاديث المهدي ما يشعر بذلك مطلقًا ؛ بل هي كلها لا تخرج عن أن النبيَّ ﷺ بشَّرَ المسلمين برجل من أهل بيته ووصفه بصفات بارزة ، أهمها: أنه يحكم بالإسلام ، وينشر العدل بين الأنام ، فهو في الحقيقة من المجددين الذين يبعثهم الله في رأس كلِّ مائة سنة ، كما صحَّ عن النبيِّ ﷺ ؛ فكما أن ذلك لا يستلزم ترك السعي وراء طلب العلم والعمل به لتجديد الدين ، فكذلك خروج المهدي لا يستلزم التواكل عليه ، وترك الاستعداد والعمل لإقامة حكم الله في الأرض ، بل العكس هو الصواب ، فإن المهدي لم يكن أعظم سعيًا من نبينا ﷺ الذي ظلَّ ثلاثًا وعشرين عامًا وهو يعمل لتوطيد دعائم الإسلام ، وإقامة دولته ؛ فماذا عسى أن يعمل المهدي لو

---

(١) «الصحيحة» (تحت حديث : ١٥٢٩) وبوَّب عليه بقوله : «خروج المهدي حقيقة عند العلماء».

خرج اليوم فوجد المسلمين شيعًا وأحزابًا ، وعلماءهم ـ إلا القليل منهم ـ اتخذهم الناس رؤوسًا ! لما استطاع أن يقيم دولة الإسلام إلا بعد أن يوحد كلمتهم ويجمعهم في صفٍّ ، وتحت رايةٍ واحدة ، وهذا بلا شك يحتاج إلى زمن مَديدٍ الله أعلم به ؛ فالشرع والعقل معًا يقتضيان أن يقوم بهذا الواجب المخلصون من المسلمين ، حتى إذا خرج المهدي لم يكن بحاجة إلا أنْ يقودهم إلى النصر ، وإن لم يخرج فقد قاموا هم بواجبهم ، والله يقول : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة:١٠٥] .

ومنهم ـ وفيهم بعض الخاصة ـ مَنْ علم أن ما حكيناه عن العامة أنه خرافة ، ولكنه توهم أنها لازمة لعقيدة خروج المهدي ،فبادر إلى إنكارها ، على حدِّ قول من قال : « وداوني بالتي كانت هي الداء » ! ، ثم قال : وطائفة منهم رأوا أن عقيدة المهدي قد استغلت غبر التاريخ الإسلامي استغلالًا سيئًا ،فادعاها كثيرٌ من المغرضين ،أو المهبولين ، وجرت من جراء ذلك فتنٌ مظلمة ،كان من آخرها فتنة مهدي (جهيمان) السعودي في الحرم المكي ، فرأو أن قطع دابر هذه الفتن ، إنما يكون بإنكار هذه العقيدة الصحيحة ! وإلى ذلك يشير الشيخ الغزالي !

وما مثل هؤلاء إلا كمثل من ينكر عقيدة نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان التي تواتر ذكرها في الأحاديث الصحيحة ؛لأن بعض الدجاجلة ادَّعاها ، مثل ميرزا غلام أحمد القادياني ،وقد أنكرها بعضهم فعلًا صراحة ؛ كالشيخ شلتوت ، وأكادُ أقطع أن كلَّ من أنكر عقيدة المهدي ينكرها أيضًا . وبعضهم يظهر ذلك في فلتات لسانه ، وإن كان لا يبين . وما مثل هؤلاء المنكرين جميعًا عندي إلا كما لو أنكر رجل ألوهية الله عز وجل بدعوى أنه ادعاها بعض الفراعنة ! (فهل من مدَّكر؟) » انتهى .

العلامات الكبرى [١]

بداية أقول : إنني لم أجد نصًا صريحًا عن الصادق المصدوق ﷺ يبين فيه النبيُّ ﷺ ترتيب العلامات الكبرى ترتيبًا لا خلاف عليه ، أي الآية بعد الأخرى ، ولو توقفنا مع الأحاديث التي ذكر فيها النبيُّ ﷺ العلامات الكبرى لوقفنا على هذا الخلاف في الترتيب .

فعلى سبيل المثال ، ما رواه مسلمٌ [٢] من حديث حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ ﷺ أنه قَالَ : اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ ؛ فَقَالَ : «مَا تَذَاكَرُونَ ؟» قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ ، فَقَالَ : « إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ » فَذَكَرَ الدُّخَانَ ، وَالدَّجَّالَ ، وَالدَّابَّةَ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ .

فهذا هو الترتيب الذي ورد في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ .

وفي « صحيح مسلم » [٣] من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ أنه ﷺ قَالَ : « إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَالدُّخَانُ ، وَالدَّجَّالُ ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ

---

(١) قال البيهقيُّ وغيره: «الأشراط منها صغار ، وقد مضى أكثرها ، ومنها كبار ستأتي» ، «فتح الباري» (١٣/ ٩١) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٩٠١) .

(٣) المصدر السابق .

مَغْرِبِهَا ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ » ، وفي رواية : « والْعَاشِرَةِ : نُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ ، وَقَالَ الآخَرُ : «وَرِيحٌ تُلْقِي النَّاسَ فِي الْبَحْرِ » .

فهذا حديثٌ واحدٌ في « صحيح مسلم » عن صحابيٍّ واحدٍ جاء بلفظين مختلفين ؛ فقدم النبيُّ ﷺ في الحديث الأول الدُّخان ، وقدَّم في الحديث الثاني خسفًا يقع بالمشرق .

وفي « صحيح مسلم » [(١)] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، أَوِ الدُّخَانَ ، أَوِ الدَّجَّالَ ، أَوِ الدَّابَّةَ ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ - أي : الموت - أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ » .

وفي روايةٍ لمسلم [(٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظٍ آخر أن النبيَّ ﷺ قال : « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا : الدَّجَّالَ ، والدُّخَانَ ، ودَابَّةَ الأَرْضِ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مغْرِبِهَا ، وَأَمْرَ الْعَامَّةِ ، وَخُوَيْصَةَ أَحَدِكُمْ » .

إذًا هذه الروايات تبين لنا اختلاف الروايات ؛ فالرواية الأولى قدم فيها النبي ﷺ علامة ، وفي الرواية الثانية قدم علامة أخرى .

وفي « صحيح مسلم » [(٣)] عن أبي زرعة قال : جَلَسَ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ بِالْمَدِينَةِ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَسَمِعُوهُ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنِ الآيَاتِ : أَنَّ أَوَّلَهَا خُرُوجًا الدَّجَّالُ ، فَقَالَ عَبْدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنهما : لَمْ يَقُلْ مَرْوَانُ شَيْئًا ، قَدْ حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ حَدِيثاً لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجاً : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في بقية أحاديث الدجال (٢٩٤٧) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤١) .

مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحىً ، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا ، فَالأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا ».

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى[1] : « والذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض ،وينتهي ذلك بموت عيسى ﷺ ، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوي ، وينتهي ذلك بقيام الساعة ،ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب ، ثم قال : والحكمة في ذلك أنه عند طلوع الشمس من المغرب يُغلق باب التوبة » .

ومن المعلوم أنه في عهد عيسى ﷺ سيؤمن به كثيرٌ من أهل الكتاب ؛ فقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩] .

فإن آمن به في هذه اللحظات قَبِلَ إيمانه ؛ بل وسيحجُّ كثيرٌ من المؤمنين بيت الله الحرام في عهد عيسى ؛ بل وسيحج البيت عيسى ﷺ .

ففي يوم طلوع الشمس « تخرج الدابة لتميز المؤمن من الكافر ؛ تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة ، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس »[2] وهذا فهم الحافظ ابن حجر في الجمع بين الروايات .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[3] : « إن خروج الدابة هو أول الآيات الأرضية التي ليست بمألوفة ، فإن الدابة التي تُكَلِّم الناس ، وتُعيِّن

(١) « فتح الباري » (١١/ ٣٥٣) ط المعرفة . (٢) تتمة كلام الحافظ ، كما في المصدر السابق.

(٣) « النهاية في الفتن والملاحم » (١/ ١٦٤ – ١٦٨) .

المؤمن من الكافر أمرٌ مخالفٌ للعادة المستقرة ، وأما طلوع الشمس من مغربها فهو أمرٌ باهرٌ جدًّا ، وذلك أول الآيات السماوية ، أما ظهور المسيح الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام ، وخروج يأجوج ومأجوج ، فإنهم وإن كان ظهورهم قبل طلوع الشمس من مغربها ، وقبل ظهور الدابة إلا أنهم بشر ، مشاهدتهم وأمثالهم من الأمور المألوفة ؛ بخلاف ظهور الدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، فهو ليس من الأمور المألوفة » .

ومن أهل العلم مَنْ رتَّب العلامات الكبرى بهذا الترتيب ؛ فقال : خسفٌ بالمشرق ، وخسفٌ بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وخروجُ الدجال ، ونزول عيسى ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والدخان ، والنار التي تخرج من قعر عدن لتسوق الناس إلى محشرهم (١) .

وعلى أيِّ حال حتى وإن اختلف أهل العلم في ترتيب الآيات أو العلامات الكبرى بحسب وقوعها ، فإنها ستقع تباعًا ، كما أخبر النبيُّ ﷺ ، إذا ظهرت علامة ، فإن العلامة الأخرى في إثرها .

كما في « مستدرك » الحاكم ، و« مسند أحمد » (٢) بسندٍ صحيحٍ من

---

(١) ولا يمنع من ظهور العلامات الكبرى ظهور علامات صغرى ، فمثلاً قد يظهر الدجال وفي الوقت ذاته ينتشر الزنا ، وتفشو التجارة ، ويظهر الفحش ، ويتقارب الزمان إلى غير ذلك ؛ فليس كون العلامات الكبرى ظهرت أن العلامات الصغرى قد انقضت وانتهت ؛ كما سيأتي في تخريب الكعبة .. إلى غير ذلك .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٩) ، وابن أبي شيبة (٣٧٢٧٤) ، والحاكم (٤/ ٥٢٠) ط العلمية ، ورواه عن أنس رضي الله عنه (٤/ ٥٨٩) ، وقال الهيثميُّ في « المجمع » (٧/ ٣٢١) : « رواه أحمد ، وفيه عليُّ بن زيد ، وهو حسن الحديث » ، وصححه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٢٧٥٥) ، و« الصحيحة » (١٧٦٢) .

حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « الآيَاتُ خَرَزَاتٌ مَنْظُومَاتٌ فِي سِلْكٍ ، فَإِنْ يُقْطَعِ السِّلْكُ ، يَتْبَعْ بَعْضُهَا بَعْضًا ».

وفي رواية عند ابن حبان في « صحيحه » و الطبرانيِّ في « الأوسط » بسندٍ صحَّحه الشيخ الألباني [(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « خُرُوجُ الآيَاتِ بَعْضُهَا عَلَى إِثْرِ بَعْضٍ يَتَتَابَعْنَ كَمَا تَتَابَعُ الخَرَزُ فِي النِّظَامِ ».

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن المقصود بالآيات خرزات منظومات ، أعني : العلامات الكبرى ؛ فإن ظاهر الحديث في هذا الباب يدلُّ على تقارب ظهورها تقاربًا شديدًا جدًّا ؛ فمن المعلوم أن المهديَّ ﷺ إن وُجدَ يظهر الدجال ، وفي الوقت ذاته يكون في الأرض عيسى ﷺ .

وفي هذا الوقت الذي يوجد فيه عيسى في الأرض يظهر يأجوج ومأجوج ، ثم يدعو عيسى عليهم فيهلكهم الله ﷻ ، وكما قال عيسى ﷺ : « فَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي ﷻ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ ؛ فَإِنَّ السَّاعَةَ كَالحَامِلِ المُتِمِّ الَّتِي لا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تَفْجَؤُهُمْ بِوِلاَدِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَاراً » .

رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ بسندٍ صحيح ؛ كما

---

(١) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » (١٥/ ٢٤٨) (٦٨٣٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٢٧١) ، وقال الهيثمي في « المجمع »(٧/ ٣٣١) : « رواه الطبرانيُّ في « الأوسط » ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ، وداود الزهراني ، وكلاهما ثقة» ، وله شاهدٌ موقوفٌ عن حذيفة ، وشاهد آخر عن عبد الله بن عمرو ، وثالث عن أنس ؛ لذا صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع » (٣٢٢٧) و« الصحيحة » (٣٢١٠) بالشواهد ؛ فقال : « وبالجملة ؛ فالحديث بهذه الشواهد صحيح بلا ريب ، وكأنه لذلك ثبَّته الحافظ في« الفتح » (١٣/ ٧٧) » .

قال العلامة أحمد شاكر ؛ موقوفًا[١] .

وهذا من الغيب الذي لا يتكلَّم فيه الصحابيُّ إلا إذا كان سمعه من النبيِّ ﷺ ، فله حكم المرفوع .

وبين موت عيسى وقيام الساعة علامات أخرى ؛ كطلوع الشمس من مغربها ، وظهور الدابة ، وظهور الدخان ؛ فمن العلامات ما لا يراه أهل الإيمان في الأرض ؛ بل تقع على أخبث أهل الأرض ، وعلى شرار الخلق ، وتخرج النار التي تحشر الناس ، وهذه العلامات تقع كلُّها في وقتٍ قليلٍ جدًّا قبل قيام الساعة ؛ كمثل العقد الذي انفرط نظامه ؛ فتتابعت كخرزات منظومات!!

وأول العلامات الكبرى التي تقع في الأرض ، وتؤذن بتغيير العالم الأرضي كلِّه[٢] ـ وهذا هو الذي يهمُّنا على اعتبار أننا كبشرٍ نعيش في الأرض ـ هو خروج الدجال ؛ وهذا هو التفصيل في هذه العلامة نعرضها في الفصل التالي:

*****

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج (٤٠٨١) ، وقال البوصيريُّ في « الزوائد » : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، ومؤثر بن عفارة ذكره ابن حبان في الثقات ، وباقي رجال الإسناد ثقات » ، وأحمد (١/ ٣٧٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ٤٩٨) (٣٧٥٢٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤١٦) ، (٤/ ٥٣٤، ٥٨٨) ، وصححه الشيخ أحمد شاكر في « المسند » وضعفه الشيخ الألبانيُّ في « ضعيف الجامع » (٤٧٠٩) و« الضعيفة » (٤٣١٨) .

(٢) وهذا ما رجحه الحافظ ابن حجر رحمه الله ـ كما تقدم ـ وهو الذي أميل إليه ، والله أعلم .

العلامة الأولى: خروج المسيح الدجال

أولًا : لفظة المسيح الدجال ؛ ذكر الإمام القرطبيُّ في « التذكرة »[(١)] ثلاثة وعشرين قولاً في اشتقاق المسيح .

وهذه اللفظة تطلق على الصدِّيق وعلى المضلِّ الكذاب .

فالمسيحُ عيسي ابن مريم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ هو المسيحُ الصديق ، أو مسيح الهدى ، ولفظةُ « المسيح » أيضًا تطلقُ على الدجال ، وهو مسيح الضلال .

فالمسيح ابن مريم يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله .

والدجال : مسيح الضلالة يفتن الناس بما يُعْطَى من الآيات ؛ كإنزال المطر ، وإحياء الأرض من النبات وغيرهما .

ولماذا سُمِّي الدجال بالمسيح ؟

سُمِّي بالمسيح ؛ لأن إحدى عينيه ممسوحة ، أو لأنه يمسح الأرض كلَّها في أربعين يومًا[(٢)] .

والقول الأول : لا شك أنه الأصحُّ ؛ كما في « صحيح مسلم » أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الدَّجَالَ مَمْسُوحُ العَيْنِ »[(٣)] .

وما معنى الدجال ؟

الدَّجَّال : مأخوذٌ من قولهم : دجل البعير ، أي إذا أُطلي بالقطران ،

---

(١) « التذكرة » (٦٠٨-٦١٠) ط فياض .

(٢) « النهاية في غريب الحديث » لابن الأثير (٤/ ٣٢٦ ، ٣٢٧) ، « ولسان العرب » (٢/ ٥٩٤ ، ٥٩٥) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٤/ ١٠٥) .

وغُطي به ، وأَصْلُه : الخلط والتمويه والتلبيس .

وذكر القرطبيُّ رحمه الله[(١)] : أن الدجَّال في اللغة يطلق على عشرة وجوه .

وسمِّي بذلك ؛ لأنه مموه كذاب ، يُغَطِّي الحق ويستره بسحرِهِ وكذبه ، ولفظة « الدجال » أصبحت علمًا على المسيح الأعور الكذاب ،كما أصبحت لفظة الكذاب لقبًا على مسيلمة . وقيل : إنه سمِّي بالدجال ؛ لكثرة جموعه والمتبعين له[(٢)] .

والسُّؤالُ : إن خرج الدجال هل سنعرفه ؟

والجواب : أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٦] ، ويقول سبحانه في حقِّ نبيه : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨] .

ووالله لقد وصف النبيُّ ﷺ الدَّجالَ وصفًا دقيقًا كأنك تراه الآن ، حتى إن خرج الدجال لن يُفتن به إلا من فُتن قلبه أصلًا ، نعوذ بالله من الفتن ؛ فالدجَّال رجلٌ من بني آدم ، له صفاتٌ جاءت في الأحاديث الصحيحة ، ليحْذَرَ الناسُ شرَّهُ ،وليعرفه الناسُ إن خرج ؛ فلا يغْترَّ به إلا الغبيُّ الجاهل الذي لم يعرف كلام النبيِّ ﷺ ،ولم يحضر دروس العلم التي يتعرف فيها على وصف النبيِّ ﷺ للدجال ولهذه الفتن !!

فهو رجلٌ من بني آدم ، شابٌّ ، أحمرُ ، قصيرُ ، أفحجُ ؛ أي : متباعد ما بين الفخذين ، جعد الرأس ، أجلى الجبهة ، عريض النحر ، ممسوح العين اليمنى ، وليست بناتئة (أي : بارزة)، ولا جحراء (أي : غائرة) ،

---

(١) «التذكرة» (٥٩٠، ٥٩١) .

(٢) « لسان العرب » (١١/ ٢٣٦) .

كأنها عنبة طافئة ، وعينه اليسرى عليها ظفرة ، أي : لحمة تنبت عند المآقي ، ومكتوب بين عينيه كافر ، بل بالحروف المقطعة ك ف ر ، يقرؤها كلُّ مؤمنٍ كاتب وغير كاتب ،وهو عقيمٌ لا يولد له !!

ومن أشمل وأعجب الأحاديث في ذلك ؛ ما رواه مسلم (١)، من حديث عامر بن شراحيل الشعبي أَنَّهُ سَأَلَ فَاطِمَةَ بِنْتَ قِيْسٍ ، أُخْتَ الضَّحَّاكِ ﷺ وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلِ ، فَقَالَ : حَدِّثِينِي حَدِيثًا سَمِعْتِيهِ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ لاَ تُسْنِدِيهِ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ ، فَقَالَتْ : لَئِنْ شِئْتَ لأَفْعَلَنَّ ، فَقَالَ لَهَا : أَجَلْ حَدِّثِينِي ، فَقَالَتْ : نَكَحْتُ ابْنَ الْمُغِيرَةِ ، وَهُوَ مِنْ خِيَارِ شَبَابِ قُرَيْشٍ يَوْمَئِذٍ ، فَأُصِيبَ فِي أَوَّلِ الْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ، فَلَمَّا تَأَيَّمْتُ خَطَبَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ ، وَخَطَبَنِي رَسُولُ الله ﷺ عَلَى مَوْلاَهُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، وَكُنْتُ قَدْ حُدِّثْتُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّ أُسَامَةَ » ؛ فَلَمَّا كَلَّمَنِي رَسُولُ الله ﷺ قُلْتُ : أَمْرِي بِيَدِكَ ، فَأَنْكِحْنِي مَنْ شِئْتَ ؛ فَقَالَ : « انْتَقِلِي إِلَى أُمِّ شَرِيكٍ » ، وَأُمُّ شَرِيكٍ امْرَأَةٌ غَنِيَّةٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، عَظِيمَةُ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ الله ، يَنْزِلُ عَلَيْهَا الضِّيفَانُ ، فَقُلْتُ : سَأَفْعَلُ ؛ فَقَالَ : « لاَ تَفْعَلِي ، إِنَّ أُمَّ شَرِيكٍ امْرَأَةٌ كَثِيرَةُ الضِّيفَانِ ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَسْقُطَ عَنْكِ خِمَارُكِ ، أَوْ يَنْكَشِفَ الثَّوْبُ عَنْ سَاقَيْكِ ، فَيَرَى الْقَوْمُ مِنْكِ بَعْضَ مَا تَكْرَهِينَ ، وَلَكِنِ انْتَقِلِي إِلَى ابْنِ عَمِّكِ عَبْدِ الله بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ » فَانْتَقَلْتُ إِلَيْهِ فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي ، سَمِعْتُ نِدَاءَ الْمُنَادِي مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ يُنَادِي : الصَّلاَةَ جَامِعَةً. فَخَرَجْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ

(١) أخرجه مسلم ،كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قصة الجساسة (٢٩٤٢) .

فَكُنْتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِي ظُهُورَ الْقَوْمِ ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ صَلاَتَهُ ، جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ ـ وَهُوَ يَضْحَكُ ـ فَقَالَ : «لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلاَّهُ ، ثُمَّ قَالَ : «أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟ » ، قَالُوا : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « إِنِّي وَالله ! مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلاَ لِرَهْبَةٍ ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ ؛ لأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ ﷺ كَانَ رَجُلاً نَصْرَانِيًّا ، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ ، مَعَ ثَلاَثِينَ رَجُلاً مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامَ، فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ ، ثُمَّ أَرْفَؤُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرُبِ السَّفِينَةِ ، فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ ، فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ ، لاَ يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقَالُوا : وَيْلَكِ !! مَا أَنْتِ ؟ فَقَالَتْ : أَنَا الْجَسَّاسَةُ ، قَالُوا : وَمَا الْجَسَّاسَةُ ؟ قَالَتْ : أَيُّهَا الْقَوْمُ ، انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالأَشْوَاقِ ، قَالَ : لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلاً فَرِقْنَا مِنْهَا ـ أي : خفنا منها ـ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً ، قَالَ : فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ ، فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا ـ أي : ضخم ـ وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا ، مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ ، قُلْنَا : وَيْلَكَ !! مَا أَنْتَ ؟ قَالَ : قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِي فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ ، رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ (أي: اضطرب وهَاجَ) فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا ، ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ ، فَجَلَسْنَا فِي أَقْرُبِهَا ، فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ ، لاَ يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ ، فَقُلْنَا : وَيْلَكِ ! مَا أَنْتِ ؟ فَقَالَتْ : أَنَا الْجَسَّاسَةُ ، قُلْنَا : وَمَا الْجَسَّاسَةُ ؟ قَالَتِ :

اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالأَشْوَاقِ ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا ، وَفَزِعْنَا مِنْهَا ، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً ؛ فَقَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ ؟ قُلْنَا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ ؟ قَالَ : أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا ، هَلْ يُثْمِرُ ؟ قُلْنَا لَهُ : نَعَمْ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لاَ تُثْمِرَ . قَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ ، قُلْنَا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ ؟ قَالَ : هَلْ فِيهَا مَاءٌ ؟ قَالُوا : هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ ، قَالَ : أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ . قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ ؟ قَالُوا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ ؟ قَالَ : هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ ؟ قُلْنَا لَهُ : نَعَمْ ، هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا، قَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ ؟ قَالُوا : قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ ، قَالَ : أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ ، قَالَ لَهُمْ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ ، وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي ، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ فَأَخْرُجَ ، فَأَسِيرَ فِي الأَرْضِ ، فَلاَ أَدَعَ قَرْيَةً إِلاَّ هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا ، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا ، اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا يَصُدُّنِي عَنْهَا ، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلاَئِكَةً يَحْرُسُونَهَا» . قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي الْمِنْبَرِ : «هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ ، هَذِهِ طَيْبَةُ » يَعْنِي : الْمَدِينَةَ ، « أَلاَ هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ ؟ » فَقَالَ النَّاسُ : نَعَمْ ، « فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ . أَلاَ إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّامِ أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ ، لاَ بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ

الْمَشْرِقِ ، مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ»[١] وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ قَالَتْ: فَحَفِظْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ .

وفي الحديث الذي رواه مُسْلِمٌ[٢] من حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ : ذَكَرَ رَسُولُ الله ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا ؛ فَقَالَ : « مَا شَأْنُكُمْ ؟ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ، ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً ، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ ؛ فَقَالَ : « غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ ، والله خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالاً ، يَا عِبَادَ الله ، فَاثْبُتُوا » . قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ، وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ ؟ قَالَ : « أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، يَوْمٌ كَسَنَةٍ ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاةُ يَوْمٍ ؟ قَالَ : « لَا ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ ؟ قَالَ : « كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا ، وَأَسْبَغَهُ

---

(١) قال النوويُّ: « قال القاضي: لفظة ; «ماهو» زائدة صلة للكلام ليست بنافية، والمراد إثبات أنه في جهات المشرق » . «شرح مسلم للنووي» (١٨/ ٨٣) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧) .

ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ، فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ، فَيُقْبِلُ، وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ، شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ...»، الحديث بطوله.

وفي «صحيح البخاريِّ ومسلم»[1] من حديث أبي سَعِيدٍ الخدري ﷺ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا حَدِيثًا طَوِيلاً عَنِ الدَّجَّالِ، فَكَانَ فِيمَا حَدَّثَنَا قَالَ: «يَأْتِي ـ الدَّجَّالُ ـ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ الْمَدِينَةِ، فَيَنْتَهِي إِلَى بَعْضِ السِّبَاخِ الَّتِي تَلِي الْمَدِينَةَ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيْرُ النَّاسِ، أَوْ مِنْ خِيَرِ النَّاسِ، فَيَقُولُ لَهُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ حَدِيثَهُ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ، أَتَشُكُّونَ فِي الأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لاَ، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فَيَقُولُ حِينَ يُحْيِيهِ: وَالله، مَا كُنْتُ فِيكَ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْيَوْمَ، قَالَ: فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة (١٨٨٢)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم، كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب في صفة الدجال، وتحريم المدينة عليه وقتله المؤمن وإحيائه (٢٩٣٨).

أَنْ يَقْتُلَهُ ، فَلاَ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ ».

وفي روايةٍ لمسْلِمٍ (١) : « يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَتَلْقَاهُ الْمَسَالِحُ ، مَسَالِحُ الدَّجَّالِ ، فَيَقُولُونَ لَهُ : أَيْنَ تَعْمِدُ ؟ فَيَقُولُ : أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ ، قَالَ : فَيَقُولُونَ لَهُ : أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا ؟ فَيَقُولُ : مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ ، فَيَقُولُونَ : اقْتُلُوهُ ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ؟ قَالَ : فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ ، فَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُ قَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ : فَيَأْمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشَبَّحُ ـ أي : يُمَدُّ عَلَى بَطْنِهِ ـ فَيَقُولُ : خُذُوهُ وَشُجُّوهُ ، فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا ، فَيَقُولُ : أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِي ؟ فَيَقُولُ : أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ ، قَالَ : فَيُؤْمَرُ بِهِ ، فَيُؤْشَرُ بِالْمِنْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ ، حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ ».

قَالَ : « ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : قُمْ ، فَيَسْتَوِي قَائِمًا ».

قَالَ : « ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : أَتُؤْمِنُ بِي ؟ فَيَقُولُ : مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلاَّ بَصِيرَةً » ، قَالَ : « ثُمَّ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لاَ يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ » ، قَالَ : « فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ ، فَيُجْعَلَ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا ، فَلاَ يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، قَالَ: فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، فَيَقْذِفُ بِهِ ، فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّمَا قَذَفَهُ إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ » فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ».

---

(١) المصدر السابق .

وفي «صحيح البخاريِّ ومسلم»(١) من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ قال رِبْعِيُّ بْنُ حِرَاشٍ ، قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرٍو لِحُذَيْفَةَ : أَلاَ تُحَدِّثُنَا مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ ؟ قَالَ : إِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ : «إِنَّ مَعَ الدَّجَّالِ إِذَا خَرَجَ مَاءً وَنَارًا ، فَأَمَّا الَّتِي يَرَى النَّاسُ أَنَّهَا النَّارُ فَمَاءٌ بَارِدٌ ، وَأَمَّا الَّذِي يَرَى النَّاسُ أَنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ فَنَارٌ تُحْرِقُ ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْكُمْ فَلْيَقَعْ فِي الَّذِي يَرَى أَنَّهَا نَارٌ ، فَإِنَّهُ عَذْبٌ بَارِدٌ».

وقد جمع الشيخ الألبانيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ قصة المسيح الدجال ، ونزول عيسى ﷺ ، وقتله إياه على سياق رواية أبي أمامة ﷺ ، وأضاف إليها ما صحَّ عن غيره من الصحابة ﷺ في سياق رائع رأيتُ أن أنقُلَهُ بكامِله لتعمَّ الفائدة ـ بإذن الله .

فعن أبي أمامة الباهلي وغيره من الصحابة ﷺ(٢) أن النبيَّ ﷺ قال :

١ ـ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ على وَجْهِ الأَرْضِ مُنْذُ ذَرأَ الله ذُرِّيَّةَ آدَمَ ، وَلَا تَكُونُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةَ الدَّجَّالِ ، ولَنْ ينجُوَ أَحدٌ مِمَّا قَبْلَهَا إلاَّ نجا منْهَا ، وإِنَّهُ لاَ يَضُرُّ مُسْلِمًا».

٢ ـ «وَإِنَّ الله لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إلاَّ حَذَّرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الدَّجَّالَ ، إِنِّي لأُنْذِرُكُمُوهُ» .

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٠، ٧١٣٠) ، ومسلم كتاب الفتن ، وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٤، ٢٩٣٥) .

(٢) أخرج رواية أبي أمامة : ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج (٤٠٧٧) ، وانظر : تخريج الشيخ الألباني ﷺ لهذه الروايات في كتاب «قصة المسيح الدجال» (٤٧) وما بعدها .

٣ـ « وَأَنَا آخِرُ الأَنْبِيَاءِ ، وَأَنْتُمْ آخِرُ الأُمَمِ » .

٤ـ « وَهُوَ خَارِجٌ فِيكُمْ لاَ مَحَالَةَ (إِنَّهُ لَحَقٌّ ،وَأما إِنَّهُ قَرِيبٌ ، فَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ، إِنَّمَا يَخْرُجُ لِغَضْبَةٍ يَغْضَبُهَا ، ولاَ يَخْرُجُ حتَّى لاَ يُقْسَمَ مِيرَاثٌ ، وَلاَ يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ » .

٥ـ « فَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْكُمْ ، فَأَنَا حَجِيجٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ ، وَإِنْ يَخْرُجْ مِنْ بَعْدِي ، فَكُلُّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ ،وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » وفي حديث أم سلمة : «وَإِنْ يَخْرُجْ بعْدَ أَنْ أَمُوتَ يَكْفِيكُمُوهُ اللهُ بِالصَّالِحِينَ» .

٦ـ « وَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ [أَرْضٍ] قِبَلِ المَشْرِقِ [(١)] ، يُقَالُ لَهَا : خُرَاسَان ، في يهودِيَّةِ أَصْبَهَانَ ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ المَجَانُّ المُطْرَقَةِ مِنْ خَلَّةٍ بينَ الشَّامِ والعِراقِ ، فَعَاثَ يمِينًا ، وَعَاثَ شِمالًا ، يَا عبادَ الله !! فَاثْبُتُوا » ثلاثًا .

٧ـ « فَإِنِّي سَأَصِفُهُ لَكُمْ صِفَةً لَمْ يَصِفْهَا إِيَّاهُ نَبِيٌّ قَبْلِي » وفي حديث عبادة : «إِنِّي قدْ حدَّثْتُكُمْ عنِ الدَّجَّالِ حتَّى خَشِيتُ أَلاَّ تَعْقِلُوا » .

٨ـ « إِنَّهُ يبدَأُ فيَقُولُ : أَنَا نَبِيٌّ ، وَلاَ نَبِيَّ بَعْدِي» .

٩ـ «ثُمَّ يُثَنِّي فيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ . وَلا تَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا » .

---

(١) قُلْتُ ـ الشيخ الألباني ﷺ : هذا هو الثابت في « مسلم » ، وأما قول الحافظ في « الفتح » (١٣/ ٧٧) : « وفي رواية : أنه يخرج من أصبهان . أخرجها مسلم » ففيه نظر ؛ لأنه ليس في «مسلم» أنه يخرج منها ،وإنما فيه من حديث أنس : « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا ... »
قُلْتُ : فهذا ليس نصًا بأنه يخرج منها ؛ بل هو يحتمل ذلك ،لأنه يتحدث عن أتباعه من اليهود ، ولا يتحدث عنه نفسه .

١٠ـ وَإِنَّهُ أَعْوَرُ مَمْسُوحُ [١] الْعَيْنِ الْيُسْرَى [٢]، عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ [٣] غَلِيظَةٌ، خَضْرَاءُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ [٤]، عَيْنُهُ الْيُمْنَى كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ [٥]، لَيْسَتْ بِنَاتِئَةٍ، وَلاَ حَجْرَاءَ، جِفَالُ الشَّعْرِ، أَلا مَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ، فَلا يَخْفَيَنَّ عَلَيْكُمْ أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ـ ثلاثًا، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنَيْهِ ـ وَأَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا».

١١ـ «إِنَّهُ يَمْشِي فِي الأَرْضِ، وَإِنَّ الأَرْضَ وَالسَّمَاءَ لله».

١٢ـ «إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بنِ قَطَنٍ، قَصِيرٌ، أَفْحَجُ، دَعْجٌ، هَجَانٌ».

١٣ـ «وَإِنَّهُ آدَمُ، جَعْدٌ [٦]، جِفَالُ الشَّعْرِ [٧]».

١٤ـ «وَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ مَنْ كَرِهَ عَمَلَهُ، أَوْ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مؤمنٍ كاتبٍ أَوْ غَيْرِ كَاتِبٍ».

١٥ـ «وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنَّ مَعَهُ جَنَّةً وَنَارًا، وَنَهْرًا وَمَاءً، وَجَبَلَ خُبْزٍ، وَإِنَّهُ يَجِيءُ مَعَهُ مِثْلُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ، وَجَنَّتُهُ نَارٌ».

---

(١) أي: عينه غير بارزة.

(٢) اختلفت الروايات في وصف عينه اليمنى بالعور، وفي بعض الروايات اليسرى بالعور، وكلُّ الروايات صحيحة، وهذا فيه إشكال، وقد ذهب الحافظ ابن حجر إلى أن وصف العين اليمنى بالعور أرجح من الرواية التي في مسلم من أن عينه اليسرى هي التي فيها عور، قال: «لأن المتفق على صحته أقوى من غيره» «فتح الباري» (١٣/ ٩٧).
وذهب القاضي عياض إلى أن عيني الدجال كلتيهما معيبة، فجمع بين الأدلة، قال النوويُّ في هذا الجمع: «هو في نهايةِ من الحسن»، «شرح النووي» لمسلم (١/ ٥١٢، ٥١٣) ط الحديث، ورجحه القرطبيُّ في «التذكرة» (٥٩٥).

(٣) هي بفتح الظاء والفاء، لحمةٌ تنبت عند المآقي، وقد تمتد إلى السواد فتغشيه «نهاية».

(٤) يعني: أنها شديدة الاتقاد.
(٥) أي: بارزة، وهي غير الممسوحة؛ كما قال الحافظ.

(٦) الجعد: خلاف السبط.
(٧) أي: شعث الشعر.

ـ(وسأله المغيرة بن شعبة عنه ؟فقالَ : قُلْتُ : إِنَّهُمْ يَقُولُونَ : مَعَهُ جِبَالٌ مِنْ خُبْزٍ وَلَحْمٍ وَنَهْرٍ مِنْ مَاءٍ ؟ قَالَ : هُوَ أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ ذَلِكَ).

ـ وفي حديث آخر : «مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ ، أَحَدُهُمَا ـ رَأْيَ العَيْنِ ـ مَاءٌ أَبيضُ، وَالآخَرُ ـ رَأْيَ العَيْنِ ـ نَارٌ تَأَجَّجُ ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ ، فَأَرَادَ المَاءَ ؛ فَلْيَشْرَبْ مِنَ الَّذي يَرَاهُ أَنَّهُ نَارٌ ، وَلْيُغْمِضْ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ لِيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ ؛ فَإِنَّهُ يَجِدُهُ مَاءً بَارِدًا عَذْبًا طَيِّبًا ، فَلاَ تَهْلَكُوا » .

وفي أخرى :« فَمَنْ دَخَلَ نَهْرَهُ حُطَّ أَجْرُهُ ، وَوَجَبَ وِزْرُهُ ، وَمَنْ دَخَلَ نَارَهُ وَجَبَ أَجْرُهُ ، وحُطَّ وِزْرُهُ » .

١٦ـ « فَمَنِ ابْتُلِيَ بِنَارِهِ ، فَلْيَسْتَغِثْ بِالله ، وَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ ؛ فَإِنَّهَا جِوَارُكُم مِنْ فِتْنَتِهِ » .

١٧ـ « وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِلأَعْرَابِيِّ : أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ ، أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ، فَيَقُولاَنِ : يَا بُنَيَّ ،اتَّبِعْهُ ، فَإِنَّهُ رَبُّكَ !»

١٨ـ « وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يُسَلَّطَ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَيَقْتُلَهَا ، وَيَنْشُرَهَا بِالْمِنْشَارِ حَتَّى تُلْقَى شِقَّيْنِ » .

١٩ـ « وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَمُرَّ بِالحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ ، فَيُكَذِّبُونَهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ ، فَلاَ تَبْقَى لَهُمْ سَائِمَةٌ إِلاَّ هَلَكَتْ » .

٢٠ـ « وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَمُرَّ بِالحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ ، فَيُصَدِّقُونَهُ ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيَأْمُرَ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ ، فَتُمْطِرُ ، وَالأَرْضَ أَنْ تُنْبِتَ ، فَتُنْبِتُ ، حَتَّى تَرُوح مَوَاشِيهِمْ مِنْ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ أَسْمَنَ مَا كَانَتْ وَأَعْظَمَهُ ، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ، وأَدَرَّهُ ضُرُوعًا » .

٢١ـ « وَيَمُرُّ بِالخَرِبَةِ ، فَيَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَكِ ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ » .

٢٢ـ « يَخْرُجُ فِي زَمَانِ اخْتِلافٍ مِنَ النَّاسِ ، وَفُرْقَةٍ وَبُغْضٍ مِنَ النَّاسِ ، وَخِفَّةٍ مِنَ الدِّينِ ، وَسُوءِ ذَاتِ بَيْنٍ ، فَيَرِدُ كُلَّ مَنْهلٍ ، فَتُطْوَى لَهُ الأَرْضُ طَيَّ فَرْوَةِ الكَبْشِ » .

٢٣ـ « وَلاَ يَخْرُجُ حَتَّى تَنْزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ ، أَوْ بِدَابِقَ ، يَجْمَعُونَ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ ، وَيَجْمَعُ لَهُمْ أَهْلُ الإِسْلاَمِ ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، فَإِذَا تَصَافُّوا ، قَالَتِ الرُّومُ : خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ : لاَ وَاللهِ ، لاَ نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا ، فَيُقَاتِلُونَهُمْ ، وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُمُ القِتَالِ رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ ، فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً ، فَيَقْتَتِلُونَ ، حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ ، فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ ، كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً ، فَيَقْتَتِلُونَ ، حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ ، فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ ، كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً ، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا ، فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ ، كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعُ نَهَدَ إِلَيْهِمْ بَقِيَّةُ أَهْلِ الإِسْلاَمِ ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لاَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا ، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ ـ هُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ ـ وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لاَ يُفْتَنُونَ أَبَدًا ، فَيَجْعَلُ اللهُ الدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ ـ أي : على الروم ـ فَيَقْتَتِلُونَ مَقْتَلَةً ، إِمَّا قَالَ : لاَ يُرَى مِثْلُهَا ، وَإِمَّا قَالَ : لَمْ يُرَ مِثْلُهَا ، حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَبَاتِهِمْ ، فَمَا يُخَلِّفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيْتًا ، فَيَتَعَادُّ بَنُو الأَبِ ، كَانُوا

مِائَةً ، فَلاَ يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنهُمْ إِلاَّ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ ، فَبِأَيِّ غَنِيمَةٍ يُفْرَحُ ، أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ ؟ فَيَبْلُغُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ، فَيَفْتَحُونَهَا » .

وفي رواية : « سَمِعْتُمْ بِمَدِينَةٍ جَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَرِّ ، وَجَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ ؟» قَالُوا : نَعَمْ ، يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْزُوَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَاقَ ، فَإِذَا جَاءُوهَا نَزَلُوا ، فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلاَحٍ ، وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ ، قَالُوا : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَالله أَكْبَرُ ، فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا الَّذِي فِي الْبَحْرِ ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَالله أَكْبَرُ ، فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الآخَرُ ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَالله أَكْبَرُ، فَيُفَرَّجُ لَهُمْ فَيَدْخُلُوهَا، فَيَغْنَمُوا ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الغَنَائِمَ ـ قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ ـ إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ : إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ. فَيَرْفُضُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ ، فَيَخْرُجُونَ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ ، فَيَبْعَثُونَ عَشَرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةً » ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِنِّي لأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ ، وَأَلْوَانَ خُيُولِهِمْ ، هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، فَإِذَا جَاؤُوا الشَّأْمَ خَرَجَ ».

٢٤ـ « وَإِنَّهُ لاَ يَبْقَى شَيْءٌ مِنَ الأَرْضِ إِلاَّ وَطِئَهُ وَظَهَرَ عَلَيْهِ ، إِلاَّ أَرْبَعَ مَسَاجِدَ : مَسْجِدُ مَكَّةَ ، وَمَسْجِدُ المَدِينَةِ ، والطُّورِ ، وَمَسْجِدُ الأَقْصَى ».

٢٥ـ « وَإِنَّ أَيَّامَهُ أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، يَوْمٌ كَسَنَةٍ ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُم » ، قَالُوا : فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ ؟ قَالَ : « لاَ ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ » ، قَالُوا : وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ ؟ قَالَ : « كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ ».

٢٦ـ « وَإِنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ثَلاَثَ سَنَوَاتٍ شِدَادٍ ، يُصِيبُ النَّاسَ

فِيهَا جُوعٌ شَدِيدٌ ، يَأْمُرُ اللهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الأُولَى أَنْ تَحْبِسَ ثُلُثَ مَطَرِهَا ، وَيَأْمُرُ الأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَ نَبَاتِهَا ، ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ فَتَحْبِسُ ثُلُثَيْ مَطَرِهَا ، وَيَأْمُرُ الأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَيْ نَبَاتِهَا ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ فَتَحْبِسُ مَطَرَهَا كُلَّهُ ، فَلاَ تَقْطُرُ قَطْرَةٌ ، وَيَأْمُرُ الأَرْضَ فَتَحْبِسُ نَبَاتَهَا كُلَّهُ فَلاَ تُنْبِتُ خَضْرَاءَ ، فَلاَ تَبْقَى ذَاتُ ظِلْفٍ إِلاَّ هَلَكَتْ إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ، قِيلَ : فَمَا يُعِيشُ النَّاسَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ؟ قَالَ : « التَّهْلِيلُ ، وَالتَّكْبِيرُ ، وَالتَّسْبِيحُ ، وَالتَّحْمِيدُ ، وَيُجْرَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ مُجْرَى الطَّعَامِ ».

٢٧ـ « لاَ يَأْتِي مَكَّةَ والْمَدِينَةَ مِنْ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهَا إِلاَّ لَقِيَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ بِالسُّيُوفِ صَلْتَةً » .

٢٨ـ « وَإِنَّه لَيْسَ مِنْ بَلْدَةٍ إِلاَّ يَبْلُغُهَا رُعْبُ المَسِيحِ الدَّجَّالِ ، إِلاَّ المَدِينَةَ ، لَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ، عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهَا مَلَكَانِ يَذُبَّانِ عَنْهَا رُعْبَ المَسِيحِ » .

٢٩ـ « حتَّى يَنْزِلَ عِنْدَ السَّبْخَةِ سِبْخَةِ الجُرُفِ ، دُبُرَ أُحُدٍ ، فَيَضْرِبُ رِوَاقَهُ » .

٣٠ـ « فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ ، فَلاَ يَبْقَى مُنَافِقٌ وَلاَ مُنَافِقَةٌ إِلاَّ خَرَجَ إِلَيْهِ ، فَتَنْفِي الخَبَثَ مِنْهَا كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ ، وَيُدْعَى ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمَ الخَلاَصِ ، وَأَكْثَرُ مَنْ يَخْرُجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ » .

٣١ـ « فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، مُمْتَلِئٌ شَبَابًا ، هُوَ يَوْمَئِذٍ خَيْرُ النَّاسِ ، أَوْ مِنْ خَيْرِهِم ، فَتَلْقَاهُ الْمَسَالِحُ ـ مَسَالِحُ الدَّجَّالِ ـ فَيَقُولُونَ لَهُ : أَيْنَ تَعْمِدُ ؟ فَيَقُولُ : أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ ، قَالَ : فَيَقُولُونَ لَهُ : أَوَمَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا ؟ فَيَقُولُ : مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ ! فَيَقُولُونَ : اقْتُلُوهُ ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ

لِبَعْضٍ : أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ ؟ فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ ، فَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُ قَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِي ذَكَرَ ـ وفي طريق : الَّذي حَدَّثَنَا ـ رَسُولُ اللهِ ﷺ حديثه قَالَ : فَيَأْمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشَبَّحُ (١) ، فَيَقُولُ : خُذُوهُ وَشَبِّحُوهُ (٢) ، فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا ، قَالَ : فَيَقُولُ : أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِي ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ ، أَتَشُكُّونَ فِي الأَمْرِ ؟ فَيَقُولُونَ : لاَ ، قَالَ : فَيُؤْمَرُ بِهِ ، فَيُؤْشَرُ بِالْمِئْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ ، فَيَقْتُلُهُ » .

وفي حديث النواس : «فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ ، فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ قَالَ : ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : قُمْ ، فَيَسْتَوِي قَائِمًا ، قَالَ : ثُمَّ يَدْعُوهُ ، فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : أَتُؤْمِنُ بِي ؟ فَيَقُولُ : واللهِ مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلاَّ بَصِيرَةً ، قَالَ : ثُمَّ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لاَ يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، قَالَ : فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ ، فَيُجْعَلُ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا ، فَلاَ يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، قَالَ : فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، فَيَقْذِفُ بِهِ ، فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّمَا قَذَفَهُ إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ » ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

٣٢ـ ثُمَّ تَصْرِفُ الْمَلاَئِكَةُ وَجْهَهُ قِبَلَ الشَّامِ ، ثُمَّ يَأْتِي جَبَلَ إِيلِيَا ، فَيُحَاصِرُ عِصَابَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَيَلْقَى الْمُؤْمِنُونَ شِدَّةً شَدِيدَةً ، وَيَفِرُّ النَّاسُ

---

(١) أي : يمد بالضرب.

(٢) ولفظ مسلم : « وشُجُّوه» وراجع كلام النووي في ذلك «شرح مسلم» (١٨/ ٧٣) ط الريان.

مِنَ الدَّجَّالِ فِي الْجِبَالِ » فَقَالَتْ أُمُّ شَرِيكٍ بِنْتُ أَبِي العَكَرِ : يَا رَسُولَ الله ، فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : « هُمْ يَوْمِئِذٍ قَلِيلٌ ».

٣٣ـ « وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ» ، وقَالَ ﷺ : «الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ ، مِنْ أَوْلاَدِ فَاطِمَةَ ، يُصْلِحَهُ الله فِي لَيْلَةٍ[1] ، يُوَاطِيءُ اسْمُهُ اسْمِي ، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي ، أَجْلَى الجَبْهَةَ ، أَقْنَى الأَنْفِ ، يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا ، كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا ، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ » .

وَقَالَ ﷺ : « عِصَابَتَانِ مِنْ أُمَّتِي أَحْرَزَهُمَا الله مِنَ النَّارِ : عِصَابَةٌ تَغْزُو الْهِنْدَ ، وَعِصَابَةٌ تَكُونُ مَعَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام ».

وقال : « مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ ، فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلاَمَ » .

٣٤ـ « فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ ، إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الصُّبْحَ ، عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ » .

٣٥ـ وقال ﷺ : « لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ ـ يَعْنِي عِيسَى ـ وَإِنَّهُ نَازِلٌ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ ، رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ ، فَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الإِسْلاَمِ ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ ، وَيُهْلِكُ الله فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا

---

(١) أي : يتوب عليه ويوفقه ويفهمه ويرشده بعد أن لم يكن كذلك . قاله الحافظ ابن كثير في « النهاية » (١ / ٤٣) ولعل المقصود بذلك أنه يصلحه ، أي : يعدُّه لتولي قيادة المسلمين ؛ لا أنه كان فاسقًا فأصلحه الله وتاب عليه .

إِلاَّ الإِسْلاَمَ » . وَقَالَ : «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ ، وَإِمَامُكُمْ » وفي رواية : «وَأَمَّكُمْ ، مِنكُمْ؟» . قَالَ ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ : «تَدْرِي مَا أَمَّكُمْ مِنكُمْ ؟ قُلْتُ : تُخْبِرُنِي ، قَالَ : فَأَمَّكُمْ بِكِتَابِ رَبِّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ.

٣٦ـ « فَرَجَعَ ذَلِكَ الإِمَامُ يَنْكِصُ ـ يَمْشِي القَهْقَرَى ـ لِيَتَقَدَّمَ عِيسَى ، فَيَقُولُ : تَعَالَ صَلِّ لَنَا ، فَيَضَعُ عِيسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : لاَ ، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةَ الله هَذِهِ الأُمَّةَ ، تَقَدَّمْ فَصَلِّ ، فَيُصَلِّي بِهِمْ إِمَامُهُمْ ».

٣٧ـ « ثُمَّ يَأْتِي الدَّجَّالُ جَبَلَ إِيلْيَاءَ ، فَيُحَاصِرُ عِصَابَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَيَقُولُ لَهُمْ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ : مَا تَنْتَظِرُونَ بِهَذَا الطَّاغِيَةِ إِلاَّ أَنْ تُقَاتِلُوهُ حَتَّى تَلْحَقُوا بالله ، أَوْ يَفْتَحَ لَكُمْ ،فَيَأْتَمِرُونَ أَنْ يُقَاتِلُوهُ إِذَا أَصْبَحُوا » .

٣٨ـ « فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ ، وَيُسَوُّونَ الصُّفُوفَ ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ ، صَلاَةُ الصُّبْحِ ، فَيُصْبِحُونَ وَمَعَهُمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، فَيَؤُمُّ النَّاسَ ، فَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ رَكْعَتِهِ قَالَ : سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ ، قَتَلَ الله المَسِيحَ الدَّجَّالَ ، وَظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ ، فَإِذَا انْصَرَفَ قَالَ : افْتَحُوا البَابَ ، فَيُفْتَحُ ، وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ ، كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى وَسَاجٍ ، فَيَطْلُبُهُ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ».

٣٩ـ « فَيَذْهَبُ عِيسَى بِحَرْبَتِهِ نَحْوَ الدَّجَّالِ ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّالُ ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ ، فَلَو تَرَكَهُ لانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ الله بَيَدِهِ ، فَيُرِيهِ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ ، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ اللُّدِ الشَّرْقِيِّ فَيَقْتُلُهُ ،

فَيُهْلِكُهُ اللهُ ﷻ عِنْدَ عَقَبَةِ أَفِيقَ »[(١)].

٤٠ـ « فَيَهْزِمُ اللهُ الْيَهُودَ ، وَيُسَلَّطُ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ ، وَيَقْتُلُونَهُمْ فَلاَ يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلاَّ أَنْطَقَ اللهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ ، لاَ حَجَرٌ وَلاَ شَجَرٌ ، وَلاَ حَائِطٌ ، وَلاَ دَابَّةٌ ـ إِلاَّ الْغَرْقَدَةَ ؛ فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ لاَ تَنْطِقُ ـ إِلاَّ قَالَ : يَا عَبْدَ اللهِ الْمُسْلِمَ ، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ ».

٤١ـ « ثُمَّ يَلْبَثُ النَّاسُ بَعْدَهُ[(٢)] سِنِينَ سَبْعاً لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ».

٤٢ـ « فَيَكُونُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ ـ عَلَيْهِ الصَّلاَةِ والسَّلاَمَ ـ فِي أُمَّتِي مُصَدِّقًا بِمُحَمدٍ ﷺ ، عَلَى مِلَّتِهِ حَكَماً عَدْلاً ، وَإِمَامًا مَهْدِيًا مُقْسِطًا ، فَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الإِسْلاَمِ ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ ، وَيَذْبَحُ الْخِنْزِيرَ ، وَتُجْمَعُ لَهُ الصَّلاَةُ ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ ، وَيَتْرُكُ الصَّدَقَةَ ، فَلاَ يُسْعَى عَلَى شَاةٍ وَلاَ بَعِيرٍ ، وَتُرْفَعُ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ ، وَلَيُدْعَوُنَّ إِلَى الْمَالِ فَلاَ يَقْبَلُهُ أَحَدٌ ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ». «وَتَكُونَ الدَّعْوَةُ وَاحِدَةً لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ».

ـ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا ،

---

(١) قرية من حوران في طريق الغور في أول العقبة المعروفة بعقبة أفيق ،والعامة تقول : (فيق)، تنزل من هذه العقبة إلى الغور وهو الأردن ، وهي عقبة طويلة نحو ميلين ، «معجم البلدان» .

(٢) أي: بعد هلاك الدجال ، فلا ينافيه أن عيسى ﷺ يمكث في أرض أربعين سنة (فقرة ٤٥) ، كما هو ظاهر ،وأما قول الحافظ ابن كثير (١/ ١٧٧) بعد أن ذكر الفقرة المشار إليها :

وثبت في « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمر : « أنه يمكث في الأرض سبع سنين ،فهذا مع هذا مشكل .... » ونحوه قول الحافظ في « الفتح » (٦/ ٣٨٤) :

«وروى مسلم من حديث ابن عمر في مدة إقامة عيسى بالأرض ـ بعد نزوله ـ أنها سبع سنين» .

أقول : فكلُّ هذا لا أصل له في « مسلم » ، وإنما فيه من حديث (ابن عمرو) وليس (ابن عمر) ما ذكرناه في الأعلى : « ثم يلبث الناس بعده سنين سبعًا » .

فالذي يلبث هم الناس ؛ وليس عيسى ﷺ ، فلا إشكال ، والحمد لله .

أَوْ لَيُثَنِّيَنَّهُمَا» .

٤٣ـ « ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ الله مِنْهُ ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ ، إِذْ أَوْحَى الله إِلَى عِيسَى : إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ ، وَيَبْعَثُ الله يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ .(ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى جَبَلِ الخَمَرِ ـ وهو جبلُ بيتِ المقدسِ ـ فَيَقُولونَ : لَقَدْ قَتَلْنَا منْ في الأرْضِ ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، فَيَرْمُونَ بِنِشَابِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ ، فَيَرُدُّ الله عَلَيْهِمْ نِشَابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ ، فَيُرْسِلُ الله عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى ، كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ ، فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ ، مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتَنُهُمْ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الله ، فَيُرْسِلُ الله طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ ، فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ الله ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ ، فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ : أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا ، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ ، حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ ، وَيَكُونَ الثَّوْرُ بِكَذَا وَكَذَا مِنَ الـمَالِ ، وَتَكُونَ

الْفَرَسُ بِالدُّرَيْهِمَاتِ » .

ـ وقال ﷺ : « طُوبَى لِعَيْشٍ بعدَ الْمَسِيحِ ، يُؤْذَنُ للسَّمَاءِ فِي القَطْرِ ، وَيُؤْذَنُ للأَرْضِ فِي النَّبَاتِ ، فَلَوْ بَذَرْتَ حَبَّكَ على الصَّفَا لَنَبَتَ ، وَلاَ تَشَاحَّ ، وَلاَ تَحَاسُدَ ، وَلاَ تَبَاغُضَ » .

٤٤ـ «وَتُنْزَعُ حُمَةُ كلِّ ذاتِ حُمَةٍ وَتَقَعُ الأَمَنَةُ على الأَرْضِ ،حتَّى تَرْتَعَ الأُسُودُ معَ الإبلِ ، والنِّمَارُ مَعَ البقَرِ ، والذِّئَابُ معَ الغنَمِ ، وَيَلْعَبَ الصِّبْيَانُ بِالْحَيَّاتِ لاَ تَضُرُّهُمْ) ، حَتَّى يُدْخِلَ الْوَلِيدُ يَدَهُ فِي الْحَيَّةِ فَلاَ تَضُرُّهُ ، وَتُفِرُّ الْوَلِيدَةُ الأَسَدَ فَلاَ يَضُرُّهَا ، وَيَكُونُ الذِّئْبُ فِي الْغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا ، وَتُمْلأُ الأَرْضُ مِنَ السِّلْمِ كَمَا يُمْلأُ الإِنَاءُ مِنَ المَاءِ ، وَتَكُونُ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً فَلاَ يُعْبَدُ إِلاَّ الله ، وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، وَتُسْلَبُ قُرَيْشٌ مُلْكَهَا، ثُمَّ يُقَالُ : تَكُونُ الأَرْضُ كَفَاثُورِ الْفِضَّةِ تُنْبِتُ نَبَاتَهَا بِعَهْدِ آدَمَ » .

٤٥ـ « فَيَمْكُثُ عِيسَى ـ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ـ فِي الأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ يُتَوَفَّى ، فَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ ».

٤٦ـ « فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، إِذْ بَعَثَ الله رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ » .

وفي حديث ابن عمرو : «فَلاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إِلاَّ قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ » ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ، وَأَحْلاَمِ السِّبَاعِ ، لاَ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا ، وَلاَ يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، قَالَ : فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ : أَلاَ تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِالأَوْثَانِ فَيَعْبُدُونَهَا ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارَّةٌ أَرْزَاقُهُمْ ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ، يَتَهَارَجُونَ تَهَارُجَ الْحُمُرِ ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ » .

٤٧ـ « يُنْفَخُ في الصُّورِ ، فلا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إلاَّ أَصْغَى لِيتًا ، وَرَفَعَ لِيتًا ، وأوَّلُ من يَسْمَعُهُ رجلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ ، فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ ثمَّ يُرْسِلُ الله ـ أو قال : يُنْزِلُ الله ـ مَطَرًا كأنَّهُ الطَّلُّ أو الظِلُّ ـ شكٌّ من الرواي ـ فَتَنْبُتُ منهُ أَجْسَادُ النَّاسِ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[الزمر:٦٨] ، ثم يقالُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[الصفات:٢٤] ، ثُمَّ يُقَالُ : أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ ، فيُقالُ : مِنْ كَمْ ؟ فيُقَالُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، فَذَاكَ يَوْمٌ ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾[المزمل:١٧] ، وذلك ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[القلم: ٤٢] » ا.هـ .

وبنو تميم هم أشدُّ الناس على الدجال ، أي : قتالًا .

كما روى البخاريُّ ومسلم [1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : لاَ أَزَالُ أُحِبُّ بَنِي تَمِيمٍ مُنْذُ ثَلاَثٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ يَقُولُهَا فِيهِمْ : « هُمْ أَشَدُّ أُمَّتِي عَلَى الدَّجَّالِ » .

والسُّؤالُ : هل الدجَّالُ حَيٌّ؟ وهل كان موجودًا في زمن النبيِّ ﷺ؟

وقبل الجواب ؛ لابد أن نتعرف على ابن صياد الذي قال كثيرٌ من أهل العلم بأنه المسيح الدجال الذي ذكره النبيُّ ﷺ ، وقد ورد في « صحيح مسلم » في وصف أحوال ابن صياد أنَّ اسمه صافي ، وقيل : عبد الله بن صياد أو صائد ، وهو من يهود المدينة ، وقيل : كان من الأنصار وكان هذا الشخصُ صغيرًا لم يبلغ الحلم عندما قدِمَ النبيُّ ﷺ المدينة .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب (٦٨) رقم (٤٣١٦) ، وانظر رقم (٢٥٤٣) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطيء (٢٥٢٥) .

وذكر الحافظ ابن كثير[١] : «أن عبد الله بن صياد أسلم ، وكان ابنه عمارة بن عبد الله بن صياد من سادات التابعين ،روى عنه الإمام مالك وغيره » ، وترجم له الإمام الذهبيُّ في كتابه « تجريد أسماء الصحابة » ، فقال : عبد الله بن صياد ، أورده ابن شاهين ، وقال : هو ابن صائد ،كان أبوه يهوديًا فوُلِد عبد الله أعور مختونًا ، وهو الذي قيل : إنه الدجال ، ثم أسلم ، فهو تابعيٌّ ، له رؤيةٌ »[٢].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله[٣] في كتابه «الإصابة » : « ومن ولده عمارة ابن عبد الله بن صياد ،وكان من خيار المسلمين ، من أصحاب سعيد بن المسيب ، روى عنه مالك وغيره » ، ثم ذكر جملة من الأحاديث في شأن ابن صياد ، ثم قال : « وفي الجملة لا معنى لذكر ابن صياد في الصحابة ؛ لأنه إن كان الدجال فليس بصحابيٍّ قطعًا ؛ لأنه يموت كافرًا ، وإن كان غيره فهو حالَ لِقَائِهِ بالنبيِّ ﷺ لم يكن مسلمًا » .

لكن إن أسلم بعد ذلك ؛ فهو حينئذٍ تابعيٌّ له رؤية ،كما سبق عن الذهبيِّ رحمه الله .

أما عن أحوال ابن صياد هذا ؛ فقد كان دجَّالًا من الدجاجلة الكثيرين ، وكان يتكهَّن أحيانًا ، فيصدق أحيانًا ويكذب ، وانتشر أمره بين الناس في المدينة ، وشاع أنه المسيح الدجال ، فلما شاع أمره بين الناس ، وأنه الدجال ، أراد النبيُّ ﷺ أن يَطَّلع على أمره ، وأن يختبره ، وأن

---

(١) « النهاية في الفتن والملاحم » (١/ ١٧٣) .

(٢) « تجريد أسماء الصحابة » (١/ ٣١٩) ، رقم (٣٣٦٦) ، نقلًا عن « أشراط الساعة » ليوسف الوابل (١٢٨) .

(٣) « الإصابة » لابن حجر (٦٦٠٩).

يبين حاله ، فكان النبيُّ ﷺ يذهب إلى ابن صياد هذا مختفيًا حتى لا يشعر به ابن صياد ، ليسمع منه النبيُّ ﷺ، وليرى منه أحواله ، وكان النبيُّ ﷺ يوجه لابن صياد بعض الأسئلة ؛ ليتبين من خلالها حال هذا الرجل الغريب .

فتدبَّر معي بعض الأحاديث الواردة في ابن صياد :

ففي « صحيح مسلم » [(١)] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَمَرَرْنَا بِصِبْيَانٍ فِيهِمُ ابْنُ صَيَّادٍ ، فَفَرَّ الصِّبْيَانُ وَجَلَسَ ابْنُ صَيَّادٍ ، فَكَأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَرِهَ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: « تَرِبَتْ يَدَاكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله » قَالَ : لاَ، بَلْ تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله ، فَقَالَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ : ذَرْنِي يَا رَسُولَ الله ، حَتَّى أَقْتُلَهُ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « إِنْ يَكُنِ الَّذِي تَرَى فَلَنْ تَسْتَطِيعَ قَتْلَهُ ».

وفي لفظٍ : « وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فلاَ خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ » [(٢)].

فالنبيُّ ﷺ في هذا الحديث لم يجزم أنه الدجال .

وفي رواية أخرى في « صحيح مسلم » [(٣)] من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا نَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ بِابْنِ صَيَّادٍ ؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: « قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا » فَقَالَ : دُخٌّ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « اخْسَأْ ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ » فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ الله ، دَعْنِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « دَعْهُ ، فَإِنْ يَكُنِ الَّذِي تَخَافُ ، لَنْ

---

(١) أخرجه مسلم ،كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد (٢٩٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري ،كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات ، هل يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٣٥٤) ، وانظر أطرافه هناك من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه مسلم ،كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد (٢٩٢٤/ ٨٦) .

تَسْتَطِيعَ قَتْلَهُ».

وفي «صحيح مسلم»(١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: لَقِيَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ» فَقَالَ هُوَ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آمَنْتُ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، مَا تَرَى؟» قَالَ: أَرَى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَرَى عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ، وَمَا تَرَى؟» قَالَ: أَرَى صَادِقَيْنِ، وَكَاذِبًا، أَوْ كَاذِبَيْنِ، وَصَادِقًا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لُبِسَ عَلَيْهِ دَعُوهُ».

وفي «الصحيحين»(٢) من حديث ابن عمر ﷺ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ انْطَلَقَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رَهْطٍ قِبَلَ ابْنِ صَيَّادٍ حَتَّى وَجَدَهُ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ عِنْدَ أُطُمِ بَنِي مَغَالَةَ، وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ يَوْمَئِذٍ الْحُلُمَ، فَلَمْ يَشْعُرْ حَتَّى ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ظَهْرَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِابْنِ صَيَّادٍ: «أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟» فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الْأُمِّيِّينَ، فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ فَرَفَضَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «آمَنْتُ بِاللهِ وَبِرُسُلِهِ» ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَاذَا تَرَى؟» قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُلِّطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ» ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا» فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: «هُوَ الدُّخُّ» فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد (٢٩٢٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١٣٥٤) وانظر أطرافه هناك، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد (٢٩٣٠).

ﷺ : « اخسأ ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ » فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : ذَرْنِي يَا رَسُولَ اللهِ ، أَضْرِبْ عُنُقَهُ ؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلاَ خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ ».

وفي « صحيح مسلم » (١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : صَحِبْتُ ابْنَ صَائِدٍ إِلَى مَكَّةَ ، فَقَالَ لِي : أَمَا قَدْ لَقِيتُ مِنَ النَّاسِ ، يَزْعُمُونَ أَنِّي الدَّجَّالُ ، أَلَسْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّهُ لاَ يُولَدُ لَهُ ؟ » قَالَ : قُلْتُ : بَلَى ، قَالَ : فَقَدْ وُلِدَ لِي ، أَوَلَيْسَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ : «لاَ يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ وَلاَ مَكَّةَ»؟! قُلْتُ : بَلَى ، قَالَ : فَقَدْ وُلِدْتُ بِالْمَدِينَةِ ، وَهَذَا أَنَا أُرِيدُ مَكَّةَ ، ثُمَّ قَالَ لِي فِي آخِرِ قَوْلِهِ : أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَعْلَمُ مَوْلِدَهُ وَمَكَانَهُ وَأَيْنَ هُوَ ؟ قَالَ : فَلَبَسَنِي .

وفي رواية أخرى قال له : « أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ ؟ » قَالَ : فَقَالَ : لَوْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا كَرِهْتُ » .

وفي « صحيح مسلم » (٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خَرَجْنَا حُجَّاجًا أَوْ عُمَّارًا وَمَعَنَا ابْنُ صَائِدٍ ، قَالَ : فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَبَقِيتُ أَنَا وَهُوَ ، فَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ وَحْشَةً شَدِيدَةً مِمَّا يُقَالُ عَلَيْهِ ، قَالَ : وَجَاءَ بِمَتَاعِهِ فَوَضَعَهُ مَعَ مَتَاعِي ، فَقُلْتُ : إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ ، فَلَوْ وَضَعْتَهُ تَحْتَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ، قَالَ : فَفَعَلَ ، قَالَ : فَرُفِعَتْ لَنَا غَنَمٌ ، فَانْطَلَقَ ، فَجَاءَ بِعُسٍّ ، فَقَالَ : اشْرَبْ أَبَا سَعِيدٍ ، فَقُلْتُ : إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ ، وَاللَّبَنُ حَارٌّ ، مَا بِي إِلاَّ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَشْرَبَ عَنْ يَدِهِ ـ أَوْ قَالَ : آخُذَ مَنْ

---

(١) أخرجه مسلم ،كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد (٢٩٢٧) .

(٢) المصدر السابق .

يَدِهِ ـ فَقَالَ : أَبَا سَعِيدٍ ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آخُذَ حَبْلاً فَأُعَلِّقَهُ بِشَجَرَةٍ ، ثُمَّ أَخْتَنِقَ مِمَّا يَقُولُ لِيَ النَّاسُ ، يَا أَبَا سَعِيدٍ ، مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ حَدِيثُ رَسُولِ الله ﷺ مَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ ، مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ! أَلَسْتَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِحَدِيثِ رَسُولِ الله ﷺ ؟! أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «هُوَ كَافِرٌ ، وَأَنَا مُسْلِمٌ ؟» أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « هُوَ عَقِيمٌ لاَ يُولَدُ لَهُ »وَقَدْ تَرَكْتُ وَلَدِي بِالْمَدِينَةِ ؟ أَوَ لَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «لاَ يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ وَلاَ مَكَّةَ» وَقَدْ أَقْبَلْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَنَا أُرِيدُ مَكَّةَ ؟ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : حَتَّى كِدْتُ أَنْ أَعْذِرَهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا ، وَالله ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ وَأَعْرِفُ مَوْلِدَهُ وَأَيْنَ هُوَ الآنَ ، قَالَ : قُلْتُ لَهُ : تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ.

وروى البخاري ومسلم [(١)] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : انْطَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ الأَنْصَارِيُّ إِلَى النَّخْلِ الَّتِي فِيهَا ابْنُ صَيَّادٍ ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ النَّخْلَ طَفِقَ يَتَّقِي بِجُذُوعِ النَّخْلِ ، وَهُوَ يَخْتِلُ أَنْ يَسْمَعَ مِنِ ابْنِ صَيَّادٍ شَيْئًا ، قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ ابْنُ صَيَّادٍ ، فَرَآهُ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى فِرَاشٍ فِي قَطِيفَةٍ ، لَهُ فِيهَا زَمْزَمَةٌ ، فَرَأَتْ أُمُّ ابْنِ صَيَّادٍ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يَتَّقِي بِجُذُوعِ النَّخْلِ ، فَقَالَتْ لِابْنِ صَيَّادٍ : يَا صَافِ (وَهُوَ اسْمُ ابْنِ صَيَّادٍ) هَذَا مُحَمَّدٌ ، فَثَارَ ابْنُ صَيَّادٍ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لَوْ تَرَكَتْهُ بَيَّنَ ».

فمن خلال هذه الأحاديث ،اختلف أهل العلم اختلافًا كبيرًا في ابن صياد :

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات ، هل يصلى عليه ؟ (١٣٥٤) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ،كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد (٢٩٣١) .

قال أبو عبد الله القرطبي ــ رحمه الله تعالى ــ في « التذكرة »[(١)] :

« الصحيح أن ابن الصياد هو الدجال بدلالة ما تقدَّم ، وما يبعد أن يكون بالجزيرة ذلك الوقت ، ويكون بين أظهر الصحابة في وقتٍ آخر إلى أن فقدوه يوم الحرة » .

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحلف أن ابن صياد هو الدجال ،وتبعه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما[(٢)] .

وروي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : « لأن أَحْلِفَ عَشْرَ مِرَارٍ أنَّ ابن صيادٍ هوَ الدَّجَّالُ أحبَّ إليَّ منْ أنْ أَحلِفْ وَاحِدَةً أنَّهُ ليسَ هوَ »[(٣)] .

وروي ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه كما قال الحافظ في « الفتح »[(٤)] وعزاه للطبرانيِّ ، وكان ابن عمر هو الآخر يقول : « والله ما أشُكُّ أنَّ المسيحَ الدجالَ ابنُ صَيَّادٍ »[(٥)] .

وروى أبو داود[(٦)] عن جابر رضي الله عنهما قال : « فقدنا ابن صياد يوم الحرة » ،

---

(١) « التذكرة » للقرطبي (٦٢٨)ط فياض .

(٢) انظر: البخاريَّ ،كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من رأى ترك النكير من النبيِّ ﷺ حجة ، لا من غير رسول الله ﷺ (٧٣٥٥)، ومسلم ،كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد (٢٩٢٩) .

(٣) أخرجه أحمد في « المسند » (٥/ ١٤٨) ،وصحَّح إسناده الحافظ في « الفتح » (١٣/ ٣٩٨) وقال الشيخ شعيب في « تحقيقه للمسند » : « حديث منكر ،وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير الحارث بن حصيرة » .

(٤) « الفتح » (١٣/ ٣٩٩) ، وأخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠١١٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٩/ ١٢٧ ، ١٣٢) .

(٥) أخرجه أبو داود ، باب في خبر ابن صياد (٤٣٣٠) ، وصحَّحه الحافظ في « الفتح » (١٣/ ٣٩٤) ،والشيخ الألبانيُّ في « صحيح سنن أبي داود » .

(٦) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب في خبر ابن صياد (٤٣٣٢) .

وحسَّن إسناده الحافظ في « الفتح »[١]، وضعف قول من قال : إنه مات في المدينة ،وأنهم كشفوا عن وجهه ، وصلُّوا عليه .

وقال النووي ﷺ[٢] : « قال العلماء: وقصة ابن صياد مشكلة ، وأمره مشتبه ، في أنه هو المسيح الدجال المشهور أم غيره ؟ولا شك أنه دجالٌ من الدجاجلة ، قال العلماء : وظاهر الأحاديث أن النبيَّ ﷺ لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال ولا غيره ، وإنما أوحي إليه بصفات الدجَّال ، وكان في ابن الصياد قرائن محتملة .

فلذلك كان النبيُّ ﷺ لا يقطع بأنه الدجَّال ؛ ولهذا قال لعمر بن الخطاب ﷺ :« إن يكن هو فلن تستطيع قَتْلَه » وأما احتجاجه بأنه مسلم ، والدجَّال كافر ، وأنه لا يولد للدجال ، وقد ولد له هو ، وبأنه لا يدخل مكة والمدينة ، وأن ابن صياد دخل مكة والمدينة ، فلا دلالة له فيه ؛ لأن النبيَّ ﷺ إنما أخبر عن صفاته وقت فتنته وخروجه من الأرض ...» إلى آخر ما قال .

وكلامُ النوويِّ يشعر بأنه يرى أن ابن صياد هو الدجال ؛ لقوله : « وإقلاعه (أي : ابن صياد) عما كان عليه ، فليس بصريح في أنه غير الدجال » .

وقال الإمام الشوكانيُّ[٣] ـ رحمه الله تعالى :« اختلف الناس في أمر ابن صياد اختلافًا شديدًا ،وأُشكلَ أَمْرُهُ ، حتى قيل فيه كل قول ، ثم جنح في الأخير إلى أن ابن صياد هو الدجال » .

---

(١) « فتح الباري » (١٣/ ٣٩٧).

(٢) « مسلم بشرح النووي » (٩/ ٢٨١) ط الحديث .

(٣) « نيل الأوطار» (٧/ ٢٣٩) وما بعدها ط الحديث .

وقال الإمام البيهقيُّ رحمه الله [(١)] في سياق كلامه على حديث تميم الداري : « ذكر أن الدجال الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان ليس ابن صياد ، وكان ابن صياد أحد الدجالين الكذابين الذين أخبر النبيُّ ﷺ بخروجهم ، وقد خرج أكثرهم كما أخبر النبيُّ ﷺ ، وكان الذين يجزمون بأن ابن صياد هو الدجال لم يسمعوا قصة تميم الداري » .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [(٢)] : « إن أمر ابن صياد قد أشكل على بعض الصحابة ، فظنوه الدجال ، وتوقف فيه النبيُّ ﷺ حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال ، وإنما هو من جنس الكهان أصحاب الأحوال الشيطانية ، ولذلك كان يذهب ـ أي : النبيَّ ﷺ ـ ليختبره » .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى: في كتابه « النهاية في الفتن والملاحم » [(٣)]: « والمقصود أن ابن صياد ليس بالدجال الذي يخرج في آخر الزمان قطعًا ، لحديث فاطمة بنت قيس ، وهو فَيْصَلٌ في هذا المقام » .

فيستبعد أن يكون الرجل الذي وثق بالحديد ورآه تميم الداري رضي الله عنه في هذه الجزيرة يظهر على هذا الكبر ، هو في عهد النبيِّ ﷺ صبيٌّ صغير لم يبلغ الحلم .

ومن المعلوم أن تميمًا الداري أخبر النبيَّ ﷺ بما رآه في المدينة ، وارتقى النبيُّ ﷺ المنبر ، وأخبر بحديث تميم الداري ، وقد روى حديث تميم الداري عن فاطمة غيره : أبو هريرة ، وجابر ، وأنس ، وغيرهم ، حتى

---

(١) المصدر السابق (٧/ ٢٤١) ، و « فتح الباري » (١٣/ ٣٩٦) ط الحديث .

(٢) « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » (١٢٩) .

(٣) (١/ ٧٠) .

لا يقال بأن حديث فاطمة حديثٌ فردٌ غريب !

فهذه طائفةٌ من أقوال أهل العلم في ابن صياد ، ولا أريد الإطالة ، وهي كما ترى مختلفة في شأن ابن صياد ، ولا شكَّ أن كلَّ فريقٍ من أهل العلم معه أدلته المعتبرة من كلام النبيِّ ﷺ .

وخلاصة القول : إن كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم جميعًا ـ قد اختلفت أقوالهم في ابن صياد فلنا أن نتوقف ، وأن نترك أمره لله ﷻ ، حيث إن النبيَّ ﷺ قد أخبر عمر بن الخطاب ﷺ أنه إن كان الدجال فلن يتمكن من قتله ، وإن كان رجلًا غيره فلا خير له في قتله .

إذًا النبيُّ ﷺ لم يجزم في حديثٍ صحيحٍ صريحٍ بأن ابن صياد هو المسيح الدجال ، وإن كان القلب يميل إلى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن كثير ـ رحمهما الله تعالى ـ ففي زمن الدجال تنخرق كلُّ العادات ، وتحدث أمور عظام تؤذن بخراب العالم ، وزوال الدنيا ، وقرب قيام الساعة ،وإذا كان خروجه في زمن فتنة أرادها الله تبارك وتعالى ؛ فلا ينبغي أن يقال : إن الله ﷻ رحيم لطيف بعباده ، وهو كذلك سبحانه وتعالى ، فكيف يفتن عباده بخروج الدجال ؟!

أَقُولُ : شاء الله تبارك وتعالى ، واقتضت حكمته أن يبتلي عبادَهُ بعد الإنذار والتحذير : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[الإسراء:١٥] .

فضلًا عن أن الدجال نفسه فتنة ، وهو من العلامات الكبرى للساعة .

ومن جميل ما قاله القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى [(١)] : « هذه الأحاديث التي ذكرها مُسْلمٌ وغيره في قصة الدجال حجةٌ لمذهب أهل

(١) « مسلم بشرح النووي » (٩/ ٢٩٣) ط الحديث .

الحق في صِحَّة وجوده ، وأنه شخصٌ بعينه ، ابتلى الله به عباده ، وأَقْدره على أشياء من مقدورات الله تبارك وتعالى ،من إحياء الميت الذي يقتله ، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب ،ومعه جنته وناره ، ونهر له ، وتتبعه كنوز الأرض ، ومن أمره للسماء أن تمطر فتمطر ، وللأرض أن تنبت فتنبت ، فيقع كلُّ ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته ، ثم يعجزه الله تبارك وتعالى بعد ذلك ، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ،ويبطل أمره ، ويقتله بعد ذلك عيسى ابن مريم ، ويُثَبِّت الله الذين آمنوا .

هذا مذهبُ أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار ،خلافًا لمن أنكره ، وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة ، وغيرهم ..إلى أن قال : « ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسدِّ الحاجة والفاقة رغبةً في سدِّ الرمق أو تقية ، أو خوفًا من أذاه ؛ لأن فتنته عظيمةٌ جدًّا تدهش العقول ، وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأرض ، فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ، ودلائل الحدوث فيه والنقص ، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة ؛ ولهذا حذَّرت الأنبياءُ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من فتنته ، ونبهوا على نقصه ودلائل إبطاله .

وأما أهل التوفيق فلا يغترون به ، ولا يخدعون لما معه لما ذكرناه من الدلائل المكذبة له ،مع ما سبق لهم من العلم بحاله ، ولهذا يقول له الذي يقتله ثم يحييه : « ما ازددتُ فيك إلا بصيرة » ا.هـ.

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى [1] : « إنَّ الدَّجَّالَ يَمْتَحِنُ الله به عباده بما يخلقه معه من الخوارق المشاهدة في زمانه ، كما تقدم أن من

---

(١) « النهاية في الفتن والملاحم » (١/ ١٢١) .

استجاب له يأمر السماء فتمطرهم، والأرض فتنبت لهم زرعًا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم، وترجع إليهم مواشيهم سمانًا لبنًا، ومن لا يستجيب له، ويَردُّ عليه أمره، تصيبهم السَّنَة ـ أي: القحط والجدب، والقلة، وموت الأنعام، ونقص الأموال، والأنفس والثمرات ـ وأنه يتبعه كنوزٌ كيعاسيب النحل، ويقتل هذا الشاب، ثم يحييه، وهذا كلُّه ليس بمخرقة؛ بل له حقيقة امتحن الله بها عباده في آخر الزمان، فيضل به كثيرًا، ويهدي به كثيرًا، يكفر المرتابون، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا».

وقال الخطابي رحمه الله[1]: «فإن قيل: كيف يجوز أن يجري الله الآية على يد الكافر؟ فإن إحياء الموتى آية عظيمة من آيات الأنبياء، فكيف ينالها الدجال وهو كذابٌ مفترٍ يدعي الربوبية؟ فالجواب: أنه على سبيل الفتنة للعباد، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غيرُ محقٍّ في دعواه، وهو أنه أعور مكتوبٌ على جبهته كافر يقرؤه كلُّ مسلم، فدعواه داحضةٌ مع وسم الكفر، ونقص الذات والقدر، إذ لو كان إلهًا لأزال ذلك عن وجهه، وآيات الأنبياء سالمة من المعارضة فلا يشتبهان».

وقال ابن العربيِّ رحمه الله[2]: «الذي يظهر على يد الدجال من الآيات من إنزال المطر والخصب على من يصدقه، والجدب على من يكذبه، واتباع كنوز الأرض له، وما معه من جنة ونار ومياه تجري، كلُّ ذلك محنة من الله واختبار؛ ليهلك المرتاب، وينجو المتيقن، وذلك كلُّه أمر مخوف».

وقال الحافظ ابن حجر[3] ـ رحمه الله تعالى: «وفي الدجال مع ذلك

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ١٢٦، ١٢٧).

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ١٢٦، ١٢٧).

(٣) «فتح الباري» (١٣/ ١٢٦، ١٢٧).

دلالة بينة لمن عقل على كذبه ؛ لأنه ذو أجزاء مؤلفة ، تأثير الصنعة فيه ظاهر ، مع ظهور الآفة به من عور عينيه ، فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم : فأسوء حالِ من يراه مِنْ ذوي العقول أن يعلم أنه لم يكن لِيُسَوِّي خلق غيره ويَعْدِله ويُحسنه ، ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأقلُّ ما يجب أن يقول : يا من يزعم أنه خالق السماء والأرض : صَوِّر نَفْسَك وعدِّلها وأزل عنها العاهة ، فإن زعمت أن الربَّ لا يحدث في نفسه شيئًا ، فأزل ما هو مكتوب بين عينيك » .

والسُّؤالُ الآن : كيف النجاةُ من فتنة الدجال ؟ [١] :

لقد أرشد النبيُّ ﷺ أمته إلى كلِّ ما يعصمها من فتنة المسيح الدجال ؛ فلقد ترك النبيُّ ﷺ أمته على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

فما من خيرٍ إلا وأمر النبيُّ ﷺ أمته به ، وما من شرٍّ إلا وحذَّر النبيُّ ﷺ أمته منه ، ومن جملة ما حذَّر الأمة منه حذَّرها من فتنة المسيح الدجال ، فإنها أعظم فتنة تواجهها الأمة ؛ بل إن فتنة الدجال هي أعظم فتنة تشهدها الأرض من يوم أن خلقها الله إلى أن يرث الله الأَرْض ومَنْ عليها ، وكان كلُّ نبيٍّ ينذر أمته ويحذرهم الأعور الدجال .

واختص النبيُّ ﷺ أمته بزيادةٍ من التحذير والإنذار ،وبين لهم كثيرًا من صفات الدجال لتحذر الأمة من هذه الفتنة الخطيرة ؛لأنه خارج في أمة النبيِّ ﷺ ؛ لأنها آخر الأمم ،وأخبرنا أنه إن خرج وهو بين أظهرنا فهو حجيجٌ للدجال عن كلِّ مسلم ، ثم قال : « أَمَّا إِنْ خَرَجَ وَأَنَا لَسْتُ

---

(١) « أشراط الساعة » ليوسف الوابل (٣٢٥) وما بعدها .

بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، فَكُلُّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسَهُ ، وَالله خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

ومن هذه الإرشادات والتوجيهات النبوية العظيمة التي نتقي بها شر فتنة المسيح الدجال ، بل أعظم هذه الإرشادات وأعظم هذه السبل للنجاة من فتنة الدجال :

أولًا : تقوية الإيمان بالله ﷻ : وأن يقف المؤمن على معرفة أسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ على أسماء جلاله ، وصفات كماله ؛ فالمؤمن الذي يزداد إيمانه بربه كلَّما تعرَّف على أسماء الجلال ،وعلى صفات الكمال ازداد حبًّا لله ، وازداد إيمانه بالله سبحانه وتعالى ، فينزه المؤمن من خلال معرفته بأسماء الجلال ، وصفات الكمال ، ينزه المؤمن ربَّه عن كلِّ نقص . والدَّجال كلُّه نقص !!

والأصل أن لله أسماء حسنى ، وصفات علا ، نؤمن بها كلِّها ، كما جاءت في القرآن ،وكما جاءت في سنة النبيِّ ﷺ من غير تحريف للفظها ولا لمعناها ،ومن غير تعطيل ،ولا تكييف ، ولا تمثيل ؛ بل نؤمن بكلِّ اسمٍ ، وبكلِّ صفةٍ كما جاءت ،ونحن نردد بألسنتنا ، ونعتقد بقلوبنا ، قَوْلَ ربنا ـ جل وعلا : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠] .

فضلًا عن أن المؤمن هو الذي يُقْرِئهُ ربه تبارك وتعالى لفظَة كافر على جبين الدجال ، وإن كان هذا المؤمن أُمِّيًّا لا يجيد القراءة ولا الكتابة .

والإيمان له أركان : أن نؤمن بالله ، وبملائكته ،وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، والإيمان له حلاوة ، وله طعم ؛كما سبق

الحديثُ في ذلك .

والسؤال : كيف نجدد الإيمان في قلوبنا ؟

والجواب ـ في كلمات : نجدد الإيمان في قلوبنا : بمجالس العلم .. بالمحافظة على الصلاة .. بقيام الليل .. بزيارة المقابر .. بزيارة المرضى .. بقراءة القرآن .. بالمحافظة على الأذكار .. بالصدقة .. بالتضرع .. بالاستعانة .. بالدعاء .. بصحبة أهل الإيمان .. بالبعد عن البيئة التي تنتشر فيها الشبهات والشهوات .

هذا كلُّه يقوِّي الإيمان في القلب ؛ فأول أمرٍ ننجوا به من فتنة الدجال أن نجدد الإيمان في قلوبنا ، فهذا هو الذي يعصمنا به ربُّنا من هذه الفتنة ؛ بل ومن كل فتنة في الحياة وعند الممات .

ثانيًا : أن نكثر من الاستعاذة من فتنة المسيح الدجال : وخاصة في الصلاة ، فلا تَنْس في دُبرِ كلِّ صلاة بعد قراءة التشهد أن تتعوذ من فتنة المسيح الدجال ؛ كما في « الصحيحين »[(١)] ـ واللفظ للبخاريِّ ـ من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلاة : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ فِتْنَةِ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ ».

وفي «صحيح مسلم»[(٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِذَا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأذان ، باب الدعاء قبل السلام (٨٣٢) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٨) .

تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ ، فَيَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ».

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ، يَقُولُ : « قُولُوا : اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ »[1] .

قال الإمام السفارينيُّ رحمه الله[2] : « مما ينبغي لكلِّ عالم أن يبثَّ أحاديث الدجال بين الأولاد والنساء والرجال ــ إلى أن قال : وقد ورد أن من علامات خروجه: نسيان ذكره على المنابر ، وهو حديثٌ صحَّحه الهيثميُّ[3] في « مجمع الزوائد » من حديث الصَّعْبِ بْنُ جَثَّامَةَ أن النبيَّ ﷺ قال : « لاَ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ حَتَّى يَذْهَلَ النَّاسُ عَنْ ذِكْرِهِ ، وَحَتَّى تَتْرُكَ الأَئِمَّةُ ذِكْرَهُ عَلَى الْمَنَابِرِ ».

فينبغي لأهل العلم أن يذكروا أحاديث الدجال ، وأن يبينوا للناس خطره ــ إلى أن قال : ولا سيما في زماننا هذا الذي اشرأبت فيه الفتن ، وكثرت فيه المحن ، واندرست فيه معالم السننْ ، وصارت السنن فيه كالبدع ، والبدعة شرعٌ يتبعٌ . ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم » .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٩٠) .

(٢) « لوامع الأنوار البهية » (٢/ ١٠٦، ١٠٧) .

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٤/ ٧١، ٧٢) ،والطبرانيُّ في « مسند الشاميين » (٩٩٢) ، وقال الهيثميُّ في « المجمع » (٧/ ٣٣٥) : « رواه عبد الله بن أحمد من رواية بقية عن صفوان بن عمرو ، وهي صحيحة كما قال ابن معين ، وبقيةُ رجاله ثقات» ، وذكره الشيخ الألبانيُّ في « قصة المسيح الدجال » (٣٠) .

ثالثًا : حرزٌ من الدجال :

روى أحمد والحاكم وغيرهما[(١)] عَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلاً بِالْمَدِينَةِ، وَقَدْ طَافَ النَّاسُ بِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ، فَإِذَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ : « إِنَّ مِنْ بَعْدِكُمُ الْكَذَّابَ الْمُضِلَّ ، وَإِنَّ رَأْسَهُ مِنْ بَعْدِهِ حُبُكٌ حُبُكٌ حُبُكٌ ـ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ـ وَإِنَّهُ سَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَمَنْ قَالَ : لَسْتَ رَبَّنَا لَكِنَّ رَبَّنَا الله ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْهِ أَنَبْنَا نَعُوذُ بِالله مِنْ شَرِّكَ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ ».

رابعًا : حفظ آياتٍ من أوائل سورة الكهف أو من أواخرها .

كما في « صحيح مسلم »[(٢)] من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ » .

وروى مسلم[(٣)] من حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ ».

قال مسلم : قال شعبة : « من حفظ عشر آيات من آخر سورة الكهف عصم من الدجال »[(٤)] ؛ وهي زيادة شاذة .

وأنا أقول : فلنجمع بين الخبرين ، لا أقول : احفظ العشر آيات الأول

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٧٢، ٤١٠)،والحاكم (٤/ ٥٥٤)،وصححه ووافقه الذهبيُّ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠٨٢٨) عن أبي قلابة عن هشام بن عامر ، وكذا أحمد (٤/ ٢٠) وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (٢٨٠٨).

(٢) جزء من حديث النواس الطويل الذي أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨٠٩).

(٤) حكم الشيخ الألبانيُّ على زيادة « آخر الكهف » بالشذوذ في « الصحيحة » (٢٦٥١) .

فحسب مع العشر الأواخر فحسب ؛ بل اجتهد في أن تحفظ السورة كلَّها .

ولذلك قال الإمام النوويُّ رحمه الله [(١)] : « قيل: سبب ذلك ما في أول سورة الكهف من العجائب والآيات ، فمن تدبرها لم يفتتن بالدجال ، وكذا آخرها قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الكهف:١٠٢] » ا.هـ .

وهذا من خصوصيات سورة الكهف ، فقد جاءت الأحاديث بالحث على قراءتها ، وخاصة في يوم الجمعة .

روى الحاكم [(٢)] ، وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ» ورجَّح بعضهم وقفه ، ولا مجال للرأي فيه ؛ فهو من قبيل المرفوع .

خامسًا :أن نَفِرَّ من الدجال ، وأن نبتعد عنه إن ابتلينا بخروجه بيننا .

هيا : علِّم نفسك هذا ، وعلِّم أولادك على عدم مواجهة الدَّجالِ ؛ لأن المرء لا يضمن حال قلبه أثناء وقوع الفتن ، فلا تُعَرِّض نفسك للفتن ؛ فإن ابتليت ، فسَلِ الله أن يثبتك في الفتن والابتلاء .

روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والحاكم [(٣)] وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ

---

(١) مسلم بشرح النووي (٣/ ٣٥٣) .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٦٨) ، وصححه ،وقال الذهبيُّ : « نعيم بن حماد ذو مناكير » ، والبيهقيُّ (٣/ ٢٤٩) ، والدارمي (٤٣١٠) موقوفًا ، وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في «الإرواء » (٦٢٦) ، و«صحيح الجامع» (٦٤٧٠) .

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب خروج الدجال (٤٣١٩) ، وأحمد (٤/ ٤٣١) ، =

في «صحيح الجامع» عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ ، فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ ، فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ» . وقوله: «فَلْيَنْأَ» أي:فليبتعد .

سادسًا : سُكنى مكة والمدينة .

فإنهما حَرَمان آمنان من الدجال لا يدخلهما ـ كما سبق في الأحاديث ـ ومثلهما المسجد الأقصى والطور (١) .

وأُضَمِّدُ جراحكم ،وأطمئن قلوبكم ؛ **فأقول** : إن الدَّجال سيهلكُ ، وسيموت وسيقتله مسيح الهدى عيسى بن مريم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ؛ ونسأل الله أن يعيذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأن يثبتنا على الحق والهدى والإيمان حتى نلقاه ، إنه وليُّ ذلك ومولاه.

*****

العلامة الثانية :نزول عيسى ابن مريم ﷺ من السماء

ولنتعرف في البداية على عيسى ﷺ ؛ وأودُّ قبل الكلام عن نزوله أن أطرح هذا السؤال ؛ وأقول :

من هو عيسى ابنْ مريم ؟

فليس من الفقه أن نتكلَّم عن نزول عيسى دون أن نعلم مَنْ هو عيسى ؟ لنبين الحقَّ وسط هذا الركام الهائل من الباطل ، والكفر والضلال ؛ فعيسى ابن مريم : ولدته أمه مريم من غير أب !

= والحاكم (٤/ ٥٣١) ، وصححه على شرط مسلم ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٤٨٨)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٨/ ٢٢٠، ٢٢١) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٣٠١) .

(١) انظر : «قصة المسيح الدجال» للألباني (٣٤، ٤٥) فإنه مهم .

فمن هي مريم ؟

مريم عليها السلام التي ما كُرِّمَت في دينٍ كما كُرِّمَت في القرآن والسنة ؛ فوالله ما كَرَّمَ مريم أحدٌ مثل ما كرَّمها محمدُ بنُ عبد الله ﷺ ، فما كُرِّمت مريم عند اليهود ؛ بل ولا عند النصارى !! بمثل ما كُرِّمت به في الإسلام .

فلقد اتُّهِمَت مريم بالزنا ، ورُمِيَت بالفاحشة ، فطهَّرها الله في القرآن الذي أنزله على قلب محمد ﷺ ، فمريم هي صاحبةُ أطهر بطن ، وأنقى حَمْل ، وأيسر ولادة ، وأعجز ميلاد ؛ إنها المعجزة الكاملة التي اتَّسَمَتْ بالقداسة والسموِّ في عالم النساء ؛ إنها مريم العذراء ، الأنثى ، التي اصطفاها الله ﷻ من بين نساء العالمين ، ليودِعَها هذا السرَّ العظيم الكبير في أصفى حمل ، وأعجز ميلاد ؛ إنها العذراء النقية التقية التي نفخ الله ﷻ فيها من روحه ، ومنحها تلك المكانة الرقيقة بين أمهات الدنيا ، ولأول مرةٍ في تاريخ البشرية كلِّها يُنْسَبُ نبيٌّ إلى أمه : إنه عيسى ابن مريم ؛ فلقد احتلَّت هذه الأمُّ الكريمة مكانَةً لم تحصل عليها ، ولن ترتقي إليها أمٌّ من أمهات العالمين ! إنها العابدة النقية التقية التي اصطفاها ربُّ العالمين بنص القرآن الكريم ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣٣، ٣٤] .

إن الله اصطفى آدم عليه السلام ؛ فخلقه بيده ، وأسجد له الملائكة ، ونفخ فيه من روحه ، وهذا قمةُ الاصطفاء والاجتباء ، ثم أسكنه الله الجنة ، فلما عصى آدم ربَّه ، وتاب إلى الله فتاب الله عليه ، وهذا من الاصطفاء أيضًا . واصطفى نوحًا عليه السلام ؛ فبعثه رسولًا إلى أهل الأرض ، فهو أول

رسول إلى أهل الأرض [(١)] ، وطالت مدة دعوته، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا [(٢)] ، يدعو فيهم ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهرًا ، ولم يَدَعْ نوحٌ عليه السلام سبيلًا من سبل الدعوة إلى الله إلا وسلكه ، ليُنْقِذَ الناس من أوحال الشرك والوثنية إلى نور التوحيد والإيمان برب البرية ـ جلَّ وعلا .

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح:٥ـ١٤] .

(وآل إبراهيم) وكفى هؤلاء شرفًا واصطفاءً أن يجعل الله من آل إبراهيم سيد النبيين محمد ﷺ .

(وآل عمران) ؛ فما المراد بآل عمران ؟

عمران هو والد مريم عليها السلام [(٣)] وهو من نسل سليمان بن داود

(١) كما في حديث الشفاعة ، الذي رواه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب الأرواح جنودٌ مجندةٌ (٣٣٤٠) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة (١٩٤) ، ولا خلاف بين كون نوح أول الرسل وبين أن آدم عليه السلام أول نبي ، فإن هناك فرقًا بين النبوة والرسالة ؛ كما فصل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه النفيس « النبوات » (٢/ ٤٧٩ـ ٤٨٥) ط ابن عباس.

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت:١٤] .

(٣) انظر : « البداية والنهاية » (٢/ ٥٦) ط مكتبة المعارف .

عليه السلام وهو عالم من علماء بني إسرائيل، وليس نبيًّا وكان رجلًا عظيمًا في قومه، وعالمًا كبيرًا، تزوج بعابدة نقية تقية طاهرة تُسمَّى حنة بنت فاقود [(١)]، وهي أمُّ مريم، وكانت هذه المرأة من أعبد نساء زمانها، وكانت عقيمًا لا تلد، فاشتاقت الولد يومًا فتضرعت إلى الله تبارك وتعالى أن يرزقها ذرية صالحة، فاستجاب الله تعالى دعاءها، ورزقها الله تعالى بهذه الأنثى العجيبة في عالم النساء؛ مريم عليها السلام وبمجرد أن شعرت هذه الأم التقية أن الحمل بدأ يتحرك في بطنها، وعلمت يقينًا أن الله قد استجاب سؤلها، ودعاءها على الفور؛ أرادت أن تعبر عن شكرها لله على هذه النعمة العظيمة، فنذرت لله ــ تبارك وتعالى ــ أن يكون هذا المولود مسخرًا لخدمة بيت المقدس، محررًا من كل شيء إلا من عبادة الله، فهذه هي الحرية، فالعبودية لله هي مطلق الحرية؛ فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران:٣٥].

فلنتعلم هذا الدعاء الجميل الذي دعت به أم مريم، وكانت المفاجأة العنيفة أنها وجدت المولود أنثى؛ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:٣٦].

أي: وليس الذكر كالأنثى في خدمة بيت المقدس، فكان من عاداتهم أن يُقَدَّم لخدمة بيت المقدس الرجال، فكيف تقدِّم أمُّ مريم ابنتها وهي البنت الأنثىٰ؟ وكيف تفي بنذرها لله تبارك وتعالى؟

ومريم في لغتهم؛ أي العابدة.

(١) انظر: «تفسير بن كثير» (١/ ٣٠٩) (لسورة آل عمران: ٣٥) ط دار القلم ــ لبنان. و«قصص الأنبياء» لابن كثير (٦١٢) ط بغداد.

ثم قالت : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾
[آل عمران :٣٦]

فاستجاب الله لها ؛ كما في الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم [١] من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَا مِنْ مَوْلُود يُولَدُ إلاَّ نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ - وفي رواية - إلاَّ ويَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ - وفي رواية : مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إيَّاهُ غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا » ، قال أبو هريرةَ : اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران :٣٦] .

وعَلِمَ الله ﷻ من أم مريم الصدق ؛ صدق النية ، وإخلاص الطوية ، فتقبَّل الله سبحانه وتعالى نذرها ؛ قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ﴾ [آل عمران :٣٧] .

فكيف تكفل زكريا مريم ؟

لما وضعت أم مريم ابنتها مريم عليها السلام حَمَلَتْهَا ، وأسرعت بها إلى بيت المقدس لتفي نذرها ، فقذف الله ﷻ حُبَّ مريم في قلوب عُبَّاد بيت المقدس جميعًا ، واختلفوا فيمن يكفلها ، فأراد كلُّ عُبَّاد بيت المقدس جميعًا أن يتكفَّل كلُّ واحدٍ منهم بخدمة مريم ، وبتربيتها ، فهم يعلمون أنها ابنة لشيخهم وعالمهم عمران ، فضلًا عن أن الذي أنبتها هو الرحمن ، فقذف حبها في قلوبهم جميعًا ، فاختصموا ، وكلٌّ منهم يقول : أنا الذي

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾ (٣٤٣١) ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٦) .

أكفلها ، وبعضهم يقول : لا ؛ فقال زكريا ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ وهو نبيُّ ذلك الزمان ـ قال : بل أنا الذي أكفلها ، فأنا أولى الناس بها ، أنا زوج خالتها ، وفي قول بعض أهل التفسير : أنا زوج أختها . ولهذا ورد في حديث الإسراء والمعراج الطويل أن النبيَّ ﷺ قال حينما ارتقى السماء الثالثة : « فإذا أنا بِيَحْيَى وعِيسى ، وهُمَا ابْنَا الخَالَة »[1] .

فقالوا : لا ، قالوا : إذًا نضرب القرعة ، فمن تقع القرعة عليه يكفل مريم ، قالوا : نلقي بأقلامنا في تيار الماء في نهر الأردن ، والقلم الذي يجري بعكس تيار الماء صاحبه هو الذي يكفل مريم ، فألقى كلُّ العُبَّاد والكُتَّاب بأقلامهم في النهر ، فسبحت كلُّ الأقلام مع تيار الماء إلا قلمًا واحدًا رأوه يعاكس تيار الماء ويسري ، فلما أخرجوا القلم وجدوه قلم زكريا لأمرٍ أراده الله ﷻ .

كما قال الحافظ ابن كثير[2] وغيره من أهل التفسير ؛ قال الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران :٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا ﴾ [آل عمران :٣٧]

قال قتادة : قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (٤٢)(٣٤٣٠) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول ﷺ إلى السموات (١٦٤) .

(٢) في «التفسير» لابن كثير (تفسير آل عمران :٤٤) (١/ ٣١٣) ط دار القلم ، و« قصص الأنبياء » (٦١٥) له ط بغداد .

مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ : كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم ، فتشاحَّ عليها بنو إسرائيل ، فاقترعوا فيها بسهامهم ، أيهم يكفلها ، فقرعهم زكريا ، وكان زوج أختها ، ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ يقول : ضمَّها إليه [(١)] .

وفي هذه البيئة نشأت مريم ، وترعرعت في بستان العبادة والورع والزهد ، وبين رياحين الصلاح ، والنقاء ، والصفاء ، والتقى ، فازداد يقينها ، وإيمانها ، وصفاؤها ، حتى ارتقت مريم عليها السلام إلى درجة من درجات اليقين التي كان يرزقها فيها رب العالمين من غير حساب ؛ قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران :٣٧] .

قال جمهور المفسرين [(٢)] : يعني : وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، فكان زكريا عليه السلام يرى عندها ثمرة في غير زمانها !

وهذه درجةٌ من اليقين عالية جدًّا ، أن ترزق مريم بغير سبب !! وإن كان الأخذ بالأسباب ؛ كما قال جمهور أهل العلم : هو من التوكل ، لكننا لا ننكر في الوقت ذاته على مَنْ وصل إلى هذه الدرجة من درجات اليقين ؛ كما قال الإمام أحمد والإمام ابن القيم وغيرهما [(٣)] .

---

(١) أخرجه الطبريُّ في « التفسير » رقم (٧٠٥٠) (آل عمران :٤٤) بسندٍ حسن.

(٢) انظر : « تفسير ابن كثير » عند هذه الآية ، وقيل المراد بالرزق : العلم ، وأورد الآثار في ذلك الإمام الطبريُّ في « تفسيره » (آل عمران :٣٧) .

(٣) راجع مبحث «التوكل» من كتاب «مدارج السالكين» للعلامة ابن القيم (٢/ ١١٤) ط التوفيقية .

ولذلك لما رأى الإمام أحمد رجلًا يأتي إلى الحج ليمشي مع القافلة التي يمشي فيها الإمام ، فقال له الإمام أحمد : إلى أين أنت ذاهب ؟ قال : إلى الحج ، قال : أين راحلتك وأين زادك ؟ قال : أنا متوكل على الله . أريد أن أخرج إلى مكة على التوكل من غير زاد .

قال له أحمد : إذًا ؛ فانصرف بعيدًا عن القافلة حتى تكن متوكلًا على الله لا على القافلة ـ فهذا هو اليقين والتوكل . فقال الرجل : لا إلاً معهم ، قال الإمام أحمد : فعلى جراب الناس توكلت؟(١) .

والأخذ بالأسباب لا يقدح في التوكل ، ولا في حقيقة التوكل ، وهذا هو فعل النبيِّ ﷺ حين هاجر من مكة إلى المدينة(٢) ، ولم يترك سببًا من الأسباب إلا وقد أخذ به ، فلمّا وصل إلى الغار ، وتعطّلت كلُّ الأسباب ، قال أبو بكر ﷺ : نَظَرتُ إلى أقدام المشركين عَلَى رُءُوسنا ونَحْنُ في الغَارِ ، فقُلْتُ : يا رسول الله ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا .

وفي رواية : « يَا نَبِيَّ الله ، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُم طَأْطَأَ بَصَرَهُ رآنا » ، فأراد النبيُّ ﷺ أن يعلم الصدِّيق ﷺ فقال : « يَا أَبَا بَكْر ، مَا ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا »(٣) ، وقال: « لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا » ؛ فلما أخذ النبيُّ ﷺ بجميع

---

(١) انظر : « التلبيس » لابن الجوزي (١٦٧ط دار ابن رجب) بتصرف .

(٢) وحديث الهجرة في « صحيح البخاري » كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبيِّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٥) .

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٦٥٣) ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم و(٣٩٢٢) كتاب مناقب الأنصار ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٢٣٨١) ، وقوله ﷺ لأبي بكر : « لا تحزن إن الله معنا » متفق عليه من حديث البراء في قصة سراقة بن مالك ؛ أخرجه البخاريُّ (٣٦١٥) كتاب المناقب ، ومسلم (٢٠٠٩) كتاب الأشربة ؛ فهذه قصة أخرى غير حديث الغار ـ وإن كانت في قصة الهجرة أيضًا . =

الأسباب وتعطَّلت في لحظةٍ كلُّ الأسباب حفظه مباشرة مسببُ الأسبابِ ﷻ وأيده بنصره ؛ وهكذا أكرم الله مريم عليها السلام بهذه الكرامة .

ثم بعد ذلك تذكَّر نبيُّ الله زكريا ، لأنه هو الذي يَدْخُلُ إليها بالطعام والشراب ، فتذكَّر في هذه اللحظات ، وهو الذي اشتعل الرأس منه شيبًا ، فتضرع إلى الله ﷻ بهذا الدعاء ؛ كما قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾ [آل عمران :٣٨] ، ويتم الله سبحانه لمريم التشريف والتكريم ، فتبشرها الملائكة بهذه البشارة العظيمة ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران :٤٢، ٤٣] .

وَقِفْ مع هذا الاصطفاء ، فأيُّ اصطفاءٍ هذا ، وهو يختارها ــ تبارك وتعالى ـ لتلَقِّي النفخة المباشرة كما تلَقَّاها أول مخلوق ، وهو آدم عليه السلام ، فأيُّ اصطفاءٍ هذا ؟! وهو يختارها ليعرض على البشرية كلِّها من خلالها خارقة من خوارق الكون ونواميسه ؛ إنه الاصطفاء للأمر المفرد ، وهو أمرٌ عظيم بلا شكٍّ أو جدال ؛ فهي أفضلُ نساء العالمين بنص القرآن : ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران :٤٢] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله (١) « هذا إخبارٌ من الله تعالى بما خاطبت به

= لكن هذه اللفظة وردت في غير رواية الشيخين ؛ وعامَّةُ الطرقِ شديدةُ الضعف ؛ فلا تصلح لتقويته ؛ كما عند الآجري في « الشريعة » (١٢٧٧) عن جابر ، واللالكائي في أصول الاعتقاد» (٢٤٢٦) ، وابن عساكر (٣٠/ ٨٠) عن عمر ، وابن عساكر (٣٠/ ٨٥) عن ابن عباس ، و(٣٠/ ٨٥) عن حبشي بن جنادة ، وجاء مرسلًا من عدة أوجه ؛ كما عند أبي نعيم في «الدلائل» (٢/ ٤٢٣) عن الزهري ، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٧٨) عن عروة ، والمروزي في «مسند أبي بكر» (٧٢) عن الحسن ، وانظر : «المجمع» للهيثميِّ (٦/ ٥٢) ، و«الضعيفة » (١١٢٩) .

(١) انظر : « التفسير » [آل عمران :٤٢] .

الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم أن الله قد اصطفاها ، أي : اختارها ، لكثرة عبادتها ، وزهادتها ، وشرفها ، وطهارتها من الأكدار والوساوس ، واصطفاها ثانيًا مرة بعد مرة ؛ لجلالتها على نساء العالمين » .

وقال الألوسي رحمه الله [(١)] : « والمراد من ﴿نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل : جميع النساء في سائر الأعصار ، واستدل به على أفضليتها على فاطمة وخديجة وعائشة - رضي الله عنهن - ثم ذكر ما يؤيد هذا القول ؛ ثم قال : « وقيل : المراد : نساء عالمها ، فلا يلزم منه أفضليتها على فاطمة رضي الله عنها ...إلخ » .

فقد قال بعض أهل العلم : « هي أفضل نساء العالمين في زمانها »[(٢)] .

وقال بعضهم : بل إن الآية على إطلاقها - كما تقدم .

وفي « الصحيحين »[(٣)] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاء غَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ ، وآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ ، كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » .

وفي « الصحيحين »[(٤)] من حديث عليٍّ رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ » .

---

(١) « روح المعاني » (٢/ ١٤٩ ، ١٥٠) ط دار الكتب .

(٢) كما ورد ذلك عن ابن جريج وغيره ، انظر : « تفسير الطبري » (٧٠٣١) (٣/ ٢٦٣) ط دار الكتب ، و « تفسير ابن أبي حاتم » (٣٤٩١) «مكتبة نزار» ، وهو قول الإمام الطبريِّ رحمه الله .

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٤١١) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم:١١] ، و(٣٧٦٩) في فضائل أصحاب النبيِّ ﷺ ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة (٢٤٣١).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٣٤٣٢) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (٤٥) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة (٢٤٣٠).

ويعني ﷺ بقوله : « خَيْرُ نِسَائِهَا » خير نساء أهل الجنة .

وفي رواية الإمام أحمد ، والترمذي ، والحاكم ، بسندٍ صحيح لشواهده[1] من حديث أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ العَالَمِينَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وفَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّد ، وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ » .

فمريم وآسية ، كفلت كلُّ واحدةٍ منهن نبيًّا من الأنبياء ، فكفَلتْ مريم عيسى ، وكفلت آسية موسى ؛ فهي المرأة التي ضرب الله ﷻ بها المثَل في القرآن للمرأة المؤمنة التي استعلت على الشهوات ، والزخارف ، والسلطان ، والملك ؛ قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم: ١١، ١٢] .

وخديجة هي الزوجة التي ضربت أروع مثلٍ في الصدق والوفاء ، إن ذكر اسم خديجة فهو اسم لرمز الوفاء ، وهي السكن الأول لسيد الأنبياء ، وهي المرأة التي سلَّم الله ﷻ عليها من فوق سبع سماوات .

ففي « الصحيحين »[2] من حديث أبي هريرةَ ﷺ قال : « أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥) ، والترمذيُّ في كتاب المناقب ، باب فضل خديجة (٣٨٧٨) ، وقال : « هذا حديث صحيح » ، والحاكم (٣/ ١٥٧) ، وله شواهد صحَّحه بها الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (١٥٠٨) (٤/ ١٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبيِّ ﷺ خديجة وفضلها ﷺ (٣٨٢٠) ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين ﷺ (٢٤٣٢) .

أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ ، فَإِذَا هِي أَتَتْ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا ﷻ وَمِنِّي ، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ . لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبٍ » .

وفي غير رواية « الصحيحين »[1] لما بلَّغها النبيُّ ﷺ سلامَ رَبِّهَا ، وقال : « يَا خَدِيجَةَ ، رَبُّكِ يُقْرِئُكِ السَّلاَمَ ، وَجِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلاَمَ » ، فَقَالَتْ : إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلاَمُ ، وَمِنْهُ السَّلاَمُ ، وَعَلَى جِبْرِيلَ السَّلاَمُ ، وعَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُه.

أما عائشة ؛ فهي أحب نساء النبيِّ ﷺ إليه بعد خديجة ؛ فلقد بلغ حب النبيِّ ﷺ لخديجة مبلغًا حتى كانت عائشة تغار من خديجة بعد موتها من حب النبيِّ ﷺ لها ، ولما قالت عائشة ما قالت ، قال النبيُّ ﷺ : « مَا أَبْدَلَنِي اللهُ خَيْرًا مِنْ خَدِيجَة ، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ ، وَصَدَّقَتني إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي اللهُ ﷻ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلاَدَ النِّسَاءِ »[2] .

وهي التي اختارت رسول الله ﷺ ، ووقفت إلى جواره حتى بلَّغ دعوة ربه تبارك وتعالى .

---

(١) عند النسائيُّ في « الكبرى » كتاب عمل اليوم والليلة ، باب ما يقول إذا قيل له : إن فلانًا يقرأ عليك السلام (١٠٢٠٦) عن أنس ﷺ ، و (٨٣٥٩) كتاب المناقب ، وله شاهدٌ عند الطبرانيِّ في « الكبير » (٢٣/ ٣٧) عن عائشة ، وراجع « المسند » (٢٤٨٥٧ تحقيق الشيخ شعيب) ، و« مجمع الزوائد » (٩/ ٢٢٥) .

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١١٨) ، والطبرانيُّ في « الكبير » (٢٣/ ١٤) (٢٣) عن عائشة ، وله شواهدُ ؛ منها ما أخرجه مسلم ، في فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة (٢٤٣٧) وهو عند البخاريِّ معلقًا ، كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبيِّ ﷺ خديجة (٣٨٢١) ؛ وقد صحَّح الحديث بالشواهد الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على « المسند » (٢٤٨٦٤) ، وانظر : « الصحيحة » للشيخ الألبانيِّ (١/ ٣٧٨) .

أما فاطمة ؛ فكفاها شرفًا وعزًا أنها بنت مُحَمَّد ﷺ، وهي التي كان يقول رسول الله ﷺ في حقها : « إِنَّمَا فَاطِمَةُ ابْنَتِي بَضْعَةٌ مِنِّي. يُرِيبُنِي مَا رَابَهَا ، وَيُؤْذِينِي مَا آذاهَا »[1].

فهذا هو اصطفاء الله سبحانه وتعالى لمريم عليها السلام

وتمضي الأيام ــ وهذا بإيجاز شديد ــ بمريم عليها السلام ، وهي متفرغة لعبادة الله ، ولطاعة الله في بيت المقدس ، تقطع النهار في صوم ، وتقطع الليل في دعاء وتسبيح وتبتل إلى الله تبارك وتعالى ، لسانها دومًا رطبٌ بذكر الله ، وقلبُهَا دومًا ينبضُ بحب الله ، لا تغفل عن عبادته جل وعلا إلى اللحظة التي قدرها الله تبارك وتعالى ، وأرادها واختارها ، ولا راد لمشيئته ، ولا معقِّب لأمره ، ولا مبدل لحكمه جل وعلا ؛ فقدرة الله لا حدود لها : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[النحل: ٤٠] .

فها هي مريم الفتاة العذراء التي تخلو بنفسها لتقضي شأنًا من شؤونها الخاصة ، كأي فتاةٍ عذراء ، وتدبر كيف عبَّر القرآن عن هذه اللحظات التي قضتها مريم بعيدًا عن أعين الناس ؛ لتقضي شأنًا خاصًا جدًّا من شؤون الفتاة ، تدبر كلام الله في بيانه لهذه اللحظة : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: ١٦-١٩] .

---

(١) أخرجه مسلم ، في فضائل الصحابة ، باب فضائل فاطمة بنت النبيِّ ﷺ (٢٤٤٩) وأحمد (٤/ ٣٢٦) وهو عند البخاريِّ ، في فضائل الصحابة ، باب ذكر أصهار النبيِّ ﷺ (٣٧٢٩) لكنه لم يورد إلا قوله : « وإن فاطمة بضعة مني » وكذا (٣١١٠) .

أقول : وبعد هذه اللحظات الطويلة التي مرَّت على مريم عليها السلام وكأنها سنوات طوال ، يأتي الفرج من الكبير المتعال ، لِيُنطق الله تبارك وتعالى الروح الأمين ، ألا وهو : جبريل عليه السلام ؛ لِيُهَدِّأ مريم ، وليذهب فزعها بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ فيزداد عجبها ، وتزداد دهشتها ، فترد على هذا الرجل السوي ردًّا واضحًا بكلمات مكشوفة لا غموض فيها ؛ فتقول : ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠، ٢١] .

وهذا الحوار الذي دار مع مريم ، وهذا البشرِ السويِّ ، واقتحم عليها خُلْوتها ، وفاجأها مفاجأة شديدة ، ولكنه هدَّأ من روعها ، وطمأنها بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ لست بشرًا ، ولكني مَلَكٌ من عند الله سبحانه وتعالى ، أرسلني الله تبارك وتعالى إليك ليهب لك الله تبارك وتعالى بقدرته غلامًا زكيًّا طاهرًا مبرَّءًا من الذنوب والعيوب ، وهنا تردُّ مريم : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ .

أي : لم أتزوج ، ولست بزانية لتقبل هذه الفاحشة ، ولم تقل بغية ؛ لأنه وصف يغلب على النساء ، فقلَّما تقول العرب : «رجل بغي ، فجرى بغيًا مجرى خائض وعاقر »[(١)].

وواضح من سؤال مريم واعتراضها أنها لا تتصور إلا وسيلة واحدة

(١) انظر : «تفسير ابن كثير » (٣/ ١٠٢) ط القلم ، عند هذه الآية الكريمة ، و« أيسر التفاسير » (٣/ ٣٠٠) للجزائري ط دار السلام .

فقط للإنجاب ؛ ألا وهي التقاء الرجل بالأنثى (سواء كان هذا الالتقاء في الحلال أو في الحرام) ؛ فهذا هو السبيل الوحيد المعهود في تاريخ البشرية الطويل ، وهي سنة الله تبارك وتعالى في كونه التي وضعها لامتداد النسل البشري على وجه الأرض في جميع الفصائل والأنواع ، حتى في المخلوقات التي ليس فيها ذكر وأنثى متميزان .

فإن الله ﷻ يجمع في الفرد الواحد خلايا التذكير والتأنيث حتى استقر في الذهن البشري الذي تعبر عنه مريم عليها السلام بأن هذه الطريقة هي الأولى والأخيرة والوحيدة .

وبكل أسفٍ نسي الخَلْقُ الحادث الأول أو الخلق الأول ، ألا وهو خلق آدم عليه السلام ؛ فإن البشرية كلّها تعلم أن الله ﷻ خلق آدم من غير ذكر أو أنثى ، تَغِيبُ عنا هذه الحقيقة ! وأرجو أن تتأصل في العقول والقلوب ، فسوف نحتاج إليها بعد قليل .

من أجل ذلك ؛ يأتي هذا الجواب من هذا الملك الكريم لمريم عليها السلام :
﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾[مريم:٢١] .

مقضيًّا : مسطورًا في اللوح المحفوظ ؛ أي: لابد منه فهو كائن لا محالة [(١)] .

إن قدرة الله تبارك وتعالى لا تحدُّها حدود ، وإن من يكلِّف نفسه أن يصل إلى حدود قدرة الله ؛ كمن يكلِّف نملةً صغيرةً أن تنقل جبلًا من مكانه إلى مكان آخر ، فتخيل أننا لو خاطبنا طفلًا في بطن أمه ، وحدثناه عن الصواريخ والطائرات ، والتيار الكهربي ، والقنابل النووية والذرية ،

---

(١) انظر : « أضواء البيان » (٤/ ٢٥٩، ٢٦٠) ط مكتبة ابن تيمية .

أترى لو كان لهذا الطفل عقل يدرك به ! أيصدق هذا ؟ بالطبع لا ؛ لأنه لم ير هذه الأشياء في عالمه الذي يعيش فيه ، ونحن الآن لا ننكر جميعًا أننا حينما نرى هذا النور أو الضوء لا ننكر أبدًا أن هذا المصباح لم يضيء إلا من خلال تشغيل آلات ضخمة ، ومن خلال تيار كهربائي يسير عبر أسلاك طويلة عديدة .

أقولُ : كلُّنا يؤمن بهذا ولا ينكر ذلك ، ومع ذلك لم نؤمن بأن هذا المصباح لم يضيء إلا بوصول التيار إليه ؛ مع أننا لم نر التيار ؛ ولم نر هذه الآلات الضخمة التي توصل إلينا ابتداءً من السد العالي هنالك .

بل إن الإنسان إلى الآن عاجز عن أن يدرك نفسه ، وعن أن يعرف حقيقة الروح التي بها يعيش ، ومع ذلك لا يقطع هذا الإنسان المتبجح الطمع في أن يصل إلى حدود قدرة الملك الذي يقول للشيء : كن ، فيكون .

اقطع الطمع في أن تصل إلى منتهى حدود قدرة الله .

أظن بعد هذه المقدمة المهمة جدًّا ، لا يسأل عاقلٌ فضلًا عن مؤمن : كيف حملت مريم بعيسى ؟

وتدبر مرة أخرى قول جبريل عليه السلام : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم:٢١]أي : على الله هيِّن .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله [(١)]: « أي : فقال لها الملك مجيبًا لها عما سألت ، إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلامًا ، وإن لم يكن لك بعلٌ ، ولا يوجد منك فاحشة ، فإنه على ما يشاء قادر » .

فالله إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون ، لا يعجزه شيء في الأرض

(١) انظر : « التفسير » [تفسير مريم :٢١] ، (٣/ ١٠٢) ط القلم .

ولا في السماء .

﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾[مريم:٢١] ، أي : علامة ودليلًا على طلاقة القدرة ، وكمال المشيئة ، ونفاذ الإرادة ؛ فإن الله ﷻ الذي خلق آدم من غير ذكر وأنثى ، وخلق حواء من ذكر دون أنثى ، وخَلَقَنَا جميعًا من ذكر وأنثى . ولتكتمل القدرة وطلاقتها ، خلق عيسى من أنثى دون ذكر ، لنعلم أنه على كل شيء قدير .

فقال سبحانه : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾[مريم:٢١] .

أي : ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبيًّا من الأنبياء ، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[آل عمران:٤٦] .

أي : يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته [(١)] .

فعيسى نبيٌّ بُعثَ بالتوحيد الخالص ؛ ليخرج الناس من ظلمات الشرك والعبودية لغير الله ، إلى أنوار التوحيد ، والإيمان بالله وحده بلا منازع أو شريك . تلك هي الرحمة .

ثم تدبر هذه الكلمة العجيبة من كلمات القرآن : ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ [مريم:٢٢] ، لفظة سريعة مفاجأة ، وبدون مقدمات ، فحملته وتحرك الحمل في أحشائها !!

ولا تسأل بعد أن عرفت كمال قدرة الله تبارك وتعالى كيف حملت مريم ؟ !

---

(١) المصدر السابق .

ولن أطيل أيضًا في عرض أقوال أهل العلم في مدة الحمل[١]؛ بل أقول: إن المشهور والراجح والصحيح أن مريم عليها السلام حملت بعيسى عليه السلام حملًا عاديًا كما تحمل كلُّ امرأة من نساء الأرض، ولا ينبغي أن نلهث وراء الإسرائيليات التي شُحنت بها الكتب؛ في أن مريم عليها السلام قد حملت ووضعت عيسى عليه السلام في ساعةٍ واحدة، ونحن لا ننكر ذلك ولا نستكثره في قدرة الملك جل جلاله.

كلاًّ؛ كلاًّ، إننا على يقينٍ جازمٍ بأن الله عز وجل كان قادرًا ـ ولا زال سبحانه ـ على أن تحمل مريم عليها السلام بعيسى وأن تضعه في ساعة واحدة.

لكننا نقول بأن الصحيح والمشهور من كلام أهل العلم من المحققين المفسرين: بأن مريم حملت بعيسى حملًا عاديًا تسعة أشهر، وهذا ما يقتضيه سياق الآيات التي تكلمت عن عيسى وأمه عليهما السلام.

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى[٢]: «اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام؛ فالمشهور عند الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر».

وقال: «فالمشهور الظاهر، والله على كل شيء قدير، أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن».

وقال كذلك في كتابه «البداية، قصص الأنبياء»: «الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر، كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن، ووضعهن، إذ

(١) «تفسير الزمخشري» (٢/ ٥٠٦) ط البابي الحلبي، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٢)، و«قصص الأنبياء» (٦٢٩) ط بغداد، و«تفسير القرطبي» (١١/ ٩٢، ٩٣) ط دار الكتاب العربي، ورجَّح القرطبي كونها حملت فوضعت في الحال على ما ذُكر عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: وما ذكرناه عن ابن عباس أصحُّ وأظهر، والله تعالى أعلم.

(٢) «التفسير لسورة مريم: ٢٢».

لو كان خلاف ذلك لذُكِرَ » .

وقال الإمام الشنقيطي في « أضواء البيان »(١) : « وأقوال العلماء في قدر المدة التي حملت فيها مريم بعيسى قبل الوضع لم نذكرها ، لعدم دليل على شيء منها ، وأظهرها : أنه حمل كعادة حمل النساء ، وإن كان منشؤه خارقًا للعادة ، والله تعالى أعلم » .

وقد يعكِّر علينا قول من قال : بأن الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ [مريم:٢٢] . إنما هي للترتيب والتعقيب ، وهذا حُكمُ الفاء في اللغة ، ولكننا نقول بأن تعقيب كل شيء بحسب مدته(٢) .

تدبَّر معي قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤] .

انظر إلى الفاء في الآية .

وفي « الصحيحين »(٣) أن النبيَّ ﷺ قد أخبر أنه بين كل مرحلتين وصفتين من صفات ومراحل التخليق أربعين يومًا ، إذًا ؛ فإن التعقيب لكلِّ شيء بحسبه ؛ أي : بحسب مدته .

وتدبر قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ

---

(١) « أضواء البيان » (٤/ ٢٦٤) .

(٢) انظر : كلام ابن كثير في ذلك ؛ في « التفسير » (٣/ ١٠٢) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) ، ومسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣) عن ابن مسعود .

ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣] .

فهل إذا نزل المطر من السماء على الأرض تخضر الأرض فورًا أم يحتاج ذلك إلى وقت ؟ .

ومن اللطائف الجميلة أيضًا ما ذكره الطبريُّ في «تاريخه»،(١) و«تفسيره» : أن يوسف النجار كان يخدم مع مريم في بيت المقدس ، لما رأى مخايل ، وعلامات الحمل تظهر على مريم ، وهو الذي يعلم زهدها، وورعها ، وعبادتها ، وتبتلها ؛ بل وهو الذي يرى الله ﷻ ينزل إليها الرزق من السماء بغير سبب ، ومع ذلك يريد أن يسألها عن هذا الذي يرى بعينيه ، ولكنه يومًا من الأيام تغلَّب على هذه المشاعر والأحاسيس ، وقال لها : يا مريم ، إني أسألك عن شيء ، فلا تعجلي عليَّ ؛ فقالت له : سل يا يوسف عمَّا شئت ، وقل قولًا جميلًا ؟ قال : يا مريم ، هل ينبت زرع بغير بذر ؟ وهل ينبت شجر بغير غيث أو مطر ؟وهل يكون ولد بغير أب ؟

فقالت مريم : نعم ، يا يوسف ، قال : كيف ذلك ؟ قالت : يا يوسف ، ألم تعلم أن الله تعالى خلق الزرع يوم أن خلقه بغير بذر ، وخلق الشجر يوم خلقه بغير غيث ، ولا مطر ، وخلق آدم يوم خلقه بغير أب ، ومن غير أم ؟ قال : أعلم أنه على كل شيء قدير .

فقدرة الله لا تحدُّها حدود ، ولا تعجزه ــ سبحانه ــ قوة على وجه الأرض .

---

(١) انظر : « تفسير الطبري » (٨/ ٣٢٤) ط دار الكتب ، و« تاريخ الطبري » (١/ ٣٥٠) ط دار الكتب العلمية ، عن وهب بن منبه قال : فذكره ، وراجع « تفسير ابن كثير » (١/ ١٠٢ـ١٠٣) ط دار القلم ، و« منهاج السنة » (٨/ ٤٨٢) ط ابن تيمية ، وهذه من الإسرائيليات التي يستأنس بها ؛ ما لم تخالف شرعنا .

فحملت مريم !! وشاع الخبر بأن مريم ابنة عمران حامل من يوسف النجار !! هكذا قالت بنو إسرائيل ، فهو الذي يعيش معها في بيت المقدس ، فسمعت مريم الخبر ؛ فضاق صدرها : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾[مريم:٢٢] .

ولما اشتد بها الألم النفسيُّ ؛ بل والجسدي ، فلك أن تتصور فتاةً صغيرةً ـ وحيدةً تفاجأ ـ ولأول مرة ـ بكرب المخاض الذي لم تعهده من قبل ذلك ، وليس معها أمٌّ ولا أختٌ ؛ حتى ألجأها ألم المخاض ـ وهو الطلق ـ إلى جذع نخلة ، وهي نخلة التمر والبلح ، فتمسك بالجذع وهي تتألم وتعاني ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[مريم:٢٢، ٢٣] .

أي : لا يَذْكُرني أحد ، ولا يعرفني أحدٌ ، قالت ذلك ، وهي تعلم يقينًا ، وتذكر تمامًا الحوار الذي دار بينها وبين جبريل عليه السلام ، ولكنها تقول ذلك كأيِّ امرأةٍ تخشى من الفضيحة ، وتخشى من مواجهة الناس ، فماذا تقول للناس ؟

وماذا تفعل إذا فاجأتهم برضيعها ؟ وهم الذين يعلمون زهدها ، وورعها ، وتقواها ، وهم يعلمون في الوقت ذاته أنها لم تتزوج بعد !!

وقولها : ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ ؛ دليل على جواز تمني الموت عند نزول الفتن إن خاف الإنسان على ضياع دينه .

قال النبيُّ ﷺ ـ كما في « الصحيحين »[1] : « لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء بالموت والحياة (٦٣٥١) ، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب ذكر كراهة تمني الموت لضر نزل به (٢٦٨٠) عن أنس رضي الله عنه .

لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ لابُدَّ مُتَمَنِّيًا ، فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي » .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى[1] : وقوله تعالى إخبارًا عنها : ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣] فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود ، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها ، بعدما كانت عندهم عابدة ناسكة ، تصبح عندهم ـ فيما يظنون ـ عاهرة زانية ؛ فقالت : ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ .

أي : لم أخلق ولم أك شيئًا ، قاله ابن عباس .

وقال قتادة : ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ ، أي : « شيئًا لا يعرف ولا يذكر ولا يدرى من أنا » .

وهنا تحدث المعجزة لمريم ، ولا زلنا مع قدرة الله الذي إذا قال للشيء كن فيكون ؛ ففي وسط هذه المحنة ، وهي تتألم ، وتقول : ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣] .

في وسط هذه الشدة تسمع صوتًا كريمًا جليلًا من هذا الغلام الذي نزل ، وهذا هو الراجح على الصحيح .

فإن بعض أهل العلم قال[2] : بأن الذي نادى عليها هو جبريل عليه السلام ، ولكن الراجح من أقوال المفسرين : أن الذي نادى على مريم عليها السلام في هذه اللحظات هو عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : ﴿ فَنَادَىٰهَا

---

(١) « التفسير » [مريم:٢٣] .

(٢) انظر : « تفسير ابن كثير » (تفسير سورة مريم : ٢٤) .

مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[مريم: ٢٤-٢٦] .

وهذا الذي رجَّحناه هو قول شيخ المفسرين الإمام الطبري ؛ حيث قال في « تفسيره » [(١)] : « وأولى القولين بالصواب في ذلك عندنا قول من قال : الذي ناداها ابنها عيسى ، وذلك أنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبريل ، فردُّه على الذي هو أقرب إليه أولى من ردِّه على الذي هو أبعد منه . ألا ترى في سياق قوله : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾[مريم:٢٢] يعني به : فحملت عيسى فانتبذت به ، ثم قيل : ﴿ فَنَادَىٰهَا ﴾ نسقًا على ذلك من ذكر عيسى والخبر عنه .

ولعلَّة أخرى : وهي قوله : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ ولم تُشر إليه إن شاء الله إلا وقد علمت أنه ناطق في حاله تلك ، وللذي كانت قد عرفت ووثقت به منه بمخاطبته إياها بقوله لها : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ .

« وما أخبر الله عنه أنه قاله لها أشارت للقوم إليه ، ولو كان ذلك قولًا من جبريل لكان خليقًا أن يكون في ظاهر الخبر مبينًا أن عيسى سينطق ويحتج عنها للقوم ، وأمرٌ منه لها بأن تشير إليه للقوم إذا سألوها عن حالها وحاله .... » .

وقال المفسر القرآنيُّ العلامة الشنقيطيُّ في « أضواء البيان » [(٢)] : « وممن

---

(١) انظر : « تفسير الطبري » (٨/ ٣٢٨) ط دار الكتب .

(٢) « أضواء البيان » (٤/ ٢٦٦) ط ابن تيمية .

اختار أن الذي ناداها هو عيسى : ابن جرير الطبري في « تفسيره » ، واستظهره أبو حيان في « البحر » ، واستظهر القرطبي أنه جبريل .. وأظهر القولين عندي أن الذي ناداها هو ابنها عيسى» ، ثم ذكر الشيخ قرينتين للدلالة على ذلك ، مضمنة في كلام الطبري المتقدم .

وهذا هو وعد الله للمتقين ، أخذ العهد على ذاته ، فليس لمخلوق حقٌّ على الخالق ؛ بل قطعه على ذاته سبحانه ، فحقٌّ على الله لمن اتقاه أن يحسن بدايته ، وأن يحسن نهايته ، وأن يتولى بين البداية والنهاية رعايته ، فمن كان الله معه فكيف يحزن ؟ ومن علم أن أمره بيد الله فكيف يخاف ؟ ومن علم أن رزقه بيد الرزاق ذي القوة المتين فلماذا يقلق ويضطرب ويخاف ؟ .

قيل لامرأة تقية تؤمن وتثق برب البرية ـ وقد مات عنها زوجها: من أين تعيشين أنت وأولادك بعد ذهاب زوجك ؟ فقالت : زوجي منذ علمته ما علمتهُ إلا أكّالًا ، وما علمته رزّاقًا ، فلئن ذهب الأكّال لقد بقي الرزاق ﷻ.

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى ﴾ . فالله قادر على أن يبرئ ساحتها ، وقادرٌ على أن يبين طهرها ، وعفتها ؛ فالله ﷻ الذي أرسل لها الماء ، وأسقط لها الرطب قادرٌ على ذلك .

ألم تر أن الله أوحى لمريم وَهزّي إليك الجذع يَسَّاقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزّه ولكن كلُّ شيء له سبب

وبعد أن اطمأنت مريم عليها السلام وسكَنَ فؤادها ، ولقنها طفلها المبارك حجتها ، وبشَّرها بأن الله ﷻ الذي فجَّر لها الماء ، وأسقط عليها الرطب قادرٌ على أن يبرئ ساحتها ، وأن يبين للعالمين شرفها ، وطهارتها ، عند

ذلك حملت مريم عليها السلام طفلها المبارك بين يديها ، وأقبلت به على قومها ؛ قال تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم:٢٧،٢٨] .

يعني : يا أخت هارون في العبادة والطهر والتبتل والورع كيف تقبلين هذه الجريمة وهذه الفضيحة ؟ وكيف تفعلين هذا يا من تُشْبهين هارون في عبادته وتقواه ؟ .

وفي الحديث الذي رواه مسلم [(١)] وأحمد ـ واللفظ له ـ من حديث المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه قال : بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَى نَجْرَان فَقَالُوا : أَرَأَيـتَ مَا تَقَرَؤُوْنَ : ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ ومُوسى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا ؟! قَالَ : فَرَجَعْتُ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ : « أَلاَ أَخْبَرْتَهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ قَبْلَهُمْ ؟ » .

ولذلك قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى [(٢)] : «كان لمريم أخٌ يسمَّى هارون ، وكان معروفًا في قومه بالدين والصلاح والتقي» .

وقال الزمخشريُّ ـ رحمه الله [(٣)] : « كان بين موسى وعيسى ما يزيد على ألف سنة » ، ولا دليل على ذلك ؛ فلا يُتَخَيَّلُ أن تكون مريم عليها السلام أختًا لموسى ، وهارون عليه السلام ؛ فلكِ الله يا مريم ؛ فتصور معي هذه

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الآداب ، باب النهي عن التكني بأبي القاسم (٢١٣٥) ، وأحمد (٤/ ٢٥٢) .

(٢) انظر : « قصص الأنبياء » له (ص٦٣٣) ط دار بغداد ، و « تفسير ابن كثير » (٨/ ٢٣٩-٢٤١) ط أولاد الشيخ .

(٣) انظر : « الكشاف » للزمخشري (٢/ ٥٠٨) ، (تفسير سورة مريم : ٢٨) ، و « تفسير القرطبي » (سورة النساء : ١٦٣) و (سورة المائدة : ٢١٩) و (سورة مريم : ٢٨) ، و« تفسير البغوي » (آل عمران : ٦٥) ، و« الدر المنثور » (النساء : ١٦٤) .

اللحظات التي تعيشها ، وتحياها مريم حين تتصدى لمثل هذه السهام المسمومة ، والكلمات المذهلة ، والنظرات المحرقة !!

قال الحافظ ابن كثير ﷺ[1] : « ولما ضاق الحال ، وانحصر المجال ، وامتنع المقال ، عظم التوكل على ذي الجلال ، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال على الكبير المتعال الذي يجيب المضطر إذا دعاه في الحال : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ [مريم:٢٩] ».

كُنْ عن همومك معرضًا ... ودع الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة ... تسليك عما قد مضى
فلربما اتسع المضيق ... ولربما ضاق الفضا
الله يفعل ما يشاء ... فلا تكن متعرضا

قال تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ فأحالت الجواب على هذا الطفل الرضيع ! فأجابوا عليها منكرين : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم:١٩] ، كيف تهزئين بنا ، وتسخرين من عقولنا ، وتطلبين منا أن نكلِّم طفلًا صغيرًا في مهده لا يعرف شيئًا ؟!

وهنا تحدث المعجزة ـ وما زلنا مع قدرة الملك سبحانه ـ فيلتفت هذا الطفل المبارك بوجهه المشرق المنير إلى القوم .

وقد ذكر بعض أهل التفسير[2] أنه رفع سبابته الوسطى إلى السماء ، ثم أنطقه الله ﷻ بحجة قوية بالغة ، فتكلَّم عيسى بهذا الكلام ؛ فقال :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا

(١) انظر : « قصص الأنبياء » (ص٦٣٣) له .
(٢) ذكره ابن كثير في « التفسير » لسورة مريم من قول ثابت البناني ﷺ .

كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٠ـ ٣٦] .

وفي «الصحيحين»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وهُوَ يُصَلِّي ـ ظلّت أمه تنادي عليه ـ فقالت: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ ـ جريج في نفسه ـ: يَا رَبِّ، أُمِّي وَصَلاَتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ ـ وترك أمه ـ فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي ـ وظلت تنادي ـ فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أُمِّي وَصَلاَتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ ـ وترك أمه ـ فَانْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي ـ وظلت تنادي: يا جريج ـ فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! أُمِّي وَصَلاَتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ ـ وترك أمه، فانْصَرفت وهي غاضبة، ودعت الله سبحانه وتعالى عليه ـ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى ينظُرَ إِلى وُجُوهِ المُومِسَاتِ، فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَت امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ (لهم): إِنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ، فَقَالُوا لها: افْعَلِي، وَلَكِ كَذَا وَكَذَا، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ ـ تعرضت هذه المرأة لجريج، وأرادت أن يزني بها ـ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ـ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٤٨) (رقم ٣٤٣٦)، ومسلم كتاب البر والصلة، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٢٥٥٠/٨).

فخافت أن تذهب إلى القوم دون أن توقع جريجًا في الفاحشة ـ فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا ، فَوَقَعَ عَلَيْهَا ، فَحَمَلَتْ ـ حين زنى بها الراعي ـ فَلَمَّا وَلَدَتْ ـ ذهبت إليهم بهذا الولد من الزنا بالراعي ـ وَقَالَتْ : هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ ، فَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ ؟ فَقَالُوا : زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ ، فَقَالَ جُرَيْجٌ : أَيْنَ الصَّبِيُّ ؟ فَجَاؤُوا بِهِ ، فَقَالَ : دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ ، فَصَلَّى فَلَمَّا انْصَرَفَ ـ مِنْ صَلاَتِهِ ـ أَتَى الصَّبِيَّ ، فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا غُلاَمُ ، مَنْ أَبُوكَ ؟ ـ فأنطق الله ﷻ الغلام بالحق ـ فَقَالَ : فُلاَنٌ الرَّاعِي اقَالَ : فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ ، وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ . وَقَالُوا : نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ ، قَالَ : لاَ ، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ ، فَفَعَلُوا. وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ ، وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا ، فَتَرَكَ الصَّبِيُّ الثَّدْيَ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِ أُمِّهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ ».

يقول أبو هريرة ﷺ : فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ فَجَعَلَ يَمُصُّهَا. ثم قَالَ : « وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا ، وَيَقُولُونَ : زَنَيْتِ ، سَرَقْتِ ، وَهِيَ تَقُولُ : حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا ، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا ، فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ ، فَقَالَتْ : حَلْقَى ! مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ ، فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ ، فَقُلْتَ : اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. وَمَرُّوا بِهَذِهِ الأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا ، وَيَقُولُونَ : زَنَيْتِ ،

سَرَقْتِ ، فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا. فَقُلْتَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا ، فَقَالَ (الصَّبِيُّ لِأُمِّه): إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. وَإِنَّ هَذِهِ (الأَمَةَ) يَقُولُونَ لَهَا : زَنَيْتِ وَلَمْ تَزْنِ ، وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ ، فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا ».

فأنطق الله عيسى عليه السلام في المهد بهذه الكلمات بحجة بليغة ، وهذه الكلمات الطيبة التي أنطق الله ﷻ بها نبيه عيسى عليه السلام وهو ما زال في لفائفه ومهده ؛ قال ـ كما قال تعالى حكايةً عنه في سورة مريم : ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم:٣٠-٣٦] .

ومع عبودية المسيح لله تعالى :

فإن أول كلمة نطق بها عيسى عليه السلام في المهد هي : إعلانه لوحدانية الله ، ولألوهية الله ، ولعبوديته لله سبحانه ، فما قال عيسى أبدًا بأنه إله !! ولا قال أبدًا بأنه ابنٌ للإله !! وإنما قال : ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [مريم:٣٠] .

فصفةُ العبودية لا ينفكُّ عنها مخلوق ؛ فقد وصف الله تعالى أقرب خلقه إليه بصفة العبودية ؛ فقال تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٧٢] .

فالعبودية صفةٌ أحبُّ وأقربِ الناس إلى الله تبارك وتعالى ،ولذلك أكمل الخلق أكملهم عبودية ، وأقرب الخلق إلى الله أتمهم عبودية ؛ من أجل ذلك وصف الله نبيه ﷺ بصفة العبودية في أجلِّ المقامات ؛ فلقد وصفه بصفة العبودية في مقام الإسراء ، وفي مقام الدعوة ؛ وفي مقام التحدِّي ؛ وفي مقام نزول القرآن .

ففي مقام الإسراء ؛ قال تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء:١] .

وفي مقام التحدي ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣] .

وفي مقام الدعوة ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن:١٩] .

وفي مقام نزول القرآن ؛ قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١] .

من أجل ذلك ـ كما في صحيح البخاريِّ عن عمر رضي الله عنه ـ قال النبيُّ ﷺ : « لاَ تُطْرُونِي[1] كَمَا أَطَرَت النَّصَارَى عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ ،إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ ، فَقُولُوا : عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ »[2] .

وكان يقول ﷺ : « أَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ ، وآكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ »[3] .

---

(١) الإطراء : المدح بالباطل ، تقول : أطريتُ فلانًا مدحتُه ، فأفرطت في مدحه ؛ قاله الحافظ في « الفتح » (٦/ ٤٩٠) ط دار الفكر .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (٤٨) (رقم/ ٣٤٤٥) .

(٣) أخرجه أبو يعلى في « مسنده » (٤٩٢٠) ، والبغويُّ في « تفسيره » (معالم التنزيل ، تفسير الفرقان : ١٠) ، وفي «شرح السنة» (٣٦٨٣) عن عائشة. وفي سنده أبو معشر وهو ضعيف =

والعبودية نوعان ؛ كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه « طريق الهجرتين »؛ حيث قال[(١)]: « العبودية نوعان : عبودية القهر والملك ، وعبودية الطاعة والحب ، أما عبودية القهر والملك : فهي عبودية أهل الأرض وأهل السماء ، لا ينفك عبدٌ عن هذه العبودية بارًّا ولا فاجرًا ، مذنبٌ ولا طائعٌ » .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران:٨٣] ، وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر:١٥ـ١٧] .

فيستحيل أن يكون العبدُ إلا عبدًا ، وأن يكون الربُّ إلا ربًّا ، ويستحيل أن يكون العبدُ إلا فقيرًا ، ويستحيل أن يكون الرب إلا غنيًّا ، ويستحيل أن يكون العبد إلا ذليلًا ، ويستحيل أن يكون الرب إلا عزيزًا ؛ فمن عرف نفسه بالذل المطلق عرف ربه بالعز المطلق ، ومن عرف نفسه بالفقر التام ؛ عرف ربه بالغِنَى التام ، ومن عرف نفسه بالجهل التام عرف ربه بالعلم التام ؛ فيستحيل أن يكون الكمال إلا لله وحده ، ويستحيل أن يكون النقص والذل والفقر إلا للخلق ، وإلا للعبيد .

ففي الحديث الذي رواه ابن ماجه وأحمد في « مسنده »[(٢)] بسندٍ حسن

= وله شواهد صحَّحه بها العلامة الألبانيُّ في « الصحيحة » (٢/ ٨٢) (٥٤٤) ، وانظر : « الضعيفة » (٢٠٤٥) ، و« صحيح الجامع » (٧) .

(١) راجع « طريق الهجرتين » (ص٢٢ـ٢٥) ط دار ابن القيم .

(٢) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الوصايا ، باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت (٢٧٠٧) ، وأحمد (٤/ ٢١٠) والحاكم (٤/ ٣٢٣) ، وصححه الحافظ ابن حجر في =

من حديث بُسْر بن جَحَّاش القرشي[١] ﷺ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَزَقَ يَوماً في كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهَا إِصْبَعَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « قَالَ الله : ابْنَ آدَمَ ، أَنَّى تُعْجِزُنِي ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ؟! حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَّلْتُكَ ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي ، قُلْتَ : أَتَصَدَّقُ ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ » .

أما عبودية الطاعة والحب وهي عبودية أهل الإيمان والتوحيد ، وكلما ازداد العبد من هذا الصنف عبودية لله كلَّما ازداد قربًا من الله ﷻ ؛ فأكمل الخلق أكملهم عبودية .

وقد عرَّف الإمام ابن تيمية رحمه الله العبودية بقوله[٢] : «هي اسم جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة » .

ثم قال[٣] : « والعبادة هي كمال الحب مع كمال الذل لله تبارك وتعالى » .

فعبودية الطاعة والمحبة هي عبودية أولياء الله ، وهي عبودية المؤمنين ، وهي عبودية الأنبياء والمرسلين من قبل الأولياء والمتقين ؛ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا العبودية له ؛ فإن العبودية لله عزٌّ ، وحرية وكرامة ورفعة وشرف ، والعبودية لغير الله ذلة ومهانة .

فأول كلمة نطق بها عيسى عليه السلام هي أنه أعلن العبودية لله تبارك

= « الإصابة» (١/ ١٥٣) ، والألباني في «الصحيحة» (١٠٩٩) ، (١١٤٣) . وقد وقع خلافٌ في اسم الصحابي ؛ فراجع « الإصابة » (١/ ١٥٣) . و «تحفة الأشراف » للمزي (٢/ ٩٧) وفي « الآحاد » (٨٦٩، ٨٧٠) لابن أبي عاصم.

(١) قال الحافظ في « التقريب » : « بفتح الجيم ، بعدها مهملة ثقيلة ، وآخره معجمة ، ويقال فيه : بشر بكسر أوله والمعجمة » .

(٢) انظر : « مجموع الفتاوى » لشيخ الإسلام (١٠/ ١٤٩) .

(٣) انظر : « الفتاوى » (٨/ ١٤١، ٣٥٢) ، (٢٠/ ٢٠٣) لشيخ الإسلام رحمه الله .

وتعالى . ويأبى من يعبدون المسيح إلا أن يجعلوا المسيح ابن مريم إلهًا مع الله أو من دونه أو ابنًا لله ؛ تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا .

فلقد قالوا فيما يُسمَّى ـ عندهم ـ بقانون الإيمان أو بقانون الأمانة الذي يسمُّونه سنهودس ، وهذا أصلٌ من أصول النصارى ، لا تَثْبُتُ النصرانية لأحدهم إلا بالإقرار به وباعتقاده ، وهذا القانون[1] هو القانون الذي انبثق عن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ من ميلاد المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم .

وتدبر معي كلمات هذا الأصل عندهم يقول : « نؤمن بالله الأب الواحد خالق ما يُرى وما لا يُرى ، ونؤمن بالرب الواحد يسوع المسيح وهو ابن الله وبكر أبيه ، وليس بمصنوع ، فهو إله حقٌّ من إله حقٍّ من جوهر أبيه الذي بيده أُتقنت العوالم ، وخلق كلَّ شيء من أجلنا معشر الناس ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ومن مريم البتول فحبلت به مريم البتول ، وأُخذ وصُلب وقتل أيام بيلاطس النبطي ، ومات ودُفن ، وقام من بين الأموات في اليوم الثالث وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأحياء والأموات »[2] .

هذا أصلُ الأصول عند عبَّاد المسيح ؛ عند المثلِّثةِ ، يأبون إلا أن يؤلهوا عيسى ابن مريم ، وما قال عيسى أبدًا في إنجيلٍ من أناجيلهم ـ كما

---

(١) انظر : « الجواب الصحيح » (٤/ ٢١٥، ٢٤٠) لشيخ الإسلام رحمه الله .

(٢) انظر : «الجواب الصحيح» (١/ ٣٤٠، ٣٤٢)، (٢/ ١٢) ط العاصمة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، و«هداية الحيارى» (٢٧٩، ٢٨٢) للعلامة ابن القيم .

سأبين - إنه إلهٌ !! أبدًا .

فهم بهذا الأصل أو القانون يقولون بأن عيسى ابن مريم ناسوت ولاهوت في آنٍ . ناسوت من جنس أمه ، ولاهوت من جنس أبيه ، فهم يجعلون الأقانيم الثلاثة أقنومًا واحدًا في آنٍ واحد ! بأي عقل ، وبأي فهم ؛ أنا لا أعي ذلك أبدًا !!.

كيف تكون الأقانيم الثلاثة أقنومًا واحدًا ؟ !!.

تقول طوائفهم (الملكية واليعقوبية والنسطورية والمريمية أو المريمانية) : « ليس المسيح عندنا بنبيٍّ ولا بعبد صالحٍ ؛ بل هو ربٌّ الأنبياء وخالقهم وباعثهم ومرسلهم وناصرهم ومؤيدهم ، وهو رب الملائكة ، ثم يقولون : مريم حملت بالمسيح في الحقيقة ، وولدت المسيح في الحقيقة ، وهي أم المسيح في الحقيقة ، والمسيح إله في الحقيقة ، وربٌّ في الحقيقة ، وابن الله في الحقيقة ، وكلمة الله في الحقيقة لا ابن لله في الحقيقة سواه ، ولا أب للمسيح في الحقيقة إلا هو »[1] .

وتدبر كلام الله - سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾ [النساء:١٧١، ١٧٢] ، وقال

(١) انظر : « هداية الحيارى » للعلامة ابن القيم (ص٢٨١) ، ط دار الريان.

تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة:٧٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۞ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٣-٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة:١١٦، ١١٧] .

ونحن لسنا بحاجة إلى كلام أهل الأرض - ولو اجتمعوا - ليؤكدوا لنا معتقدنا في نبيِّ الله عيسى ؛ فإننا نحن الموحدين نقرُّ بأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، ونؤمن به كما نؤمن بمحمد - عليهما الصلاة والسلام - بل لا نفرق بين عيسى ومحمد ؛ قال الله تعالى :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥] .

نؤمنُ بهم جميعًا ، ولا نفرِّق بين أحدٍ منهم في أصل الإيمان بهم كرسل وأنبياء من عند الله تعالى .

وهذه هي الأدلة على عبودية المسيح، وألوهية الله ـ سبحانه وتعالى ـ دون منازع أو شريك من أناجيل النصارى المعتبرة والمعترف بها.

ففي إنجيل يوحنا في «الإصحاح العشرين» يقول عيسى ﷺ: «إن الله هو ربي وربكم وإلهي وإلهكم» (١).

وفي إنجيل يوحنا في «الإصحاح السابع عشر» الفقرة من ١-٦ يقول عيسى ﷺ: «إن الله الواحد هو ربُّ كلِّ شيء أرسل من البشر إلى جميع العالم ليُقبلوا إلى الحق» (٢).

وفي نفس الإصحاح من إنجيل يوحنا يقول عيسى ﷺ: «إنما الحياة الباقية أن يؤمنوا بك إلهًا واحدًا، وبالمسيح الذي قد بعثت» (٣).

وفي نفس الإنجيل ـ الإصحاح العشرين ـ تقرأ نفس الكلام تقريبًا في عبارات مختلفة، لكنها تؤدي نفس المعنى، يقول عيسى ﷺ: «وهذه هي الحياة الدائمة أن يعرفوك أنك أنت الله الواحد الحقُّ، ويسوع المسيح الذي أرسلت» (٤).

وفي إنجيل لوقا في «الإصحاح الرابع»: يقول عيسى ﷺ: «إن الله مسحني وأرسلني وأنا عبد الله، وإنما أعبد الله الواحد ليوم الخلاص» (٥).

وفي إنجيل يوحنا في «الإصحاح الأول»: يقول المسيح ﷺ: «إن الله ﷻ ما أكل ولا يأكل، وما شرب ولا يشرب، ولم ينم ولا ينام، ولا ولد له ولا يلد، ولا يولد، ولا يراه أحد إلا مات» (٦).

---

(١) «هداية الحيارى» (ص٢٨٣).
(٢) المصدر السابق (٢٨٤).
(٣) المصدر السابق (٢٨٣).
(٤) نفس المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق (٢٨٤).
(٦) المصدر السابق (٢٨٤).

وهذه بعض النصوص في ألوهية الحق تبارك وتعالى وحده، وفي عبودية عيسى عليه السلام، وخذوا بعض الفقرات في أناجيلهم في نبوة عيسى، وماذا قال في نبوته - عليه وعلى نبينا السلام.

ففي إنجيل متَّى في « الإصحاح الخامس » يقول عيسى عليه السلام: « إنما جئتكم لأعمل بالتوراة وبوصايا الأنبياء قبلي، وما جئت ناقضًا؛ بل متممًا، فلأن تقع السماء على الأرض أيسر عند الله من أن أنقض شيئًا من شريعة موسى، فمن نقض شيئًا من ذلك يُدْعَى ناقضًا في ملكوت السماء »[(١)].

وفي إنجيل يوحنا في « الإصحاح الخامس » يقول المسيح عليه السلام: « لست أدين العباد، ولا أحاسبهم بأعمالهم، ولكن الذي أرسلني هو الذي يلي ذلك منهم »[(٢)].

وهذه شهادة أقرب الناس إلى المسيح، وهو بطرس - رئيس تلاميذ المسيح - الذي يقول في « سفر أعمال الرسل » (الإصحاح رقم ٢): « أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع النصارى رجلٌ قد تبرهن لكم من قِبَل الله بقوات الله وعجائب وآياتٍ صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم تعلمون ».

فإن قال عبَّاد المسيح من النصارى: إننا لا ننكر هذا، ولن نستطيع أن نجادل في نصوص ثابتة في أناجيلنا، لكن من حقنا أن نستدل على أن عيسى إله ببعض الأدلة أو بعدة أدلة، قلنا: وما هي؟! قالوا: نستدل على

(١) انظر: المصدر السابق (٢٧٥، ٢٧٦).
(٢) المصدر السابق (٢٨٤).

ألوهية عيسى ؛ لأنه لم يولد كما وُلد جميع البشر ، فهو إله !! قلنا : إن كان استدلالكم على ألوهية عيسى بذلك ؛ فإن آدم إله لعيسى ، وإن خلْقَ الله لآدم أعجز من خلقه لعيسى ؛ فعيسى خُلِقَ من أم دون أب . وآدم خلقه الله بغير أمٍّ وأب !!

وأظن الآن أن قضية استنساخ النعجة دوللي ، وأن هذه النعجة قد وُجدت الآن في عصرنا من غير أن يقرب الذَكرُ الأنثى لمن أعظم الأدلة العلمية على أن الله الذيَ علَّم الإنسان الضعيف أن يفعل ذلك قادر سبحانه على أن يفعل أعظم وأجلَّ من ذلك ـ سبحانه وتعالى .

فلو استدلوا على ألوهية المسيح بأنه خُلِقَ من أمٍّ دون أب ؛ لكان آدم أولى بالألوهية من عيسى ؛ لأنه خُلِقَ بدون أب وبدون أم ، وما الذي يجعلكم تجعلون خلق عيسى أعجز وأبلغ من خلق حواء ، فخَلْق حواء أيضًا إعجاز؛ لأن الأم التي تحمل الرحم الذي سيتكوَّن فيه الجنين موجودة وهي مريم ، لكن حواء خُلقت من غير أم ؛ فلقد خلق الله آدم بلا ذكر ولا أنثى ، وخلق الله حواء من ذكر بدون أنثى ، وخلق الله عيسى من أنثى بدون ذكر ، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى ليعلم الخلق جميعًا أن الله على كل شيءٍ قدير !!

فإن قالوا: عندنا دليل آخر على ألوهية المسيح ! قلنا : وما هو ؟!

قالوا : نستدل على ألوهية المسيح بإحياء الموتى ، ولا يحيي الموتى إلا إله ؛ قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ

وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٤٥-٤٩].

وجوابنا: أن عيسى عليه السلام ليس هو أول نبيٍّ أحيى الله الموتى على يديه بإذنه؛ فالله سبحانه يفعل ما شاء، كيف شاء، في أيِّ وقت شاء.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[البقرة:٢٦٠].

وقبلها حكى الله عز وجل قصَّة العزير، ولا أريد أن أستطرد في إحياء الموتى؛ فإن الله سبحانه يقول لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[التغابن:٧].

فالذي ابتدأ الخلق قادر على أن يعيدهم؛ بل إن الإعادة أيسر من ابتداء الخلق.

ففي «صحيح مسلم»[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلاَّ عَجْبَ الذَّنبِ، مِنْهُ خُلِقَ، وَفِيهِ يُرَكَّبُ».

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين (٢٩٥٥/ ١٤٢).

وفي «الصحيحين»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال:

«أسْرفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضرهُ المَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحَرِقُونِي. ثُمَّ اسْحَقُونِي. ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي البَحْرِ، فَوَاللهِ! لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا. قال: فَفَعلُوا ذَلِكَ بِهِ. فَقَالَ لِلأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ. فَإِذَا هُو قَائِمٌ. فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ، أو قَالَ: مَخَافَتُكَ. فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ».

فعيسى ليس أول نبيٍّ أحيا الله له الموتى؛ فلقد أحيا الله الموتى لإليا وحزقيال وأشعياء، وهم من أنبياء بني إسرائيل.

ففي سفر الملوك «الإصحاح السابع عشر»: «فقالت المرأة لإليا في هذا الوقت: علمت أنك رجلُ الله، وأن كلام الرب في فمك حق، لما أحيا لها ولدها».

وفي سفر الخروج «الإصحاح الرابع عشر»: «ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين، فخاف الشعب الرب، وآمنوا بالرب وبعبده موسى».

فإن قالوا بعد ذلك: نحنُ نستدلُّ على ألوهية المسيح بأمور أخرى!

قلنا: فما هي؟ قالوا: لأنه أتى بمعجزات فريدة؛ كإبراء الأكمه والأبرص؛ قلنا: لقد فعل النبيُّ محمد ﷺ أعظم من ذلك، وأجرى الله سبحانه على يديه من المعجزات ما هو أبلغ؛ فلقد شق الله لنبيه القمر في السماء

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ (٧٥٠٦)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى (٢٧٥٦/٢٥) وهو في «الصحيحين» البخاري (٦٤٨١) كتاب الرقاق، باب الخوف من الله، ومسلم، كتاب التوبة (٢٧٥٧) من حديث أبي سعيد.

نصفين ؛ بل لقد تعبت عين عليٍّ رضي الله عنه واشتكى الوجع حتى عجزَ عليٌّ عن المشاركة يوم خيبر ، وقال النبيُّ ﷺ : « لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ ــ أَوْ لَيَأْخُذَنَّ الرَّايَةَ ــ غَدًا رَجُلٌ يُحِبُّهُ الله وَرَسولُهُ ، وَيُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ »[1].

فاشرأبت أعناق الصحابة ، ورفعوا رؤوسهم ، وتمنَّى كلُّ صحابيٍّ أن يكون هذا الرجل .

يقول عمر [2] : « والله ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذ » ؛ فقال النبيُّ ﷺ : « أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟ » فَقَالُوا : هُوَ يَا رَسُولَ الله يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ . قَالَ : « فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ » ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَبَصَقَ رَسُولُ الله ﷺ فِي عَيْنَيْهِ ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ ، حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ . والحديث في « الصحيحين »[3].

وحنَّ الجذع لفراق النبيِّ ﷺ ، وبكى الجذع[4] ، وكلَّم الحَجَرُ رسولنا ﷺ ، والحديث في « صحيح مسلم »[5] يقول النبيُّ ﷺ : « إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ » .

وكذلك تفجر الماء من بين أصابعه ، والحديث في « صحيح البخاري »[6] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا نَعُدُّ الآيات بَرَكَةً وأنتم تَعُدُّونها

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النبيِّ ﷺ ، باب مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٠٢) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عليِّ بن أبي طالب (٢٤٠٧) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة (٢٤٠٥) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر (٤٢١٠) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة (٣٥٨٣، ٣٥٨٤) .

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبيِّ ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٧) عن جابر بن سمرة .

(٦) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة (٣٥٧٩) .

تخويفًا . كُنَّا معَ رسولِ الله ﷺ فِي سَفرٍ ، فَقَلَّ المَاءَ ؛ فَقَالَ : « اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ » ، فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ ، ثُمَّ قَالَ : « حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ المُبَارَكِ ، والبَرَكَةُ مِنَ اللهِ » فَلَقَدْ رأَيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ منْ بينِ أَصَابِعِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ » .

إلى آخر هذه المعجزات[1] .

فهل صار النبيُّ ﷺ بعد هذه المعجزات إلهًا من دون الرب العلي؟

كلَّا ! بل قال النبيُّ ﷺ لأعرابيٍّ دخل عليه فقامَ بين يديْهِ ، فأخذه منَ الرِّعْدَةِ - والحديث رواه ابن سعد في « الطبقات » ، والحاكم في «المستدرك» بسندٍ حسن[2] ، فالتفت إليه النبيُّ ﷺ وقال : « هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فإِنِّي لَسْتُ بِمَلَكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ القَدِيدَ »[3] .

وبهذا كلِّه يتبين لنا أن الاستدلال على ألوهية المسيح من كلِّ جانبٍ ، ومن كلِّ زاوية استدلالٌ باطل باطل !!

فعيسى بنصِّ القرآن يُعْلن عبوديته لله ، وبنصوص الأناجيل يعلن كذلك عبوديته لله ؛ بل وبإعمال العقل يعلن عيسى عبوديته لله تبارك وتعالى !!

قال ابن القيم رحمه الله وهو يقيم الحجة على عباد المسيح[4] :

---

(١) راجع ما جاء في ذلك باستفاضة في «صحيح الإمام البخاري» ، كتاب المناقب باب علامات النبوة ، و« صحيح الإمام مسلم » ، كتاب الفضائل ، باب في معجزات النبي ﷺ ، وكتاب « الدلائل » للبيهقي ، وأبي نعيم الأصبهاني وغيرهما ، وهناك كتاب نفيس لعالم من علمائنا ، وهو « الصحيح المسند من دلائل النبوة » للشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٦٦) ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين » . ووافقه الذهبي ، وابن سعد في « الطبقات » (١/ ٢١) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (١٨٧٦) .

(٣) القديد : اللحم المملوح المجفف في الشمس . « النهاية » لابن الأثير (٤/ ٢٢) .

(٤) « إغاثة اللهفان » لابن القيم (ص ٦٩٥) ط دار ابن رجب .

أَعُبَّـادَ المَسِيحِ لَنَا سُؤَالٌ ... نريد جوابه ممن وعاهُ
إذا مـاتَ الإلـه بصُنْعِ قوم ... أماتوه فما هذا الإله ؟
وَهَلْ أرضاه ما نَالُوه منه ؟ ... فبشراهم إذا نالوا رضاهُ
وَإنْ سَخِطَ الذي فَعَلُوه فيه ... فَقُوَّتُهُمْ إذًا أوهت قواهُ
وهل بَقِي الوُجُودُ بلا إله ... سميع يستجيب لمن دعاه ؟
وهل خَلَتِ السَّبعُ الطِّباقُ لَمَّا ... ثَوى تحت الترابِ ، وقد عَلاهُ
وَهَلْ خَلَتِ العَوَالِمُ مِن إله ... يُدَبِّرها ، وقد سُمِرَتْ يداه ؟
وَكَيْفَ تَخَلَّتِ الأملاكُ عنه ... بنصرهم ، وقد سمعوا بكاه ؟
وَكَيْفَ أطاقت الخشبات حمل الإله ... الحق مشدودًا قفاه ؟
وكيف دنا الحديد إليه حتَّى ... يُخَالطه ، ويَلْحَقَهُ أذاهُ؟
وكيف تمكنت أيدي عِداهُ ... وَطَالَت حيثُ قد صَفَعُوا قَفَاهُ؟
وهل عاد المسيح إلى حَيَاةٍ ... أم المُحْيِي لَهُ ربٌّ سواهُ ؟
ويا عجبًا لقبرٍ ضَمَّ رَبًّا ... وَأَعْجَبُ منه بطنٌ قَدْ حَوَاهُ
أقامَ هُنَاكَ تسعًا من شهورٍ ... لدى الظلمات من حيضٍ غَذَاهُ
وشقَّ الفَرْجَ مَوْلُودًا صغيرًا ... ضعيفًا ، فاتحًا للثدي فاهُ
ويأكُلُ ، ثم يشرب ، ثم يأتي ... بلازم ذاك ، هل هذا إلهُ ؟
تعالى الله عن إفْكِ النصارى ... سَيُسْأَلُ كلُّهم عما افْتَرَاه
أَعُبَّادَ الصليبِ ، لأي مَعْنَى ... يُعَظَّمُ أوْ يُقَبَّحُ مَنْ رَمَاهُ ؟
وَهَل تقضي العقول بغير كسرٍ ... وإحراق له ، ولمن بَغَاهُ ؟

إذا ركب الإلـه عليـه كرْهًـا   وقـد شُـدَّتْ لتَسْـمِيرٍ يـداه
فـذاك المركـب الملعـون حقًّـا   فَدُسْـهُ ، لا تَبُسْـهُ إذ تـراهُ
يُهَـانُ عليـه ربُّ الخلـق طُـرا   وتعبُـدُهُ ؟ فإنـك مِـنْ عِـدَاهُ
فـإن عظمتـه مـن أجـل أن قـد   حَوَى رَبَّ العِبَادِ، وقـد عـلاه
وَقَدْ فقـد الصـليب ، فـإن رَأَيْنَـا   لـه شَـكْلًا يُـذَكِّرُنا سَـنَاهُ
فَهَـلاّ للقبـور سَـجَدْتَ طُـرا   لِضـمِّ القبرِ رَبَّكَ في حَشَاهُ ؟
فَيَـا عَبْـدَ المسيح أَفِـقْ ، فهـذا   بِدَايَتُـهُ ، وَهـذا مُنْتَهَـاهُ

فالإسلام هو الدين الحق ، وعيسى هو رسولٌ حقًّا ، من إله حق ؛ فعيسى عبد الله ورسوله ليس بإله ، وليس ابنا للإله ؛ إنما هو عبد الله ورسوله .

ففي « الصحيحين »[(١)] من حديث عبادة بن الصامت ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إلاَّ الله ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ ،وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ ، والنَّارَ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ » .

وفي رواية مسلم : « أَدْخَلَهُ الله مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجنةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ » .

وفي رواية عتبان بن مالك ﷺ : « فَإِنَّ الله قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إلاَّ الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله ﷻ »[(٢)] .

وفي « صحيح مسلم »[(٣)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال :

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (٤٧) (رقم :٣٤٣٥) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٢٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التهجد ، باب صلاة النوافل جماعة (١١٨٥ و ١١٨٦) ومسلم كتاب الإيمان (٣٣) ـ مختصرًا .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١٥٣) .

« وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » .

فنحن نؤمن بعيسى ، ونؤمن بمحمد ﷺ؛ فهل يؤمنون بمحمد كما يؤمنون بعيسى ؟ ونؤمن بأن عيسى عبد الله ورسوله ، وأنه ليس إلهًا ولا ابن إله ، ودين الإسلام هو الدين الناسخ لجميع الملل ؛ فليس عند الله نصرانية ولا يهودية ؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩] .

فعيسى عليه السلام جاء بالإسلام ، كما جاء نوح عليه السلام بالإسلام ؛ فقال تعالى ـ حكاية عنه : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[يونس:١٩] .

وجاء إبراهيم بالإسلام ؛ فقال تعالى ـ حكايةً عنه : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٠ـ١٣٢] .

وجاء يعقوب بالإسلام ؛ كما قال تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٣] .

وجاء يوسف بالإسلام ؛ كما قال تعالى ـ حكايةً عنه : ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف:١٠١] .

وجاء سليمان بالإسلام ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٠، ٣١] .

وجاء موسى بالإسلام ؛ قال تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤] .

وجاء عيسى بالإسلام ؛ قال تعالى : ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢] .

وجاء لبنة التمام ومسك الختام بالإسلام ؛ فقال ربنا تبارك وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] .

فالإسلام هو المنة الكبرى ، والنعمة العظمى التي لا يملكها إلا الله ، ولا يمنحها إلا لمن يعلم أنه أهلٌ لهذا الفضل العظيم .

وقبل أن أتحدث عن نزول عيسى عليه السلام يجب أن أتحدث عن رَفْعِهِ عليه السلام . وقد بيَّن الله في القرآن هذه العقيدة بيانًا واضحًا ، وحسم هذه القضية حسمًا قاطعًا ؛ فقال سبحانه تعالى : ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٦ـ١٥٩] .

فهذه هي قضية رفع عيسى عليه السلام في القرآن ؛ فاليهود ما قتلوا عيسى

وما صلبوه ! بل ألقى الله ﷻ شَبَهَ عيسى عليه السلام على هذا الخائن يهوذا الإسخريوطي أو غيره ـ كما سأبين ـ ورفع الله تبارك وتعالى عيسى ابن مريم إليه ؛ ليكون علامةً من علامات الساعة الكبرى ؛أي : بتنزيله إلى الأرض مرةً أخرى ، وحكمه بشريعة محمدٍ ﷺ ، فهذا هو بيان القرآن.

فما هو معتقد اليهود والنصارى في هذه القضية ؟

أما اليهود الخبثاء ؛ فقالوا : بأنهم قتلوا عيسى ابن مريم بعدما صلبوه !! أما النصارى فيزعمون أن المسيح عليه السلام صُلِب وقُتل ودُفن ، ولكنه قام من قبره بعد ثلاثة أيام ، وصعد إلى السماء ،وجلس عن يمين أبيه ، وسيجيء تارة أخرى للقضاء بين الأحياء والأموات (يوم القيامة) ؛ فهذه عقيدة النصارى !!

والعجيب أن الأناجيل الأربعة الرسمية التي يُعترف بها عند النصارى قد تناقضت تناقضًا واضحًا في قضية الصلب والرفع ، وهذا التناقض لَمِنْ أعظم الأدلة العلمية على تخبط النصارى في هذه القضية الخطيرة الشائكة .

فمن المعلوم أن أناجيل النصارى الرسمية هي : إنجيل يوحنا ، وإنجيل مَتَّى ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل مرقص .

فهذه هي الأناجيل الأربعة المعترف بها عند النصارى ، وهذه الأناجيل تروي قصة القبض على المسيح عليه السلام وصلبه ، وقتله ، ودفنه ، وقيامته من القبر !!

تروي هذه الأناجيل تلك القصة بصورة تؤكد معتقد النصارى في ذلك ، إلا أن الله تبارك وتعالى يأبى إلا أن يظهر الحق ، ويزهق الباطل ،

فرأينا أن هذه الأناجيل الأربعة قد تناقضت في هذه القصة تناقضًا يبين كذبها من الأصل ، وسأضرب مثالًا واحدًا على تناقض هذه الأناجيل في سَردِ هذه الروايات المكذوبة من الأصل بين إنجيلين من هذه الأناجيل.

أولًا : إنجيل متى : يقول على لسان يهوذا الإسخريوطي اليهودي الذي دلَّ اليهود على عيسى ﷺ بأنه قال لليهود الذين يريدون قتل عيسى ﷺ قال لهم : الذي أُقَبِّلُهُ هو هو فأمسكوه ، وتقدم يهوذا إلى يسوع ، وقال : السلام عليك يا سيدي وقبَّلَه ، حينئذٍ تقدَّموا إلى يسوع وأمسكوه .

ثانيا: رواية إنجيل يوحنا ، تقول : « فخرج يسوع وهو عالمٌ بكلِّ ما يأتي عليه ، وقال لهم : من تطلبون ؟ قالوا : عن يسوع ؛ فقال : أنا هو فأخذوه»[1] .

وخذوا هذه الكلمات الدقيقة جدًّا من رجلٍ متخصص في المسيحية ـ وهذا على حدِّ قولهم ـ وهو الأستاذ شار جنيير يقول في كتابه «المسيحية ، نشأتها ، وتطورها » : « وهكذا لم نعد نميز في وضوح الجوانب التاريخية لشخصية عيسى ، ولم نعد نملك المراجع اللازمة لتحديد أحداث حياته بدقة » ! والحقُّ ما شهدت به الأعداء .

ويقول في قضية دعوى الصَّلْب في نفس الكتاب : « ومن المرجح كذلك أن الأحداث الخاصة بالصلب كانت قد فقدت الكثير من وضوحها في ذاكرة المؤمنين قبل تحرير الأناجيل ، وأنها تأثرت بالأساطير المختلفة الشائعة ، ثم إنها فسرت تفسيرات غيرت وجددت في جوانب كثيرة أساسية منها » .

---

(١) انظر : « هداية الحيارى » (١٤٦) ط الجامعة الإسلامية ، بالمدينة .

ومن خلال هذا ؛ فإن أيَّ باحث يجد نفسه مساقًا من الناحية التاريخية أن ينقل في هذه القضية الشائكة رواية إنجيل برنابا. وإنجيل برنابا لا يُعترف به عند النصارى ؛ لأن رواية إنجيل برنابا هي الرواية الوحيدة المنسوبة لتلميذٍ مباشر من تلاميذ المسيح ، ألا وهو : برنابا ؛ فهو من حواري المسيح المقربين .

وهذه هي رواية إنجيل برنابا ؛ فماذا قالت ؟ قالت: « والذي أخبر بالحقيقة في أن المسيح عليه السلام قد رُفع ، ووافق روايته ما جاء في القرآن الكريم ، وأن الذي صُلِب هو يهوذا الإسخريوطي الخائن الذي أخذ اليهودَ ليدلَّهم على نبيِّ الله عيسى ، فابتلاه الله ، فألقي عليه شبهَهُ ، فأخذه اليهودُ فقتلوه وصلبوه » .

روى ابن أبي حاتم في «تفسيره» والنسائيُّ في «الكبرى» بسندٍ صحَّحهُ الحافظ ابن كثير في «تفسيره» لسورة النساء [١] ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « لَمَّا أَرَادَ الله سُبْحَانَهُ أَنْ يَرْفَعَ عِيْسَى عليه السلام إِلَى السَّمَاءِ ، خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ إِلَى البَيْتِ ، وَفِي البَيْتِ اثنا عَشَر رَجُلًا مِنْ الحواريين ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ ورَأْسُهُ يقطرُ ماءً ، وَقَالَ : إِنَّ مِنكُمْ مَنْ يَكْفُر بِي بَعْدَ أَنْ آمن بي ، ثُمَّ قال : أَيُّكُمْ يَقبلُ أَنْ يُلْقَى عليه شَبَهِي ، فيُقْتل مكاني ، فيكُونَ معي في دَرَجَتِي (في الجنة) ؟ فقام شابٌّ مِنْ أحدثِهم سِنًّا ، فَقَالَ أَنَا ، فَقَالَ لَه عِيسَى : اجْلِسْ ، ثمَّ أعادَ عَلَيهم (عيسى قولته مرة ثانية) ، فَقَام (ذلك

---

(١) أخرجه النسائيُّ في « الكبرى » في (التفسير ، سورة الصف) (١١٥٢٧) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (سورة النساء :١٥٧) (٦٢٣٣) ، وصححه ابن كثير في (تفسير سورة النساء) (١/ ٤٩٣) فقال : « وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى ابن عباس » .

الشاب) ، فَقَالَ لَهُ عيسَى : اجْلِسْ ، ثُمَّ أَعَادَ عيسَى عَلَيْهِم (قولته مرة ثالثة) ، فَقَام إليه الشَّاب ، فَقَالَ لَهُ عيسَى : نَعَم أَنتَ ، فَألقَى عَليه شَبهَ عِيسَى ﷺ ، ثُمَّ رُفعَ عِيسَى مِنْ روْزنةٍ[1] كَانَتْ في البَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ ، فَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ اليَهُودِ ، فَأَخذُوا الشَّابَّ للشَّبهِ ، فَقتَلُوهُ ، ثُمَّ صَلَبُوهُ ، فَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمْ بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ ، وَافْتَرَقُوا ثَلاثَ فِرَقٍ ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ فِينَا اللهُ ﷻ مَا شَاءَ ، ثُمَّ صَعَدَ إِلَى السَّمَاءِ ، وَهَؤُلَاءِ اليَعْقُوبِيَّةِ ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ فِينَا ابْنُ الله مَا شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ، وَهَؤُلَاءِ النَّسْطُورِيَّة .

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ فِينَا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ الله ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ، وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ ، فَتَظَاهَرَتِ الفِرْقَتَانِ الْكَافِرَتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ ، فَقَتَلُوهَا ، فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ [الصف:١٤] ، يعني : الطَّائِفَةَ التي كَفَرَتْ فِي زَمانِ عِيسَى ﷺ والطَّائِفَة الَّتي آمَنَتْ في زَمانِ عِيسى ، ﴿ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ ﴾ [الصف:١٤] ، بِإِظْهَارِ مُحَمَّدٍ ﷺ دِينَهُم عَلَى دِينِ الكُفَّار ﴿ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف:١٤] » ، فبيَّن النبيُّ ﷺ الحقَّ الذي لا مِرَاءَ فِيهِ ، وبيَّن لنا أن الله تبارك وتعالى سيُنْزِلُ عيسى بين يدي الساعة ، ليرد على هؤلاء اليهود الفجرة الذين زعموا أنهم قتلوه وصلبوه ، وليقتل رئيسَ اليهود وزعيمَهُم المسيحَ الدَّجَّالَ ، وليكذِّب عيسى ابنُ مريم النصارى كذلك ، وليحطِّم هذا الصليب الذي لو عقل عاقل ما قدَّسه ! فكيف يُقدَّسُ صليبٌ صُلِبَ عليه الإله بزعمهم ؟! ويكسِّر عيسى الصليبَ الذي تعلَّقوا به بطلانًا وافتراءً

---

(١) الروزنة : الكُوَّة ، أو : الخرقُ في أعلى السقف ، ويقال للكُوَّة : النافذة . (لسان : مادة رَزَنَ) .

وعبدوه من دون الله ﷻ ؟! وليؤكد عيسى ابنُ مريم للدنيا كلِّها بأن الدين عند الله الإسلام ، وأن محمدًا ﷺ والموحدين من أمته هم أولى الناس بعيسى ابن مريم ، ولذا فإنه يبقى في الأرض إلى حيث أراد الله أو إلى الوقت الذي يريده الله تبارك وتعالى يحكم الأرض كلَّها بشريعة محمد ﷺ .

فتدبَّر هذه الروايات الصحيحة التي تبين لنا نزول عيسى ابن مريم ، كعلامة من العلامات الكبرى .

ففي «صحيح مسلم» (١) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ أخبر أن الله تبارك وتعالى يُنْزِلُ عيسى عليه السلام آخر الزمان ، وسيأتي الحديث بطوله ـ إن شاء الله .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف:٦١] ؛ فهذه الآيات ذكرها الله تبارك وتعالى بعد ما تكلَّم عن نبيه عيسى عليه السلام في سورة الزخرف : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [الزخرف:٥٧]. فذكر الله قوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أي : أمارة للساعة ، ودليل على قربها .

وفي « مسند أحمد »(٢) بسند حَسَنٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في هذه الآية : « هو خروج عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة » .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ [النساء:١٥٩] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الرجال (٢٩٣٧) في سياق طويل ، وسيأتي بطوله قريبًا ـ إن شاء الله.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣١٧، ٣١٨) .

وروى ابن جرير (١) عن ابن عباس رضي الله عنهما بسندٍ صحيح أنه قال : « أي : قبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام » .

وقد وضَّحت الأحاديث الصحيحة المتواترة هذه النصوص القرآنية توضيحًا جليًا .

ففي «الصحيحين» (٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلاً مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » .

ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:١٥٩] .

والنبيُّ ﷺ قد حدَّد المكان الذي سينزل فيه عيسى ابن مريم من السماء ، كما في الحديث الذي رواه مسلم (٣) من حديث النواس رضي الله عنه وهو عند الطبراني في « المعجم الكبير » من حديث أوس بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : « يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ » .

وسنعجب إذا علمنا أن النبيَّ ﷺ قد وصف شَكْلَهُ وثوبه الذي سينزل به من السماء .

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » لسورة النساء (آية :١٥٩) ، (١٠٧٩٤، ١٠٧٩٥) ط أحمد شاكر .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام (٣٤٤٨) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ (١٥٥) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن (٢٩٣٧) وسيأتي مطولًا ، ورواه الطبرانيُّ في « المعجم الكبير » (١٩٦/١٩) ، والبخاريُّ في « تاريخه الكبير » (٧/ ٢٣٤) معلقًا ، وصححه العلامة الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٨١٦٩) .

ففي الحديث الذي رواه أبو داود [١] بسندٍ صحيحٍ بالشواهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ عِيسَى نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ ؛ إنه رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْـحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، يَنْزِلُ بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ [٢] كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ ، فَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الإِسْلاَمِ ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلاَّ الإِسْلاَمَ ، وَيُهْلِكُ الْـمَسِيحَ الدَّجَّالَ ، فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ يُتَوَفَّى ، فَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ ».

لكن في رواية مسلم [٣] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ » .

فكيف الجمع بين رواية أبي داود وبين رواية مسلم؟

والجمع كما قال الإمام ابن كثير ــ رحمه الله تعالى ــ في « تفسيره لسورة النساء » [٤] : « أن المراد بالأربعين أنها مدة إقامة عيسى في الأرض قبل الرفع وبعد الرفع ، فمن الراجح أن عيسى رفع في الثالثة والثلاثين من عمره ، فينزل إلى الأرض ليمكث فيها سبع سنين ، ليكتمل عمره أربعين سنة قضاها في الأرض قبل الرفع وبعده » .

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب خروج الدجال (٤٣٢٤) ، وأحمد (٢/ ٤٠٦، ٤٣٧) والحاكم (٢/ ٥٩٥) وفي سنده انقطاع ؛ لكنه صحيح بالشواهد ، وقد صححه الحافظ ابن كثير في نهاية « الفتن » (ص١١٤) ، والحافظ ابن حجر في « الفتح » (٦/ ٤٩٣) ــ وانظر تحقيق « المسند » (١٥/ ١٥٤) ط الرسالة .

(٢) أي : ثوب لونه أصفر خفيف .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن ، باب خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى (٢٩٤٠) في حديث طويل .

(٤) انظر : « تفسير ابن كثير » (تفسير سورة النساء : ١٥٩) .

وقد مضى جمع آخر وهو أن السبع سنين هي التي يمكثها الناس في الأرض لقوله: «ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ» أما عيسى فسيمكث أربعين سنة، والله أعلم.

وفي «صحيح مسلم»[1] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا؛ فَيَقُولُ: لاَ، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ الله هَذِهِ الأُمَّةَ».

وفي «صحيح مسلم»[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ، يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فَأَمَّهُمْ».

وفي لفظِ «الصحيحين»[3] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ؟».

وفي لفظٍ لمسلم[4]: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ فَأَمَّكُمْ مِنْكُمْ».

أي: أَمَّكُمْ بكتاب ربكم وسنة نبيكم ﷺ.

فهذه أحاديث صريحة تبين نزول عيسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ بين يدي الساعة، ثم يقوم نبيُّ الله عيسى بالتوجه إلى بيت المقدس، حيث حاصر الدجالُ المسلمين وفتنهم فتنة عظيمة!!

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا ﷺ (١٥٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب في فتح قسطنطينية وخروج الدجال (٢٨٩٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام (٣٤٤٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم (١٥٥/ ٢٤٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٥٥/ ٢٤٦).

ففي « صحيح مسلم » [(١)] من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه ـ وفيه : أن النبيَّ ﷺ قال : « فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ ـ أي : الدجال ـ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ ـ ثوبين مصبوغين يميل لونهما إلى الصفرة ـ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ ، وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ عِنْدَ بَابِ لُدٍّ [(٢)] فَيَقْتُلُهُ ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ ، فَيَمْسَحُ عِيسَى عَنْ وُجُوهِهِمْ ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَيه : أَنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ ، فَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَاءٌ ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ ـ أن يُخلصهم الله من شرهم ـ فَيُرْسِلُ اللهُ عز وجل عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ ـ وهي دودة صغيرة تخرج من أنف الإبل ـ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ... » إلى آخر الحديث.

وهكذا يُطَهِّر الله الأرض من شرِّ الدجال ، ومن شر يأجوج ومأجوج ، وتشهد الأرض في عهد عيسى عليه السلام حالةً فذَّةً في التاريخ كلِّه من يوم

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال (٢٩٣٧) وتقدم قريبًا .

(٢) وهو مطار تل أبيب .

أن خلق الله الأرض إلى يوم أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ، يعيش الناس في خيرٍ ، وأمنٍ ، وسلامٍ ، ونعمةٍ ، ورخاءٍ ، وتُخرج الأرض في هذه اللحظات والسنوات بركتها ، ويفيض المال ، وتذهب الشحناء والبغضاء والتحاسد .

ففي حديث النواس ﷺ ـ السابق ـ أن النبيَّ ﷺ ، قال : « ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ : أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ من النَّاسِ مِنَ الرُّمَّانَةِ الوَاحِدَةِ ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا ـ أي : قشرتها ـ وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ ـ أي : اللبن ـ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ ـ أي : قريب العهد بالولادة من الإبل ـ لَتَكْفِي الْفِئَامَ ـ أي : الجماعة الكبيرة ـ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ ـ أي : الجماعة والأقارب دون القبيلة ».

وفي الحديث الذي رواه أحمد في « مسنده »[1] ، وصحَّحه الحافظ ابن حجر من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِ عِيسَى الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلاَّ الإِسْلاَمَ ، وَيُهْلِكُ اللهُ الْـمَسِيحَ الدَّجَّالَ ، وَتَقَعُ الأَمَنَةُ فِي الأَرْضِ حَتَّى يَرْتَعَ الأُسُودُ مَعَ الإِبِلِ ، وَالنِّمَارُ مَعَ الْبَقَرِ ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ ، وَيَلْعَبَ الصِّغَارُ مَعَ الْحَيَّاتِ ؛ لاَ تَضُرُّهُمْ ، فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ يُتَوَفَّى ، فَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْـمُسْلِمُونَ » .

وفي رواية مسلم[2] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « .. وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ ، وَالتَّحَاسُدُ ، وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَى الْـمَالِ فَلاَ يَقْبَلُهُ أَحَدٌ ».

---

(١) سبق قريبًا .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ (١٥٥/٢٤٣) .

وفي رواية أبي أمامة رضي الله عنه عند ابن ماجه وابن خزيمة والحاكم بسندٍ صحيحٍ لغيره [(١)]، وفيه: أن النبيَّ ﷺ قال: «فَلاَ يُسْعَى [(٢)] عَلَى شَاةٍ، وَلاَ بَعِيرٍ، وَتُرْفَعُ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ. وَتُنْزَعُ حُمَةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَةٍ ـ أي: سم الأفاعي والعقارب ـ حَتَّى يُدْخِلَ الْوَلِيدُ يَدَهُ فِي فِيِّ الْحَيَّةِ، فَلاَ تَضُرُّهُ، وَتُفِرُّ ـ تحمله على الفرار ـ الْوَلِيدَةُ الأَسَدَ فَلاَ يَضُرُّهَا، وَيَكُونُ الذِّئْبُ فِي الْغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا، وَتُمْلأُ الأَرْضُ مِنَ السِّلْمِ كَمَا يُمْلأُ الإِنَاءُ مِنَ الْمَاءِ، وَتَكُونُ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً، فَلاَ يُعْبَدُ إِلاَّ الله، وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ـ أي، أثقالها وشدتها ...» الحديث بطوله.

يا لها من حياة طيبة كريمة! ولذلك تمنَّى النبيُّ ﷺ أن يعيش في هذه الأيام. وقال ﷺ: «طُوبَى لِعَيْشٍ بَعْدَ الْمَسِيحِ، طُوبَى لِعَيْشٍ بَعْدَ الْمَسِيحِ ـ أي: بعد نزوله ـ يُؤْذَنُ لِلسَّمَاءِ فِي الْقَطْرِ ـ المطر ـ وَيُؤْذَنُ لِلأَرْضِ فِي النَّبَاتِ، فَلَوْ بَذَرْتَ حَبَّكَ عَلَى الصَّفَا ـ الصخرة الملساء ـ لَنَبَتَ، وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الأَسَدِ فَلاَ يَضُرُّهُ، وَيَطَأَ عَلَى الْحَيَّةِ فَلاَ تَضُرُّهُ، وَلاَ تَشَاحَّ ـ لا معاداة ـ وَلاَ تَحَاسُدَ، وَلاَ تَبَاغُضَ». والحديث رواه الديلميُّ والضياء المقدسيُّ في «المنتقى من مسموعاته بمرو»، وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ [(٣)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه، في الفتن، باب فتنة الدجال، وخروج عيسى ابن مريم (٤٠٧٧) في سياقٍ طويل، وابن خزيمة والحاكم؛ كما في «صحيح الجامع» (٧٨٧٥)، وانظر: «ضعيف ابن ماجه» (ص٣٢٩ـ٣٣٣) و«ظلال الجنة في تخريج السنة» (٣٩١). وله شواهد عند أحمد (٢/ ٤٨٣) عن أبي هريرة مرفوعًا، وصححه الشيخ الأرناؤوط.

(٢) قال في «النهاية»: يترك زكاتها؛ فلا يكون لها ساعٍ.

(٣) أخرجه الديلميُّ (٢/ ١٦١) والضياء في «المنتقى» (١٢٧/ ١، ٢) وأبو بكر الأنباري في «حديثه» (جـ١ ورقة ٦/ ١، ٢)؛ كما في «الصحيحة» (١٩٢٦) للعلامة الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ باب: «طيب العيش بعد نزول عيسى عليه السلام».

العلامة الثالثة : يأجوج ومأجوج

إن يأجوج ومأجوج أمَّتان من البشر من ذرية آدم ﷺ يتَّصِفُون بالكثرة الكاثرة ، والاجتياح المروِّع ، والإفساد ،والتخريب ، والتدمير في الأرض !!

ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ؛ قال المحققون من أهل اللغة : وهما مشتقان من أجيج النار ، ومن الماء الأجاج ، وهو الماء شديد الملوحة والشديد الحرارة أيضًا ؛كما في «النهاية» (١) .

ولقد أخبرنا النبيُّ ﷺ أن جلَّ بعث النار من هاتين الأمتين يوم القيامة .

ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم (٢) من حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « يَقُولُ الله تَعَالَى : يَا آدَمُ ، فَيَقُولُ آدَمُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ الله : أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ ، فَيَقُولُ آدَمُ : وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ فَيَقُولُ الله ﷻ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ - إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الجَنَّةِ » .

يقول النبيُّ ﷺ : « فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ » .

---

(١) انظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ٢٥ مادة : أجج . ط مكتبة التوعية)، و «لسان العرب» (١/ ٣٠ أجج) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ [الحج :١] (٦٥٣٠) (٣٣٤٨) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله : « يقول الله لآدم أخرج بعث النار » (٢٢٢) .

وفي رواية : قَالُوا : « يَا رَسُولَ الله ، إِذَا أُخِذَ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فَمَاذَا يَبْقَى »؟[1].

وفي رواية : فَبَكَى أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَبْشِرُوا ، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ » ، ثُمَّ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لأَرْجُو - وفي رواية : «إِنِّي لأَطْمَعُ»- أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا .وفي رواية : « فَحَمِدْنَا الله وَكَبَّرْنَا » فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ فِي الثالثة « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ». فَكَبَّرْنَا.

ونستطيع بيسرٍ أن نتبين حقيقة هاتين الأمتين من حوار القرآن مع مَلِكٍ مؤمنٍ عادلٍ صالحٍ ، يقال له : ذو القرنين الذي حمى أمة من الأمم في عصره من هاتين الأمتين المفسدتين : يأجوج ومأجوج .

ودُونك هذا الحوار البديع :

قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب الحشر (٦٥٢٩) عن أبي هريرة .

عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف: ٨٣ـ ٩٨].

وأودُّ بدايةً أن أوصل ما أصّلتُ في الجزئية الأولى من أن كلامًا كثيرًا لا قدم له ولا ساق من الصحة قد شُحِنَت به الكتب عن ذي القرنين !

واختُلِف في اسمه ابتداءً ؛ فرُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما [1] : أن ذا القرنين رجلٌ اسمه عبد الله بن الضحاك بن معد ، وقيل : مصعب بن عبد الله بن قِنان من الأزد ، ثم من قحطان ، وقيل : غير ذلك .

ولماذا سُمِّي بذي القرنين ؟

يقال [2]: لأنه بلغ المشرق والمغرب من حيث تطلع الشمس بين قرني شيطان ؛ وقد أنشد بعضُ الحِمْيَرِيِّين في ذلك شعرًا فقال :

قد كان ذو القرنين جدِّي مسلمًا ملكًا تدين له الملوك وتُحشد
بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب أمْرٍ من حكيم مُرْشِد

---

(١) أورده الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » (٢/ ١١٩) ط ابن رجب ، وعزاه للزبير بن بكار .

(٢) « تفسير ابن كثير » ، عند هذه الآيات المتقدمة من سورة الكهف (الآية ٨٣ وما بعدها).

وقيل غير ذلك [1] ، والله أعلم بالصواب .

لكن الذي يجب أن نؤمن به ، وأن نكتفي به هو : أن ذا القرنين رجلٌ مؤمن صالح من ملوك الأرض ، آتاه الله ﷻ من كلِّ أسباب القوة ، فكان رجلًا ورِعًا ذكيًّا تقيًّا ، استطاع أن يوظِّف هذه الأسباب لنصرة دين الحق تبارك وتعالى .

ولا ينبغي لأحدٍ يحترم عقله وعلمه أن يتجاوز البتة ما ذكره القرآن في ذي القرنين ؛ إذ لو علم الله في الزيادة ـ عمَّا سطره في القرآن ـ خيرًا لزاد سبحانه وتعالى ،ولو علم النبيُّ ﷺ في الزيادة عمَّا نقل إلينا في السنة الصحيحة خيرًا لزادَ لنا .

فالنصُّ القرآنيُّ لم يذكر شيئًا كثيرًا عن شخصية ذي القرنين ، وهذه سمةٌ بارزةٌ في قصص القرآن الكريم ؛ فالتسجيلُ التاريخيُّ ليس مقصودًا في القرآن في الجملة ،وإنما المراد توضيح العظة والعِبْرَة بعد تأصيل العقيدة ، والذي يجزم بتحديد شخصية ذي القرنين لا يحترم عقلًا ولا علمًا ،ولا يقف عند دليل صحيح ؛ بل ولا يستطيع أحدٌ مدقِّقٌ أن يحدد على وجه الجزم والقطع رحلاته الثلاث التي ذكرها القرآن ، ولا أن يحدد مكان السدِّ الذي بناه .

وعلى هذا فلا حاجة أبدًا في ذِكْرِ الأقوال الكثيرة المختلفة للمؤرخين التي لا دليل عليها ، ولنقف أمام النص القرآنيِّ ، وأمام النص النبويِّ ؛ لنأخذ العظة والعبرة من ناحية ،ولنتعرف على المعنى القرآني من أقوال أئمة المفسرين من ناحية أخرى دون إسراف في الخيال ، أو جريٍ وراءَ الإسرائيليات والأساطير والأوهام ، وآيات القصة باختصار، كما قال الله سبحانه وتعالى

(١) انظر : « تفسير الطبري » (٨/ ٢٧١) لسورة الكهف .ط دار الكتب .

لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾[الكهف:٨٣] .

والآية تبين أن هناك سؤالًا طُرِحَ على النبيِّ ﷺ من مشركي مكة فأنزل الله ﷻ القرآن على نبيه ﷺ ، يقول سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ وهذه اللفظة ، كما يسميها علماء اللغة والتفسير ﴿ قُلْ ﴾ التلقينية ، أي : تؤكد هذه اللفظة أن القصة ليست من عند رسول الله ﷺ ؛ بل هي وحي من عند الله ﷻ .

و﴿ مِّنْ ﴾ هنا في قوله: ﴿مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ تبعيضية؛ أي:لم أقص عليكم كلَّ قصة ذي القرنين ؛ بل سأقصُّ عليكم من قصته شيئًا من ذلك .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾[1] [الكهف:٨٤] ، أي : وسَّعْنَا مملكته في البلاد ، وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به ما يحاوله من المهمات العظيمة والمقاصد الجسيمة[2] .

فلقد أعطاه الله ﷻ سلطانًا عظيمًا ، وهيأ له أسباب الحكم والفتح والنصر ، والتمكين في الأرض مُسْنَدٌ لخالق السماوات والأرض ؛ فمن الذي مكَّن ؟ إنه الله ﷻ .

وهذه القاعدة البيانية تؤصِّلُ قاعدةً إيمانيةً عقدية ، وهي : أنه لا تزول دولة ، ولا تسود دولة ، ولا يزول حاكم ، ولا يسود حاكم إلا بأمر الله تبارك وتعالى ، الذي يدبر الأمر ، والكون كلِّه .

ولذلك لما جاء رجل لعليٍّ بن أبي طالب ﷺ ، وقال : لماذا وقعت الفتنة في عهدك ولم تقع في عهد أبي بكر وعمر ﷺ ؟ فقال عليٌّ : لأن أبا بكر وعمر ﷺ كان أحدهما واليًا على مثلي ، أما أنا فوالٍ على مثلك !!

---

(١) وقد استدل قوم على نبوته بهذه الآية ، وهو غير ناهض لدعواهم ، والله أعلم .

(٢) انظر : « البداية والنهاية » لابن كثير (٢/ ١٢٠) .

فما ورد لفظ التمكين في القرآن كلّه إلا ونُسِبَ إلى الله سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦] ؛ فأخذ ذو القرنين بجميع الأسباب والوسائل التي هيأها الله ﷻ ، حيث قال تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف:٨٥] ، أي : طريقًا في الأرض ما بين المشرق والمغرب ، فسار ذو القرنين في الأرض التي مُكِّن له فيها (١) .

وتبدأ رحلة ذي القرنينِ الأولى وهي نحو الغرب ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ [الكهف:٨٦] . ومن المعلوم أن الشمسِ ليس لها مشرقٌ واحدٌ ولا مغربٌ واحد ؛ بل لها مشارق ومغارب ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ [المعارج:٤٠] .

فالشمس لها عدة مشارق ، وعدة مغارب ، باعتبار فصول السنة وشهورها وأيامها ، وباعتبار المطالع ، بحسب التوقيت الذي تخرج منه الشمس إلى أن تستوي في كبد السماء ، فمغربُ الشمس في الآية هو المكان الذي يرى فيه الرائي أن الشمس فيه تغرب ؛ فهذا مغرب الشمس لذي القرنين .

وأجاد في هذه اللطيفة القرآنية العلامة الشنقيطي في كتابه النفيس :

---

(١) انظر : « تفسير الطبري » (٨/ ٢٧٢، ٢٧٣) ط الكتب العلمية .

« دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » ؛ حيث قال[1] : « قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ الآية [البقرة:١١٥] ، أفرد في هذه الآية المشرق والمغرب .

وثنَّاهما في سورة الرحمن في قوله تعالى : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن:١٧]

وجمعهما في سورة : سأل سائل ، في قوله : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ... ﴾ [المعارج:٤٠] .

وجمع المشرق في سورة الصافات في قوله : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ [الصافات:٥] .

والجواب : أن قوله هنا: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ... ﴾ المراد به جنس المشرق والمغرب ، فهو صادق بكل مشرق من مشارق الشمس التي هي ثلاث مائة وستون ، وكل مغرب من مغاربها التي هي كذلك ، كما رُوِيَ عن ابن عباس وغيره .

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية ما نصُّه : « وإنما معنى ذلك : فلله المشرق الذي تشرق منه الشمس كلَّ يوم ، والمغرب الذي تغرب فيه كلَّ يوم ؛ فتأويله : إذا كان ذلك معناه : « ولله ما بين قطري المشرق ، وقطري المغرب إذا كان شروق الشمس كلَّ يوم من موضع منه ، لا تعود لشروقها منه إلى الحلول الذي بعده ، وكذلك غروبها » ، انتهى منه بلفظه .

وقوله : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ ، يعني ، مشرق الشتاء ومشرق

(١) انظر : « دفع إيهام الاضطراب » (ص٢٢) ط ابن تيمية ، وانظر : « أضواء البيان » (تفسير المعارج :٤٠) التتمة لعطية سالم .

الصيف ومغربها ، كما عليه الجمهور ، وقيل : مشرق الشمس والقمر ومغربها .

وقوله : ﴿ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠] ، أي : « مشارق الشمس ومغاربها كما تقدَّم . وقيل : مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها . والعلم عند الله تعالى » انتهى .

وفي هذا الموطن وجد ذو القرنين قومًا خُيِّرَ في أمرهم بعد ما انتصر عليهم ، إن شاء عذَّبهم ، وإن شاء عفا عنهم ، وعاملهم بالحسنى ؛ فقال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾
[الكهف: ٨٦ ـ ٨٨]

انظر إلى هذا الأدب الجم من ذي القرنين ؛ فقد قدَّم من أدبه للمؤمن الصالح جزاء الله ﷻ ، ثم بعد ذلك قال : ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ فكان جزاء الله هو الأفضل والأكمل ، أما قولنا: ﴿ لَهُۥ ﴾ فقد يأتي في المرتبة الثانية ، وبهذا الدستور العادل الحكيم يقدِّمُ ذو القرنين لكلِّ مسؤول على وجه الأرض منهجًا عمليًّا للتعامل الوظيفي والإداري .

ثم توجه ذو القرنين في رحلته الثانية نحو المشرق : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ [الكهف: ٩٠ ، ٩١] .

قومٌ في العراء لا يسكنون بيوتًا ؛ لا من اللَّبِنِ ، ولا من الوبر ، ثم ترك ذو القرنين هؤلاء ، واتجه إلى الشمال إلى موضع يقالُ له: ﴿ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ ،

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾

[الكهف:٩٣، ٩٤]

ولا يستطيع أحدٌ أن يجزم أين موضع السَّدَّيْنِ ، ولذا اختلفت أقوال المفسرين في تحديد هذا المكان اختلافًا كبيرًا [1] ، ومن ثَمَّ ما لم يثبت دليلٌ عن النبيِّ ﷺ فلا ينبغي أن نلهث كثيرًا وراء الأخبار المكذوبة والآثار الموضوعة لنتعرف على موضع السدين ؛ فلقد حدد بعضهم هذا الموطن بسور الصين العظيم ، ومنهم من قال كلامًا غير ذلك ، ولكن لا دليل عن النبيِّ ﷺ يعيِّن مكان السَّدَّيْنِ ؛ كما ذكرتُ ـ والله أعلم .

لكنَّ المهم أن ذا القرنين وَجد عند هذين السدين ـ أو دونها ـ قومًا لا يكادون يفقهون قولًا ؛ أي : لا يفهمون لغةَ غيرِهم من البشر ، ولا يتفاعلون معهم ، فهم قومٌ منغلقون على أنفسهم ، لا يجيدون التخاطب والتعامل مع الآخرين ، ويأجوج ومأجوج يهجمون ، ويُغِيرون عليهم من آنٍ لآخر ، فعرضوا على ذي القرنين ما شاء من الأموال ، ليقيم لهم سدًّا يحميهم من يأجوج ومأجوج ، فرَدَّ عليهم ذو القرنين بعفة وزهد ، وقال : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف:٩٥] .

أي : لا حاجة لي في مالكم ؛ فقد آتاني الله ﷻ خيرًا مما عندكم ، ومنحني كلَّ أسباب القوة والعز والتمكين ، ولكن ذو القرنين أراد أن

(١) انظر : «تفسير الطبري» (٨/ ٢٧٨) ، وابن كثير (٣/ ٩١) ط القلم ، و «تفسير القرطبي» (١١/ ٥٥) ط دار الكتاب العربي ، و «روح المعاني» للألوسي (٨/ ٣٥٨، ٣٥٩) ط دار الكتب .

يعلمهم درسًا عمليًا من دروس الجد والعمل ، فطلب منهم أن يعينوه بأنفسهم في العمل والبناء لهذا السد ؛ فقال : ﴿أَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾، وكأنه يقول لهم : التخطيط الهندسي والعلمي والتنفيذ لهذا المشروع الضخم عليَّ ، ولكنني أريد العمالة ، أي : ساعدوني في بناء هذا السد العظيم ، ونحن ستتكفَّلُ بكلِّ شيءٍ من الإمكانات والقدرات والطاقات ، وبدأ ذو القرنين في تنفيذ المشروع الضخم بتحضير المواد الأولية ؛ فقال : ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ [الكهف:٩٦] ، أي : قطع الحديد الضخمة ، فجاؤوه بها ، فأمرهم أن يضعوها ، بعضها فوق بعض ، في هذا المضيق بين سدين حتى ساوت هذه القطع الحديدية قمتي الجبلين ـ أو السدين ـ ثم أمرهم بإيقاد النار تحت هذا الحديد : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾[الكهف:٩٦] . والقطر: هو النحاس المنصهر المذاب ، ثم أمرهم بسَكْبِ هذا النحاس المنصهر المذاب على قطع الحديد بين السدين ، ليخالط النحاس قطع الحديد ، وكان ذو القرنين هو أول من فكَّر ونفَّذ وقوَّى الحديد بالنحاس ، وسبق بهذا ذو القرنين علماءَ القرنِ العشرين الذين وصلوا إلى هذه الحقيقة العلمية الهائلة ـ في العصور المتأخرة ـ في تقوية الحديد بالنحاس ؛ فلما انتهى ذو القرنين من السد ، وجاء يأجوج ومأجوج على عادتهم ليعبروا المضيق بين السدين ؛ ليصلوا إلى هذه الأمة التي وصفها الله تبارك وتعالى بأنهم لا يكادون يفقهون قولًا ، فوجدوا هذا المضيق بين السدين مغلقًا بالحديد والنحاس ، فعجزوا عن تسلقه ، وعن نبشه أو اختراقه : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ [الكهف:٩٧] .

وبعد هذا العمل ينظُرُ ذو القرنين إلى مشروعه الضخم، وإلى سدِّه العظيم الذي حفظ الناس من إفساد يأجوج ومأجوج، ومن غاراتهم، فلم يتملكه الغرور، ولم تُسْكِرْه نشوةُ العلم، ولا لذَّةُ القوة، ولكنه تصاغر وتضاءل وأذعن لمن علَّمه؛ فقال: ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾[الكهف:٩٨].

أظهر لهم معتقده الصافي الذي سيخبر عنه النبيُّ ﷺ بعد آلاف السنين في أن هذا السد سينهار وسيزول في اليوم الذي حدَّده الله ﷻ.

إن الله ﷻ أذنَ بإيجاد هذا السد، وهو الذي أمر ببنائه، وهو الذي سيأذن في الوقت المعلوم بانهياره، في الوقت الذي سيقدر فيه الخروج ليأجوج ومأجوج ـ كعلامة كبيرة من العلامات الكبرى الذي ذكرها النبيُّ ﷺ ـ قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء:٩٦، ٩٧].

وفي «الصحيحين»(١) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ دخلَ عليها فزِعًا، وهو يقول: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالتِي تَلِيهَا، فَقَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ».

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ كيف سينقضي هذا السدُّ الذي بناه ذو القرنين،

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٦)، ومسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن، وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٢٨٨٠).

وبيَّن كيف سيخرج يأجوج ومأجوج .

روى الإمام أحمد في «مسنده» ، والترمذيُّ في «سننه» ، وابن ماجه في «سننه» ، وابن حبان في «صحيحه» ، والحاكم في «مستدركه» ، وصححه على شرط الشيخين ، وأقره الذهبيُّ والألبانيُّ [١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَحْفِرُونَ كُلَّ يَوْمٍ ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : ارْجِعُوا فَسَنَحْفِرُهُ غَدًا ، فَيُعِيدُهُ اللهُ أَشَدَّ مَا كَانَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ ، وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ ، حَفَرُوا ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : ارْجِعُوا فَسَنَحْفِرُهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ ، وَاسْتَثْنَوْا ، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ ، فَيَنْشِفُونَ الْمَاءَ ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ ، فَيَقُولُونَ : قَهَرْنَا أَهْلَ الأَرْضِ » .

وفي لفظِ رواية مسلم [٢] : « لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الأَرْضِ ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، فَيَرْمُونَ بِنُشَّابِهِمْ ـ وهي : السهام والرماح ـ فَيَرُدُّ اللهُ عز وجل عَلَيْهِمْ نُشَّابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا » .

فيقولون ـ كما في رواية الإمام أحمد والترمذي وغيرهما : «قَهَرْنَا أَهْلَ الأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ ، فَيَبْعَثُ اللهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي أَقْفَائِهِمْ ، فَيَقْتُلُهُمْ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة الكهف (٣١٥٣) وابن ماجه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى وخروج يأجوج ومأجوج (٤٠٨٠) ، وأحمد (٢/ ٥١٠، ٥١١) ، وابن حبان (٦٨٢٩) ، والحاكم (٤/ ٤٨٨) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٧٣٥) .

(٢) انظر : « صحيح مسلم » (٢٩٣٧) (١١١) .

بِهَا » . والنغف : دودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم .

وفي رواية مسلم[١] من حديث النواس بن سمعان ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ ـ أي : الدجال ـ إِذْ بَعَثَ الله الْـمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْـمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ الله مِنَ الدَّجَّالِ فَيَمْسَحُ ـ عيسى ـ عَنْ وُجُوهِهِمْ ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْـجَنَّةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى الله إِلَى عِيسَى أَنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي ، لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ ، وَيَبْعَثُ الله يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ـ من ماء ـ وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ ، فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ ـ أن يهلك يأجوج ومأجوج ـ فَيُرْسِلُ الله عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَي كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ ، فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الله ، فَيُرْسِلُ الله طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ الله ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ ، فَيَغْسِلُ ـ به ـ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ،

(١) أخرجه مسلم ، باب ذكر الدجال (٢٩٣٧) ، وقد تقدم مرارًا آنفا .

ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ : أَنبِتِي ثَمَرَتَكِ ، وَرُدِّى بَرَكَتَكِ ...» .

*****

العلامة الرابعة :طلوع الشمس من مغربها

وهي العلامة الكبرى التي تؤذن بتغير أحوال العالم العلويِّ ، فقد قلنا بأن خروج الدجَّال علامة تؤذن بتغير أحوال العالم الأرضيِّ لما يفعله الدجَّال من خوارق ؛ فطلوع الشمس من مغربها علامةٌ من العلامات الكبرى التي تؤذن بتغير العالم العلوي ، أي : أحوال السماء ، وما وضع الله ﷻ لها من نواميس وقوانين ؛ فالشمس من المعلوم ــ منذ أن خلقها الله تبارك وتعالى ـ للجميع أنها تشرق من المشرق ، وتغرب من المغرب بصورة متكررة منتظمة لا تتخلف الشمس عن هذا القانون مرةً واحدةً منذ أن خلقها ربها تبارك وتعالى .

تدبر قول الله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِى لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[يس:٣٨] ؛ فلقد حدد الله للشمس مدارًا لا تحيد عنه أبدًا ، ولا تخالف الشمس ناموسها وقانونها الذي حدَّده الله ؛ بل لقد ثبت الآن في عصر العلم الذي اخْتُرِعت فيه كلُّ هذه الوسائل الدقيقة للبحث العلمي ، أن الشمس لو تركت مدارها الذي تسير فيه إلى أعلى قيد أنملة لتجمَّد كلُّ حيٍّ على ظهر الأرض ، ولو تركت مدارها إلى أسفل قليلًا لاحترق كلُّ حيٍّ على ظهر الأرض !!

وكذلك القمر لو اختلَّ مداره وفلكه لانتهت الحياة من خلال ما يسميه العلماء الآن بحركة المدِّ والجزر ؛ فسبحان مَنْ قال : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾[يس:٤٠] .

فالشمس آية من آيات الله تبارك وتعالى منذ أن خلقها ، وهي تشرق من المشرق ، وتغرب من المغرب بصورةٍ منتظمة متكررة لم تخالف الشمس قانونها مرة ، ولذلك ألحظُ ملحظًا جميلًا ، حينما ناظر نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام هذا الجاهل النمرود بن كنعان ، حينما قال له : ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨] .

فأين يذهب هذا الغِرُّ الجاهل أمام نور النبوة الباهر !!

فهذا هو قانون الشمس ، ولو وقفنا أمام الشمس وما أثبته العلم الحديث ما وسع الإنسان إلا أن يخرَّ ساجدًا لمن خلقها ﷻ .

فإذا أراد الله أن يخرق قانون الشمس الذي اعتاد عليه أهل الأرض أمرها جلَّ وعلاً في الوقت الذي يعلمه وحْدَهُ أن تطلع من المغرب ـ كعلامةٍ من العلامات الكبرى للساعة ـ كما ذكرت .

ففي « صحيح البخاريِّ ومسلم » ـ واللفظ لمسلم[(١)] ـ من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال لأصحابه يومًا : « أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟ » قَالُوا : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً ، وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا : ارْتَفِعِي ، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً ، وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة الشمس والقمر (٣١٩٩)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩) .

يُقَالَ لَهَا : ارْتَفِعِي ، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ ، فَتَرْجِعُ ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ، ثُمَّ تَجْرِي لاَ يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَيُقَالُ لَهَا : ارْتَفِعِي ، أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا » ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ ؟ ذَاكَ حِينَ : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾[الأنعام:١٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[الحج:١٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾[الرعد:١٥] .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[النحل:٤٨ـ٥٠] .

فهذه آيات في القرآن يخبر فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أن الشمس تسجد ، وأن القمر يسجد ، وأن الظلَّ يسجد ، وأن الدوابَّ تسجد ، وأن الحجارة والجبال تسجد ، وأن الأشجار تسجد ، لكن كيف تسجد هذه الأشياء ؟ عِلْمُ ذلك عند من أَمَرَ هذه المخلوقات بالسجود .

وفي رواية لابن مردويه[١] بسندٍ فيه ضعف عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ لَيْلَةٌ تَعْدِلُ ثَلاثَ لَيَالٍ مِنْ لَيَالِيكُمْ هَذِهِ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ يَعْرِفُهَا الْمُتَنَفِّلُونَ ، يَقُومُ أَحَدُهُمْ فَيَقْرَأُ حِزْبَهُ ثُمَّ يَنَامُ ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَقْرَأُ حِزْبَهُ ، ثُمَّ يَنَامُ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ صَاحَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ، فَقَالُوا : مَا هَذَا ؟ فَيَفْزَعُونَ إِلَى الْمَسَاجِدِ ، فَإِذَا هُمْ بِالشَّمْسِ قَدْ طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَضَجَّ النَّاسُ ضَجَّةً وَاحِدَةً حَتَّى إِذَا صَارَتْ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ رَجَعَتْ وَطَلَعَتْ مِنْ مَطْلِعِهَا ، قَالَ : حِينَئِذٍ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا » .

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم[٢] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، فَيَوْمَئِذٍ : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ » [الأنعام:١٥٨] .

وفي « صحيح مسلم »[٣] من حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « ثَلاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدَّجَّالُ ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ » .

فهكذا يتبين لنا أن الشمس إذا طلعت من المغرب لا يقبل الإيمان من الكافر ، ولا تقبل التوبة من المسلم العاصي ؛ لأنهم يشاهدون من الأهوال ما

---

(١) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في « الدر المنثور » (٣/ ١١١) ، وفي « اللآلئ المصنوعة » (١/ ٥٩) ، وزاد عزوه في « الدر المنثور » إلى عبد بن حميد ، وعزاه الحافظ في « الفتح » (١١/ ٣٥٥) إلى عبد ابن حميد وسكت عنه ، وقال ابن كثير (٦/ ٢٣٣) : « هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وليس هو في شيء من الكتب الستة » .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب (لا ينفع نفسا إيمانها) (٤٦٣٥،٤٦٣٦) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٧) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٨) .

يلوي أعناقهم إلى الإقرار بوحدانية الكبير المتعال ؛ فالله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر ، لكن إن بلغت الروح الحلقوم فقد عاين فلا تنفع التوبة .

والتوبة في اللغة :الرجوع .. يقال ، تاب ، وآب ، وثاب بمعنى رجع ، فالتائب إلى الله هو الراجع إلى الله عن كلِّ ما يكرهه الله تعالى ظاهرًا وباطنًا ، إلى كل ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا .

وفي الحديث الذي رواه أحمد والطبرانيُّ والبيهقيُّ في الشعب [(١)] من حديث معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم أن النبيَّ ﷺ قال : «لاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ ، وَلاَ تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ» .

وفي «صحيح مسلم» [(٢)] من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «إِنَّ الله عز وجل يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ . وَيَبْسُطَ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» .

وروى الترمذيُّ وأحمد والبيهقيُّ في «الشعب» [(٣)] عن صفوان بن

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ١٩٢) ، والبزار في «المسند» ، البحر الزخار (١٠٥٤) ، والطبراني (١٩/ ٣٨١) وفي «الأوسط» (٥٩) ، والبيهقي في «الشعب» (٧٢١٥) ، وابن جرير في «التفسير» (١٢/ ١٤٢١٢) وذكره الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٥٣ ، ٢٥٤) وقال : «رجال أحمد ثقات» ، وحسن إسناده الشيخ الألباني في «الإرواء» (٥/ ٣٣ ، ٣٤) وابن كثير في «التفسير» (٦/ ٢٣٦) ، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «الطبري» (الأنعام :١٥٨) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٢٧٥٩) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الدعوات ، باب التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده =

عسَّال ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ مِنْ قِبَلِ الْـمَغْرِبِ لَبَاباً مَسِيرَةُ عَرْضِهِ أَرْبَعُونَ عَامًا أَوْ سَبْعُونَ سَنَةً فَتَحَهُ اللهُ ﷻ لِلتَّوْبَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، وَلاَ يُغْلِقُهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ ».

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى : « فهذه الأحاديث المتواترة مع الآية الكريمة دليل على أن من أَحْدَثَ إيمانًا أو توبة بعد طلوع الشمس من مغربها لا يقبل منه ، وإنما كان كذلك ـ والله أعلم ـ لأن ذلك من أكبر أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ودنوها ، فعومل ذلك الوقت معاملة يوم القيامة »[1] .

فهيا الآن ـ أخي الحبيب ـ بادر بالتوبة قبل أن تطلع الشمس من مغربها أو تغرغر ، هيا ـ جميعًا ـ لنتب الآن إلى الله ﷻ ولنعاهد الله تعالى على التوبة ، ولنحقق شروطها وأركانها ، ولنعلم يقينًا أن الله ﷻ كريمٌ مهما كان الذنب كبيرًا ، فإن عفو الله أكبر ، وإن عفو الله أعظم ، وإن الله يفرح بتوبة العبد حين يتوب إليه وهو الغنيُّ عن ذلك .

ففي « الصحيحين »[2] من حديث أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « للهُ

= (٣٥٣٥، ٣٥٣٦) وقال : « حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب طلوع الشمس من مغربها (٤٠٧٠) ، وأحمد (٤/ ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (١٩٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٣٢١) ، والدار قطني في « السنن » (١٥) ، والنسائي في « الكبرى » (١١١٧٨) ، والحميدي (٨٨١) وعبد الرزاق في « مصنفه » (٧٩٥) ، والبيهقي في « الشعب »(٧٠٧٦) ، واللفظ له ، و« الكبرى » (١/ ٢٨١) وغيرهم ، وحسنه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٢١٧٧، ٢٢٢٩، ٤١٩١ ، ٥١٨١) ، و« صحيح الترغيب والترهيب » (٣١٣٧) .

(١) « النهاية في الفتن والملاحم » (١/ ٢١٩ـ٢٢٢) بتصرف في المعنى .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الدعوات ، باب التوبة (٦٣٠٩) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في =

أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً . فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا . ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ !! أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ؛ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ ».

فالله يفرح بتوبة عبده ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الزمر:٥٣] .

فالتوبة هي أهم قواعد الإسلام ، بل هي الدين كلُّه .

يقول ابن القيم ــ رحمه الله تعالى[(١)] : « الدين كُلُّهُ داخلٌ في مسمَّى التوبة ، وهي أهم قواعد دين الإسلام » .

فهيا لنجدد التوبة إلى الله تعالى قبل الموت ، وقبل أن نغرغر ، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها .

*****

العلامة الخامسة :خروج الدابة

والدابة علامةٌ من العلامات الكبرى للساعة ،وقد ذكر الله ﷻ خبرها في سورة النمل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[النمل:٨٢] .

= الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٧)، ورُوي عن أبي هريرة وابن مسعود والنعمان بن بشير والبراء بن عازب عند مسلم في نفس الباب السابق .

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٣٠٦) .

وهذه العلامة هي قرينة طلوع الشمس من مغربها ؛ كما في الحديث الذي رواه مسلم[١] من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى ، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا ، فَالأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا ».

فإذا كثر الفساد في الأرض ، وترك الناسُ أوامر الله ﷻ وبدَّلوا الدين الحق ، حقَّ عليهم الوعد والوعيد ، فإذا صاروا كذلك أخرج الله ﷻ لهم هذه الدابة ، وهي دابةٌ عجيبةٌ غريبةٌ تتكلَّم ، أنطقها الله الذي أخرجها .

وهذه الدابة تَسِمُ المؤمن على وجهه فيضيءُ ، وتَسِمُ الكافر على وجهه فيَسْودُ ، وإذا سألت : كيف عرفَتِ المؤمنَ من الكافر ؟ سل الذي أخرجها ! كي لا تُعمل عقلك في ذلك ؛ فهي تتكلَّم وتَسِمُ الناس ، وهذا أمر لا يُعجز الله تعالى الذي يقول للشيء : كُنْ فيكون .

فقدرة الله تعالى لا تحدُّها حدود ،وهذا زمانُ خرق القوانين والنواميس .

وفي الحديث الذي رواه أحمد[٢] بسندٍ صحيح من حديث أبي أمامة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « تَخْرُجُ الدَّابَّةُ فَتَسِمُ النَّاسَ عَلَى خَرَاطِيمِهِمْ ، ثُمَّ يَغْمُرُونَ فِيكُمْ - وفي رواية : يُعَمِّرُونَ فِيكُمْ - حَتَّى يَشْتَرِيَ الرَّجُلُ الْبَعِيرَ ، فَيَقُولُ : مِمَّنِ اشْتَرَيْتَهُ ؟ فَيَقُولُ : اشْتَرَيْتُهُ مِنْ أَحَدِ الْمُخَطَّمِينَ » أي : الموسومين .

(١) أخرجه مسلم ،كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض وَنزول عيسى وقتله إياه (٢٩٤١) .

(٢) أخرجه أحمد في « مسنده » (٥/ ٢٦٨) ، والبغويُّ في « الجعديات » (٢٩١٩) ، وعلقه البخاريُّ في «التاريخ الكبير» (٦/ ١٧٢)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٣٢٢)، و«صحيح الجامع» (٢٩٢٧).

وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي [(١)] بسندٍ ضعَّفَه الشيخ الألبانيُّ ؛ وذلك لتضعيفه لعلي بن زيد بن جدعان ، وقال العلامة أحمد شاكر ـ رحمه الله تعالى ـ الذي صحَّحَ إسناد هذا الحديث : « وعليُّ بن زيد بن جدعان مختلفٌ فيه ، والراجح عندنا توثيقه » ، ووقفت على علةٍ أخرى في الحديث الراجح عندي بعدها ضَعفُ هذا الحديث ؛ ألا وهي وجود أوس بن خالد في رجال السند ، وهو في عداد المجهولين عند علماء الحديث ؛ لذا قال الترمذي : « حديث حسن غريب » من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مَعَهَا خَاتَمُ سُلَيْمَانَ ، وَعَصَا مُوسَى ، فَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ ، وَتَخْتِمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتَمِ حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْخِوَانِ ـ أي : المائدة ـ لَيَجْتَمِعُونَ ، فَيَقُولُ هَاهَا : يا يَا مُؤْمِنُ ، وَيُقَالُ : هَاهَا يَا كَافِرُ ، وَيَقُولُ هَذَا : يَا مُؤْمِنُ ، وَيَقُولُ هَذَا : يَا كَافِرُ » .

وفي الحديث الذي رواه الحاكم في « مستدركه » ، وأبو داود الطيالسي في « مسنده » وهو حديثٌ ضعيف [(٢)] أيضًا من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال : ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ الدَّابَّةَ فَقَالَ : « لَهَا ثَلاثُ خَرَجَاتٍ مِنَ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة النمل (٣١٨٧) ، وقال : « حديث حسن غريب » ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب دابة الأرض (٤٠٦٦) ، وأحمد في « مسنده » (٢/ ٢٩٥، ٤٩١) ، وإسحاق بن راهويه في « مسنده » (٥١١) ، والحاكم في « مستدركه » (٤/ ٤٨٥) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٩٢٤) : « إسناده صحيح » ، وضعفه الشيخ الألبانيُّ في « ضعيف ابن ماجه » (٨٨١) ، و « ضعيف الجامع » (٢٤١٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في « مستدركه » (٤/ ٤٨٤) وقال : « حديث صحيح الإسناد ، وهو أبين حديث في ذكر دابة الأرض ، ولم يخرجاه » ، والطيالسي في « مسنده » (١٠٦٩) واللفظ له ، والطبري في « تفسيره » (٢٠/ ١٠، ١١) ، وفيه طلحة بن عمرو وهو ضعيف ، وقد رواه جرير وهو أثبت من طلحة عن عبد الله بن عبيد عن رجل من آل عبد الله بن مسعود وهو مبهم ، وقد روي الحديث موقوفًا ؛ كما عند الطبري .

الدَّهْرِ ،فَتَخْرُجُ خَرْجَةً مِنْ أَقْصَى البَادِيَةِ ، ولاَ يَدْخُلُ ذِكْرُهَا القَرْيَةَ - يعني مكة - ثُمَّ تَكْمُنُ زَمَانًا طَوِيلًا ، ثُمَّ تَخْرُجُ خَرْجَةً أُخْرَى دون تِلْكَ ، فَيَعْلُو ذِكْرُهَا فِي أَهْلِ البَادِيَةِ ، وَيَدْخُلُ ذِكْرُهَا القَرْيَةَ » يعني : مكة .

قالَ رسولُ الله ﷺ : « ثُمَّ بَيْنَمَا النَّاسُ فِي أَعْظَمِ المَسَاجِدِ عَلَى الله حُرْمَةً وَأَكْرَمِهَا ، المَسْجِدُ الحَرَامِ ، لَمْ يَرُعْهُمْ إلاَّ وَهِيَ تَرْغُو [1] بَيْنَ الرُّكْنِ وَالمَقَامِ ، تَنْفُضُ عَنْ رَأْسِهَا التُّرَابَ ، فَارفَضَّ النَّاسُ عَنْهَا شَتَّى وَمَعًا ، وَبَقِيَتْ عِصَابَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ ، عَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يُعْجِزُوا الله ، فَبَدَأَتْ بِهِمْ فَجَلَّتْ وُجُوهَهُمْ حَتَّى جَعَلَتْهَا كَأَنَّهَا الكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ ، وَوَلَّتْ فِي الأَرْضِ لا يُدْرِكُهَا طَالِبٌ ، وَلا يَنْجُو مِنْهَا هَارِبٌ ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَعَوَّذُ مِنْهَا فِي الصَّلاةِ ، فَتَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِهِ ، فَتَقُولُ : يَا فُلانُ ، الآنَ تُصَلِّي ؟ فَيُقْبِلُ عَلَيْهَا ، فَتَسِمُهُ فِي وَجْهِهِ ، ثُمَّ تَنْطَلِقُ ، وَيَشْتَرِكُ النَّاسُ فِي الأَمْوَالِ ، وَيَصْطَحِبُونَ فِي الأَمْصَارِ ، يُعْرَفُ المُؤْمِنُ مِنَ الكَافِرِ ، حَتَّى إِنَّ المُؤْمِنَ لَيَقُولُ : يَا كَافِرُ اقْضِنِي حَقِّي ، وَحَتَّى إِنَّ الكَافِرَ لَيَقُولُ : يَا مُؤْمِنُ اقْضِنِي حَقِّي » .

وقد اختلفت الأقوال كثيرًا في حقيقة هذه الدابة ، وفي وصفها ، وفي مكان خروجها ؛ فمنهم من قال : إنها فصيل ناقة صالح ، وذكروا كلامًا كثيرًا في كتب التفسير ، وذكروا : أن ناقة صالح لما ولدت ، وانبعث أشقى القوم فعقرها وقتلها ، ونظر الفصيل إلى هؤلاء المجرمين ، فجرى ، يقولون : بأن حجرًا أو صخرة ضخمة انشقت ، فدخل فيها هذا الفصيل ، فهو فيها إلى اليوم الذي يخرج مرة أخرى في الوقت الذي يشاء

---

(١) قال القرطبيُّ في « تفسيره » (لسورة النمل : ٨٢) :«وهي ترغو » والرغاء إنما هو للإبل ، وذلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب فانفتح له حجر ، فدخل في جوفه ، ثم انطبق عليه ، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله ﷻ» . انتهى المراد ، وليس ثمَّة دليل على ذلك .

الله ﷻ كعلامة من العلامات الكبرى ، وهـذا الكـلام لا دليـل عليـه مـن كلام النبيِّ ﷺ ؛ كما تقدم .

ـ ومنهم من قال : إن هذه الدابة هي الجساسة التي ذكرنـا قصتها في حديث تميم الداري !!

ـ ومنهم من قال : إن هذه الدابة هي الثعبان الذي ظهر على جدار الكعبة حينما أرادت قريش أن تعيد بناء الكعبة من جديد ، والقصة مشهورةٌ في كتب السيرة ، ولا دليل على هذا كلِّه كذلك من كلام النبيِّ ﷺ .

ـ ومنهم من بالغ في وصف الدابة ، ورسمها رسمًا خياليًّا عجيبًا ، فقالوا : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، وقوائمها قوائم بعير ، إلى آخر هذه الصفات الغريبة [1] التي لا ينبغي لأحدٍ يحترم نفسه ، ويحترم عقله ، ويحترم الدليل أن يقول بمثل هذا ؛ لأن هذا من الغيب الذي لا دليل عليه ، ولا يعلمه إلا الله ﷻ ؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يقول في مثل هذه الأبواب الغيبية إلا بالدليل الصريح من القرآن أو الصحيح من سنة النبيِّ ﷺ .

إذًا يكفينا أن نقف عند ما أثبته الله في قرآنه الكريم ، وذكره لنا النبيُّ المعصوم ﷺ من أنها ـ فقط ـ دابة ، تخرج وتتكلَّم ، لكن ما لونها ؟ وما وصفها ؟ وما حجمها ؟ وما شكلها ؟ لا يعنينا هذا إطلاقًا ، ولو كان الأمر مُهِمًّا لنا لَذَكَرَهُ الله تعالى ، ولبيَّنَهُ النبيُّ ﷺ .

---

(١) انظر : « تفسير ابن كثير » (١٠/ ٤٣٤، ٤٣٥) ، والطبري (٢٠/ ١٠) وما بعدها ، والقرطبي في « التفسير » (١٣/ ١٩٠) وما بعدها ، ط التوفيقية ، و« فتح القدير » للشوكاني (٤/ ١٥١).

العلامة السادسة: الدخان

والدخان علامة من العلامات الكبرى ، كما ذكرنا في حديث حذيفة ابن أسيد الغفاري ﷺ .

والدخان : الأدلة عليه من القرآن والسنة واضحة وبيِّنة ، لكن هناك من السلف من فَهِمَ من الآيات فهمًا ؛ فقال : إنَّ هذه العلامة قد وقعت بالفعل في حياة النبيِّ ﷺ .

والدخان: هو العلامة الأخيرة التي يراها ويشهدها المؤمنون في الأرض ؛ فإن الكثيرين يَخْلِطون بين كلِّ هذه العلامات !!

فلا يشهد الخسوفات الثلاثة أهل الإيمان ، وهذا من رحمة الله تعالى ، ولا يشهد النار التي تخرج لتطرد الناس إلى محشرهم إلا أهل الكفر كما سأبين إن شاء الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان:١٠-١٦] .

والمعنى - كما قال المفسرون ؛ كابن كثير والقرطبي وغيرهما (١) : أي : انتظر يا محمد ﷺ بهؤلاء الكفار يوم تأتي السماء بدخان مبين ؛ أي واضح وظاهر ، يغشى الناس ويعمهم ، وعند ذلك يقال لهم : هذا

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير والقرطبي » لهذه الآية الكريمة .

عذاب أليم ، تقريعًا لهم وتوبيخًا ، أو يقول بعضهم لبعض ذلك .

واختلف العلماء على قولين في معنى هذه الآية (١):

القول الأول : أن هذا الدخان هو ما أصاب المشركين في قريش من شدةٍ وجوعٍ عندما دعاهم النبيُّ ﷺ إلى التوحيد ،والإيمان ، فلم يستجيبوا له ، فدعا عليهم الرسول ﷺ .

وإلى هذا القول ذهب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وتبعه في ذلك جماعةٌ من السلف ؛ كمجاهد ، وأبي العالية ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، وعطية العوفي ، وابن جرير الطبري .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ كما في « الصحيحين »(٢) : « خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ : الدُّخَانُ ، واللِّزَامُ ، وَالرُّومُ ، وَالبَطْشَةُ ، وَالقَمَرُ » .

واللِّزَامُ : يقصد به قوله تعالى : ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [الفرقان:٧٧] .

وَالرُّومُ : يقصد به قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم:١-٥] .

وَالبَطْشَةُ : فسَّرها ابن مسعود رضي الله عنه نفسه في الحديث ، قال : « فالبطشة

---

(١) انظر : « تفسير ابن كثير » (١٢/ ٣٣٦) ط أولاد الشيخ ، والقرطبي (١٦/ ١٠٣، ١٠٤) ، ط التوفيقية .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (٤٧٦٧) وأطرافه في (١٠٠٧) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب الدخان (٢٧٩٨) (٤١) .

يــوم بــدر » ، وذلــك في قولــه تعــالى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان:١٦] .

وأما القَمَرُ ، وهو قوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر:١]

وَالـدُّخَانُ : يقصـد بـه قولـه تعـالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان:١٠، ١١] .

وفي « الصحيحين »(١) ـ واللفظ لمسلم ـ قال مسروق ـ رحمه الله تعالى : « كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ الله ﷺ جُلُوسًا ، وَهُوَ مُضْطَجِعٌ بَيْنَنَا ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، إِنَّ قَاصًّا عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ يَقُصُّ وَيَزْعُمُ : أَنَّ آيَةَ الدُّخَانِ تَجِيءُ فَتَأْخُذُ بِأَنْفَاسِ الكُفَّارِ ، وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ ؟ فَقَالَ ابنُ مَسْعُودٍ ﷺ وَجَلَسَ وَهُوَ غَضْبَانُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا الله ، مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِمَا يَعْلَمُ ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ ؛ فَلْيَقُلْ : الله أَعْلَمُ ؛ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ لأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ لِمَا لاَ يَعْلَمُ : الله أَعْلَمُ ؛ فَإِنَّ الله ﷻ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص:٨٦] ، إِنَّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا رَأَى مِنَ النَّاسِ إِدْبَارًا ؛ فَقَالَ : « اللَّهُمَّ ! سَبْعٌ كَسَبْعِ يُوسُفَ» ، قالَ : فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ ، حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ مِنَ الْجُوعِ ، وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ أَحَدُهُمْ فَيَرَى كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ ، فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ جِئْتَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ الله وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا ، فَادْعُ الله لَهُمْ . قَالَ الله ﷻ : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ

(١) انظر : التخريج السابق (٢٧٩٨/ ٣٩) .

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾[الدخان:١٠-١٥] .

قَالَ : أَفَيُكْشَفُ عَذَابُ الآخِرَةِ ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾[الدخان:١٦] . فَالبَطْشَةُ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَقَدْ مَضَتْ آيَةُ الدُّخَانِ ، وَالبَطْشَةُ ، وَاللِّزَامُ ، وَآيَةُ الرُّومِ » .

وهذا القول رجَّحه ابن جرير الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ قال [(١)] :

« لأن الله جلَّ ثناؤه توعَّد بالدخان مشركي قريش ، وأن قوله لنبيه ﷺ : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ جاء في سياق خطاب الله تعالى لكفار قريش وتقريعه لهم بشركهم بقوله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾[الدخان:٨-١٠] .

ثم أتبع ذلك قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أمرًا من الله لنبيه ﷺ بالصبر على أذى المشركين ، حتى يأتيهم بأس الله تعالى » . وهو الدخان .

والقول الثاني : وهو الراجحُ بالدليل الصحيح الصريح من سنة النبيِّ ﷺ وهو : أن الدخان من العلامات التي لم تقع ، ولم تأت بعد ، وإنما هو علامة من العلامات الكبرى التي ستقع بين يدي الساعة .

وإلى هذا القول ذهب حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وبعض الصحابة والتابعين ؛ كعليٍّ وابن عمر وأبي هريرة وزيد بن عليٍّ

---

(١) « تفسير الطبري » (١٥ / ١١٤) بتصرف .

والحسن وابن أبي مليكة وغيرهم [١] .

كما روى ابن جرير الطبري [٢] وابن أبي حاتم [٣] : عن عبد الله بن أبي مليكة قال : «غدوتُ على ابن عباسٍ ﷺ ذات يوم فَقَالَ : ما نمتُ الليلة حتى أصبحت ، قلْتُ : لِمَ ؟ فقال : قالوا : طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق ، فما نمت حتى أصبحت » .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى [٤] : وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين ﷺ أجمعين ، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما ، التي أوردوها مما فيه مقنع ، ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ [الدخان:١٠] ،أي : بيِّنٌ واضحٌ يراه كلُّ أحدٍ .

وقوله : ﴿ يَغۡشَى ٱلنَّاسَ ﴾ أي : يتغشاهم ويعميهم ، ولو كان ذلك أمرًا خياليًّا يخصُّ أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ يَغۡشَى ٱلنَّاسَ ﴾ على سبيل العموم » .

وثبت في « الصحيحين » [٥] أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لابن صياد : «إِنِّي خَبَّأْتُ لَكَ خَبِيئًا» ، قَالَ : هُوَ الدُّخ ، فَقَالَ لَهُ :«اخْسَأْ ؛ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَكَ» .

وَخَبَّأَ النبيُّ ﷺ قول الله تعالى : ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ [الدخان:١٠]

وفي هذا دليلٌ على أن الدخان من المنتظر المرتقب ؛ فإن ابن صياد كان

---

(١) انظر : « تفسير الطبري » (الدخان : ١٠ ـ ١٦) ، و« تفسير القرطبي » (١٦ / ١٠٣) .
(٢) « تفسير الطبري » (٣٠٨٩٢).
(٣) كما في تفسير ابن كثير » (١٢/ ٣٣٨، ٣٣٩) .
(٤) المصدر السابق .
(٥) سبق تخريجه .

من يهود المدينة ، ولم تقع هذه القصة إلَّا بعد الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة [(١)] .

فالأحاديث الصحيحة ذكرت أن الدخان من أشراط الساعة الكبرى ؛ كما في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه .

وما فسَّره ابن مسعود رضي الله عنه فهذا من فهمه للآيات، وأنتم تعلمون باتفاق أن المرفوع باتفاق مقدَّم على الموقوف [(٢)] .

أقول : والقول الوسط بين القولين هو الجمع الجميل بين هذين القولين معًا ، وهو قولٌ معتبرٌ لبعض أهل العلم ؛ فقالوا : « هما دخانان ، ظهر الأول في حياة النبيِّ ﷺ في قريش ، والثاني : هو الدخان الحقيقي الذي سيقع قبل قيام الساعة ؛ كعلامة من العلامات الكبرى » [(٣)] .

قال القرطبيُّ [(٤)] : «قال مجاهد : كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : هما دخانان قد مضى أحدهما ، والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض ، ولا يجد المؤمن منه إلا كالزكمة ، وأما الكافر فيثقب هذا الدخان مسامعه » .

وهكذا يتبين لنا أن هذا القول الثالث المذكور هو الوسط بين القولين ، بين قول ابن مسعود رضي الله عنه وبين قول ابن عباس رضي الله عنهما ؛ فالراجح والظاهر الذي يُفهم من كتاب الله ، ومن حديث رسول الله ﷺ أن الدخان ـ كعلامة من العلامات الكبرى ـ لم يقع بعد ، وإنما هو آخر العلامات التي يراها

---

(١) انظر : « أشراط الساعة » ليوسف الوابل (٣٨٦، ٣٨٧) .

(٢) « النهاية في الفتن والملاحم » (١/ ١٧٢) .

(٣) « شرح النووي » لمسلم (٩/ ٢٥٦) تحت حديث (٢٩٠١) ط الحديث ، « والتذكرة » للقرطبي (٥٨٧) ط فياض .

(٤) المصدر السابق .

أهل الإيمان ؛ لقول النبيِّ ﷺ ؛ كما في « الصحيحين »[(١)] من حديث ابن مسعود ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إلاَّ عَلَى شَرَارِ النَّاسِ » .

فحينما تنتهي علامة الدخان يرسل الله تعالى ريحًا ليِّنَةً باردةً طيبةً ، فتقبض أرواح المؤمنين على وَجْه الأرض ، حتى لو دخل أحدهم قلب جبل أو كهفًا وسَطَ جبلٍ لدخلت إليه ؛ فقبضت روحه ، فتقبض أرواح المؤمنين على ظهر الأرض ، ويبقى أهل الكفر ، وشرار الناس ، فعليهم تقوم الساعة ؛ كما في « صحيح مسلم »[(٢)] من حديث أنس ﷺ أنه ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يُقَالَ فِي الأَرْضِ : الله ، الله » .

لأنه في هذا الوقت سيكون في الأرض أشر الناس .

قال الإمام النوويُّ ـ رحمه الله تعالى: « جاء في هذا الحديث : « يبعث الله تعالى ريحًا من اليمن » .

وفي حديثٍ آخر ذكره مسلمٌ في آخر الكتاب عقب أحاديث الدجال : « ريحًا من قبلِ الشام » ، ويجاب على هذا بوجهين ، أحدهما : « يحتمل أنهما ريحان شامية ويمانية ، ويحتمل أن مبدأها من أحد الإقليمين ، ثم تصل الآخر وتنتشر عنده ، والله أعلم » .

وفي « صحيح مسلم » من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ رِيحًا مِنَ اليَمَنِ ، أَلْيَنَ مِنَ الحَرِيرِ ،فلاَ تَدَعُ أَحَدًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ أَوْ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إلاَّ قَبَضَتْهُ »[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الفتن ، باب ظهور الفتن (٧٠٦٧) ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قرب الساعة (٢٩٤٩) ، واللفظ له .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان (١٤٨) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب في الريح التي تكون قرب القيامة تقبض من في قلبه شيءٌ =

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه ﷺ قال[(١)]: «حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ، حَتَّى تَقْبِضَهُ».

ولا تعارض بين هذا وبين الحديث الذي في «الصحيحين»[(٢)] من حديث معاوية رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ الله، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ».

فلا تعارض بين هذا وبين ذاك، فستظل هذه الطائفة المنصورة المؤمنة تنصر دين الله، وتعمل لدين الله حتى يأتي أمر الله، والمراد بأمر الله: الريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين من أبناء الطائفة المنصورة وغيرهم[(٣)]؛ فإذا قُبض المؤمنون جميعًا بَقِي شرارُ الخَلْقِ، وعليهم تقوم الساعة.

ففي هذه الحِقبة الزمنية ـ على وجه التحديد ـ يُهْدم بيت الله الحرام، ذلكم البيت المشرف العظيم الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦].

وبكة هي مكة، وسُمِّيَت بهذا الاسم لشدة الزحام؛ فإن البكَّ[(٤)] في

= من الإيمان (١١٧).

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين (٧١) وانظر أطرافه هناك، ومسلم كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» (١٠٣٧).

(٣) انظر: «شرح مسلم» للنووي (١/ ٤٠٩) ط الحديث.

(٤) انظر: «لسان العرب» (١٠/ ٤٠٢) ط دار صادر بيروت، و«القاموس المحيط» (١٢٠٦)، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ٣٨٩)، و«معجم البلدان» (١/ ٤٧٥).

اللغة هو : الزحام الشديد ، والبكّ في اللغة أيضًا هو : دق العنق وكسرها ؛ كما قال بعض أهل العلم [(١)] : ما قصد مكّة جبار بسوء إلا دقّ الله عنقه . وقصة الفيل معروفة للجميع.

وفي قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾[العنكبوت:٦٧] .

وروى الإمام البخاريُّ ومسلم [(٢)] من حديث أبي ذر ﷺ قال : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلُ ؟ قَالَ : « المَسْجِدُ الحَرَامُ » قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : « المَسْجِدُ الأَقْصَى » قلت : كَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : « أَرْبَعُونَ سَنَةً ، وَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ فَصَلِّ ، فَهُوَ مَسْجِدٌ » وفي رواية : « والأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ » ؛ فهذا البيت الأول الذي وضعه الله لعبادته .

وقد اختلف أهل العلم فيمن بناه [(٣)] ؟ فمنهم من قال : إن أول من بناه الملائكة . ومنهم من قال : هو آدم ، ومنهم من قال : هو إبراهيم عليه السلام .

ولكن الراجح أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد رفعا القواعد من البيت ، فالقواعد قديمةٌ بنصِّ القرآن : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾[البقرة:١٢٧] . فالبيت مكانه قبل زمن إبراهيم عليه السلام ؛ كما في قوله حكايةً عن الخليل: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ

---

(١) انظر : « تفسير ابن كثير » (لسورة آل عمران : ٩٦) ، وقد رُوي عن عبد الله بن الزبير ؛ كما في «معالم التنزيل» للبغوي (٢/ ٧١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (١٠) (٣٣٦٦) ، وطرفه في (٣٤٢٥) ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠) .

(٣) انظر : « تفسير ابن كثير » (٢/ ٦٩) ط أولاد الشيخ ، والقرطبي (٢/ ١٠٩) وما بعدها ، وغيرهما .

﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم:٣٧] هذا البيت يُهدم في آخر الزمان !!

والراجح : أن الحقبة الزمنية التي سيُهْدم فيها بيت الله الحرام ستكون بعد موت عيسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ لأنه قد ثبت في صحيح مسلم أن عيسى عليه السلام سيحجُّ هذا البيت ، كما حجَّ البيتَ النبيُّ محمدٌ ﷺ .

فحينما ينزل عيسى ابن مريم ويقتل الدجال ، ويتضرع إلى الله أن يهلك يأجوج ومأجوج ، ويعيش الناس بعد ذلك فترة من الأمن والأمان والاستقرار والسعادة ، بعد ذلك يذهب عيسى ابن مريم ﷺ ؛ ليحج البيت على نفس النُّسُك النبوي المحمدي .

ففي « صحيح مسلم » [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !! لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ ، حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا ، أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا » .

وهذا لأؤكِّد أن البيت يكون في زمن عيسى ابن مريم ﷺ ، وبعد ذلك يموت عيسى ابن مريم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

بعد هذه المرحلة تظهر الدابة والدخان ، ثم تأتي الريح فتقبض أرواح المؤمنين ، ولا يبقى إلا شرار الخَلْق حتى لا يقال في الأرض : الله الله ـ كما سبق ـ فلا تستغرب ، ولا تستعجب بعد ذلك أن يُقْدِم أهلُ الكفر وأشرُّهم في هذا الوقت ـ وهو ذو السويقتين ـ ليخرب الكعبة ولينقضها حَجَرًا حَجَرًا !

ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الحج ، باب إهلال النبيِّ ﷺ وهديه (١٢٥٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب هدم الكعبة (١٥٩٦) ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط

أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ : « يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَة » .

وذو السُّويْقَتَيْنِ : تصغير ساق ؛ أي : صاحب الساقين الصغيرين المتباعدين ، فلقد وَصَفَه النبيُّ ﷺ وصفًا دقيقًا ؛ كما في «صحيح البخاري»[(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ : « كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا » .

فذو السويقتين رجلٌ من الحبشة أسود اللون ، أفحج ، متباعد ما بين الساقين ، يأتي في هذا الوقت الذي لا يُقال فيه في الأرض : الله الله ، حيث لا يبقى مسلم على وجه الأرض ، فيخرب الكعبة ، ويَنقِضها حَجَرًا حَجَرًا .

فلا تعارض بين الحديث وبين الآيات السابقة التي تؤكد أمانَ أهل البيت الحرام وبين هدم الكعبة ؛ فهذا يحدث بعد موت المؤمنين في زمنٍ لا يوجد فيه إلا الكفار ؛ كما قال قائل : كيف لم يُمكِّن الله أصحابَ الفيل من الكعبة بنقضها وهدمها مع أن الكعبة في هذا الزمان لم تكن قبلة للمسلمين ، فكيف يُمَكِّنُ الله بعد ذلك الحبشيَّ في نقض الكعبة بعد أن صارت قبلة للمسلمين ؟![(٢)]

والسؤال : أين المسلمون ؟

فلقد قُبِضَتْ أرواحهم آنذاك ، وهذه من العلامات التي تكون بين يدي الساعة ؛ لأن في هذا الزمان قد وقعت العلامات الكبرى كلُّها ، ولم يبق إلا الخسوف والنار ؛ فهذا الزمان ـ على الراجح ـ هو الذي ستهدم فيه

= الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٠٩) ، وقد سبق .

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب هدم الكعبة (١٥٩٥) .

(٢) وقد تقدم ذلك ، وانظر : « فتح الباري » (٣/ ٥٣٩) وما بعدها ط السلفية .

الكعبة ، وستُنْقَضُ حَجَرًا حَجَرًا - كما سبق .

وهؤلاء - أي شرار الخلق - هم الذين يشهدن هذه العلامات الأربع المتبقية ، وهي خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تطرد الناس إلى محشرهم .

*****

العلامات السابعة والثامنة والتاسعة
خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب

الخسف هو : الشق في الأرض والغياب فيها ، وهو معروف (١) ، وهو نوع من أنواع العذاب والنقمة ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص:٨١]

وهذه الخسوف تقع على أكفر أهل الأرض ؛ فليس في هذه المرحلة على وجه الأرض مؤمن موحِّد ؛ فشرار الخلق هم الذين يشهدون الخسوف الثلاثة والنار ، ولم أجد تفصيلًا البتة ؛ لا في كتب التفسير ، ولا في كتب الحديث الصحيحة لكيفية هذه الخسوف ولضحاياها ، وأين ستبدأ .. إلى آخره .

*****

العلامة العاشرة : خروج النار

تخرج النار من اليمن أو من قعر عدن تطرد الناس إلى محشرهم ، وحقيقة هذه النار لا يعلمها إلا الواحد القهار ، هل هي نارٌ من جنس نار الدنيا ؟ هل هي نار من جنس نار الآخرة ؟

ليس لدينا في ذلك دليلٌ ، لا من القرآن ـ ولا من السنة ؛ والثابت في

(١) قال في «اللسان» (مادة خسف ٩/ ٦٧) : « الخسف: سؤوخ في الأرض بما عليها ، وخسف الله به الأرض ، أي: غاب به فيها » .

«صحيح مسلم» هو حديث النبيِّ ﷺ الذي قال فيه : « وآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدِ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ »[(١)] .

وفي رواية البخاريِّ[(٢)] عن أنس بن مالك ﷺ أن عبد الله بن سلام ﷺ لما أسلم سأل النبيَّ ﷺ عن بعض الأمور والمسائل منها ، قال له : مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟...فقال له النبيُّ ﷺ : « أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ » .

ولاحظ أن هذه الرواية ذكرت أن أول أشراط الساعة : هي النار .

أما رواية حذيفة بن أسيد الغفاري فقد صرَّحت بأن آخر أشراط الساعة النار ؛ فكيف الجمع بين الروايتين؟!.

فلا تعارض بين النصَّين ؛ كما قال الحافظ ابن حجر ﷺ[(٣)] : « إن هذه النار هي آخر أشراط الساعة الكبرى » .

وأما الحديث الذي صرَّح بأنها أول أشراط الساعة ؛ فالمراد بذلك : أول أشراط الساعة التي لا يقع بعدها أيُّ أمر من أمورِ الدنيا ، إنما تحدث مراحل الآخرة ؛ كالنفخ في الصور مباشرة ، بخلاف ما ذكر معها ، فإنه يبقى بعد كلِّ آيةٍ منها أشياء من أمور الدنيا .

فتخرج هذه النار من اليمن أو من قعر أو قعرت عدن ، ثم تنتشر النار في الأرض ، وتسوقُ الناسَ إلى أرض المحشر التي سيحشرون عليها على ثلاثة أفواج :

---

(١) سبق تخريجه ، في « صحيح مسلم » من حديث حذيفة بن أسيد ﷺ .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته (٣٣٢٩) وانظر أطرافه هناك .

(٣) « فتح الباري » (١٣/ ٨٢) ط المعرفة بتصرف .

الفوج الأول : فوج راغبون طاعمون كاسون راكبون .

الفوج الثاني : فوج يمشون تارة ، ويركبون تارة ، يتعاقبون على البعير الواحد .

والفوج الثالث : فوج تحشرهم النار فتحيط بهم من ورائهم ، وتسوقهم من كل جانب إلى أرض المحشر ، ومن تخلَّف منهم أكلته النار [١] .

ففي « الصحيحين » [٢] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلاثِ طَرَائِقَ رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ . وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ . وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ ، وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ ، تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا ، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا ، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحَوا ، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا ».

كيف وقد قلنا : إن النار كعلامة لا تخرج إلا على شرار الخلق ؟!

والجواب البديع عند الإمام القرطبيِّ ﷺ في كتاب « التذكرة » [٣] ؛ حيث يقول : « الحشر هو الجمع ، وهو أربعة ، حشران في الدنيا ، وحشران في الآخرة ، الحشر الأول هو : المذكور في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ

(١) انظر : « أشراط الساعة » ، ليوسف الوابل (٤٢٠) « والنهاية في الفتن والملاحم » ، لابن كثير (١/ ٢٣٠، ٢٣١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب الحشر (٦٥٢٢) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦١) .

(٣) انظر: « التذكرة » ، للقرطبي (١٧٩)ط فياض ، و « فتح الباري » (١١/ ٤٤٢) ط الحديث بتصرف .

يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٢-٤] » .

فهذا هو الحشر الأول من حَشْرَي الدنيا .

أما الثاني فهو : الحشر المذكور في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري (١) أن النبيَّ ﷺ قال : « وآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ اليَمَنِ ،تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ » .

فلا تعارض إذًا ، وبذلك يُفهم من حديث أبي هريرةَ السابق أن الحشر الوارد في الحديث يكون في الآخرة .

ففي حديث حذيفة الحشر في الدنيا لشِرار الخَلْق .

أما الحشر الثالث في « الصحيحين » من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ ، فهو نوع من أنواع الحشر ، أو هو الحشر الثالث الذي لا يكون إلا بعد قيام القيامة بعد نفخة إسرافيل في الصور ، نفخة البعث ، ليخرج الناس بعد ذلك من قبورهم ليُحْشروا إلى أرض المحشر التي سيحاسبون فيها على أعمالهم بين يدي الله .

أما الحشر الثالث : فهو حشر الأموات من قبورهم وغيرها بعد البعث ليقفوا جميعًا بين يدي الله تعالى ؛ كما في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧] .

أما الحشر الرابع : فهو حشر الناس بعد الحساب إما إلى الجنة ، وإما

---

(١) سبق تخريجه .

إلى النار ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم:٨٥، ٨٦] .

وروى أحمد والنسائيُّ والحاكم (١) عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال : قام أبو ذر رضي الله عنه فقال : « يَا بَنِي غِفَارٍ ،قُولُوا وَلاَ تَخْتَلِفُوا ، فَإِنَّ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ حَدَّثَنِي : « أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ عَلَى ثَلاَثَةِ أَفْوَاجٍ : فَوجٌ رَاكِبِينَ طَاعِمِينَ كَاسِينَ ، وَفَوْجٌ يَمْشُونَ وَيَسْعَوْنَ ، وَفَوْجٌ تَسْحَبُهُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَتَحْشُرُهُمْ إِلَى النَّارِ ». فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : هَذَانِ قَدْ عَرَفْنَاهُمَا ، فَمَا بَالُ الَّذِينَ يَمْشُونَ وَيَسْعَوْنَ ؟ قَالَ :« يُلْقِي الله الآفَةَ عَلَى الظَّهْرِ ـ أي : ظهر الدواب ـ حَتَّى لاَ يَبْقَى ظَهْرٌ ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ لَهُ الْحَدِيقَةُ الْمُعْجِبَةُ ، فَيُعْطِيهَا بِالشَّارِفِ ـ أي : الناقة المسن أو الهرمة ـ ذَاتِ الْقَتَبِ فَلاَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا ».

وهذا دليلٌ على أن هذا الحشر يكون في الدنيا ؛ لا حشر الآخرة ، كما قال جمهور العلماء ؛ كالقرطبي ، وابن كثير ، وابن حجر ، وهو الذي تدل عليه النصوص .

قال النوويُّ رحمه الله (٢) : « قال العلماء : وهذا الحشر في آخر الدنيا قبيل القيامة ، وقبيل النفخ في الصور ، بدليل قوله ﷺ : « تَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ ،

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٦٤، ١٦٥) ، والنسائي ، كتاب الجنائز ، باب البعث (٢٠٨٥) ، و«الكبرى » (٢٢١٣) ، والحاكم (٤/ ٥٦٤) وقال : « حديث صحيح الإسناد إلى الوليد بن جميع ،ولم يخرجاه» ، وقال الذهبيُّ «الوليد قد روى له مسلم متابعة ، واحتج به النسائيُّ» وضعفه الألبانيُّ في « ضعيف سنن النسائي » وقال الشيخ شعيب في تحقيقه للمسند: «إسناده قوي» .

(٢) « شرح النووي » لمسلم (٩/ ٢١٢) ط الحديث .

تَبِيتُ مَعَهُمْ وَتَقِيلُ ، وَتُصْبِحُ وَتُمْسِي ».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (١) : « قال الخطابيُّ : هذا الحشر يكون قبل قيام الساعة ، تحشر النار الناس أحياء إلى الشام .. قال : وصوَّبَ عياضٌ ما ذهب إليه الخطابيُّ وقوَّاه بحديث حذيفة بن أسيد .. إلى أن قال : « وهذا لا تق بأحوال الدنيا ، ومؤكِّد لما ذهب إليه الخطابيُّ » .

قال ابن كثير رحمه الله (٢) : « فهذه السياقات تدلُّ على أن هذا الحشر هو حشر الموجودين في آخر الدنيا من أقطار الأرض إلى محلة المحشر وهي أرض الشام .. وهذا كلُّه مما يدلُّ على أن هذا في آخر الزمان ، حيث الأكل والشرب والركوب على الظهر المشترى وغيره ، وحيث تُهلك المتخلِّفين منهم النار ، ولو كان هذا بعد نفخة البعث لم يبق موت ، ولا ظهرٌ يُشترى ، ولا أكل ولا شرب ، ولا لبس في العرصات » .

والشام هي : أرض المحشر في آخر الزمان ؛ كما جاء في الأحاديث عن رسول الله ﷺ .

روى أحمد والترمذيُّ وأبو يعلى (٣) عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تَخْرُجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ - أَوْ بِحَضْرَمَوْتٍ - فَتَسُوقُ النَّاسَ » قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله ، مَا تَأْمُرُنَا ؟ قَالَ :

---

(١) « فتح الباري» (١١/ ٤٤٣-٤٤٥)ط الحديث .

(٢) « النهاية في الفتن والملاحم » (١/ ٣٢٠، ٣٢١) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ،كتاب الفتن ، باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من قبل الحجاز (٢٢١٧) ، وقال : « حديث حسن غريب صحيح » ، وأحمد في « المسند » (٢/ ٨، ٥٣، ٩٩، ١١٩) ، وأبو يعلى (٩/ ٤٠٥) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٣٦٠٩) ، و«تخريج فضائل الشام » (١١) .

« عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ ».

وروى أحمد والترمذيُّ (١) عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه ، قال : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَيْنَ تَأْمُرُنِي ؟ خِرْ لِي . فقالَ بيَدِهِ نَحْوَ الشَّامِ ،وقَالَه : « إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ رِجَالاً وَرُكْبَانًا ، وَتُجَرُّونَ عَلَى وُجُوهِكُمْ ».

ولقد حثَّ النبيُّ ﷺ على العمل وإن قربت الساعة .

روى أحمد والطيالسي والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ ، وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ ».

وأخبر النبيُّ ﷺ كذلك أن الساعة تقوم بغتة .

روى «البخاريُّ ومسلم» (٣) ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ يَحْلُبُ اللِّقْحَةَ ، فَمَا يَصِلُ الإِنَاءُ إِلَى فِيهِ حَتَّى تَقُومَ ، وَالرَّجُلاَنِ يَتَبَايَعَانِ الثَّوْبَ ، فَمَا يَتَبَايَعَانِهِ حَتَّى تَقُومَ، وَالرَّجُلُ يَلِطُ فِي حَوْضِهِ ، فَمَا يَصْدُرُ حَتَّى تَقُومَ ».

وفي رواية البخاريِّ : « وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » واللفظ له (٥/ ٥) ، والترمذيُّ كتاب تفسير القرآن (٣١٤٣) ، وقال : « حديث حسن » ، وانظر : كتاب الفتن ، باب ما جاء في الشام (٢١٩٢) ، وقال الترمذي : «حديث حسن صحيح» ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٣٠٢) ، « وتخريج فضائل الشام » (١٣) .

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١٩١) و (٦/ ١٨٣، ١٨٤)، والطيالسي في « مسنده » (٢٠٦٨) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٧٩) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٢١٦) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة »(٩) و « صحيح الجامع » (١٤٢٤) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الرقاق ، باب : (٤٠)، (٦٥٠٦)، ومسلم ،كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قرب الساعة (٢٩٥٤).

فَلاَ يَطْعَمُهَا ».

وأخبر النبيُّ ﷺ عن آخر مَنْ يُحْشَر من الناس عند قيام الساعة .

ففي « الصحيحين »[(١)] عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال : « تَتْرُكُونَ الْمَدِينَةَ عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ ، لاَ يَغْشَاهَا إِلاَّ الْعَوَافِ - يُرِيدُ عَوَافِيَ السِّبَاعِ وَالطَّيْرِ - وَآخِرُ مَنْ يُحْشَرُ رَاعِيَانِ مِنْ مُزَيْنَةَ يُرِيدَانِ الْمَدِينَةَ يَنْعِقَانِ بِغَنَمِهِمَا فَيَجِدَانِهَا وَحْشًا - أي : خالية ، وقيل : ذات وحش - حَتَّى إِذَا بَلَغَا ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ خَرَّا عَلَى وُجُوهِهِمَا ».

وبعد ذلك تنتهي الدنيا بحلوِها ومرِّها ، وبحلالها وحرامها ، بخيرِها وشرِّها ، ثم يكون بعد ذلك حشر الآخرة ، الذي يكون بعد نفخة البعث ، وذلك هو الذي قال فيه النبيُّ ﷺ ، كما في « الصحيحين »[(٢)] من حديث عائشة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً » .

وهذا بعد نفخة البعث ؛ لأن هناك نفخة صعق ، ونفخة بعث ، وقبل ذلك سأبين خلافًا في نفخة الفزع .

وبعد هذه العلامة ؛ أي : خروج النار ، تنتهي الدنيا ، وتنتظر الأرض أمر ربها - تبارك وتعالى - لإسرافيل لينفخ في الصور نفخة الفزع أو الصعق ، ليموت شرار الخلق ممن تبقَّى في الأرض ، ثم يأمر الله - تبارك وتعالى - بعد ذلك ، بعد مدة لا يعلمها إلا الله أن ينفخ نفخة البعث ، ليخرج من الأرض حينئذٍ المؤمنون والكافرون من لَدُنْ آدم إلى آخر

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل المدينة ، باب من رغب عن المدينة (١٨٧٤) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب في المدينة حين يتركها أهلها (١٣٨٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب الحشر (٦٥٢٧) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩) .

رجلٍ قامت عليه الساعة ؛ ليقف الجميع بين يدي الله ﷻ مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق:١ـ٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [سورة الزلزلة] ، وقال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [سورة التكاثر] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج:١ـ٣] .

والآيات كثيرة جدًّا كما سأفصل ـ بإذن الله .

فهذه المرحلة من أجلها تُنصب الموازين وتقوم القيامة ؛ فالدنيا ليست سُوقًا انعقد وانفض ، دون أن يقف الجميعُ بعد ذلك بين يدي الحق

تبارك وتعالى للحساب .

كلَّا كلَّا. ولا شك أننا في عصر المادة ، في أمَسّ الحاجة إلى كلام يربط قلوبنا بربنا وبنبينا ﷺ ، ويذكرنا بلحظاتٍ سنقف فيها حفاةً عراةً غرلاً بين يدي الله تعالى ، كلٌّ يتمنى الرجعة والعودة ؛ كما قال تعالى :﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

فهذه اللحظات من أقسى اللحظات على الإنسان ،وَلِمَ لا ؟ وسيقف الجميع على بساط العدل بين يدي ملك الملوك ،وجبار السماوات والأرض ، لا يملك أحدٌ جاهًا ،ولا منصبًا ،ولا مالاً ؛ قال تعالى :﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٣-٩٥] .

فلن ينفعك في هذه اللحظات أي شيء إلا ما قدَّمتَ في دنياك من عمل تُرضي به ربَّ الأرض والسموات .

تذكَّر وقوفك يوم العرض عريانا   مستوحشًا قلِقَ الأحشاءِ حيرانا
والنار تلهَبُ من غيظ ومن حنقٍ   على العصاة ورب العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عَبْدُ على مهل   فهل ترى فيه حرفًا غير ما كانا
فلما قرأت ولم تُنكِرْ قراءَتَهُ   وَأقررت إقْرار مَنْ عَرف الأشياء عرفانا
نادى الجليلُ : خذوه يا ملائكتي   وامضوا بعبدٍ عصى للنار عطشانا
المشركون غدًا في النار يلتهبوا   والمؤمنون حقًّا بدار الخلد سكانا

أسأل الله ﷻ أن يسترنا في الدنيا والآخرة ، وأن يختم لنا بالإيمان ، وأن يرزقنا قبل الموت توبة ،وعند الموت شهادة ،وبعد الموت جنة ونعيمًا ورضوانًا .

صفة يوم القيامة

فإذا خرجتِ النارُ، وساقتِ الناسَ إلى أرض المحشَر ، فقد انتهت العلامات الكبرى للساعة ، وبعدها تقع الساعة مباشرة على شرار الخلق ؛ كما قال النبيُّ ﷺ.

وذلك حين يأمر الله ﷻ إسرافيل أن ينفخ في الصور ، فلا يبقى أحدٌ من أهل الأرض إلا أصغى ليتا ، ورفع ليتا، أي : ينتظر ويتسمع ، ولوّى صفْحَة عنقه وهو مذعورٌ مذهولٌ لهذا الذي وقع في الأرض فهو أمرٌ عظيمٌ ؛كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل:٨٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [ص:١٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر:٨-١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس:٤٨-٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ

رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر:٦٨-٧٠]، وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٣-١٨].

والسؤال الآن: ما الصور؟ ومن هو صاحب الصور الذي سينفخ فيه؟ وما عدد النفخات؟ وما حقيقتها؟

والجواب كما يلي: الصور كما قال النبيُّ ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائيُّ وغيرهم [1] بسندٍ صحيحٍ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ الله، مَا الصُّور؟ قَالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ».

وهو كالبوق، والعرب يطلقون عليه القرن.

وذكر ابن عباس رضي الله عنهما [2] أن الصور هو الناقور الذي ذكره الله تعالى في

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢، ١٩٢)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في ذكر البعث والصور (٤٧٤٢)، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في شأن الصور (٢٤٣٠)، وقال: «حديث حسن»، والنسائي في «الكبرى» (١١٣١٢)، والدارمي (٢٨٠١)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٣١٢)، والحاكم (٢/ ٥٠٦) و(٤/ ٥٦٠)؛ وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٨٦٣)، و«الصحيحة» (١٠٨٠).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ١٧٨) ط أولاد الشيخ، وهو قول مجاهد، والشعبي، وزيد ابن أسلم، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد.

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ [المدثر:٨] ، فالناقور: هو الصور .

وفي حديث الصور الطويل ـ ولا يصحُّ سنده [١] وفيه : «إِنَّ أَعْظَمَ دَارَةٍ فِيهِ كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» . فلا يعلم حقيقة الصور وكيفيته إلا الله تعالى .

يأمر الله تعالى صاحب هذا الصور أن ينفخ فيه ، وصاحب الصور باتفاق هو : إسرافيل عليه السلام ، وهو ملكٌ كريمٌ من الملائكة ، قد وكَّله الله تعالى بالنفخ في الصور ، ولذا فهو مستعدٌّ دائمًا منذ أن خلقه الله ﷻ وكلَّفه بذلك ، مستعدٌّ في أيِّ لحظة يؤمر فيها من الله ﷻ لينفخ في الصور .

ففي الحديث الذي رواه الحاكم [٢] ، وصحَّحه وأقرَّه الذهبيُّ والألبانيُّ من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ طَرْفَ صَاحِبِ الصُّورِ مُذْ وُكِّلَ بِهِ مُسْتَعِدٌّ يَنْظُرُ نَحْوَ العَرْشِ مَخَافَةَ أَنْ يُؤْمَرَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ كَأَنَّ عَيْنَيْهِ كَوْكَبَانِ دُرِّيَانِ » .

وفي لفظٍ : « مَا طَرْفَ صَاحِبُ الصُّورِ مُذْ وُكِّلَ بِهِ مُسْتَعِدًّا يَنْظُرُ نَحْوَ العَرْشِ مَخَافَةَ أَنْ يُؤْمَرَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ كَأَنَّ عَيْنَيْهِ كَوْكَبَانِ دُرِّيَانِ » .

وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي [٣] ، وصححه شيخنا الألبانيُّ

---

(١) سيأتي تخريجه ، وقد مرَّ كذلك .

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٦٠٣) ط الكتب العلمية ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، وقال الذهبيُّ : « على شرط مسلم » ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٩٩) ، و انظر : « مختصر العلو » للذهبيِّ (١/ ٧٥) ، وصححه الألبانيُّ في « الصحيحة » (١٠٧٨) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ، باب ما جاء في شأن الصور (٢٤٣١) وقال : «حديث حسن» ، وفي كتاب التفسير (٣٢٤٣) ، وأحمد (٣/ ٧) ، والحاكم (٤/ ٦٠٣) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٨٨٦) ، والحميدي (٧٥٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٢٠٠) ، و«الصغير» (٤٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٥٢) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠٥) ، (٧/ ٣١٢) ، وابن حبان (٨٢٣) ، وأبو يعلى في «مسنده» (١٠٨٤) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدِ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ فَيَنْفُخَ ».

وفي رواية: فكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النبيِّ ﷺ، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: فَكَيْفَ نَقُولُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: « قُولُوا: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، تَوَكَّلْنَا عَلَى الله رَبِّنَا ».

وقد أخبرنا النبيُّ ﷺ باليوم الذي سينفخ فيه في الصور.

ففي الحديث الذي رواه مسلم[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ ».

وفي رواية أبي داود والنسائيِّ وابن ماجه[2] عن أوس بن أوس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ ». قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ تُعْرَضُ

= في « صحيح الجامع » (٤٥٩٢) و « الصحيحة » (١٠٧٩)، ورُوي الحديث عن ابن عباس، وزيد بن أرقم، وأنس، وأبي هريرة ـ رضي الله عنهم جميعًا.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة (٨٥٤).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة (١٠٤٧)، والنسائي كتاب السهو، باب إكثار الصلاة على النبيِّ ﷺ يوم الجمعة (١٣٧٣)، وابن ماجة، كتاب الإقامة، باب في فضل يوم الجمعة (١٠٨٥)، والدارمي (١٥٧٢)، وأحمد (٤/ ٨) وابن خزيمة في « صحيحه » (١٧٣٣)، وابن حبان (٩١٠) وصححه الشيخ الألبانيُّ في « المشكاة » (١٣٦١) و« صحيح الجامع » (٢٢١٢) و« صحيح الترغيب » (٦٩٨).

صَلاَتُنَا عَلَيْكَ ، وَقَدْ أَرِمْتَ ؟ يَقُولُونَ : بَلِيتَ . فَقَالَ : « إِنَّ اللهَ ﷻ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ » صلوات الله عليهم .

بعد أن تعرفنا على الصور ، وعلى النافخ فيه ، يأمر الله إسرافيل أن ينفخ في الصور . ولكن يا تُرى ما عدد النفخات ؟

والمسألةُ فيها خلاف بين أهل العلم .

فمن أهل العلم مَنْ قال :بأن إسرافيل ينفخ في الصور نفختين اثنتين ، هما : نفخة الصعق ونفخة البعث ، وجمع أهل العلم من أنصار هذا الرأي بين نفخة الفزع ونفخة الصعق ، وقالوا : بأن الصعق يستلزم الفزع ، وتبنَّى هذا القول الإمام القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ والحافظ ابن حجر وغيرهما .

والقول الثاني : وهو الذي أرجِّحُه وأميل إليه ــ وهو أن إسرافيل ينفخ في الصور ثلاث نفخات :

الأولى :نفخة الفزع .

والثانية :نفخة الصعق .

والثالثة :نفخة البعث .

فنفخة الفزع ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾[النمل:٨٧] .

والنفخة الثانية : نفخة الصعق ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[الزمر:٦٨] .

والنفخة الثالثة : كما قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] .

وقد انتصر لهذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية ، والحافظ ابن كثير ، والإمام ابن العربي ـ رحمهم الله جميعًا ـ وغيرهم ، وهذا الذي يستريح له القلب بنصّ القرآن(١) .

وأما ما احتجَّ به أهل العلم من أنصار الرأي الأول بالحديث المذكور(٢) أن بين النفختين أربعين يومًا أو شهرًا أو سنةً ؛ فلا يفهم منه البتة أن النبيَّ ﷺ قد حدَّد النفخ بنفختين اثنتين فقط ، وإنما كلُّ ما يُفهم من الحديث هو : أن النبيَّ ﷺ ذكر مُدَّة لا يعلمها إلا الله .

هل هي أربعون يومًا أو شهرًا أو سنةً بين كلِّ نفختين قد تكون بين النفخة الأولى نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، أو بين النفخة الثانية والثالثة (أي : بين نفختي الصعق والبعث) .

النفخة الأولى : هي نفخة الفزع ، وهي أول شيء يطرقُ أهلَ الدنيا من شرار الخلق بعد وقوع أشراط الساعة الكبرى ؛ فلا يَبْقَى أحدٌ إلا رفع ليتا ، وأصغى ليتًا ، أي : يرفع صفحة عنقه ويميل الأخرى ، ينظر

---

(١) انظر : «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٦٠) ، (١٦/ ٣٦) ، و «عمدة القاري» ، للبدر العيني (٢٣/ ٩٩) ، و«فتح الباري» (١١/ ٤٣٣ ، ٤٣٤) ط الحديث ، و«تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤٣٧) ط أولاد الشيخ ، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٢٢٣) ط التوفيقية ، و(١٣/ ١٩٤) . و « التذكرة » (١٦٦) ط فياض .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجًا (٤٩٣٥) ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ما بين النفختين (٢٩٥٥) ولفظه : عن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال : «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قالوا : يا أبا هريرة ! أَرْبَعُونَ يَوْمًا ؟ قَالَ : أَبَيْتُ. قَالُوا : أَرْبَعُونَ شَهْرًا ؟ قَالَ : أَبَيْتُ. قَالُوا : أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : أَبَيْتُ. « ثُمَّ يُنْزِلُ الله مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ » قَالَ : « وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى . إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

ويسمع ما الذي جرى من أمور عظيمة تقع في الأرض لأول مرة ؟!

قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[الزمر:٦٨] .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن المستثنى في الآية هم الأنبياء ، ومنهم من قال هم : الشهداء ، ومنهم من قال : الملائكة .. وغير ذلك من الأقوال [١].

والصَّحيحُ : أنه لم يرد في تعيينهم خبرٌ صحيح ، وسأذكر حديث الصور الطويل الضعيف حتَّى لا يحتج به أحدٌ علينا بعد ذلك .

وهذا العلم لا يُنال إلا من طريق الوحي ، فما سكت الله عنه ورسوله فلسنا في حاجة نحن أن نبحث عنه ؛ فإذا نفخ إسرافيل في الصور هذه النفخة يفزع أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله .

ولِمَ لا ؟ والكون كلُّه قد أُصيب بعد هذه النفخة بخلخلةٍ عنيفةٍ ، وزلزلة مروِّعةٍ انفكَّت بها كلُّ صِلاته ، وانحلَّت بها كلُّ عُراته ؛ فالسماء تتفطَّر ، والكواكب تتناثر ، والجبال تتفتت ، وتصبح كالعهن المنفوش ، والبحار تتأجج ، وتتحوَّلُ إلى نارٍ مشتعلةٍ متأججة !!

وقد ذكر الله ﷻ جُلَّ هذه المشاهد في أوائل سور التكوير والانفطار والانشقاق .

ففي «مسند» أحمد و«سنن» الترمذي و«مستدرك» الحاكم [٢]،

---

(١) انظر : المصادر السابقة .

(٢) أخرج الترمذيُّ ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة «إذا الشمس كورت» (٣٣٣٣) وقال : «حديث حسن» ، وأحمد (٢/ ٢٧) ، والحاكم (٤/ ٥٧٦) وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٠٨١) و«صحيح الجامع» (٦٢٩٣) .

وغيرهم بسندٍ صحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ ، فَلْيَقْرَأْ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ».

وقوله تعالى : ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي : ذهب ضياؤها ، وأظلمت ، وجمع بعضها إلى بعض ، ثم لُفَّت ، فرُمي بها .

وقوله : ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي : انتثرت ، وتساقطت ، وتغيرت .

وقوله : ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: اندكَّت بالأرض ، وصارت كالعهن المنفوش ، وزالت عن أماكنها ونُسِفت .

قال تعالى : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٥-١٠٧] .

وقوله : ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ العشار هي : النوق ، وهي من أغلى ما يمتلكه العربيُّ في أرض الجزيرة ، فإذا وقع هذا الأمر لا يلتفت أحدٌ إلى مثل هذه النوق ، ولا لأي شيء .

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي : جُمعت ، وأقبلت ذليلةً منكسرة .

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي : صارت نارًا مشتعلة متأججة .

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي : قرنت بأجسادها ، وعادت إليها ، أو قرن المؤمنون بعد ذلك بالحور العين ، وقرن الكافرون بالشياطين .. على خلاف بين المفسرين في ذلك.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي : فتحت ، وتطايرت للقراءة . يُعْطَى كلُّ إنسانٍ صحيفته بيمينه أو بشماله .

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أي : طويت بيد الملائكة كطيِّ السجل للكتب .

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي : وقدت نارها ، وتأججت واشتعلت ، والله تعالى يقول : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[ق:٣٠] .

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي : قربت ، وأدنيت لأهلها من المؤمنين .

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ أي : ما قَدَّمت من عمل في هذه الدنيا ؛ كما قال تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] ، وقال تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧] ، وقال تعالى : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:١-٦] ، وقال تعالى : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق:١-٥]

آيات تهزُّ قلوب الغافلين . تحتاج إلى تدبر !

ورحم الله تعالى مَنْ قال :

مَثِّــل لنفســك أيهــا المغــرور ... يــوم القيامــة والسمــاء تمــور

إذا كُوِّرت شمسُ النهار وأدنيت ... حــرًّا عــلى رأس العبــاد تسـير

وإذا النجـوم تسـاقطت وتنـاثرت ... وتبــدَّلت بعــد الضيــاء كــدور

وإذا الجبـــال تقلَّعــت بأصــولها ... فرأيتهــا مثــل الســحاب تســير

وإذا العشار تعطلت وتخربت ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحشرت ... وتقول للأملاك أين نسير
وإذا الصحائف نشرت وتطايرت ... وتهتكت للعالمين ستور
وإذا الجليل طوى السما بيمينه ... طيَّ السِّجِلِّ كتابه المنشور
وإذا الوليد بأمه متعلق ... يخشى القصاص وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف جناية ... كيف المصرُّ على الذنوب دهور
وإذا الجحيم تسعَّرت نيرانها ... ولها على أهل الذنوب زفير
وإذا الجنان تزخرفت ... لفتىً على طول البلاء صبور

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ [الحج:١، ٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ۝ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٤] ، وقال سبحانه : ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [مريم:٣٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨] .

وفي حديث الصور الطويل الذي رواه البيهقيُّ وأبو يعلى والطبراني وابن جرير الطبري وابن أبي حاتم [(١)] وغيرهم من طريق إسماعيل بن رافع وهو قاضي أهل المدينة، وقد تُكلِّم فيه.

وفي بعض سياقه نكارة واختلاف.

فقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى [(٢)]: إسماعيل بن رافع المديني ليس في الوضّاعين، وكأنه جمع هذا الحديث من طرق وأماكن متفرقة، فجمعه وساقه سياقة واحدة؛ فكان يقص به على أهل المدينة، وقد حضره جماعة من أعيان الناس في عصره، ورواه عنه جماعة من الكبار؛ كأبي عاصم النبيل، والوليد بن مسلم، ومكي بن إبراهيم، ومحمد بن شعيب بن شابور، وعبدة بن سليمان .. وغيرهم.

واختلف عليه؛ فتارة يقول: عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب عن رجل عن أبي هريرةَ، وتارة يسقط الرجل، وقد رواه إسحاق بن راهويه عن عبده بن سليمان عن إسماعيل بن رافع عن محمد بن زياد عن

---

(١) أخرجه الطبراني في «الطوالات» الجزء المطبوع في آخر «المعجم الكبير» (٢٥/ رقم٣٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨)، وابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٥٥، ٦٤، ٧١)، والطبري في «التفسير» (٤/ ٤٠٣٩) ط شاكر، (٢٠/ ١٨، ١٩)، (١٩/ ٣٠) ط الحلبي، والبيهقي في «البعث» (٦٠٩)، وفي «الشعب» (١/ ٣٥٣) وعزاه ابن كثير في «النهاية» (١/ ٢٢٧) لأبي يعلى في «الكبير»، وكذلك الحافظ ابن حجر؛ كما في «الفتح» (١١/ ٣٦٨)، وضعَّفه الشيخ الألبانيُّ في تعليقاته على «الطحاوية» (٢٣٢) ونسبه السيوطيُّ في «الدر المنثور» (٥/ ٦٣٤) إلى عبد بن حميد وعلي بن سعيد في «كتاب الطاعة والعصيان» وأبي الحسن القطان في «المطولات»، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي موسى المديني كلاهما في «المطولات» وأبي الشيخ في «العظمة»، والبيهقي في «البعث والنشور».

(٢) «النهاية في الفتن والملاحم» (١/ ٢٣٤، ٢٣٥)، وانظر: كلامه كذلك في «التفسير» (لسورة الأنبياء: ٧٣).

أبي زياد عن رجل من الأنصار عن محمد بن كعب عن رجل من الأنصار عن أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ ...

وقال الحافظ أبو موسى المديني ـ بعد إيراده للحديث بتمامه : « وهذا الحديث وإن كان في إسناده من تُكلِّم فيه ، فعامة ما فيه يُروى مفرقًا من أسانيد ثابتة » .

فالحديث إسناده ضعيف ؛ ولفظه هو : عن أبي هريرةَ ﷺ قال : حدَّثنا رَسُولُ الله وَهُوَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : « إِنَّ اللهَ لَمَّا فَرَغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، خَلَقَ الصُّورَ فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَى فِيهِ شَاخِصًا بَصَرُهُ إِلى العَرْشِ ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ » . قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ؛ وَمَا الصُّورُ ؟ قَالَ : « القَرْنُ » . قُلْتُ : كَيْفَ هُوَ؟ قَالَ : « عَظِيمٌ ، وَالذي بَعَثَني بِالحَقِّ ، إِنَّ أَعْظَمَ دَارَةٍ فِيهِ كَعَرْضِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يُنْفَخُ فِيهِ ثَلاثُ نَفَخَاتٍ ؛ النَّفْخَةُ الأُولَى : نَفْخَةُ الفَزَعِ ، وَالثَّانِيَةُ : نَفْخَةُ الصَّعْقِ ، وَالثَّالِثَةُ : نَفْخَةُ القِيَامِ لِرَبِّ العَالَمِينَ ، يَأْمُرُ اللهُ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الأُولَى ، فَيَقُولُ : انْفُخْ ، فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ الفَزَعِ ، فَيَفْزَعُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ، وَيَأْمُرُهُ فَيطِيلُهَا وَيُدِيمُهَا ، وَلاَ يَفْتُرُ ، وَهِيَ كَقَوْلِ اللهِ : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [ص:١٥] ، فَتَسِيرُ الجِبَالُ ، فَتَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، فتكُونُ سَرَابًا ، ثُمَّ تُرَجُّ الأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجًّا فَتَكُونُ الأَرْضُ كَالسَّفِينَةِ المَرْمِيَّةِ فِي البَحْرِ تَضْرِبُهَا الأَمْوَاجُ ، تَكْفَأُ بِأَهْلِهَا كَالقِنْدِيلِ المُعَلَّقِ بِالعَرْشِ تُرَجْرِجُهُ الرِّيَاحِ ، وَهِيَ الذِي يَقُولُ اللهُ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات:٦ــ٨] فَيَمِيدُ النَّاسُ عَلَى ظَهْرِهَا فَتَذْهَلُ المَرَاضِعُ ، وَتَضَعُ الحَوَامِلُ ، وَيَشِيبُ الوِلْدَانُ ، وَتَطِيرُ

الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً حَتَّى تَأْتِي الأَقْطَار ، فَتَأْتِيهَا المَلاَئِكَةُ فَتَضْرِبُ وُجُوهَهَا فَتَرْجِعُ ، وَيُوَلِّي النَّاسُ مُدْبِرِينَ ، مَا لَهُمْ مِنْ أَمْرِ الله مِنْ عَاصِمٍ ، يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَهِوَ الذِي يَقُول الله: ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر:٣٢، ٣٣] فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ ؛ إِذْ انْصَدَعَتِ الأَرْضُ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، فَرَأَوْا أَمْرًا عَظِيمًا لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ ، وَأَخَذَهُمْ لِذَلِكَ مِنَ الكَرْبِ وَالهَوْلِ ما الله بِهِ عَلِيمٌ ، ثُمَّ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ ، فَإِذَا هِيَ كَالمُهْلِ ، ثُمَّ انْشَقَّتِ السَّمَاءُ ،فَانْتَثَرَتْ نُجُومُهَا ، وانْخَسَفَتْ شَمْسُهَا وَقَمَرُهَا » .

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « وَالأَمْوَاتُ لاَ يَعْلَمُونَ بِشَيءٍ مِنْ ذَلِكَ » .

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : يَا رَسُولَ الله ، مَنِ اسْتَثْنَى الله عز وجل حِينَ يَقُولُ :

﴿ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [النمل:٨٧] ؟

قال : « أُولَئِكَ الشُّهَدَاءُ ، وَإِنَّمَا يَصِلُ الفَزَعُ إِلَى الأَحْيَاءِ ، وَهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ وَقَاهُمْ الله فَزَعَ ذَلِكَ اليَوْمِ وآمَنَهُمْ مِنْهُ ، وَهُوَ عَذَابُ الله يَبْعَثُهُ عَلَى شِرَارِ خَلْقِهِ ، وَهُوَ الذِي يَقُول الله عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج:١، ٢] فَيَكُونُونَ فِي ذَلِكَ البَلاءِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَطُولُ ...» إلى آخر هذا الحديث الطويل .

• إذًا هذه النفخة يفزع بعدها أهل السماء والأرض إلا ما شاء الله ، وتُحدث هذه النفخة هذا التغيير الكونيَّ الهائل ، وبعد مُدَّةٍ لا يعلمها إلا الله يأمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ في الصور النفخة الثانية ألا وهي : نفخة الصعق .

قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر:٦٨] .

روى البخاريُّ ومسلم (١) من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ » . قَالُوا : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، أَرْبَعُونَ يَوْمًا ؟ قَالَ : أَبَيْتُ ، قَالُوا : أَرْبَعُونَ شَهْرًا ؟ قَالَ : أَبَيْتُ ، قَالُوا : أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : أَبَيْتُ » . أي : أبيت أن أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك .

فعِلْمُ ذَلِكَ عند الله تعالى .

يأمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ في الصور النفخة الثانية ، ألا وهي : نفخة الصعق ؛ فيموت كلُّ مَنْ فِي السموات ، وكلُّ من في الأرض إلا من شاء الله تعالى .

وفي الحديث الطويل الذي رواه مسلم (٢) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ وفيه أن النبيَّ ﷺ قال : « ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَصْغَى لِيتًا . وَرَفَعَ لِيتًا ، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ ؛ فَيَصْعَقُ ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ » .

وقد اختلف أهل العلم (٣) فيمن استثناهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ في قوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر:٦٨] .

---

(١) سبق تخريجه قريبًا .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤٠) .

(٣) سبقت الإشارة إليه .

فقال بعضهم : هم الملائكة ، قاله ابن حزم وغيره ، وقال مقاتل وغيره : هم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت .

وقال بعض أهل العلم : هم الشهداء ؛ فإن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

ومنهم من قال : إنهم الحور العين ، قاله الإمام أحمد وغيره .

ومن أهل العلم من قال : إن المستثنى في هذه الآية هو نبيُّ الله موسى ، واستدلوا على ذلك بحديث رواه البخاريُّ ومسلم [(١)] من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَنْبَ الْعَرْشِ ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي ، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى الله » .

وهناك أقوالٌ كثيرةٌ حاصلُها ؛ كما قال الحافظ ابن حجر : عشرة أقوال ، ذكرها في « الفتح » في كتاب الرقاق ، باب نفخ الصور [(٢)] .

والراجح ، والله أعلم ، أن النبيَّ ﷺ قد توقَّف في نبيِّ الله موسى ، وهل هو داخلٌ فيمن استثناهم الله عز وجل أم لا ؟ فلا ينبغي لأحدٍ من أهل العلم أن يجزم بأنهم كذا أو كذا أو كذا .

ولا ينبغي لأحدٍ أن يتكلَّم في ذلك إلا بدليل ؛ فهذا من العلم الذي لا ينال إلا بالخبر الصحيح عن النبيِّ ﷺ .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الخصومات ، باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي (٢٤١١) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل موسى ﷺ (٢٣٧٣) .

(٢) « فتح الباري » (١١/ ٤٣٤، ٤٣٥) ط الحديث .

ولم يبلغنا حديثٌ صحيحٌ فيمن استثناهم الله ﷻ في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[الزمر:٦٨] .

بعد ذلك إذا مات مَنْ في السموات ومن في الأرض إلاَّ من شاء الله تعالى ، يَبْقى الله ﷻ ، وهو الحيُّ القيوم الذي لا يموت ؛ كما في « الصحيحين »[(١)] من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « يَقْبِضُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ ؟ » .

وفي روايةٍ لمسلم عن عبد الله بن عمر[(٢)] ﵄ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يَقُولُ الله ﷻ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ » .

وصدق من قال :

أين الظالمون ؟ وأين التابعون لهم ... في الغيِّ ؛ بل أين فرعون وهامان
أين من دوَّخوا الدنيا بسطوتهم ... وذكرهم في الورى ظلم وطغيان
هل أبقى الموت ذا عزٍّ لعزّته ... أوْ هل نجا منه بالسلطان إنسان
لا والذي خلق الأكوان من عَدَمٍ ... الكلُّ يفنى فلا إنس ولا جان

وصدق الله ﷻ إذ يقول : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[الرحمن:٢٦، ٢٧] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ (٤٨١٢) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٨) .

وصدق من قال :

أيَـا مـن يـدَّعي الفهـم إلى كـم يـا أخـي الـوهم

تتبـع الـذنب بالـذنب وتُخْطـي الخطـأ الجـم

أمَـا بـان لـك العيـب أمـا أنـذرك الشـيب

وما في نصحه ريب

أمـا نـادى بـك المـوت أمـا أسـمعك الصـوت

أمـا تخشـى مـن الفـوْت فتحتـاط وتهـتم

فكـم تسـير في السـهو وتختـال مـن الزهـو

وتـنفض إلى اللهـو كـأن المـوت مـا عـم

كـأني بـك تـنحط إلى اللحـد وتـنغط

وقـد أسـلمك الـرهط إلى أضـيق مـن سـم

هنـاك الجسـم ممـدود ليسـتأكله الـدود

إلى أن ينخـر العـود ويُـمْسِي العظـمُ قَـدْ رم

فـزوِّد نفسـك الخـير ودَعْ مـا يُعْقـب الضـير

وهيِّـئ مَركـب السـير وخـف مـن لجَّـة الـيم

لـذا أوصـيك يـا صـاح وقـد بُحـتُ كَمَـنْ بَـاحَ

فطـوبى لفتـىً راح بـآداب محمـد يـأتم

وصدق الآخر إذ قال :

كـلُّ بـاكٍ فَسَـيُبْكَى وكـلُّ نـاعٍ فسـيُنعى

وكـــلُّ مـــذخور ســـيفنى وكـــل مـــذكورٍ سيُنسَـــى
لـــيس غـــير الله يبقـــى مـــن عـــلا ؛ فـــالله أعـــلى

فتصوَّر هذه اللحظات المهيبة ، وهذا السكون الرهيب ، وهذا الخشوع للكون كلِّه لجلال الله تعالى الحيِّ القيوم ﷻ ؛ فالله يقول : أين المتكبرون ؟ أين المتجبرون ؟ ؛ فيقول : لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهَّار .

قال تعالى : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٥، ١٦] .

إنها الحقيقة الكبرى التي يسقط عندها جبروت المتجبرين ، وعناد الملحدين المجرمين !!!

إنها الحقيقة التي تصبغ الحياة البشرية كلها بصِبْغة الذلِّ والعبودية لقهَّار السموات والأرض !!! إنها الحقيقة التي تُعلن على مدى الزمان والمكان في أُذن كلِّ حاكمٍ ، ووزيرٍ ، وأمير ، وغنيٍّ ، وفقير ، أنه لا بقاء إلا للملك القدير ﷻ حيث يقول : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧] .

وهنا يأمر الله ﷻ إسرافيل بالنفخة الثانية ألا وهي : « نفخة البعث » بعد أربعين يومًا أو شهرًا أو سنةً عِلْمُ ذلك عند الله ـ كما ذكرنا ـ كما في حديث أبي هريرةَ ؓ الذي في « الصحيحين » المتقدم .

وفي الحديث الذي رُواه مسلم [١] من حديث عبد الله بن عمرو

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا .

ﷺوفيه : أن النبيَّ ﷺ قال : « ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَصْغَى لِيتًا . وَرَفَعَ لِيتًا . وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ ، فَيَصْعَقُ ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ . ثُمَّ يُرْسِلُ الله - أَوْ قَالَ : يُنْزِلُ الله - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - أي : كمنيِّ الرجال - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ !! هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ».

وروى البخاريُّ ومسلم [١] عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا ، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ ».

وعَجْبُ الذَّنَبِ [٢] : عظْمة دقيقة جدًّا أسفل العمود الفقريِّ لا تزيد عن حبة العدس ، يجمع الله ﷻ حول هذه المنطقة - والله يعلم عظمة كلِّ إنسان خلَقَه من آدم إلى آخر رجل قامت عليه الساعة - فيجمع الله ﷻ حول هذه العظمة جسد صاحبها ، لا يأتي الله بجسد آخر لعظم آخر ، لا . بل يأتي بكلِّ جسدٍ لكلِّ رجل ، وكلِّ امرأة ، وكلِّ إنسان ما تفرق

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « التفسير » ، باب يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجًا (٤٩٣٥) ، وانظر رقم (٤٨١٤) ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ما بين النفختين (٢٩٥٥) .

(٢) ومن أجمل ما وقفت عليه مؤخرًا : أن عالمًا أمريكيًا يسمى « أنتوني جوستن » قدم بحثًا علميًا لمؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المنعقد في دورته الثامنة في دولة الكويت يؤكد فيه بالدليل العلمي أن عجب الذنب يحتوي على نوع من الخلايا تعرف بالخلايا الجزعية ، ووجد أن الخلية تحمل برنامجًا وراثيًا كاملًا لتكوين الجسم الإنساني حولها مرة أخرى ، والعجيب أن وُجِد نفس الخلايا الجزعية في منطقة النخاع لكنها لا تحمل نفس البرنامج الوراثي . ثم أخذ خليتين من منطقة عجب الذنب ومن منطقة النخاع وحقنهما في رأس ضفدعة فوجد الخلية التي أخذت من منطقة عجب الذنب تهاجر إلى مكانها بينما لم تهاجر الخلية الأخرى التي أخذت من منطقة النخاع ، وصلى الله وسلم وبارك على الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى .

منه في التراب أو البحار أو الأنهار أو في بطون الحيوانات أو السباع ؛ فيكون الإنسان بعدما ينزل الله المطر الذي أخبر النبيُّ ﷺ أنه كالطل ، وتنبت منه الأجسام في القبور ، كما ينبت البقل ، فيكتمل الجسم حول العظمة في القبر ؛ ليكون على الهيئة التي مات عليها الإنسان يوم مات ، طوله ، وعرضه ، وشكله ، ولونه ، وقوته ، وعمره .

وبعد ذلك يأمر الله ﷻ إسرافيل أن ينفخ في الصور نفخة البعث ، وفيها قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر:٦٨] .

وفيها قول الله : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس:٥١-٥٤] ؛ وفيها قال الله تعالى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [ق:٤١، ٤٢] ؛ وفيها قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر:٦-٨] ؛ وفيها قال الله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [سورة الزلزلة] .

نعم أيتها العظام البالية ! أيتها الأوصال المتقطعة ! أيتها العظام النخرة ! يا أكفانًا فانية ، ويا قلوبًا خاوية ، ويا أبدانًا فاسدة ، ويا عيونًا سائلة ، أيها الناس جميعًا في القبور ، حان وقت القيام لفصل القضاء بين يدي الملك الغفور .

انظر وتخيل هذا المنظر الذي يخلع القلوب ؛ فالأرض تنشق هنا وهنالك ، وهذا يخرج من هنا ، وهذه تخرج من هنالك ، والقبور كلُّها تنشق ، والناس يخرجون كيوم ماتوا ، والكلُّ شاخصٌ ببصره ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، بل خاشعًا ببصره قد أصغى السمع لم يلتفت ؛ لأنه يتبع هذا الداعي الكريم الذي جاء من قِبَل مَلِك الملوك ﷻ ؛ ليقود البشرية إلى أرض المحشر ، إلى المكان الذي سيُسْأَلون فيه بين يدي الحق ﷻ .

وتدبر قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه:١٠٨-١١١] .

وقضية البعث بعد الموت أمرٌ لا شك فيه ، ولا مراء فيه ، ومع ذلك فهناك من الكافرين ، ومن المكذبين المعاندين من أنكر قضية البعث بعد الموت ، وقالوا بأن الحياة تنتهي بالموت ! ولا بعث ! ولا حشر ! ولا حساب ! ولا ميزان ! ولا صحف ! ولا صراط ! ولا جنة ! ولا نارًا !!

ووالله لو كان الأمر كذلك لظلم من شاء أن يظلم دون أن يرتدع ، ولأكل الحرام من شاء أن يأكل دون أن يرتدع ، لكن فليعلم أهل

الأرض من الظالمين والمتجبرين ؛ بل ومن المؤمنين والمذنبين ؛ فليعلم الجميع أن بعد الموت بعثًا ، ويكون بعد البعث حشرًا ، وبعد الحشر حسابًا ، وميزانًا وسؤالًا ، وبعد الموازين صراطًا ، وبعد الصراط قنطرةً لأهل الإيمان ، ثم بعد ذلك جنةً أو نارًا . نسأل الله عفوه ورضاه .

فالحياة في الدنيا موقوتةٌ محدودةٌ بأجلٍ ، ثم تأتي نهايتها ليقف الجميع بعد ذلك بين يدي الحق ﷻ للسؤال عن الكثير والقليل ، وعن الصغير والكبير .

فلقد ذكر لنا القرآن أدلة على أن هناك من ينكر البعث ؛ فهذا هو أحدُ هؤلاء المعاندين المنكرين - وهو العاص بن وائل السهمي - يأتي للنبيِّ ﷺ وهو يمسك بين يديه عظمًا يفتُّه بين يدي رسول الله ﷺ ثم يذروه في الهواء ، ثم يقول للنبيِّ ﷺ: أيحيي الله هذا بعدما أرم ؟

فقال ﷺ: « نَعَم ، يُميتُكَ الله ثُمَّ يُحْيِيكَ ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّم » (١)، ونزل قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) أخرجه الطبري في « التفسير » (٢٣/ ٣٠) ، والحاكم (٢/ ٤٢٩) ، وذكره السيوطيُّ في « الدر المنثور » (٥/ ٥٠٧) وعزاه إلى ابن جرير (*) وابن المنذر ، وابن أبي حاتم والإسماعيلي في «معجمه» ، والحاكم وابن مردويه والبيهقي في «البعث» ، والضياء في « المختارة » . وصححه الشيخ الوادعي في «أسباب النزول » ، وانظر : تفسير ابن كثير (١١/ ٣٨٣، ٣٨٤) ط أولاد الشيخ .

(*) لكنه عند الطبريِّ (٢٩٠٧٢) عن سعيد بن جبير مرسلًا .

وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس:٧٧ـ٨٣] .

وفي الحديث الذي رواه أحمد في « مسنده » وابن ماجه بسندٍ حسن(١) عن بسر بن جحاش رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّه ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « قَالَ الله تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ ، أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَّلْتُكَ ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ . فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ، قُلْتَ : أَتَصَدَّقُ . وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟ » .

وفي «صحيح البخاريِّ»(٢) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «قَالَ الله تَعَالَى : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ الله وَلَدًا ، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ » .

وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة:٣٦ـ٤٠] ، وقال

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٤/ ٢١٠) ، وابن ماجه كتاب الوصايا ، باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت (٢٧٠٧) ، وقال البوصيريُّ في « الزوائد » : «إسناده صحيح» ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٣٢) ، وحسنه الشيخ الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٠٩٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « التفسير » باب (١) سورة قل هو الله أحد (٤٩٧٤، ٤٩٧٥) .

تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون:١١٥،١١٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم:٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن:٧] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام:٩٤] .

لكنهم مع ذلك استهزؤوا وكذبوا وعاندوا وقالوا : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٤٩-٥٢] .

وفي «الصحيحين»[(١)] من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : « كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ ، قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا أَنَا

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء باب ٥٤ (٣٤٨١) وطرفه في (٧٥٠٦) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٦) ، ورُوي من حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٣٤٧٨) وانظر طرفيه ، ومسلم(٢٧٥٧) ، ورُوي عن حذيفة ﷺ جميعًا عند البخاري (٣٤٥٢) وانظر طرفيه .

مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ » .

وفي لفظِ مسلم : « فَاذْرُوا نَصْفَهُ فِي البَرِّ وَنِصْفَهُ فِي البَحْرِ . فوالله لَئِنْ قَدَرَ الله عَلَيْهِ لَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِيْنَ ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ ، فَأَمَرَ الله البَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيْهِ ، وَأَمَرَ البَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيْه . ثُمَّ قَالَ ـ في لفظِ البخاري : « فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ ، فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ ، فَغَفَرَ لَهُ ».

وقال تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٩، ٢٦٠] .

وانظر إلى أصحاب الكهف الذين ذكرهم الله في كتابه وقد أماتهم الله ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا ، ومع ذلك أحياهم ﷻ ، وبعثهم ليعلم الناس أن الله على كل شيءٍ قدير ؛ فقدرةُ الله لا تحدُّها حدودٌ ، ولا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء .

قُلْ للطبيب تخطفته يد الردى   يا مداوي الأمراض من أرداك

قل للمريض نجا وعوفي بعد ما ... عجزت فنون الطب من عافاك

قل للصحيح مات لا من علة ... من يا صحيح بالمنايا دهاك

بل سائل الأعمى خطا وسط الزحام ... بلا اصطدامٍ من يا أعمى يقود خطاك

بل سائل البصير كان يحذر حفرة ... فهوى بها من ذا الذي أهواك

وسل الجنين يعيش معزولًا بلا راع ... ولا مرعى من ذا الذي يرعاك

وإذا الوليد بكى وأجهش بالبكاء ... لدى الولادة من ذا الذي أبكاك

وإذ ترى الثعبان ينفث سُمَّه ... فسله من يا ثعبان بالسموم حشاك

وسله كيف تعيش يا ثعبان ... أو تحيى وهذا السمُّ يملأ فاك

واسأل بطون النحل كيف تقاطرت ... شهدًا وقل للشهد من حلاَّك

بل سائل اللبن المُصفَّى من بين ... فرث ودم من ذا الذي صفَّاك

وإذا رأيت النبت في الصحراء يربو وحده ... فاسأله من أرباك

وإذا رأيت النخل مشقوق النوى ... فاسأله من يا نخل شق نواك

وإذا رأيت البدر يسري ناشرًا أنواره ... فاسأله من أسراك

وإذا رأيت النار شب لهيبها ... فاسأل لهيب النار من أوراك

وإذ ترى الجبل الأشم مناطحًا ... قمم السحاب فسله من أرساك

أإله مع الله ؟!!

فلا يعجز الخالق شيءٌ في الأرض ولا في السماء .

وإن من كلَّف عقله ليصل إلى حدود قدرة الله كان كمن كلَّف نملة أن تنقل جبلاً من مكان إلى مكان !!

فإن خرج الناس من القبور ، وانشقت الأرضُ ،وتزلزلت وتخلصت من حملها الثقيل ، وترى الخلائق كلَّها من لدن آدم إلى آخر رجل قامت عليه الساعة يحشرون إلى الله تعالى حفاة ، لا يلبسون نعالًا ، عراة لا يلبسون ثيابًا ، غرلًا ـ جمع أغرل ـ وهو الصبيُّ قبل ختانه ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٤] .

فتصور معي لترى العجب العجاب من المشاهد ،والناس يخرجون من القبور ، ويحشرون إلى الملك الغفور ؛ فإنهم يحشرون على ما ماتوا عليه من أعمال الطاعات والمعاصي ، يبعثون على ما ماتوا عليه من الإيمان والكفر ، والشك واليقين ، والطاعة والمعصية !! نعم .

ففي « صحيح مسلم » (١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ » .

وفي « صحيح البخاريِّ ومسلم »(٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « إِذَا أَرَادَ الله بِقَوْمٍ عَذَابًا ، أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ، ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ ».

وفي « الصحيحين »(٣) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : أن النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الفتن ، باب إذا أنزل الله بقوم عذابًا (٧١٠٨) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٩) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب البيوع ، باب ما ذكر في الأسواق (٢١١٨) ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب الخسف بالجيش الذي يَؤُمُّ البيت (٢٨٨٤) .

قال : «يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ » قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ ؟

وفي روايةٍ لمسلم : قالت : إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ . قَالَ : « نَعَمْ ، فِيهِمُ الْمُسْتَبْصِرُ وَالْمَجْبُورُ وَابْنُ السَّبِيلِ ، يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا ، وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى ، يَبْعَثُهُمُ الله عَلَى نِيَّاتِهِمْ ».

فمنهم مَنْ يبعث والنور يُشرِقُ من وجهه ، ومن بين يديه وعن يمينه؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم:٨] .

قال ابن عباس : «ليس أحدٌ من الموحدين إلا يُعطى نورًا يوم القيامة ، فأما المنافق فيطفئ نوره ، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ؛ فهو يقولُ : ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ . أخرجه الحاكم [(١)] وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

وقال الحسن في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٢] ، قال : « يُعْطَى المؤمن يوم القيامة نورًا ، ويُعطى المنافق نورًا يمشون به ، حتى ينتهوا إلى الصراط ، فإذا انتهوا إلى الصراط مضي المؤمنون بنورهم ، ويطفأ نور المنافقين ، فينادونهم : ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ

---

(١) في « المستدرك » (٣٧٩١ التفسير) ، والبيهقي في « البعث » كما في « الدر المنثور » (تفسير التحريم :٨) ، ومثله عن الحسن عند الطبري ؛ كما في « تفسير التحريم :٨) .

جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[الحديد:١٤] ، قال الحسن : فذلك خديعة الله إياهم »[1] .

فليس أحدٌ إلا ويُعطى نورًا يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفئ نور المنافقين ، وهنا إذا رأى المؤمنون أنوار المنافقين على الصراط تطفأ أشفقوا أن يُطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين ، وهنا يتضرع المؤمنون إلى الله بالدعاء : ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[التحريم:٨] .

وروى الحاكم في « المستدرك » وابن جرير الطبري[2] بسندٍ صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، قال : «يؤتون نورهم على قَدْر أعمالهم ، يمرُّون على الصراط ، منهم من يكون نوره كالجبل ، ومنهم من يؤتى نوره كالنخلة ، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم ، وأدناهم نورًا مَنْ نوره على إبهامه ، يَتَّقِدُ مرة ويُطْفأ مرة » .

ومنهم من يُبْعَثُ والظلمةُ تحيطُ به من كلِّ جانب ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ

---

(١) أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » (لسورة التحريم :٨) (٣٤٧٢٣) ، وابن أبي حاتم (٦١٧١) ، وراجع « تفسير ابن كثير » (تفسير البقرة :٢٠) .

(٢) أخرجه الطبريُّ في « التفسير » (٢٧/ ٢٢٣) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (كما في « تفسير ابن كثير » لسورة البقرة :٢٠) ، والحاكم (٢/ ٤٠٨ ، ٥٢٠) ، (٤/ ٦٣٢) ط الكتب العلمية ، والطبرانيُّ في « الكبير » (٩/ ٣٥٧) وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٥٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٤٧) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الترغيب والترهيب » (٣٥٩١، ٣٧٠٤) .

وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قال الحسن رحمه الله(١): «إن قومًا ألهتهم أمانيُّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا، وليست لهم حسنة، يقول: إني لحسَنُ الظن بربي، وكذب! لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل».

ورحِمَ الله مَنْ قال: «ما أقلَّ حياء من طمع في جنة الله، ولم يعمل بطاعة الله».

ومنهم من يُبْعَثُ يوم القيامة عند خروجه من قبره يُلبِّي في أرض المحشر، وهو يتبع الداعي، الذي جاء ليقود الجميع إلى هذه الأرض.

يخرج من القبر، وهو يقول: «لبيك اللهم لبيك»! مَنْ هذا؟ هذا الذي مات بلباس الإحرام في الحج والعمرة يبعث مليبًا، كما مات مُلبيًا.

ففي «الصحيحين»(٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا كان مع النبيِّ ﷺ فوقصته ناقته وهو محرم فكسرت عنقه فمات؛ فقال النبيُّ ﷺ: «اغسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْهِ، وَلاَ تَمَسُّوهُ بِطِيبٍ، وَلاَ تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّدًا»، وفي لفظٍ: «مُلَبِّيًا».

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتابه «الوجل والتوثق بالعمل» (رقم٢)، و ذكره أبو السعود في كتابه «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (٢/ ٢٣٥)، والألوسي في «روح المعاني» (تفسير النساء: ١٢٣) وعزاه لابن أبي شيبة ـ والذي فيه مختصر ـ (٧/ ٢١٧، ٨/ ٢٥٧)، والزمخشري في «الكشاف» (١/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الكفن في ثوبين (١٢٦٥)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم، كتاب الحج، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات (١٢٠٦).

ومشهدٌ آخر: يبعث رجال وينبعث منهم دم ، اللون لون الدم ، وريح هذا الدم كالمسك ، مَنْ هؤلاء ؟ هؤلاء هم الشهداء ،وحديثهم ثابت في « الصحيحين » [(١)].

ومن الناس من يبعث وهو يتخبط ، فإن قام سقط على الأرض ، وإذا جلس سقط يتلبط في الأرض كتلبط الذي مسَّه الشيطان !! منْ هذا ؟

إنه آكل الربا ؛ قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[البقرة:٢٧٥] .

وترى مشهدًا آخر لرجل قد التفَّ حوله مجموعة من الأطفال الصغار يجرونه جرًّا ، وقد تعلَّقوا به يدفعونه دفعًا ، ويسوقونه سَوْقًا !!

مَنْ هذا ؟ ومَنْ هؤلاء ؟ هؤلاء هم اليتامى ، وهذا هو آكل أموال اليتامى ظلمًا ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[النساء:١٠] .

وترى رجلًا جبارًا طاغيةً ظالمًا ، وقد تعلَّق به رجلٌ أو رجلان أو مجموعة كبيرة من الرجال وأوداجهم تسيل دمًا ، وقد تمسكوا به يسوقونه سوقًا للوقوف بين يدي الله ! مَنْ هذا ؟ ومَنْ هؤلاء ؟!

هؤلاء هم المقتولون ،وهذا هو قاتلهم ؛ يجرونه جرًّا ليوقفوه بين يدي الله تعالى ، ويقولون : يا رب ، سَلْ هذا فيمَ قتَلَنا ؟!

---

(١) انظر : البخاريَّ ، كتاب الإيمان ، باب الجهاد من الإيمان (٣٦) ،وانظر أطرافه هناك ، وانظر : رقم (٢٣٧)، وصحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٨٧٦) .

فإن أولَ شيٍء يقضي الله فيه بين العباد : الدماء ؛ لحرمة الدم عند رب الأرض والسماء؛ كما سأبين إن شاء الله تعالى .

ففي « مصنف عبد الرزاق » والبخاري في « التاريخ ـ معلقًا » وصحَّحَ الحديث شيخنا الألبانيُّ في « صحيح الجامع »[(١)] من حديث عمرو بن الحمق الخزاعي ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دمِهِ فَقَتَلَهُ ، فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْقَاتِلِ ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا » .

فأول شيٍء يَقْضِي الله فيه بين العباد : الدماء ، ولا تعارض بين هذا وبين حديث النبيِّ ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةَ »[(٢)] .

أقولُ: لا تعارض بين هذا وذاك ؛ لأن الصلاة هي أولُ حقٍّ لله يَقْضِي الله فيه العباد ، والدماء هي حقُّ العباد ، وهي أول حق يَقْضِي الله فيه بين الخلائق .

وقد جمعت رواية النسائي بين الأمرين ؛ فقال النبيُّ ﷺ : « أَوَّلُ مَا

---

(١) أخرجه البخاريُّ في « التاريخ الكبير » (معلقًا ٣/ ٣٢٢) ، وعبد الرزاق (٩٦٧٩) ، وابن حبان في «صحيحه» (٥٩٨٢) ، والطيالسي في «مسنده» (١٢٨٥) ، والطبراني في «الكبير» (١٦٩٢ ـ قطعة من المفقود) ، وفي « الأوسط (٤٢٥٢ ، ٦٦٤٠ ، ٦٦٥٥ ، ٧٠٩٠) ، و«الصغير» (٣٨ ، ٥٨٤) ، والبزار في «مسنده» (٢٣٠٨) ، والبيهقي في «الكبرى» (١٨٢٠٣) ، وفي «الدلائل» (٢٨٣٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٤)، والطبراني في « مسند الشاميين » (٢٤٤٨) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٦٤) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٣٤٣ ، ٢٣٤٤) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الترغيب والترهيب » (٣٠٠٧) ، و«صحيح الجامع » (٦١٠٣) ، وانظر: «الصحيحة» (٤٤٠) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة (٤١٣) وقال : « حديث حسن غريب » ، والنسائي ، كتاب الصلاة ، باب المحاسبة على الصلاة (٤٦٤ ـ ٤٦٦) وقد سبق في الحديث عن الصلاة .

يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ الصَّلاَةَ ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ »(١) .

ومن النساء من تُبعث ، وقد تجلببت بجلباب أو درعٍ من النار ، تلطم خدَّها ، أو تشق جيبها ، وتدعو بدعوى الجاهلية!! مَنْ هذه يا تُرى ؟!

إنها النائحة التي كانت تلطمُ الخدَّ ، وتشق الجيب ،وتدعو بدعوى الجاهلية إن مات لها رجل ، أو استؤجرت لتفعل ذلك !!(٢) .

ومن الناس من يُبعث يوم القيامة ، وهو يحمل ما سرقه في الدنيا ، فترى رجلًا سرق بيضةً يحملها ! وآخر سرق دجاجة يحملها ! ومن سرق شاة يحملها ! ومن سرق ناقة يحملها ! ومن سرق بنكًا يحمله ، ومن سرق دولة يحملها ! ومن سرق أمة يحملها!!(٣) .

تدبر قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

[آل عمران:١٦١]

فراقب الله سبحانه وتعالى الذي لا يغفل ولا ينام .

ومنهم من يُبعث وهو ساجد ، مات ساجدًا ، ويبعث وهو ساجد .

ففي « الصحيحين»(٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا

---

(١) أخرجه النسائيُّ ،كتاب تحريم الدم ، باب تعظيم الدم (٤٠٠٢) ، وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢٥٧٢) و « الصحيحة » (١٧٤٨).

(٢) انظر : « صحيح مسلم » ، كتاب الجنائز ، باب التشديد في النياحة (٩٣٤) ولفظه : « النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا ، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ ».

(٣) سيأتي الوارد في ذلك إن شاء الله.

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) ،وانظر أطرافه هناك، ومسلم، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجَلِهِ وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٣) .

إلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا ».

وفي رواية البخاريِّ [١] من حديث سهل ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِخَواتِيمِهَا » وفي روايةٍ : « بِالْخَوَاتِيمُ ».

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله [٢] : « لقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه أنَّ مَنْ عاش على شيءٍ مات عليه ، ومن مات على شيءٍ بُعِثَ عليه ».

فمن مات على الطاعة بُعِثَ على ذات الطاعة ، ومن مات على معصية بُعِثَ على ذات المعصية .

قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧] .

ففي « صحيح مسلم » [٣] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ ».

فأول قبر على وَجْه الأرض ينشق هو قبر النبيِّ ﷺ .

ولكن أول من يُكسى يوم القيامة هو خليل الله إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

كما في « صحيح البخاري ومسلم » [٤] من حديث ابن عباس ﷺ أن

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقائق ،باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها (٦٤٩٣) من حديث سهل بن سعد ﷺ ، وبرقم (٦٦٠٧)، كتاب القدر ، باب العمل بالخواتيم .

(٢) « تفسير ابن كثير » (٣/ ١٣١)، سورة آل عمران آية (١٠٢) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (٢٢٧٨) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الرقاق ، باب الحشر (٦٥٢٦)، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠) .

النبيَّ ﷺ قال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٤] ، أَلاَ وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلاَئِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام ».

ولأهل العلم كلام نفيسٌ في الحكمة من تقديم إبراهيم عليه السلام على النبيِّ ﷺ؛ فقالوا : لأن إبراهيم عليه السلام حينما أُلقِيَ في النار وصَبَرَ لله ـ تبارك وتعالى ، واحتسب ،كافأه الله ﷻ يوم القيامة ، فوقاه شرَّ النار بأن جعله أول من يُكْسَى من الجنة ، وجبر الله تأخير النبيِّ ﷺ بهذه الحلة التي لا يقوم لها البشر [(١)] ؛ فأول من يُبعث : النبيُّ ﷺ ـ وهنا يبدأ الحشر .

*****

الحشر

فإذا بُعث الناس جميعًا ، وخرجوا من القبور ، واكتملت عدة الموتى من لدن آدم إلى آخر رجلٍ قامت عليه الساعة ؛ حينئذٍ يبدأ الحشر ، فيساقون جميعًا إلى أرض المحشر ؛ كما في « الصحيحين » [(٢)] من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال : « تُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا » .

فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فقلْتُ: يَا رَسُولَ الله الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟ فَقَالَ : « إِنَّ الأَمْرَ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَلِكَ » .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس:٣٣ـ٣٧] .

---

(١) انظر : « فتح الباري » (١١/ ٤٥٠) ط الحديث . بتصرف .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب الحشر (٦٥٢٧)، ومسلم ،كتاب صفة القيامة ، والجنة والنار ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩).

وفي رواية الطبراني [١] بسندٍ ضعيفٍ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَاةً حُفَاةً» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، وَاسَوْأَتَاهُ، يَنْظُرُ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «شُغِلَ النَّاسُ» قُلْتُ: مَا شَغَلَهُمْ؟ قَالَ: «نَشْرُ الصَّحَائِفِ، فِيهَا مَثَاقِيلُ الذَّرِّ، وَمَثَاقِيلُ الخَرْدَلِ».

وتدبر قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۝ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧-٤٩]؛ وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

فما هي صفة الأرض التي سيُحْشَر الناس عليها؟

وكيف يُحْشَرُون إليها؟

وما هو هَوْلُ الوقوفِ بين يدي الله تعالى في أَرْضِ المحشر؟

ومَنْ هُمْ أهل السعادة الذين يُنَادَى عليهم في هذه اللحظات الرهيبة،

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط» (٨٣٣)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١٠/ ٣٣٣): «أخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط» و«الكبير»، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن موسى بن أبي عياش وهو ثقة»، وضعَّفه الألبانيُّ في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢٠٨٦)، وقال في «الضعيفة»: «منكر» (٥٣١٨).

ليظلهم ربُّ العزة في ظل عرشه يوم لا ظلَّ إلا ظله ؟

والجوابُ على ذلك كما يلي : لقد وصف النبيُّ ﷺ أرض المحشر التي سيحشر الناس عليها وصفًا دقيقًا ، فسيُحشر الناس على أرض جديدةٍ تختلف عن الأرض التي نحيا فيها ،ونعيش على ظهرها الآن ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨] .

وفي « الصحيحين »(١) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ ، كَقُرْصَةِ النَقِيِّ ». قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ :« لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لأَحَدٍ » .

أي كأن الأرض كالفضة من بياضها وصفائها ؛ لم يسفك عليها دم ، ولم يُرتكب عليها كبيرة .

والنَّقِيُّ هو : الدقيق الصافي الذي لا يشوبه نُخَالة ولا شائبة .

روى الطبريُّ والحاكم والبيهقي في «الشعب»(٢) بسندٍ يصح موقوفًا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « تُبَدَّلُ الأرض أرضًا جديدةً كأنها الفضة ، لم يسفك عليها دم ،ولم ترتكب عليها خطيئة » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الرقاق ، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة (٦٥٢١)، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة (٢٧٩٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في « تفسير» (١٣/ ٢٤٩، ٢٥٠) ، والحاكم (٤/ ٥٧٠) ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ، وأبو الشيخ في « العظمة »(٣/ ٥٩٨)،والطبراني في «الكبير» (٩/ ٩٠٠١) وجوَّدَ إسناده الهيثميُّ في «المجمع» (٧/ ٤٨) ، وقال الحافظ في «الفتح» : « أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والطبري في تفاسيرهم ، والبيهقي في « الشعب » ، وقال : « رجاله رجال الصحيح ، وهو موقوف » (١١/ ٤٤٠) .

فكيف يُساق الناس إذًا في هذه الأرض؟ وكيف يُحشرون؟

قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق:٤١-٤٤].

فحشر الخلائق جميعًا إلى هذه الأرض أمرٌ يسيرٌ جدًّا على الله سبحانه وتعالى ؛ قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧] ؛ قال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٣-٩٥].

انطلقوا جميعًا يتبعون مَلَكًا كريمًا من الملائكة : الداعي ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ [القمر:٦] ؛ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه:١٠٨-١١١].

توهم ، وقد انطلق الناس جميعًا وراء هذا المنادي ، ووراء هذا الداعي الكريم ، وقد انطلقوا إلى أرض الموقف صامتين مستسلمين خاشعين لا يلتفون ولا يتخلَّفون ، يعلوهم صمتٌ رهيب ، ويزلزل قلوبهم جميعًا سكونٌ غامر ، فالكلام همس ، والسؤال تخافت ، والأبصار خاشعة ، والوجوه عانية ، والخوفُ والإجلال للحيِّ القيومِ يغمرُ المكانَ والنفوسَ بالعظمةِ والهيبةِ والجلالِ !!

ولا يستطيع أحدٌ أن يتأخر أو يتخلف ؛ فقد وَكَّلَ الله لكلٍّ واحدٍ على وَجْه الأرض مَلَكَيْنِ يسوقانه للوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[ق:٢١-٢٢] .

وفي الحديث الذي رواه الترمذيُّ (١) وحسَّنه وضعفه غيره من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ : صِنفًا مُشَاةً ، وَصِنفًا رُكْبَانًا ، وَصِنفًا عَلَى وُجُوهِهِمْ » قِيلَ : يَا رَسُولَ الله ، وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ قَالَ : « إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، أَمَا إِنَّهُمْ يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِمْ كُلَّ حَدَبٍ وَشَوْكٍ ».

وفي « الصحيحين » (٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلًا قال : يَا نَبِيَّ الله ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ ؟ قَالَ : « أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا ، قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». قال قتادة : بلى ، وعزة ربِّنا .

وفي رواية الترمذيِّ (٣) بسندٍ صحَّحهُ الشيخ الألبانيُّ أن النبيَّ ﷺ قال :

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب تفسير القرآن (٣١٤٢) وقال : « حديث حسن » ، وأحمد (٢/ ٣٥٤، ٣٦٣) ، وضعَّفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٦٤١٧) ، و « ضعيف الترغيب والترهيب » (٢٠٨٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب الحشر (٦٥٢٣)، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب يحشر الكافر على وجهه (٢٨٠٦) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب تفسير القرآن ، (٣١٤٣) وقال : « حديث حسن » ، وأحمد (٥/ ٣-٥) ، والحاكم (٤/ ٦٠٨) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢٣٠٢) و « صحيح الترغيب والترهيب » (٣٥٨٢) .

« إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ رِجَالاً وَرُكْبَانًا ، وَتُجَرُّونَ عَلَى وُجُوهِكُمْ ».

وفي «مسند أحمد» ، و«سنن النسائي» ، و«مستدرك الحاكم»[(١)] بسندٍ حسن ـ وللأمانة فقد ضعفه بعض أهل العلم عن أبي ذر ﷺ قال : حدثني الصادق المصدوق ﷺ قال : « إِنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ ثَلاَثَةَ أَفْوَاجٍ : فَوْجٌ رَاكِبِينَ طَاعِمِينَ كَاسِينَ ، وَفَوْجٌ تَسْحَبُهُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، وَفَوْجٌ يَمْشُونَ وَيَسْعَوْنَ ».

فمن هؤلاء السعداء الذين يركبون ولا يمشون في أرض المحشر؟

إنهم المؤمنون الأتقياء ؛ أسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بمنِّه وكرَمِه .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم:٨٥] .

وَفْدًا : أي رُكْبَانًا .

وفي هذا اليوم العصيب تتلقى الملائكةُ أهل الإيمان بالبُشرى ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .

واختلف أهل العلم على قولين في وقت تنزل الملائكة بهذه البشارة[(٢)] :

فمنهم من قال : إن الملائكة تتنزل على أهل الإيمان والاستقامة ، وهم على فراشِ الموتِ أثناء الاحتضار .

---

(١) أخرجه النسائيُّ ،كتاب الجنائز ، باب البعث (٢٠٨٥) ،وفي « الكبرى » (٢٢١٣)، وأحمد (٥/ ١٦٤) ، والحاكم (٢/ ٣٩٨) ،وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٤٣٩٦)،وضعَّفه الشيخ الألبانيُّ في «ضعيف الجامع» (١٨٠١) ، وقال الشيخ شعيب في تحقيقه للمسند : «إسناده قوي » .

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا .

ومنهم من قال : تتنزل الملائكة على أهل الإيمان والاستقامة أثناء خروجهم من القبور في لحظات الحشر إلى الله تبارك وتعالى يوم البعث والنشور .

وأقولُ : لا أرى حرجًا البتة في الجمع بين القولين ، وأنه لا تعارض ؛ فلا مانع على الإطلاق أن يُثبِّت الله أهل الإيمان والاستقامة عند الاحتضار ، وأن تتنزل الملائكةُ عليهم بهذه البشرى ؛ بل وتتلقاهم الملائكة أيضًا يوم خروجهم من القبور ؛ لتؤمنهم من الفزع الأكبر ، ولتبشرهم بهذه البشارة العظيمة : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .

أما أهل الكفر ؛ فقال تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم:٨٦]

﴿ وِرْدًا ﴾ : أي كما تُساقُ البهائم إلى وِرْدِها ؛ أي الماء الذي تشرب منه ! والمشركون يُحشرون على وجوههم ، وقد تحوَّل لونُ جلدهم إلى اللون الأرزق زُرْقًا !

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه:١٠٢]

بل ويُحشرون عُمْيًا وبُكْمًا وصُمًّا ،كما قال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء:٩٧] .

وسترى مَشْهدًا آخر من مشاهد الحشر ، ووالله إنه لمشهدٌ عجيب ؛إنه

مشهد حشر أهل الكِبْرِ والظلم الذين امتلأت قلوبهم بالكِبْرِ في الدنيا ؛ كيف يُحْشَرونَ ؟! انظر إليهم وهم على أرض الحشر ؛ فالجزاءُ من جِنسِ العَمَلِ فلما انتفخ هذا الصنف وانتفش واستطال على الناس ؛ كان جزاؤه الإهانة ؛كما في الحديث الذي رواه الترمذيُّ (١) بسندٍ حسن من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أنه ﷺ قال : « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ (٢) ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةِ الْخَبَالِ » .

هكذا يجعلهم في موقف الجزاء على الصورة المذكورة إهانة لهم وتذليلًا ، جزاءً وفاقًا (٣) .

والذَّرُّ : هو النمل الصغير ! وكما يبغض الله المتكبرين يبغض أسماءهم التي تسمو بها استكبارًا واستعلاءً في الدنيا ؛ فتكون هذه الأسماء أخبث الأسماء وأغيظها وأوضعها عند الله يوم القيامة .

روى البخاريُّ ومسلم (٤) من حديث أبي هريرةَ ﷺ أن النبي ﷺ

(١) أخرجه الترمذيُّ ،كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ، (٢٤٩٢) ، وقال : « حديث حسن صحيح » ، وأحمد (٢/ ١٧٩)،والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٥٧) ، والحميدي (٥٩٨) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول» (٢٢٣) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع » (٨٠٤٠) ،و« المشكاة » (٥١١٢) .

(٢) قال في « تحفة الأحوذي » (٦/ ٤١١) : « قال في « المجمع » :«هو بفتح باء ، وسكون واو ، وفتح لام . وقال في القاموس : بولس : بضم الباء ، وفتح اللام سجن جهنم ، وقال الحافظ المنذري : بضم الموحدة ، وسكون الواو ، وفتح اللام » انتهى .

(٣) « تحفة الأحوذي » (٦/ ٤١١) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الأدب» باب أبغض الأسماء إلى الله (٦٢٠٥ ، ٦٢٠٦)، ومسلم ، كتاب « الآداب » ، باب تحريم التسمِّي بملك الأملاك وبملك الملوك (٢١٤٣).

قال : « أَخْنَعُ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ ـ قَالَ سُفْيَانُ غَيْرَ مَرَّةٍ : أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ ـ رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ » . زاد مسلم : « لاَ مَالِكَ إِلاَّ اللهُ عز وجل » .

وفي لفظٍ عند مسلم : « أَغْيَظُ رَجُلٍ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَلَيْهِ ، رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاَكِ ، لاَ مَلِكَ إِلاَّ اللهُ » .

لأنه قد نازع الله ـ جلَّ وعلا ـ في صفةٍ من صفاته .

ففي « صحيح مسلم »[(١)] عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « الْعِزُّ إِزَارُهُ ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي ، عَذَّبْتُهُ » .

فما هي العلامة الدقيقة التي تستطيع أن تتبين من خلالها أنك من المتواضعين ؟

ففي « صحيح مسلم »[(٢)] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » . قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً . قَالَ : « إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمْطُ النَّاسِ » .

أي : رد الحق ، وازدراء الناس واحتقارهم .

والناس في أرض المحشر إذا وصلوا إلى المكان الذي سيحاسبون فيه بين يدي الله ـ جلَّ وعلا ـ لَيْتَهُم يستريحون ، كلاَّ ، كلاَّ ؛ بل إذا وصلوا إلى هذه الأرض شاهدوا من الأهوال والكروب ما يخلع القلوب !! فالبشرية كلُّها بجميع أممها من يوم أن خَلَقَ الله آدم إلى آخر رجلٍ قامت

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب « البر والصلة والآداب » ، باب تحريم الكبر (٢٦٢٠) .

عليه القيامة ، يقومون قيامًا طويلًا ـ على أرض المحشر ـ في زحام شديد، تصوَّر أعداد البشر من الرجال والنساء ؛ بل ويُحشر معهم كذلك الجن والوحوش والطير ،وهذا هو الراجح من أقوال أهل السنة أن الوحوش والبهائم تُحْشَرُ كما يُحشر الناس(١) .

قال ابن كثير ﷺ عند تفسير قول الله تعالى : ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ:٤٠] : «وقيل: إنما يودُّ ذلك ـ أي الكافر ـ حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور ، حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء ، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كوني ترابًا ، فتصير ترابًا ، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور(٢) ، وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهم» . اهـ .

وانظر الآثار الواردة في ذلك عند الطبري في تفسير هذه الآية ، ويزداد الهم والكرب بدنوٍّ واقتراب الشمس من رؤوس الخلائق في أرض المحشر .

ففي « صحيح مسلم »(٣) من حديث المقداد بن الأسود ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ » .

قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ : فَوَالله مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ ؟ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ

---

(١) وانظر : التفاسير عند قول الله سبحانه وتعالى :﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥] ، و«السلسلة الصحيحة» (٤/ ٦١١) وما بعدها .

(٢) سبق وقد بينا ضعفه هناك .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب « صفة القيامة والجنة والنار » ، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها (٢٨٦٤) .

أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ ، قَالَ : « فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا » . قَالَ : وَأَشَارَ النبيُّ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ.

فو الله لولا أن الله ﷻ قد كتب عليهم ألا يموتوا لانصهروا وذابوا في أرض الموقف من حرارة الشمس .

وفي « الصحيحين » (١) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[المطففين:٦] قَالَ : « يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ ».

وفي « الصحيحين » (٢) عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ ».

وفي هذا الموقف يؤمر بجهنم فيؤتى بها في أرض المحشر لها سبعون ألف زمام مع كلِّ زمام سبعون ألف ملك يجرونها !

ففي « صحيح مسلم » (٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب «التفسير» ، باب يوم يقوم الناس لرب العالمين (٤٩٣٨)، ومسلم ، كتاب « صفة القيامة والجنة والنار » باب في صفة يوم القيامة » أعاننا الله على أهوالها (٢٨٦٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب «الرقاق» ، باب ٤٧ (٦٥٣٢)، ومسلم، كتاب « صفة القيامة والجنة والنار » باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها (٢٨٦٣).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب « صفة القيامة والجنة والنار » ، باب في شدة حر نار جهنم وبُعْد قعرها وما تأخذ من المعذَّبين (٢٨٤٢) .

سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا ».

فإذا جيء بجهنم ، ورأت جهنم الخلائق في أرض المحشر زفرت وزمجرت ! غضبًا منها لغضب ربها وخالقها ﷻ ؛ فإذا رأت الأمم كلُّها جهنم جثت الأمم كلُّها على الرُّكَب ؛كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية:٢٨] .

وفي الحديث الذي رواه الترمذيُّ (١) بسندٍ صحيح من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ : إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلاَثَةٍ ، بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ ».

وصدق الله سبحانه إذ يقول : ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس:٣٠] .

لقد أنزل الله الكتب ، وأرسل الأنبياء والرسل ؛ ليحذِّروا الناس من عذابه ومن النار وليبشروا الناس برضوانه والجنان ؛ فمن أطاع فله الرضوان ، ومن عصى وأبى فعليه الخسران ،ولا حول ولا قوة إلا بالله .

*****

---

(١) أخرجه الترمذي ،كتاب « صفة جهنم » ، باب ما جاء في صفة النار (٢٥٧٤) ،وقال : « حديث حسن غريب صحيح » ، وأحمد (٢/ ٣٣٦) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (٥١٢)، و« صحيح الجامع » (٨٠٥١) .

هول الموقف

ويصوِّر الحارث المحاسبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ [(١)] هول الموقف في كلمات مؤثرة ؛ فيقول [(٢)] : «توهَّم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق ،وهم حُفاةٌ عراة صموت ، وقد تسربلوا جميعًا بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة ؛ فلا تسمع إلا همس أصواتهم ، وصدى المنادي ، والخلائق مقبلون نحوه : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[طه:١٠٨] .

فالجميع قد أقبل للوقوف بين يدي الله ﷻ وأنت فيهم مقبل نحو الصوت ، ساعٍ بالخشوع والذلة ،حتى إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلُّها من الإنس والجن حفاة عراة ، وقد أذلَّ المِلِكُ ملوك الأرض ؛ فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم ، عتو على عباد الله في أرضه ، ثم أقبلت الوحوش من البراري والجبال منكسة رؤوسها لذلِّ يوم القيامة بعد توحشها ، وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ، ولا خطيئة أصابتها ؛ فتوهم أيها المسلم إقبالها وإدبارها بذلها في هذا اليوم

(١) هو الحارث بن أسد البغدادي المحاسبي ، قاله النووي في « التبيان » (٣١٥)، « المُحاسبي » بضم الميم ،ويُقال : إنما سُمِّيَ المُحَاسبي لكثرة محاسبته لنفسه ،ت ٢٤٣هـ ،ترجمه الذهبي في « السير» (١٢/ ١١٠وما بعدها) ؛ وقد قال الذهبيُّ في زبدة من القول فيه : « المحاسبي الكبير القدر ،وقد دخل في شيء يسير من الكلام فنقم عليه ، وورد أن الإمام أحمد أثنى على حال الحارث من وَجْهٍ ، وحذَّر منه » .

(٢) كما في كتاب التوهم له ــ ذكره عنه الثعالبيُّ في « تفسيره » (لسورة المطففين) (٦). وراجع الإحياء للغزالي ــ رحمه الله وغفر لنا وله ـ(٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٠) بتصرف . دار الريان .

العظيم يوم العرض على المَلِكِ العظيم ﷻ وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة ، حتى وقفت من وراء الخلق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار ، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها خاشعةً لذلِّ العرض على الله سبحانه ؛ فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء ،واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض ، قد أذلهم البعث وجَمَعَ بينهم النُّشور حتى إذا تكاملت عُدة أهل الأرض من إنْسِها وجِنِّها ،وشياطينها ، وسِبَاعِها ، وأنعامها ، وهوامها ، واستووا جميعًا في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم ، وطُمِسَ الشمس والقمر ،وأظلمت الأرض لخمود سراجها ، وإطفاء نورِها ، فبينما أنت والخلائق على ذلك ، إذ دارت السماء الدنيا بعظمها من فوق رؤوسهم وأنت بعينك تنظر إلى هول ذلك ، فما ظنك بهول صوت انشقاق السماء بعظمها في سمعك ؟ فيا هيبةً ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها !! وقد أذابها ربُّها ،حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة ؛كما قال الجليل سبحانه : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن:٣٧] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ [المعارج:٨، ٩] .

فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض ، بعظم أجسامهم وأخطارهم ، وعلت أصواتهم بتقديس الملك الأعلى ، ويقفون صفوفًا يحيطون بالخلائق من كل ناحية .

قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [البقرة:٢١٠] ، قال تعالى :

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾[الفجر:٢٢] .

فتوهم - أيها المسلم - تحدُّرَهُمْ من السحاب ،بعظم أخطارهم ،وكبر أجسامهم ،وهول أصواتهم ، وشدة خوفهم ، منكسين رؤوسهم لذُلِّ العرض على ربهم وخالقهم تبارك وتعالى .

فيا فزعك ، وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا قد أمروا بهم ، فيسأل الخلقُ الملائكة : أفيكم ربنا ؟ فتقول الملائكة : كلاً ، وهو آت ، فتقدس الملائكة ربهم - جلَّ وعلا - حينما يسألهم الخلق في أرض الموقف ، وتقول الملائكة : سبحان ذي المُلك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان مَنْ كَتَبَ الموت على الخلائق ، وهو الحيُّ الذي لا يموت ، سبوح قدوس قدوس قدوس[(١)] ، ربُّ الملائكة والروح ؛ فتصوَّر وتوهَّم تنزل الملائكة في هذه اللحظات ،وهم يأخذون صفوفهم حول الخلائق ، ويُحْدقون بالناس من كل ناحية ، وهم منكسون الرؤوس لذلِّ يوم القيامة ،والناس ما بين مستظلٍّ بظل العرش ، وبين محروق بلفح الشمس ، وقد صهرته بحرِّها ،واشتد كربهُ ، وقلقهُ من وهجها ، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت ،واختلفت الأقدام وتضايقت ، وانقطعت الأعناق من العطش ، واجتمع حرُّ الشمس ، ووهج أنفاس الخلائق ، وتزاحمت أجسامهم ففاض العرق منهم سائلًا ، حتى استنقع على وجه الأرض ، ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله - جلَّ وعلا -

---

(١) كما جاء في حديث الصور الطويل الذي أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » لسورة البقرة (٢١٠)، والطبرانيُّ في « الأحاديث الطوال » (كما في تفسير ابن كثير لسورة الأنعام) (٧٣)، وهو حديثٌ ضعيفٌ مضطرب ؛ كما قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١١/ ٣٧٦) ولبعضه شواهد في أحاديث أخرى متفرقة ؛ لكنه بطوله لا يصحُّ ،وقد تقدم الكلام عليه مرارًا .

بالسعادة والشقاء ، حتى إذا بلغ مِنْ بعضهم العرقُ كعبيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ؛ بل ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه ، فتوهم نفسك ، وقد علاك العرق ، وأطبق عليك الغم ، وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والرعب ، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة ، أو إلى دار الشقاء؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[هود:١٠٥] ».

فتخلفت أحوال الناس اختلافًا كبيرًا ، وتصور لتقف على هول الموقف ، وعلى ذهول وذلِّ الوقوف بين يدي الله ـ جلَّ وعلا ـ ولو أراد أحدنا أن يتصور هَوْلَ هذه اللحظات فليتفكر في لحظاتٍ وقف فيها في ساحة محكمة أمام قاضٍ من قضاة الدنيا ـ ولله المثل الأعلى ـ ينتظر حتى يخرج القاضي ليجلس على منصة القضاء ليصدر الحُكْم ! .

تصوَّر هذه اللحظات ،كيف يكون حال المتهم ؟وكيف يكون حال أهله ؟ بل ، وكيف يكون حال الناس جميعًا في قاعة المحكمة ؟وأنت في هذه اللحظات ، لا تقف أمام قاضٍ من قضاة الدنيا ! إنما تقف أمام ملك الملوك ، وجبار السموات والأرض !! يستطيع رجل يعمل بالمحاماة في هذه الدنيا أن يقف إلى جوارك ليدافع عنك، وليقدم الأدلة والبراهين ، ولكن من يدافع عنك بين يدي الله ـ جلَّ وعلا ـ يوم القيامة ، حتى الجوارح والأعضاء ؛حتى اللسان ، سيطمس الله ـ جلَّ وعلا ـ على الفم ، فتتكلَّم الأعضاء ، وتنطق الجوارح ، ويصمت ويسكت هذا اللسان الطويل الذي تعوَّد على الكذب ، وتعوَّد على الخيانة ، وتعوَّد على النفاق ، وعلى الخداع ؛ قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ

أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس:٦٥] .

وتدبَّر حال الكفار المجرمين الذين ذُكِّروا بالتوحيد فعاندوا ،وذُكِّروا بسنة الحبيب ﷺ فأعرضوا ؟كيف يكون حالهم ؟ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج:٤٣، ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر:٦ـ ٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس:٥١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم:٤٢، ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨] ، وقال تعالى :﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم:٤٨ـ ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان:٢٦] .

وهذا يوم لا ينفع فيه الندم ، فقد انتهى وقت الندم ؛ففي هذا اليوم يتمنى المشركون الكافرون أن لو تُسوَّى بهم الأرض .. أن لو تحولوا إلى

تراب ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ [النبأ:٤٠] .

في هذا اليوم يتحسر الكافر على عدم اتباعه لرسول الله ﷺ ويندم على عداوته له ، ولكن حين لا ينفع الندم ؛ قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧ـ٢٩] .

أما حال العصاة والمذنبين الذين ذكّروا بالله فما تذكّروا ! وذُكِّروا بكلام رسول الله ﷺ فما تأثروا ! طالما استمعوا عن الله ، وعن رسول الله ﷺ ؛ لكن ما رقَّت قلوبهم لكلام الله ،وما خضعت جوارحهم لحُكْمِ الله ، وشرع رسول الله ﷺ . فماذا يكون حالهم؟

فهؤلاء ــ والله ــ حالهم عسير ،وموقفهم خطير ؛ فمثلًا أصحاب الأموال ممن مَنَّ الله ﷻ عليهم بفضله ، وأسبغ عليهم نِعَمَه ظاهرةً وباطنةً ، ولكنهم بَخِلُوا واستغنوا وتناسوا فضل الله عليهم ،وقالوا : الحقوق كثيرة ، ونسِيَ الواحِدُ مِنْ هؤلاء أن نِعَم الله ﷻ عليه تتوالى تترى ، فما جزاؤه في هذا الموقف العظيم ؟!

ففي «صحيح البخاري» (١) عن أبي هريرة ﵁ أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ آتَاهُ الله مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الزكاة ،باب إثم مانع الزكاة (١٤٠٣) .

زَبِيبَتَانِ ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ ـ يَعْنِي : بِشِدْقَيْهِ ـ يَقُولُ : أَنَا مَالُكَ ، أَنَا كَنْزُكَ ». ثُمَّ تَلاَ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران:١٨٠] .

وفي « الصحيحين » واللفظ لمسلم [١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ، إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ » .

لأن هذه الجوارح هي التي تشارك في هذه المعصية ابتداءً ؛ فأول ما يُعْرِض الغنيُّ يُعْرِض بجنبه ، ثم بعد يؤدي الجبينُ دوْرَهُ من العبوس ، ثم بعد ذلك ينصرفُ فيعطي الغنيُّ ظهرَهُ للفقير .

ولذلك قال النبيُّ ﷺ [٢] : « فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ » قِيلَ: يَا رَسُولَ الله ، فَالإِبِلُ ؟ قَالَ : « وَلاَ صَاحِبُ إِبِلٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ، وَمِنْ حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا ، إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ [٣] أَوْفَرَ مَا كَانَتْ ، لاَ يَفْقِدُ مِنهَا فَصِيلاً وَاحِدًا ، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا ، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاَهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « المساقاة » ، باب شرب الناس وسقي الدواب من الأنهار (٢٣٧١) مختصرًا ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب إثم مانع الزكاة (٩٨٧) واللفظ له .

(٢) هو تتمةُ الحديث السابق .

(٣) مكان متسع أملس .

يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ » قِيلَ : يَا رَسُولَ الله ، فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ؟ قَالَ : « وَلاَ صَاحِبُ بَقَرٍ وَلاَ غَنَمٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ، إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ ، لاَ يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا ، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ وَلاَ جَلْحَاءُ وَلاَ عَضْبَاءُ ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلاَفِهَا ، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاَهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ ».

وانظر إلى جامع المال وعدم إنفاقه له في سبيل الله يكون من أقل الناس أجرًا يوم القيامة .

ففي « الصحيحين »(١) من حديث أبي ذر الغفاريِّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْمُكْثِرِينَ هُمُ الْمُقِلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِلاَّ مَنْ أَعْطَاهُ الله خَيْرًا ، فَنَفَحَ فِيهِ يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ وَوَرَاءَهُ ، وَعَمِلَ فِيهِ خَيْرًا ».

أما أهل الغدر والخيانة من أهل النفاق ففضيحتهم في أرض الموقف فظيعة !!

ففي « الصحيحين »(٢) من حديث ابن عمر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « إِذَا جَمَعَ الله الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ ، فَقِيلَ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ ابْنِ فُلاَنٍ ».

وفي « صحيح مسلم »(٣) عن أبي سعيد ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « لِكُلِّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الرقاق » ، باب المكثرون هم المقلون (٦٤٤٣) ، ومسلم ، كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة (٩٤) بعد حديث رقم (٩٩٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجزية والموادعة ، باب إثم الغادر للبر والفاجر (٣١٨٦) وانظر أطرافه ، ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب تحريم الغدر (١٧٣٥) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الجهاد ، باب تحريم الغدر (١٧٣٨) .

غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ إِسْتِهِ - أي: مؤخرته - يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ ، أَلاَ وَلاَ غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ ».

وفي «الصحيحين»[(١)] من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قالَ : «مَا مِنْ عَبْد يَسْتَرْعِيهِ الله عز وجل رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إلاَّ حَرَّمَ الله عَلَيْه الجَنَّةَ ».

وفي رواية البخاريِّ[(٢)] : « فَلَمْ يَحُطْهَا بِنُصْحِهِ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ ».

وروي الترمذيُّ وأبو داود والحاكم[(٣)] عن أبي مريم الأزدي قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ وَلاَّهُ الله عز وجل شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمُ ، احْتَجَبَ الله عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ ».

وفي لفظٍ : «احْتَجَبَ الله عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» .

أما أهل الغُلول الذين أكلت قلوبَهمُ الأنانيةُ، والأثرةُ، والجشعُ، والطمعُ، وأكلوا الأموال بالباطل، ولم يتورعوا عن أكل الحرام ؛ ففضيحتهم في أرض المحشر بين يدي الله عظيمة خطيرة !

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران:١٦١] .

قال القرطبيُّ[(٤)] : « أي : يأتي به حاملاً خيانته على رؤوس الأشهاد».

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح (٧١٥٠)، ومسلم ، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار (١٤٢) واللفظ له.

(٢) عند البخاريِّ (برقم ٧١٥٠).

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب الخراج والإمارة والفيء ، باب فيما يلزم الإمام من أمر الرعية والحجبة عنهُ (٢٩٤٨) ، والترمذي كتاب الأحكام باب ما جاء في إمام الرعية (١٣٣٣)، والحاكم (٤/ ٩٤) وقال : «إسناده شامي صحيح » ، ووافقه الذهبيُّ ، والبيهقيُّ (١٠/ ١٠١) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٦٢٩) و«صحيح الجامع» (٦٥٩٥).

(٤) انظر : «تفسير القرطبي لسورة آل عمران» (عند الآية : ١٦١) (٤/ ٢٥٦، ٢٦١) ط دار الكتاب.

ومن الغلول غلول الحكام والموظفين ؛ ففي «الصحيحين»[(١)] ـ واللفظ لمسلم ـ من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فذكر الغلول فعظَّمه وعظَّم أمره ، ثم قال: « لاَ أُلْفِيَنَّ[(٢)] أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ[(٣)] فيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله ، أَغِثْنِي ؟ فَأَقُولُ : لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ،قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ[(٤)] ؛ فيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله ، أَغِثْنِي ؟ فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ...لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ ، فيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ،قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ ـ وهي الرقاع التي يكتب فيها الحقوق على العباد وهي كالشيكات وغيرها ـ فَتَتَحَرَّكُ فيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله ! أَغِثْنِي. فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ».

وفي «الصحيحين»[(٥)] من حديث أبي حميد الساعدي ﷺ قال: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ الله ﷺ رَجُلاً مِنَ الأَسْدِ يُقَالُ لَهُ : ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ ـ فخرج هذا الرجل ليجمع الصدقات ـ فَجَاءَ بِالمالِ فَدَفَعهُ إِلَى النبيِّ ﷺ ـ فنحى جانبًا من (الصدقات) وقَالَ: هَذَا لَكُمْ ، وَهَذَا لِي ، أُهْدِيَ لِي. فَارْتَقَى

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير، باب الغلول (٣٠٧٣) ، ومسلم ، كتاب الإمارة باب تحريم الغلول (١٨٣١).

(٢) قال القاضي عياض : «ووقع عند الغدري: «لا ألقين» بالقاف، وله وجهٌ على ما تقدَّم.

(٣) الرغاء: صوت البعير («شرح صحيح مسلم» للقاضي عياض) (٦/ ٩٢٣٣).

(٤) الحمحمة: صوت الفرس عند العلف، وهو دون الصهيل. «الفتح» (٦/ ٢١٦).

(٥) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأمان ، باب كيف كان يمين النبيِّ ﷺ (٦٦٣٦) وانظر أطرافه في (٩٢٥) ، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب تحريم هدايا العمال (١٨٣٢).

النَّبيُّ ﷺ المِنبرَ فَحمِدَ الله ﷻ وَأثني عَليْه، ثُمَّ قَالَ: «مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ».

وفي رواية: «نَستعمِلُهُ، فَيأتِينا فَيقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهدِي لي! أَفَلَا قَعَدَ ـ وفي لفظٍ: جَلَسَ ـ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ يَنْظُرُ أَيُهْدَى إِلَيْه أَمْ لَا؟ والَّذي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَنَالُ أَحَدٌ مِنكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ، بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَيْعَرُ».

وفي الحديث الذي رواه الطبرانيُّ والبيهقي والحميديُّ، وقال الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة»: «صحيح على شرط مسلم»[(١)]، أن النبيَّ ﷺ اسْتَعْمَلَ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامتِ يوماً عَلَى الصَّدقَةِ؛ فَقَالَ لَهُ: «اتَّقِ الله يَا أَبَا الْوَلِيدِ! أَنْ تَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِكَ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٍ لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةٍ لَهَا ثُؤَاجٌ»[(٢)].

وسترى أصنافًا من الناس في هذا اليوم لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم!! مَنْ هؤلاء؟ منهم كاتم العلم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٧٤، ١٧٥].

وفي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه[(٣)] وغيرهم من

---

(١) أخرجه البيهقيُّ في «سننه» (٤/ ١٥٨)، والطبرانيُّ في «الكبير» كما في «المجمع» (٣/ ٨٦) موصولاً، والحميديُّ في «مسنده» (٨٩٥) مرسلاً؛ من حديث ابن طاووس عن أبيه قال: فذكره، وانظر: «الصحيحة» (٨٥٧).

(٢) الثؤاج: صياح الغنم، (لسان العرب ـ مادة ثاج).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب العلم، باب كراهية منع العلم (٣٦٥٨)، والترمذي كتاب العلم =

حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».

وفي لفظ ابن ماجه: « مَا مِنْ رَجُلٍ يَحْفَظُ عِلْمًا فَيَكْتُمُهُ إِلاَّ أُتِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنَ النَّارِ ».

وكذلك من ينقض العهد مع الله؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

ومنهم: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والعاق لوالديه، والشيخ الزاني، والملك الكذاب، والديوث، والمرأة المتشبهة بالرجال، ومن جرَّ ثوبه خيلاء.

روى الإمام مسلم[1] عن أبي ذر الغفاري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلاَثَ مِرَارٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: « الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ ».

وروى مسلم[2] عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ ».

= باب في كتمان العلم (٢٦٤٩) وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه في المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه (٢٦١)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٤٣)، والحاكم (١/ ١٨٢)، وابن حبان (١/ ٢٩٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٨٤) و«المشكاة» (٢٢٣).

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية (١٠٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية (١٠٧).

وفي «الصحيحين»[(١)] عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلاَةِ يَمْنَعُهُ مِنِ ابْنِ السَّبِيلِ ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلاً بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ لَهُ بِاللهِ لأَخَذَهَا بِكَذَا وَكَذَا ، فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لاَ يُبَايِعُهُ إِلاَّ لِدُنْيَا ، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ ».

وفي «الصحيحين»[(٢)] عن ابن عمر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: « لاَ يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا »[(٣)].

وروى النسائي وأحمد وابن حبان[(٤)] من حديث عبد الله بن عمر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللهُ ﷻ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ ،وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ ، وَالدَّيُّوثُ، وَثَلاَثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ : الْعَاقُّ

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب المساقاة ، باب إثم من منع ابن السبيل من الماء (٢٣٥٨) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزراء والمن بالعطية (١٠٨).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب اللباس ، باب من جر إزاره من غير خيلاء (٥٧٨٤) وانظر أطرافه في (٣٦٦٥) ، ومسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب تحريم جر الثوب خيلاء وبيان حد ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب (٢٠٨٥).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب اللباس ، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥٧٨٨) ، ومسلم كتاب اللباس والزينة ، باب تحريم جر الثوب خيلاء وبيان حد ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب (٢٠٧٨) .

(٤) أخرجه النسائي ، كتاب الزكاة ، باب المنان بما أعطى (٢٥٦١) ، وفي «الكبرى» (٢٣٤٣) ، وابن حبان (٧٣٤٠) ، وأحمد (٢/ ١٣٤) ، والحاكم (٤/ ١٦٣) وقال : «حديث صحيح الإسناد» ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٦٧٤) و«صحيح الجامع» (٣٠٧١).

لِوَالِدَيْهِ ،وَالْـمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ، وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى ».

وروى الترمذي [(١)] عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: « لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَى رَجُلٍ أَتَى رَجُلاً، أَوِ امْرَأَةً ، فِي الدُّبُرِ ».

أما أهل الظلم الذين ينهبون أرض الناس لمناصبهم وكراسيهم، فهو بسلطانه وسطوته ! إذا رأى أرضًا تعجبه وضع يده عليها رغم أنف صاحبها !! وهو يظن أنه سيتنعم بها ؛ بل سيطوق بها سبعين أرضًا في يوم الموقف العظيم المهيب !!!

ففي «صحيح البخاري» [(٢)] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أَخَذَ مِنَ الأَرْضِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ».

أما الصنف الخبيث من الرجال والنساء وهو صاحب الوجهين؛ فما هو حاله؟!

ففي الحديث الذي رواه أبو داود والبخاريُّ في «الأدب المفرد» والدارميُّ وأبو يعلى الموصليُّ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» [(٣)] عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب الرضاع ، باب ما جاء في كراهية إتيان النساء في أدبارهن (١١٦٦) وقال : «حديث حسن غريب» ، وابن حبان (١٣٠٢) ، وحسنه الشيخ الألبانيُّ في «آداب الزفاف» (٣٣) ، وصححه في «صحيح الجامع» (٧٨٠١) و«المشكاة» (٣١٩٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المظالم ، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض (٢٤٥٤)، وأخرجه البخاريُّ (٢٤٥٢) ، ومسلم (١٦١٠) عن سعيد بن زيد عن النبيِّ ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في ذي الوجهين (٤٨٧٣) ، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (١٣٤٧) ط الكتب ، والدارمي (٢/ ٣١٤) ، وأبو يعلى في «مسنده» (١٦٢٠) كما في «السلسلة الصحيحة» (٨٩٢) ، وانظر «صحيح الجامع» (٦٤٩٦).

فِي الدُّنْيَا كَانَ لَهُ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وروى البخاريُّ ومسلم(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ».

أما المتسولون؛ المتخصصون في التسول بدون حق وبدون عذر؛ كيف حالهم؟

ففي «مسند أحمد» بسندٍ صححه شيخنا الألباني في «صحيح الجامع»(٢) عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَسْأَلَةُ الْغَنِيِّ شَيْنٌ فِي وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وروى أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد(٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ فِي وَجْهِهِ خُمُوشٌ، أَوْ خُدُوشٌ، أَوْ كُدُوحٌ».

وسترى في أرض الموقف رجلاً جاء وشقه مائل! مَنْ هذا؟ إنه الذي

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب ما قيل في ذي الوجهين (٦٠٥٨) وانظر (٣٤٩٤)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب خيار الناس (٢٥٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٦)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٨/ ١٦٤) (٣٦٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨٧١)، وصححه أيضًا لغيره الشيخ شعيب الأرناؤوط في «تحقيقه للمسند» (٣٣/ ٥٥).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة وحد الغني (١٦٢٦) والترمذي كتاب الزكاة باب ما جاء من تحل له الزكاة (٦٥٠) وقال: «حديث حسن»، والنسائي كتاب الزكاة باب حد الغني (٢٥٩١)، وابن ماجه، كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى (١٨٤٠)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٤٤١)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤٩٩) و«صحيح الجامع» (٦٢٧٩).

كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما ولم يعدل بينهما ، وحديثه عند أبي داود والنسائي وابن ماجه وأحمد [١] من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: « مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ ».

وتجد آخر يوم القيامة يكلَّفُ بأن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ، مَنْ هذا؟ إنه الذي يكذب في حلمه، وحديثه في البخاري [٢] عن عبد الله بن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ، وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ ».

وتجد آخر يجيء يوم القيامة والبصاق والتفل في وجهه ! مَنْ هذا ؟ إنه الذي يتفل تجاه القبلة .

وحديثه رواه ابن حبان وابن خزيمة في «صحيحيهما» [٣] عن ابن عمر ﷺ أنه ﷺ قال: «يُبْعَثُ صَاحِبُ النُّخَامَةِ فِي القِبْلَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَهِيَ فِي وَجْهِهِ » .

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب النكاح ، باب في القسم بين النساء (٢١٣٣) ، والنسائي في كتاب عشرة النساء ، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه (٣٩٥٢) ، وابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب القسمة بين النساء (١٩٦٩) ، وأحمد (٢/ ٢٩٥) ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٠٧٧) و«صحيح الجامع» (٦٥١٥) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب التعبير ، باب من كذب في حلمه (٧٠٤٢).

(٣) أخرجه ابن خزيمة (١٣١٣) وهذا لفظه ، وابن حبان (١٦٣٨) وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ١٩) : «أخرجه البزار ، وفيه عاصم بن عمر ضعفه البخاري وجماعة ، وذكره ابن حبان في الثقات » وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٢٣) و«صحيح الجامع» (٢٩١٠) و«صحيح الترغيب » (٢٨٣).

وروى أبو داود وابن حبان وابن خزيمة (١) عن حذيفة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ تَفَلَ تُجاهَ الْقِبْلَةِ جاءَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَفْلُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ».

هذا هو حال الكافرين، وهذا حال العصاة أو المذنبين.

أما حال المؤمنين المُوَحِّدين؛ فحال الأمن، والأمان، والسعادة والطمأنينة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١، ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ [الإنسان:١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

تعالوا لنتعرف على أصناف هؤلاء السعداء الأتقياء الذين لا يحزنون في هذا اليوم الذي يحزن فيه الناس، ولا يفزعون حين يفزع الناس؛ بل يكرمهم ربهم - جلَّ وعلا - ويُؤمِّن خوفهم بقدر ما خافوا ربهم في

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأطعمة، باب في أكل الثوم (٣٨٢٤)، وابن حبان (١٦٣٧)، وابن خزيمة (١٦٦٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٧٦)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٢٢)، و«صحيح الجامع» (٦١٦٠).

الدنيا؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقول ـ في الحديث القُدُسيِّ الصحيح: «وَعِزَّتِي، لاَ أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وأَمْنَيْنِ ، فَإذا خَافَنِي في الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإذَا أَمِنَنِي في الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

فهم يخافون من معصيته، ويخافون من سوء الخاتمة، ويخافون من عذاب الله في الآخرة؛ هؤلاء هم أهل الأمن الذين يأمنون حين يفزع الناس يوم القيامة، وأهل الأمن والأمان هنا في الدنيا الذين إذا ذُكِّروا بالله ما تذكَّروا ، وإذا ذُكِّروا بكلام رسول الله ﷺ ما تأثَّروا !! .

ولكنهم يستهزؤون بالعلماء، ويسخرون بحدود الله، ويتلاعبون بشرع الله ، ويهزءون بالعلماء والشيوخ، ويسخرون من أهل الدين والالتزام، ويشعرون بالأمن والأمان!! هؤلاء في هذا اليوم العصيب هم أهل الفزع والخوف والرعب.

نسأل الله أن يؤمننا في الدنيا والآخرة، وأن يرزقنا الخوف منه، إنه على كل شيءٍ قدير.

فالخوف من الله تعالى يكون على قدر الإيمان، والخوف ثمرة حتمية للإيمان ؛ قال تعالى: ﴿... وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥] .

وعلى قدر العلم بالله والمعرفة به ـ سبحانه ـ يكون خوفك وإجلالك لله؛ قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بِالله وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً »[2].

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٤٠ ـ الإحسان) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٩٨) ، وابن المبارك في «الزهد» (زوائد ١٥٨)، (١٥٧) موصولاً ومرسلاً ، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٣٣٢) ، و«الصحيحة» (٧٤٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب من لم يواجه الناس بالعقاب (٦١٠١)، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته (٢٣٥٦).

وفي «صحيح البخاري»[(١)] لَمَّا تُوُفِّيَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ رضي الله عنه قَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ ـ يُقَالُ لَهَا أُمُّ العَلاَءِ ـ قَالَتْ: رَحْمَةُ الله عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، شَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ الله ؛ فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ الله قَدْ أَكْرَمَهُ». قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ الله، فَمَنْ يُكْرِمُهُ الله ؟ فَقَالَ النبيُّ ﷺ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَالله إِنِّي لأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَالله مَا أَدْرِي ـ وَأَنَا رَسُولُ الله ـ مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ». فَقَالَتْ أُمُّ العَلاَءِ: فَوَ الله لاَ أُزَكِّي أَحَداً بَعْدَهُ أَبدًا.

فو الله ما تجرَّأنا على معصية الله إلا لما قلّ في قلوبنا جلالُ الله ! وقَدْر الله !! فَمَنْ هم أول من يُنَادى عليهم ليظلهم الله في ظلِّ عرشه يوم لا ظل إلا ظله؟

هؤلاء هم: الحاكم العادل الذي أسعد رعيته، وسعدت به رعيته .. الذي عرف أن الكرسيَّ أمانة فجعله مطية له إلى الجنة .

فهذا ينادى عليه في ظلِّ هذه الظروف المفزعة ليظله الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظلُّه.

ومنهم: شابٌّ تقيٌّ نقيٌّ كريمٌ عاش بين الفتنِ، فلمْ تؤثِّر تلك الفتنُ الحقيرة على قلبه، وطالما تضرع إلى ربه، واستغاث بالله ـ جلَّ وعلا ـ فهذا الشاب الذي نشأ منذ نعومة أظفاره في طاعة الله، واستمر على هذه الطريقة حتى كبرتْ سنُّه في طاعة الله، فلم يدنس نفسه بأوحال الرذيلة، ولا بأنفاس أهل الزنا والعُهْرُ والخيانة، هذا يُكَافئه ربُّه ـ جلَّ وعلا ـ في هذه اللحظات

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه (١٢٤٣)، وانظر أطرافه هناك.

أيضاً، فينادي عليه ليظله ربه في ظلّ عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

ومنهم: أهلُ المساجد الذين يُعمِّرون مساجد الله، قلوبهم معلَّقة بالمساجد، ولا يجدون الأنس ولا السعادة ولا الراحة إلا في بيت الله تعالى، يأتي الرجلُ من بيته وهو على طهارة يقرأ كتاب الله، أو يذكر الله تعالى، أو يصلِّي على النبيِّ ﷺ، وإذا خرج من المسجد بعد انتهاء الصلاة لأمرٍ من أمور الدنيا؛ فإن قلبه معلق بالمسجد يحِنُّ قلبُهُ إلى أن يعود وأن يرجع إلى بيت الله سبحانه وتعالى ؛ فهذا يظلُّه الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

ومنهم: أهل الحب في الله، يظلُّهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظِلَّ إلا ظله.

ومنهم: الذين يتعرضون إلى فتن النساء، وإنَّ أعْصَفَ وأخطر فتنة يتعرض لها الرجال، وهي : فتنة المرأة.

ففي «الصحيحين» [1] من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَإِنَّ فِتْنَةَ بني إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ » .

ولكنه في وسط هذه الفتنة يقول: إني أخاف الله رب العالمين ؛ فهذا يظله الله ﷻ في ظله يوم لا ظل إلا ظلُّه.

ومن هؤلاء: المنفقون ، أهل البذل ، وأهل الصدقة ، وأهل العطاء ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب النكاح ، باب ما يُتَّقَى من شؤم المرأة (٥٠٩٦) ، ومسلم ، كتاب الرقاق ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء ، وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤١) ، وفي رواية لمسلم: « ما تركتُ بَعْدي في الناس فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساء» .

لا يريدون الثناء والمحمدة، إنما يبتغون بعملهم وَجْهَ الله ﷻ؛ فهؤلاء يظلهمُ الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظلُّه.

ومن هؤلاء: الذين امتلأت قلوبهم بهيبة الله، وجلال الله، ومخافة الله ـ تبارك وتعالى ـ فإذا خلا أحدهم بنفسه، فذكر الله ارتعد قلبه، واقشعر جلده، وسالت عينه بالدموع خوفًا من الله، وإجلالًا له ـ جلَّ جلالُه.

ففي «الصحيحين»(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْـمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله. وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهاَ حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».

وخص النبيُّ ﷺ أهلَ الحبِّ في الله بحديث جميلٍ ثبت في «صحيح مسلم»(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الله يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْـمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي».

وانظر لتتعرف على حقيقة الحب في الله؛ لأن الكثيرين يظنون أن الحبَّ في الله سهلٌ ورخيصٌ، فهل تستظلُّ بظل الله لمجرد أنك تحبُّ أخاً حبًّا لا قدم له ولا ساق !! فالحبُّ في الله، شيءٌ جميل، وأمرٌ عظيمٌ؛ لذا يقول النبيُّ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لله، وَأَبْغَضَ لله، وَأَعْطَى لله، وَمَنَعَ لله،

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة (٦٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله (٢٥٦٦).

فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ»[١].

وفي «صحيح مسلم»[٢] من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ: «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ ـ في الله ـ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ الله لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُ المَلَكُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ القَرْيَةِ. فَقَالَ المَلَكُ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟[٣] قَالَ: لاَ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي الله. فَقَالَ المَلَكُ: فَإِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكَ، بِأَنَّ الله قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ».

وفي «مسند أحمد»، و«موطأ مالك»[٤] بسندٍ صحيح أن أبا إدريس الخَوْلاني قال: «دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ يَوْمًا، فَرَأَيْتُ فَتًى بَرَّاقَ الثَّنَايَا، ورأيتُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِ يَسْمَعُونَ إِليه، وَيُنصتُونَ إليه، وَيصْدرونَ عن رَأْيِهِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا الفَتَى؟ فقالوا: إِنَّهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ هَجَّرتُ إلى المسْجد، فَوَجَدْتُ معُاذًا قَدْ سبقَني بِالتَّهْجِيرِ، وَوَجَدْتُه قَائِماً يُصَلِّي، فَانْتَظَرْتُ حَتَّى قَضَى صَلاتَهُ، ثُمَّ أَتَيْتُه مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي الله. وفي لفظٍ: إِنِّي لأُحِبُّكَ مِنْ جَلاَلِ الله»؛ فَقَالَ مُعَاذٌ: آلله؟ فَقَال أَبُو إِدريس: آلله؟ فَقَالَ مُعَاذٌ: آلله.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨١) عن أبي أمامة عن النبيِّ ﷺ، ورواه أحمد (٣/ ٤٤٠)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة (٢٥٢١) عن معاذ بن أنس، والحديث صحَّحه الشيخ الألبانيُّ بطرقه في «الصحيحة» (٣٨٠).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر، باب فضل الحب في الله (٢٥٦٧).

(٣) قال القاضي عياض: «أي: تقومُ عليها وتسعى في صلاحها، وتنهض له بسبب ذلك». (إكمال المعلم: ٨/ ٣٥).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٣، ٢٤٧)، ومالك في «الموطأ»، باب المتحابين في الله (٢٠٠٧) ط الرسالة، وعبد بن حميد (١٢٥)، والحاكم (٤/ ١٧٠)، وصحح سنده الألبانيُّ في «المشكاة» (٥٠١١).

فَقَالَ أَبُو إِدريس: آلله ؟ ، يَقُولُ : فَجَبَذَنِي بِحبْوةِ رِدائه وَقَالَ لِي: أَبْشِرْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « قَالَ الله تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ ».

فما وُجِدَ في الدنيا أغلى ولا أطعم ولا أثمن من الحب في الله.

ففي «صحيح البخاريِّ» [١] من حديث عبد الله بن هشام، قَالَ: كنا مع النبيِّ ﷺ وهو آخذٌ بيد عمر بن الخطاب، فقالَ له عُمَر: يا رسول الله ! لأنتَ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلاَّ منْ نَفْسي؛ فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: « لاَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ ». فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ وَالله لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « الآنَ يَا عُمَرُ ».

أي: الآن قد كَمُلَ إيمانك.

قال الخطابيُّ رحمه الله نقله عنه الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الفتح» [٢]: «حُبُّ الإنسان لنفسه طبْعٌ ، وحُبُّ الإنسان لغيره اختيار بتوسط الأسباب ، وما طَلَبَ النبيُّ ﷺ من عمر حبَّ الطبع ، إذ لا سبيل إلى قلب الطباع عما جُبِلَتَ عليه، وإنما طَلَبَ النبيُّ من عمر حبَّ الاختيار، فلما نظر عمر في توسط الأسباب، فعلم أن النبيَّ ﷺ كان سببَ نجاتهِ من النار، والمهلكات في الدنيا والآخرة ، فَطِنَ عمر حينئذٍ ؛ فقال: لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي يا رسول الله » .ا هـ.

وفي الحديث الذي رواه ابن أبي الدنيا بسندٍ صحيح [٣] عن عبادة بن

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأيمان ، باب كيف كانت يمين النبيِّ ﷺ ؟ (٦٦٣٢).

(٢) انظر «فتح الباري» (١١/ ٥٣٦) بتصرف.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان» (٩) عن عبادة، وصححه لشواهد العلامة الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٣٢٠) ومن الشواهد : حديث معاذ عند ابن أبي الدنيا (٣، ٧) وحديث أبي=

الصامت ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: حُقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَحَابِّينَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي».

ومن هؤلاء السعداء: الذين يُفَرِّجون كُرَبَ الناس و يزيلون هموم الناس، ويسعون في قضاء حوائجهم.

ففي «صحيح مسلم»[(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، واللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ...» الحديث.

قال الإمام القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «الجامع لأحكام القرآن الكريم»[(٢)]: «الناس صنفان: صنف اشتهر بالصلاح والتقوى والدين، فإن زل لبشريته فيجب على المسلمين أن يستروا زلته. أما الصنف الثاني: صنف اشتهر بالفسق والفساد بين الناس، هذا هو الذي لا غيبة له؛ بل ينبغي أن ينصح، فإن لم يتنصح يجب على المسلمين أن يحذِّروا الناس من شرِّه، وأن يبكتوه بما فيه لكي يحذره الناس».

روى البخاريُّ ومسلم[(٣)] من حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ

= هريرة فيه (رقم ٤)، وانظر: «مسند أحمد» (٣٦/ ٣٢٧ط الرسالة)، و«كنز العمال» (٩/ ١٢).

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن (٢٦٩٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٦/ ٢٦٥) ط الحديث، بتصرف في المعنى.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٨٠) وانظر (٢٠٧٨)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر (١٥٦٢).

مُعْسِرًا، فَتَجَاوَزَ عَنْهُ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا ، فَلَقِيَ اللهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ ».

وفي روايةٍ للشيخين (١) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ؛ فقَالُوا : أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: لا، فَقَالُوا: تَذَكَّرْ، فَقَالَ: كُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ، فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ، وَيَتَجَوَّزُوا عَنِ الْمُوسِرِ - قَالَ : فقَالَ اللهُ عز وجل: أَنَا أَحَقُّ بِذَلكَ مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي».

وفي «صحيح مسلم» (٢) من حديث أبي اليَسَرِ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ ».

ومنهم : أهل العدل والتجرد الذين يعدلون في أهليهم وفي حكمهم وما ولُوا.

ففي «صحيح مسلم» (٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: « إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عز وجل وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ ،وَمَا وَلُوا ».

قال القاضي عياض (٤): « المقسطون: العادلون ، وقد فسَّره آخرُ الحديث بقوله : «الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا ».

فدلَّ هذا الفضل لكلِّ من عدل فيما تقلَّده من خلافة ، وإمارة أو ولاية يتيم ، أو صدقة ، أو غير ذلك ، أو فيما يلزمه من حقوق أهله ، أو من يقوم به » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب البيوع، باب من أنظرَ موسرًا (٢٠٧٧) ، ومسلم كتاب المساقاة (١٥٦٠) ، وأخرجه مسلم في المساقاة (١٥٦١) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد ، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (٣٠٠٦).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٧).

(٤) انظر : «إكمال المعلم» للقاضي (٦/ ٢٢٧).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(١)] : «والله قد أمرنا ألا نقول عليه إلا الحق وألا نقول عليه إلا بعلم ، وأمرنا بالقسط والعدل ... » ا.هـ .

فمن قال في الناس بغير علم ؛ فقد خالف قول الله تعالى :﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء:٣٦] .

وقال في الناس بظلم ؛ فقد خالف قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٨] .

ومن هؤلاء السعداء : الشهداء الذين ينجيهم الله من كرب يوم القيامة .

ففي « مسند أحمد» ، و«سنن الترمذي » ، وصحَّح الحديث شيخنا الألباني في« صحيح الجامع »[(٢)] من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله سِتُّ خِصَالٍ : يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقْرِبَائِهِ» .

وروى الطبرانيُّ[(٣)] بإسنادٍ صحَّحه الشيخُ الألبانيُّ عن أبي الدرداء رضي الله عنه

---

(١) «منهاج السنة» (٢ / ٣٤٢) ، وانظر نحوه في« الجواب الصحيح » (٦ / ٤٥٨) .

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب فضائل الجهاد ، باب في ثواب الشهيد (١٦٦٣) ، وأحمد (٤/ ١٣١)، وابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب فضل الشهادة في سبيل الله (٢٧٩٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٨٢) ، وانظر تحقيق الأرناؤوط على «المسند» (٢٨/ ٤١٩).

(٣) أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» في مسند أبي الدرداء كما في «الكنز» (٤/ ٢٨٤) ، و «الجامع الصغير» ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٧٩) ، وقال المنذريُّ في «الترغيب» (٢/ ٢٤٣): «رواه الطبراني، ورواته ثقات».

أن النبيَّ ﷺ قال: «رِبَاطُ شَهْرٍ مِنْ صِيَامِ دَهْرٍ، وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ الله أَمِنَ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَغُدِيَ عَلَيْهِ بِرِزْقِهِ، وَرِيحَ مِنَ الجَنَّةِ، وَيَجْرِي عَلَيْهِ أَجْرُ المُرَابِطِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ عز وجل».

وقوله: «وَغُدِيَ عَلَيْهِ بِرِزْقِهِ» أي: مدَّه الله بزيادة وسعة وغذاء جيد، وهذا نعيم وأيُّ نعيم ؟!

ومن هؤلاء السعداء: الكاظمون الغيظ.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٣ – ١٣٤]

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذيُّ وابن ماجه والطبرانيُّ بسندٍ حسَّنه الألباني [(١)] من حديث سهل بن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ كَتَمَ غَيْظًا أَوْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ الحُورِ شَاءَ».

ومن هؤلاء السعداء: أصحاب الأعناق الطويلة: المؤذنون.

ففي «صحيح مسلم» [(٢)] من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب من كظم غيظًا (٤٧٧٧) والترمذي، كتاب البر والصلة، باب من كظم غيظًا، (٢٠٢١)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب الحلم (٤١٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٤٧، ٤٨)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٨٨ – ١٨٩)، وحسنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٥١٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان، وهرب الشيطان عند سماعه (٣٨٧).

الْقِيَامَةِ».

وفي «صحيح البخاري»[(١)] من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه أن أبا سعيد الخدري ﷺ قال له:

«إِنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الْغَنَمَ وَالْبَادِيَةَ، فَإِذَا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ أَوْ بَادِيَتِكَ فَأَذَّنْتَ بِالصَّلَاةِ فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ، وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قال أبو سعيد: سمعتُهُ منْ رسول الله ﷺ.

أي سمع هذا الجزء الأخير، وهو قوله: «إِنَّهُ لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ ...» إلخ؛ كما قال الحافظ في «الفتح»[(٢)].

ومن هؤلاء السعداء: الذين يشيبون في الإسلام.

روى الترمذي والنسائيُّ، وصحَّحه شيخنا الألبانيُّ[(٣)] في «صحيح الجامع» من حديث كعب بن مرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وروى البيهقيُّ في «شُعب الإيمان»[(٤)] بسندٍ حسنٍ عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «الشَّيْبُ نُورُ الْمُؤْمِنِ، لَا يَشِيبُ رَجُلٌ شَيْبَةً

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء (٦٠٩).

(٢) انظر: «الفتح» (٢/ ١٠٦).

(٣) أخرجه الترمذيُّ، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من شاب شيبة في سبيل الله (١٦٣٤)، والنسائي، كتاب الجهاد، باب ثواب من رمي بسهم في سبيل الله (٣١٤٢)، وأحمد (٤/ ٤٣٥)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٣٠٧)، وانظر: «الصحيحة» (١٢٤٣، ١٢٤٤).

(٤) أخرجه البيهقيُّ في «الشعب» (٦٣٨٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٤٣).

فِي الإِسْلاَمِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِكُلِّ شَيْبَةٍ حَسَنَةٌ ، وَرُفِعَ بِهَا دَرَجَةً ».

ومن هؤلاء : أهل الوضوء ؛ ففي «صحيح البخاري ومسلم »[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُدْعَوْنَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ».

وبهذه الحلية النورانية تتميز الأمة المحمدية ، ويعرف النبيُّ ﷺ أمته من بين هذه الأمم الكثيرة في أرض المحشر.

ففي «صحيح مسلم »[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ أتى المقبرة يومًا فقال :«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ الله بِكُمْ لَاحِقُونَ . وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا» ، فقالَ الصَّحابَة : أَوَلَسْنَا إِخْوانَكَ يَا رَسُولَ الله ؟ فَقَالَ :« أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ» ، فَقَالُوا : فَكَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ :« أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ رَجُلاً لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَي خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ـ سود ـ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ :« فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُراً مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ . وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ..». أي : أتقدمُهم على الحوض .

وأقف عند هذا المقدار من عرض أحوال المشركين وحال أهل الإيمان على أرض المحشر لأعرِّج على مسألةٍ في غاية الخطورة ومن الأهمية بمكان ؛ ألا وهي : قضية الشفاعة ـ والله أسأل أن يجعلنا من الناجين ، وأن يختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين .

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الوضوء ، باب ما جاء في الوضوء ، (١٣٦)، ومسلم ، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء (٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة (٢٤٩).

الشفاعة

تعرَّفنا على أحوال المشركين وعلى أحوال المؤمنين، وعلى أحوال عصاة المسلمين؛ فأحوال الناس تتباين وتختلف اختلافًا كثيرًا بحسب أعمالهم في هذا اليوم العظيم الذي تدنو فيه الشمس من الرءوس، فتكاد أن تصهر الرءوس، ولولا أن الله ﷻ لم يُقدِّر في هذه اللحظات على الناس الموت لماتوا من شدة حرِّها، والعرق الذي يتصبب فيه الناس على قدر أعمالهم يكاد يُغرِقُ الناس؛ بل والزحام يكاد أن يخنق الأنفاس، فالشمس فوق الرءوس، وجهنم في أرض المحشر قد أُتِيَ بها، لها سبعون ألف زمام، ومع كلِّ زمام سبعون ألف مَلَكٍ يجرُّونها [(١)] .

تزفر جهنم، وتزمجر غضبًا منها لغضب ربها الذي غضب في هذا اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فجهنم غاضبةٌ هي الأخرى غضبًا منها لغضب الله ﷻ؛ قال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٦-٢٩].

في هذا الموقف العظيم العصيب الرهيب يضجُّ الناس، ويقول بعضهم لبعض: ألا ترون ما نحن فيه؟ من يشفع لكم إلى ربكم - جلَّ

---

(١) كما في «صحيح مسلم» وقد سبق تخريجه.

وعلا ـ فهم يطلبون الشفاعة لا ليدخلوا الجنة ، كلَّا ، كلَّا ؛ بل ليقضي الله بينهم حتى لا يقفوا في هذا الموقف الرهيب بين يديه ﷻ ، وأرجو بهذه الكلمات أن تتصوروا هَوْلَ هذا الموقف !

وهنا تظهر في هذه اللحظات كرامة المصطفى ﷺ عند رب الأرض والسموات ﷻ ، يقول بعض الناس لبعض في أرض الموقف : ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيذهبون إلى جميع الأنبياء ، فيقول كلُّ نبيٍّ : نفسي ، نفسي !! وأحاديث الشفاعة في أعلى درجات الصِّحَّة في دواوين السنة التي أجمعت الأمةُ على صحتها في صحيحي : البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنن ، وقبل أن أخوض في الحديث عن الشفاعة ؛ لابد من توضيح عدة أمور :

أولًا : ما معنى الشفاعة؟

الشفاعة : مأخوذةٌ من الشفع ، وهما الاثنان ، والشفع ضد الوتر ، فالوتر واحد ، والشفع اثنان ، تقول : كان وترًا فشفعته ، وبيان ذلك: أن صاحب الحاجة كان واحدًا فَضَمَّ إليه الواسطة ، وهو من استشفع به ، وطلب شفاعته فكانا معًا شفعًا ، أي اثنين بعد أن كانا فردًا ؛ فهي إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع ، وإيصال منفعةٍ للمشفوع .

وقد يظنُّ شخصٌ أن الآيات بينها تعارض ، وذلك حينما يقرأ آيات تنفي الشفاعة ، وأخرى تثبتها ، ولا تعارض البتة بين هذه وتلك ؛ فمن الآيات التي نفت الشفاعة والشفيع مطلقًا :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ٤٨] ،

وقول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام:٧٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام:٩٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨] ، وقول أهل النار : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٠٠، ١٠١] ، وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة : ٤] .

وقول بعض الصالحين : ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس : ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ

﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾
[الزمر:٤٣ ، ٤٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[غافر: ١٨].

ومن الآيات التي أثبتت الشفاعة والشفيع :

قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[البقرة : ٢٥٥] ، وقوله تعالى : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾[يونس : ٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[الأنبياء:٢٦ ـ ٢٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[طه : ١٠٥ ـ ١١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ ﴾[سبأ : ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[الزخرف : ٨٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾
[النجم : ٢٦]

وهذه الآيات أثبتت الشفاعة بقيود !

ويجمع بين الآيات التي نفت الشفاعة والآيات التي أثبتتها بالآتي :

أولًا : لا بد أن نعلم جميعًا أن أمرَ الشفاعة موكولٌ إلى الله تعالى ؛ لقوله ﷻ : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٤٤] .

ثانيًا : لا شفاعة في كافر[1] ولو كان أحب أو أقرب الناس ؛ لقول الله - تبارك وتعالى : ﴿ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : ١٨] ، ولقوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴾ [المدثر : ٤٨] ، ولقول الكافرين : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٠٠، ١٠١] .

وفي « صحيح البخاري » من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، فَيَقُولُ الله : إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ»[2] .

ثالثًا : لا يشفع أحدٌ إلا بإذن الله .

وذلك لقوله تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾

---

(١) يستثنى من هذا أبو طالب عم رسول الله ﷺ ؛ لما أخرجه البخاريُّ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب قصة أبي طالب (٣٨٨٥) ، وطرفه في (٦٥٦٤) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه (٢١٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع النبيَّ ﷺ وذُكِرَ عنده عمه أبو طالب ، فقال : « لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ » ، وقد جاء هذا مجزومًا به في حديث العباس ابن عبد المطلب ﷺ أنه قال للنبيِّ ﷺ : مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ ؟ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ ، قال : « هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » أخرجه البخاريُّ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب قصة أبي طالب (٣٨٨٣) ، وانظر طرفيه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب شفاعة النبيِّ ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه» ، فأبو طالب مستثنى ، ثم إن الشفاعة لم تخرجه من النار .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب ولا تخزني يوم يبعثون ،(٤٧٦٩) وطرفاه في (٣٣٥٠ ، ٤٧٦٨) .

رابعًا: **لا يشفع أحدٌ إلا فيمن ارتضاه الله سبحانه وتعالى ؛ لقوله** سبحانه: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨].

خامسًا: **أن الآلهة التي عُبدت من دون الله أو معه لا تشفع لعابديها.**

لقوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف:٨٦].

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ... ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] .

والشفاعات تنقسم إلى ثلاثة أنوع وهي:

- شفاعات في الآخرة.
- شفاعات من أقوام أحياء لقوم قد ماتوا.
- شفاعات بين أهل الدنيا في دنياهم، وهذا على وجه الإجمال.

أما على وجه التفصيل؛ فبالنسبة لشفاعات الآخرة ؛ فنذكر منها:

١ ـ الشفاعةُ العُظمى:

وهي التي نحن بصدد الحديث عنها، (والشافع فيها هو رسول الله ﷺ بإذن ربه ﷻ) وهي لأمور:

(١) للتفريج عن الناس مما هم فيه من الغم والكربات التي لا يطيقونها ولا يحتملونها لما يجمعهم الله في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس من رُءوسهم.

(٢) لإدخال أقوام الجنة.

(٣) لإخراج أقوام من النار.

وها هي بعض الأحاديث الواردة في بيان هذه الشفاعة العظمى:

روى البخاريُّ ومسلم [1] عن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْـمَغَانِمُ ،وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً».

وروى مسلم في «صحيحه» [2] من حَدِيثَ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ فِي الْـمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي ، فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلاَةَ دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقُلْتُ :إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التيمم ، باب التيمم (٣٣٥)، وانظر طرفيه هناك، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف (٨٢٠).

سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَآ: فَحَسَّنَ النَّبِيُّ ﷺ شَأْنَهُمَا، فَسُقِطَ فِي نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلاَ إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَدْ غَشِيَنِي ضَرَبَ فِي صَدْرِي، فَفِضْتُ عَرَقًا، وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى اللهِ ﷻ فَرَقًا، فَقَالَ لِي: «يَا أُبَيُّ أُرْسِلَ إِلَيَّ: أَنِ اقْرَأِ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي. فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ: أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي. فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ: اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا فَقُلْتُ: اللهمَّ اغْفِرْ لأُمَّتِي. اللهمَّ اغْفِرْ لأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ ﷺ».

وروى البخاريُّ ومسلم[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ فَأُرِيدُ إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وروى البخاري ومسلم[2] ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً؛ فَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب لكل نبيٍّ دعوة مستجابة (٦٣٠٤) وطرفه في (٧٤٧٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب اختباء النبيِّ ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (١٩٨) ورُوي مثله عن أنس رضي الله عنه عند البخاريِّ (٦٣٠٥)، ومسلم (٢٠٠)، ورُوي عن جابر رضي الله عنه عند مسلم (٢٠١).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] (٤٧١٢)، وانظر طرفيه في (٣٣٤٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤).

يُطِيقُونَ، وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ. فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ :يَا آدَمُ! أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ ،خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ ،وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْـمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ :إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي، نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرْضِ وَسَمَّاكَ الله عَبْدًا شَكُورًا ،اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ،وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي، نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ الله وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ :إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي ، نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى. فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُونَ :يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ الله، فَضَّلَكَ الله بِرِسَالاَتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ،وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا ،نَفْسِي، نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ .فَيَأْتُونَ عِيسَى ﷺ

فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى ، أَنتَ رَسُولُ الله، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْـمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى :إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا ، نَفْسِي، نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ،فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ ، أَنْتَ رَسُولُ الله وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ،أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ، وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ ،اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! أُمَّتِي، أُمَّتِي. فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ، أَدْخِلِ الْـجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ ،مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ، مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْـجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْـجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى ».

وفي «الصحيحين »[(١)] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « يَجْمَعُ الله الْـمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَمَا تَرَى النَّاسَ؟ خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ ،اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكَ ــ وَيَذْكُرُ لَهُمْ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد، باب لما خلقت بيدي (٧٤١٠) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣).

خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَهَا ـ وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ الله إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ ـ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ ـ وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ـ وَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطَايَاهُ الَّتِي أَصَابَهَا ـ وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى عَبْدًا آتَاهُ الله التَّوْرَاةَ وَكَلَّمَهُ تَكْلِيمًا ، فَيَأْتُونَ مُوسَى فيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ـ وَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ ـ وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ الله وَرَسُولَهُ وَكَلِمَتَهُ وَرُوحَهُ. فَيَأْتُونَ عِيسَى فيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ ، عَبْدًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونني فَأَنطَلِقُ ، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ الله أَنْ يَدَعَنِي ، ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ مُحَمَّدُ ، قُلْ يُسْمَعْ ،وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ؛ ثُمَّ أَرْجِعُ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا ، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ الله أَنْ يَدَعَنِي ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، قُلْ يُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا ، ثُمَّ أَشْفَعُ ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ؛ ثُمَّ أَرْجِعُ ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ».

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الْخَيْرِ ذَرَّةً».

وفي رواية [(١)] : عن معبد بن هلال العنزي قال: «اجْتَمَعْنَا نَاسٌ مِنْ

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب كلام الربِّ ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم=

أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، فَذَهَبْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَذَهَبْنَا مَعَنَا بِثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ لَنَا عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَإِذَا هُوَ فِي قَصْرِهِ فَوَافَقْنَاهُ يُصَلِّي الضُّحَى فَاسْتَأْذَنَّا فَأَذِنَ لَنَا وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى فِرَاشِهِ. فَقُلْنَا لِثَابِتٍ: لاَ تَسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ أَوَّلَ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ ،فقَالَ: يَا أَبَا حَمْزَةَ! هَؤُلاَءِ إِخْوَانُكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ جَاؤُوكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ. فَقَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ : لَسْتُ لَهَا ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ ، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ : لَسْتُ لَهَا ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى ، فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ : لَسْتُ لَهَا ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ : أَنَا لَهَا. فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا ، فَيَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ ، وَسَلْ تُعْطَ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ، أُمَّتِي، أُمَّتِي ! فَيُقَال :انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ ، وَسَلْ تُعْطَ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ، أُمَّتِي ، فَيُقَال :انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ ، وَسَلْ تُعْطَ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ.

= (٧٥١٠)ومسلم، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣).

فَأَقُولُ : يَا رَبِّ أُمَّتِي، فَيَقُولُ : انْطَلِقْ، فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ».

فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ فَحَدَّثْنَا بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَنَا، فَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ فَقَالَ : هِيهِ! فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ فَانْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَ :هِيهِ! ،فَقُلْنَا : لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا. فَقَالَ : لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً فَلاَ أَدْرِي أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا.

قُلْنَا : يَا أَبَا سَعِيدٍ ، فَحَدِّثْنَاهُ. فَضَحِكَ وَقَالَ : خُلِقَ الإِنْسَانُ عَجُولًا ، مَا ذَكَرْتُهُ إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ، حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ ،قَالَ : « ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ».

وفي «صحيح مسلم»(١) من حديث حذيفة وأبي هريرة ﷺ قالا : قال رسول الله ﷺ: «يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ،فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ(٢) لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ :يَا أَبَانَا ، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ :وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ ؟ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ، قَالَ :فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة (١٩٥).

(٢) تُزْلَفَ: أي: تقرب؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق:٣١] أي: قريب .

بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ (١) ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ﷺ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا. فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللهِ وَرُوحِهِ ، فَيَقُولُ عِيسَى ﷺ : لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ ،فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ ، وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ (٢) ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ (٣) يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ ».

قَالَ قُلْتُ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: « أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ ، وَشَدِّ الرِّجَالِ (٤) تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ : رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ ،حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ ،حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفًا » . قَالَ : « وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ (٥) كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ (٦) فِي النَّارِ ». وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ! إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا.

٢ـ الشفاعة لأهل الكبائر:

وقد دلَّ عليها أدلةٌ كثيرةٌ جدًّا ؛ منها ما هو خاص، ومنها ما هو عام.

أما الخاص ؛ فلقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن أنس

---

(١) مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ: قال الإمام النوويُّ : قد أفادني هذا الحرف الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أمية أدام الله نعمه عليه، وقال:« الفتح صحيح»، وتكون الكلمة مؤكدة كَشَذَرَ مَذَرَ وَشَغَرَ بَغَرَ، وسقطوا بين بين ، فركبهما وبناهما على الفتح.

(٢) وتُرْسَلُ الأَمَانَةُ والرحمُ: إرسال الأمانة والرحم، لعظم أمرهما وكثير موقعهما، فتُصوران مشخصتين على الصفة التي يريدها الله تعالى. («النووي» ٣/ ٧١، ٧٢).

(٣) ناحيتاه اليمنى واليسرى. (٤) الشد هو: العَدْوُ البالغ والجري.

(٥) أي: جانباه.

(٦) مَكْدُوسٌ : قال في «النهاية» : أي مدفوع، وتكدُّس الإنسان إذا دُفِعَ مِنْ ورائه فسقط.

ﷺ أن رسول الله ﷺ: «شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»[1].

أما الأدلة العامة؛ فمنها ما يلي:

روى البخاريُّ عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ مِنْ نَفْسِهِ»[2].

وفي الأحاديث التي قدمناها عند ذكر الشفاعة العظمى:

«فَأَقُولُ: مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ».

وقول النبيِّ ﷺ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً».

وفي الأحاديث المتقدمة أيضًا: «... فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ، فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ـ إلى أن قال: فَيَقُولُ ـ أي: الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «.. انْطَلِقْ، فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣) وأبو داود، كتاب السنة، باب في الشفاعة (٤٧٣٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٤٠٠)، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٥) وقال: «حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٧١٤)، وهذا الحديثُ مرويٌّ عن جابر وابن عباس وغيرهما ﷺ جميعًا.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث (٩٩) وطرفه في (٦٥٧٠).

فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ».

ومنها قول النبيِّ ﷺ: « وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».

ومنها قول النبيِّ ﷺ: « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللهمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاَةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1].

فيدخل في هذا أهلُ الكبائر أيضًا.

٣ ـ الشفاعة في قوم ليدخلوا الجنة بغير حساب:

وسيأتي الحديثُ عنهم بالتفصيل، وأكتفي بذكر حديث رواه أحمد والطبرانيُّ في «الكبير»[2] عن رفاعة الجهني رضي الله عنه قال: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْكَدِيدِ ـ أَوْ قَالَ بِقُدَيْدٍ ـ فَجَعَلَ رِجَالٌ مِنَّا يَسْتَأْذِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ فَيَأْذَنُ لَهُمْ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: « مَا بَالُ رِجَالٍ يَكُونُ شِقُّ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَلِي رَسُولَ الله ﷺ أَبْغَضَ إِلَيْهِمْ مِنَ الشِّقِّ الآخَرِ ». فَلَمْ نَرَ عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ الْقَوْمِ إِلاَّ بَاكِيًا؛ فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الَّذِي يَسْتَأْذِنُكَ بَعْدَ هَذَا لَسَفِيهٌ. فَحَمِدَ الله، وَقَالَ حِينَئِذٍ: « أَشْهَدُ عِنْدَ الله لاَ يَمُوتُ عَبْدٌ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ الله

---

(١) أخرجه البخاريُّ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعًا، كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء (٦١٤) وطرفه في (٤٧١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٦)، والطبراني في «الكبير» (٥/ ٤٩، ٥٠) (٤٥٥٦). وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١٠/ ٤٠٨): «رواه الطبراني والبزار، ورجال بعضها رجال الصحيح»، وقال الشيخ شعيب: «إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير أن صاحبيه لم يرو له سوى النسائي وابن ماجه».

صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ ثُمَّ يُسَدِّدُ إِلاَّ سُلِكَ فِي الْجَنَّةِ ». قَالَ: « وَقَدْ وَعَدَنِي رَبِّي ﷻ أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَابَ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ لاَ يَدْخُلُوهَا حَتَّى تَبَوَّءُوا أَنْتُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِكُمْ وَأَزْوَاجِكُمْ وَذُرِّيَّاتِكُمْ مَسَاكِنَ فِي الْجَنَّةِ ».

٤ـ الشفاعة في خروج الموحدين من النار:

روى البخاريُّ ومسلم (١) عن أبي هريرة ﷺ أن النَّاسَ قالُوا: يَا رَسُولَ الله! هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: « هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ ؟». قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ الله . قَالَ: « فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ». قَالُوا: لاَ. قَالَ: « فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ الله فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ. فَيَأْتِيهِمُ الله فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَيَدْعُوهُمْ، فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلاَّ الرُّسُلُ، وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ ؟». قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: « فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلاَّ الله، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا أَرَادَ الله رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب فضل السجود (٨٠٦)، وانظر طرفيه هناك، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ اللهُ الْـمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَيُخْرِجُونَهُمْ، وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ قَدِ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْـحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ ـ وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولاً الْـجَنَّةَ ـ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا. فَيَقُولُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فُعِلَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَعِزَّتِكَ. فَيُعْطِي اللهَ مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الْـجَنَّةِ رَأَى بَهْجَتَهَا، سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ، قَدِّمْنِي عِنْدَ بَابِ الْـجَنَّةِ. فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْعُهُودَ وَالْـمَوَاثِيقَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ سَأَلْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، لاَ أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: فَمَا عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَهُ فَيَقُولُ: لاَ وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُ غَيْرَ ذَلِكَ. فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْـجَنَّةِ، فَإِذَا بَلَغَ بَابَهَا فَرَأَى زَهْرَتَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ النَّضْرَةِ وَالسُّرُورِ فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَدْخِلْنِي الْـجَنَّةَ. فَيَقُولُ اللهُ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ! أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، لاَ تَجْعَلْنِي أَشْقَى خَلْقِكَ. فَيَضْحَكُ اللهُ عز وجل مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْـجَنَّةِ فَيَقُولُ: تَمَنَّ. فَيَتَمَنَّى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ أُمْنِيَّتُهُ قَالَ اللهُ عز وجل: مِنْ كَذَا وَكَذَا ـ أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ ـ حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: لَكَ ذَلِكَ

وَمِثْلُهُ مَعَهُ ».

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ لأَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ : إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « قَالَ الله: لَكَ ذَلِكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ ».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ :لَمْ أَحْفَظْ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ إِلاَّ قَوْلَهُ : « لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ ».

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: إِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: « ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ ».

وفي «الصحيحين»(١) عن أبي سعيد الخُدرِيِّ ﷺ قَالَ: قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: « هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا ؟» قُلْنَا :لاَ. قَالَ:« فَإِنَّكُمْ لاَ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا »، ثُمَّ قَالَ : « يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ وَغُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ لله صَاحِبَةٌ وَلاَ وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا،فَيُقَالُ: اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ ، ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ : كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ الله ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ لله صَاحِبَةٌ وَلاَ وَلَدٌ فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ : نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا. فَيُقَالُ: اشْرَبُوا، فَيَتَسَاقَطُونَ حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ أَوْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٣] (٧٤٣٩) ومسلم ، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣).

فَاجِرٍ فَيُقَالُ لَهُمْ : مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟ فَيَقُولُونَ: فَارَقْنَاهُمْ وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ الْيَوْمَ وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي : لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا ، قَالَ : فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا. فَلاَ يُكَلِّمُهُ إِلاَّ الأَنْبِيَاءُ فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ :السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهرَيْ جَهَنَّمَ ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله ، وَمَا الْجَسْرُ؟

قَالَ: « مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا ، فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الْحَقِّ ، قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا ، وَيَصُومُونَ مَعَنَا ، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا ، فَيَقُولُ الله تَعَالَى : اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ الله صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ ، وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ، ثُمَّ يَعُودُونَ ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ، ثُمَّ يَعُودُونَ ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ».

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَءُوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾[النساء:٤٠] «فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدِ امْتُحِشُوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ :مَاءُ الْحَيَاةِ ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ ،وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ : هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ ، أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ : لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ».

وفي «صحيح البخاريّ»(١) من حديث أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «يُحْبَسُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُهَمُّوا بِذَلِكَ ، فَيَقُولُونَ : لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ ، لِتَشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، قَالَ: فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ ـ قَالَ: وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ أَكْلَهُ مِنَ الشَّجَرَةِ وَقَدْ نُهِيَ عَنْهَا ـ وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ نَبِيٍّ بَعَثَهُ الله إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ ـ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ سُؤَالَهُ رَبَّهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ ـ وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ. قَالَ : فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: إِنِّي لَسْتُ هُنَاكُمْ ـ وَيَذْكُرُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ كَذَبَهُنَّ ـ وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى : عَبْدًا آتَاهُ الله

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] (٧٤٤٠).

التَّوْرَاةَ وَكَلَّمَهُ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا، قَالَ: فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: إِنِّي لَسْتُ هُنَاكُمْ ـ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ قَتْلَهُ النَّفْسَ ـ وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ وَرُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ، قَالَ: فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدًا غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي فَيَقُولُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ».

قَالَ قَتَادَةُ: وَسَمِعْتُهُ أَيْضًا يَقُولُ: « فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي ثُمَّ يَقُولُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، قَالَ: ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ».

قَالَ قَتَادَةُ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: « فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يَقُولُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، قَالَ: ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ».

قَالَ قَتَادَةُ: وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: « فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ

الجَنَّةَ حَتَّى مَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ» أَيْ :وَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩] قَالَ: وَهَذَا الْـمَقَامُ المَحْمُودُ الَّذِي وُعِدَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ».

٥ ـ الشفاعة لدخول الجنة:

ففي «صحيح مسلم»(١) من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الجَنَّةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا».

وفي روايةٍ عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «آتِي بَابَ الْـجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ؛ فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ»(٢).

٦ ـ شفاعة النبيين:

تقدم حديث أبي سعيد الخدريِّ ﷺ المتفق عليه؛ وفيه: أن النبيَّ ﷺ قال: «... فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ».

٧ ـ شفاعة الملائكة:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٦].

وتقدم في حديث أبي سعيد الخدريِّ ﷺ المتفق عليه؛ وفيه: أن النبيَّ ﷺ قال: «...فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْـمَلاَئِكَةُ وَالْـمُؤْمِنُونَ» الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قول النبيِّ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الجَنَّةِ، وأنا أكثرُ الأنبياءِ تبعًا» (١٩٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قول النبيِّ ﷺ: «أنا أوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الجنَّةِ، وأنا أكثرُ الأنبياءِ تبعًا» (١٩٧).

٨ ـ شفاعة المؤمنين:

ففي حديث أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «... فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الْحَقِّ، قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا الَّذِينَ كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ، وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَؤُوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء:٤٠] «فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ..» الحديث.

٩ ـ شفاعة الآباء لأبنائهم المؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور:٢١].

١٠ ـ شفاعة الشهداء:

روى الترمذيُّ وأحمد عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قَالَ: قال رسول الله ﷺ «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ»[1].

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد (١٦٦٣) وقال: «حديث حسن =

١١ ـ شفاعة الجبار ﷻ :

تقدم في حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه أن النبيَّ ﷺ قال: «...فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ ، فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدِ امْتُحِشُوا ، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ :مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ ، وإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ،فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ،وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ».

١١ـ شفاعة الأطفال لآبائهم يوم القيامة :

والأحاديث في هذا الباب كثيرةٌ لكن أذكر منها :

روى مسلم [(١)] من طريق أَبِي حَسَّانَ قَالَ : قُلْتُ لأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّهُ قَدْ مَاتَ لِنا ابْنَانِ، فَمَا أَنْتَ مُحَدِّثِي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِحَدِيثٍ تُطَيِّبُ بِهِ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا؟ قَالَ: قَالَ :نَعَمْ : «صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ ـ أَوْ قَالَ: أَبَوَيْهِ ـ فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ ـ أَوْ قَالَ: بِيَدِهِ ــ كَمَا آخُذُ أَنَا بِصَنِفَةِ ثَوْبِكَ هَذَا، فَلاَ يَتَنَاهَى ـ أَوْ قَالَ :فَلاَ يَنْتَهِي حَتَّى يُدْخِلَهُ اللهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ ».

= صحيح غريب »، وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله (٢٧٩٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١٦٤)، و«الشعب» (١٠٨٢٣، ١٠٨٢٤)، وأحمد في «المسند» (٤/ ١٣١)، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥١٨٢).

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه (٢٦٣٥).

وروى أحمد رحمه الله في «المسند»[(١)] بإسنادٍ حسن من حديث بعض أصحاب النبيِّ ﷺ أنه ﷺ قال: «يُقَالُ لِلْوِلْدَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ حَتَّى يَدْخُلَ آبَاؤُنَا وَأُمَّهَاتُنَا، قَالَ: فَيَأْتُونَ، قَالَ: فَيَقُولُ الله عز وجل: مَا لِي أَرَاهُمْ مُحْبَنْطِئِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ آبَاؤُنَا وَأُمَّهَاتُنَا، قَالَ: فَيَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ».

ويدخل في ذلك شفاعة الأبناء لآبائهم لرفع درجاتهم في الجنة.

وروى أحمد وابن ماجه[(٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عز وجل لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ؛ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ».

١٢ - شفاعة النبيِّ ﷺ لعمه أبي طالب[(٣)]:

وقد تقدم الحديث في ذلك؛ والمراد تخفيف العذاب عنه، ليس المراد خروجه من النار؛ لأن الله حرم الجنة على الكافرين، وليس في ذلك مجاملة لإنسان مهما كان.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٠٥)، وقال الشيخ شعيب: «إسناده جيد، ورجاله ثقات».

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٩)، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب بر الوالدين (٣٦٦٠)، وقال البوصيري في «الزوائد»: «إسناده صحيح، رجاله ثقات»، والطبراني في «الأوسط» (٥١٠٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٠٨١، ٢٩٧٤٠)، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٦١٧) و«الصحيحة» (١٥٩٨).

(٣) ومعلوم أن أبا طالب عم رسول الله ﷺ مات كافرًا، فكان آخر ما قاله هو على ملة عبد المطلب، وقد نزل فيه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣] ونزل فيه أيضًا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

١٣ ـ شفاعة القرآن وخاصة : سورة البقرة وآل عمران:

روى مسلم ﷺ في «صحيحه»[(١)] من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « اقْرَءُوا الْقُرْآنَ ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ ؛ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ[(٢)] أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ[(٣)] مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ ،فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ،وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ »[(٤)].

وفي «صحيح مسلم»[(٥)] من حديث النواس بن سمعان ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ : « يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ »، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ. قَالَ: « كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ[(٦)] أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ[(٧)] مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ[(٨)] عَنْ صَاحِبِهِمَا ».

وروى أحمد والحاكم[(٩)] عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال:

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) .

(٢) المراد: سحابتان.

(٣) الفرق هو: الجماعة أو القطعة.

(٤) البطلة هم : السحرة .

(٥) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٥) .

(٦) شرق أي: ضياء ونور.

(٧) الحزق: الجماعة أو القطعة.

(٨) تحاجان: تدافعان، وقال بعض العلماء: (تحاجان الجحيم والزبانية).

(٩) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٤) ، والحاكم (١/ ٧٤٠) (٢٠٣٦) وقال: «صحيح على شرط مسلم»، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٣/ ١٨١) : «رواه أحمد والطبراني ، ورجال الطبراني رجال=

« الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ. وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: رَبِّ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ ».

١٤ـ شفاعات من أقوام أحياء لأقوام قد ماتوا لرفع درجاتهم:

ويدخل في ذلك الأدعية التي دعا بها رسول الله ﷺ لمن مات ، ومنها الوارد في أدعية الصلاة على الجنائز، ونحو ذلك .

ودونك بعض الأحاديث الواردة في هذا الباب .

روى البخاريُّ ومسلم في «صحيحيهما »(١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ ، فَلَقِيَ دُرَيْدَ ابْنَ الصِّمَّةِ فَقُتِلَ دُرَيْدٌ وَهَزَمَ اللهُ أَصْحَابَهُ. قَالَ أَبُو مُوسَى :وَبَعَثَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ، فَرُمِيَ أَبُو عَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ ، رَمَاهُ جُشَمِيٌّ بِسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَتِهِ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ ؛ فَقُلْتُ: يَا عَمِّ ، مَنْ رَمَاكَ فَأَشَارَ إِلَى أَبِي مُوسَى فَقَالَ: ذَاكَ قَاتِلِي الَّذِي رَمَانِي، فَقَصَدْتُ لَهُ فَلَحِقْتُهُ ، فَلَمَّا رَآنِي وَلَّى فَاتَّبَعْتُهُ وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ : أَلاَ تَسْتَحِي؟ أَلاَ تَثْبُتُ؟ فَكَفَّ ، فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ ، ثُمَّ قُلْتُ لأَبِي عَامِرٍ : قَتَلَ اللهُ صَاحِبَكَ. قَالَ: فَانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ ، فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا مِنْهُ الْمَاءُ . قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي أَقْرِئِ النَّبِيَّ ﷺ السَّلاَمَ ، وَقُلْ لَهُ : اسْتَغْفِرْ لِي. وَاسْتَخْلَفَنِي أَبُو عَامِرٍ عَلَى النَّاسِ ،

= الصحيح» ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٨٨٢) ، و «صحيح الترغيب والترهيب» (٩٧٣) و «المشكاة» (١٩٦٣).

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب المغازي ، باب غزاة أوطاس، (٤٣٢٣) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين رضي الله عنهما (٢٤٩٨).

فَمَكَثَ يَسِيرًا ثُمَّ مَاتَ ، فَرَجَعْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ قَدْ أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِهِ وَجَنْبَيْهِ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا وَخَبَرِ أَبِي عَامِرٍ ، وَقَالَ : قُلْ لَهُ : اسْتَغْفِرْ لِي ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ : « اللهمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ ». وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: « اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ ». فَقُلْتُ : وَلِي فَاسْتَغْفِرْ. فَقَالَ « اللهمَّ! اغْفِرْ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ ، وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا » .

قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: إِحْدَاهُمَا لأَبِي عَامِرٍ ،وَالأُخْرَى لأَبِي مُوسَى.

وروى مسلم[(١)] من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت : دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ فَأَغْمَضَهُ ثُمَّ قَالَ: « إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ »، فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ، فَقَالَ: « لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ؛ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ »، ثُمَّ قَالَ:« اللهمَّ اغْفِرْ لأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ،وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ. وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ ».

١٥ ـ شفاعة المصلين على الميت للميت :

روى مسلم[(٢)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه مَاتَ ابْنٌ لَهُ بِقُدَيْدٍ أَوْ بِعُسْفَانَ فَقَالَ: يَا كُرَيْبُ! انْظُرْ مَا اجْتَمَعَ لَهُ مِنَ النَّاسِ. قَالَ: فَخَرَجْتُ فَإِذَا نَاسٌ قَدِ اجْتَمَعُوا لَهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: تَقُولُ هُمْ أَرْبَعُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضرَ (٩٢٠).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب من صلَّى عليه أربعون شفعوا فيه (٩٤٨).

قَالَ: أَخْرِجُوهُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لاَ يُشْرِكُونَ بِالله شَيْئًا إِلاَّ شَفَّعَهُمُ الله فِيهِ».

وروى مسلم [(١)] من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ قال: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ إِلاَّ شُفِّعُوا فِيهِ».

وقد يُمْنَعُ المسلمُ من أن يُشفَّع يوم القيامة إذا كان يكثر اللعن!!

فقد روى مسلم [(٢)] عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «إِنَّ اللَّعَّانِينَ لاَ يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلاَ شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ويجوز طلب الشفاعة من المخلوق الحي فيما يقدر عليه.

فقد روى الإمام أحمد في «مسنده» والترمذي في «سننه» وابن ماجه وغيرهم [(٣)] عن ابن حنيف رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا ضَرِيرَ الْبَصَرِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَنِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ». فَقَالَ: ادْعُهُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ، فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ، فَيُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ، وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللهمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب مَنْ صلّى عليه مائة شفعوا فيه (٩٤٧).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٨).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٣٨)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب (١١٩) (٣٥٧٨) وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في صلاة الحاجة (١٣٨٥) والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣١٣) وصححه على شرط الشيخين، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤١٧) وابن خزيمة (٢/ ٢٢٥) وصححه الشيخ الألبانيُّ في «التوسل والوسيلة» (٧٥).

مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ . يَا مُحَمَّدُ ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتُقْضَى لِي، اللهمَّ اِفَشَفِّعْهُ فِيَّ ».

وهناك أسباب لجلب الشفاعات منها :

١- قراءة القرآن والعمل به ؛ وقد تقدم في ذلك حديثُ رسول الله ﷺ : « اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ ....».

٢- سُكْنَى مدينةِ رسولِ الله ﷺ والصبر على لأوائها ؛ روى مسلم في «صحيحه» [(١)] من طريق أبي سَعِيدٍ مَوْلَى الْمَهْرِيِّ أَنَّهُ جَاءَ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ لَيَالِيَ الْحَرَّةِ فَاسْتَشَارَهُ فِي الْجَلاَءِ مِنَ الْمَدِينَةِ وَشَكَا إِلَيْهِ أَسْعَارَهَا وَكَثْرَةَ عِيَالِهِ وَأَخْبَرَهُ أَنْ لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَى جَهْدِ الْمَدِينَةِ وَلأْوَائِهَا، فَقَالَ لَهُ : وَيْحَكَ! لاَ آمُرُكَ بِذَلِكَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « لاَ يَصْبِرُ أَحَدٌ عَلَى لأْوَائِهَا فَيَمُوتُ ، إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا كَانَ مُسْلِمًا ».

٣ ـ الصلاة على النبيِّ ﷺ وطلب الوسيلة له بعد الانتهاء من متابعة المؤذن ؛ فقد روى مسلم [(٢)] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقولُ: « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا الله لِي الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله ،وَأَرْجُو

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الحج ، باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها (١٣٧٤)، ورُوي مثله عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم (١٣٧٧، ١٣٧٨).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل له الوسيلة (٣٨٤).

أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ ».

٤ ـ الصلاة على الميت ؛ وقد تقدَّم الحديث عنها .

٥ ـ كثرة السجود ؛ روى أحمد في «مسنده»[(١)] من حديث خادم النبيِّ ﷺ رجلٍ أو امرأةٍ ، قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَقُولُ لِلْخَادِمِ: «أَلَكَ حَاجَةٌ؟». قَالَ: حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ، حَاجَتِي. قَالَ: « وَمَا حَاجَتُكَ؟». قَالَ: أَنْ تَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ: « وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى هَذَا؟ ». قَالَ: رَبِّي. قَالَ: « إِمَّا لاَ ، فَأَعِنِّي بِكَثْرَةِ السُّجُودِ ».

٦ ـ قول : لا إله إلا الله خالصًا من القلب أو من النفس؛ وقد سبق في ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: « أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ ـ أَوْ مِنْ نَفْسِهِ »[(٢)].

أما الشفاعات الدنيوية؛ فمنها ما هو مشروع، ومنها ما هو محرم ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ [النساء:٨٥] .

ومن الشفاعات الدنيوية المشروعة:

ما رواه البخاريُّ ومسلم[(٣)] عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كَانَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٥٠٠) وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢١٠٢) وقد أخرجه مسلم (حديث ٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِه وَحَاجَته، فَقَالَ لِي: «سَلْ». فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ : «أَوْ غيرَ ذَلِكَ؟» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ».

(٢) سبق تخريجه وهو عند البخاري (٩٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها (١٤٣٢) وانظر أطرافه هناك، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب ، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام (٢٦٢٧).

رَسُولُ الله إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: « اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا» وَيَقْضِي الله عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ.

وروى البخاريُّ [(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ: مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبَّاسٍ: « يَا عَبَّاسُ، أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا »؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « لَوْ رَاجَعْتِهِ ». قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: « إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ ». قَالَتْ: لاَ حَاجَةَ لِي فِيهِ.

ومن الشفاعات الدنيوية المحرمة:

ـ الشفاعة عند السلطان لإسقاط حدٍّ من حدود الله قد وجب على شخص.

روى البخاريُّ ومسلم [(٢)] من حديث عائشة رضي الله عنها: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمُ الْمَرْأَةُ الْمَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ الله ﷺ، وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ الله ﷺ. فَكَلَّمَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله ؟». ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ فَقَالَ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا ضَلَّ» وفي رواية: «هَلَكَ ـ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ الله لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا ».

ويدخل في الشفاعات المحرمة الواسطة التي تذهب بحقوق أناس إلى

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبيِّ ﷺ في زوج بريرة (٥٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (٦٧٨٨)، وانظر رقم (٣٤٧٥)، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود (١٦٨٨).

آخرين لا حق لهم فيها .

وأكتفي بهذا القدر، وأسأل الله أن يرزقنا شفاعة نبيه ﷺ ، وأن يجمعنا به في جنات النعيم ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

*****

الحساب

فبعد الشفاعة لأهل المحشر الذين وقفوا على أرض القيامة، وطال بهم الوقوف. بعد ذلك يبدأ الحساب؛ فينادي الله ـ سبحانه وتعالى ـ على مجموعةٍ من الناس في أرض المحشر؛ فَمَنْ هؤلاء الذين سينادى عليهم؟

إن أول مَنْ ينادى عليه يوم القيامة هو: آدم ﷺ.

ففي «الصحيحين»[1] من حديث أبي سعيد الخدريِّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « يَقُولُ الله ﷻ ـ يوم القيامة: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فيَقُولُ: يَا آدمُ، أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ آدَمُ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ الله جَلَّ جَلالُهُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:٢]»، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ »، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ». فَكَبَّرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ». فَكَبَّرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الأُمَمِ

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١] (٦٥٣٠)، وانظر (٣٣٤٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار...» (٢٢٢)، وأحمد (٣/ ٣٢، ٣٣).

كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ ، أَوْ كالشَّعْرَةِ السوْدَاءِ في جِلْد الثَّوْرِ الأَبْيَضِ».

وفي رواية في «الصحيحين»(١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ قال : «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ،وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلاَّ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ ».

فهذا أول نداء ؛ يكون لنبيِّ الله آدم ـ عليه الصلاة والسلام.

أما النداء الثاني: عَلَى مَنْ؟ على نَبِيِّ الله نوح عليه السلام.

ففي «صحيح البخاري» (٢)عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فيَقُولُ الله لَهُ : هَلْ بَلَّغْتَ؟ فيَقُولُ: نَعَمْ. فيَقُولُ لأُمَّتِهِ : هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فيَقُولُونَ:مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ- ومَا أَتَانَا مِنْ أَحدٍ(٣) - فيَقُولُ اللهُ لِنُوحٍ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَيَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] ، وَالْوَسَطُ : الْعَدْلُ ».

وفي رواية ابن ماجه بسندٍ صححه شيخُنا الألباني(٤) ـ رحمه الله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق، باب الحشر (٦٥٢٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (٢٢١).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب الأرواح جنود مجندة (٣٣٣٩) وانظر أطرافه هناك.

(٣) هذه اللفظة عند الترمذي ، كتاب تفسير القرآن (٢٩٦١) ، وأحمد (٣/ ٣٢) ، وقال الشيخ شعيب : « إسناده صحيح على شرط الشيخين » .

(٤) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٨٤) وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في=

«فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا ؟فَيَقُولُونَ :نَعَمْ، فَيَقُولُ: وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ ».

قال الحافظ ابنُ كثير في « قصص الأنبياء» [1] : « فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق ، بأن الله قد بعث نوحًا بالحق، وأنزل عليه الحق، وأمره به، وأنه بَلَّغَهُ إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها، ولم يدع شيئًا مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أَمَرَهُم به، ولا شيئًا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه، وحذرهم منه ، وهكذا شأن جميع الرسل».

ثم ينادى بعد نوح على عيسى عليه السلام ؛ فيقول الله له : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٦- ١١٨].

ثم ينادي الله بعد ذلك على جميع الرسل ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١٠٩] ؛ وقال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف:٦].

- «صحيح ابن ماجه» (٣٤٥٧) وانظر: «الصحيحة» (٢٤٤٨).

(١) انظر: «قصص الأنبياء» (ص٧٩ دار بغداد).

وبعد ذلك يبدأ الحساب للخلق جميعًا بين يدي الله سبحانه وتعالى ؛ فالله تبارك وتعالى لو عذَّب أهل سماواته وأرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم؛ فهم عبيده وملكه ، ولكنه جَلَّ جَلالُه يحاسب الناس بمقتضى العدل، فإنه قد حَرَّم الظلم على نفسه؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:١٠٨] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾ [النساء:٤٠] .

فالله تبارك وتعالى يُحاسب الناس في هذا اليوم العظيم بالعدل التام؛ الذي لا تشوبه أدنى شائبة، فالله سبحانه وتعالى حرَّمَ الظلم على نفسه ، وعلى عباده؛ فقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾[الزلزلة:٧، ٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾ [الكهف:٤٧] .

وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ [الإسراء:١٣، ١٤] ، وقال تعالى: ﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا

سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾[النجم: ٣٦-٤١].

قال الحسن البصريُّ (١) رحمه الله تعالى : « يا بن آدم ، بسطت لك صحيفتك، ووكِّلَ بك ملكان كريمان: أحُدهما : عن يمينك ، والآخر: عن يسارك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مِتَّ، طُوِيَت صحيفتك، فجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة كتابًا تلقاه منشورًا؟ قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء:١٤] ».

ثم قال: «فقد عدل ـ والله ـ من جعلك حسيب نفسك».

وقد يظن البعض أن هناك تعارضًا بين الآيات ، وبين قول الله سبحانه : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[النحل:٢٥] .

فلا تعارض بينها ؛ بل إنها تؤكِّد أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من الذنوب، وما قدمت يداه، وإثم من أضلَّهم في الدنيا بقوله وفعله، فإضلالُه مِنْ عَمَلِ يده يُحاسب عليه بين يدي الله تعالى، فإن دعاة الهدى والخير لا يحرمهم الله ﷻ أجر دعوتهم وأجر من اهتدى بدعوتهم إلى يوم القيامة ، ودعاة السوء والضلال يحملون أوزارهم وأوزار من فُتنوا بضلالهم ودعوتهم إلى يوم القيامة .

---

(١) انظر: « تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٤٥) ط أولاد الشيخ، وقال ابن كثير : «هذا من حسن كلام الحسن رحمه الله » .

ففي «صحيح مسلم»(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قـالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى؛ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا،وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا».

ومن تمام عدل الله تبارك وتعالى: إعذار الله لخَلْقِهِ ، فَيُطْلِعُ عباده على ما قدَّموه من أعمال صالحة ، حتى لا يكون لأحد عند الله عذر.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] وهذا من تمام العدل الإلهي ، وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤] ، وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار:٥] ، وقال تعالى: ﴿...وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] ، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣، ١٤].

فالله سبحانه وتعالى يقيم الشهود على خلقه يوم الحساب ليظهر للخلق تمام وكمال عدله في ذلك ؛ فأعظم الشهود على العباد في هذا اليوم هو ربُّ العالمين الذي عَلِمَ ما فعله خَلْقه ؛ وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب من سنَّ سُنَّة حسنةً أو سيئةً أو دعا إلى هدى أو ضلالة (٢٦٧٤).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾[النساء:٣٣].

ثم تأتي الرسل فتشهد على الأمم؛ كلُّ رسولٍ يشهد على أمته، وتشهد أمة النبيِّ ﷺ على كلِّ الأمم.

وقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١] ، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة:١٤٣].

وفي «صحيح البخاري» [(١)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا نُوحُ ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ الله لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ لأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟فَيَقُولُونَ :مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ الله لِنُوحٍ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة:١٤٣]».

ثم بعد ذلك يدعوا الله سبحانه الملائكة التي وُكِّلَتْ بالعبد لتشهد هي الأخرى؛ قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٨].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الانفطار:١٠- ١٢].

ومع كلِّ ذلك؛ قد يستحي أحدنا من أخٍ من إخوانه إذا رآه، ولا

---

(١) تقدمَّ قريبًا.

يستحي في الخلوة من ملائكة الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! فالملائكة تشهد عليك يوم القيامة، ثم تشهد الأرض بما عمِلْتَ على ظهرها.

وروى الترمذيُّ [1] وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وهناك من أهل العلم من ضعَّفَ إسناد هذا الحديث، ومدار تضعيفه على ابن أبي سليمان: أن النبيَّ ﷺ : قَرَأَ قَوْلَ الله تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤، ٥] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟» قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا».

ويشهد لمعناه؛ ما أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» [2] من حديث ربيعة الجرشي أن رسول الله ﷺ قال: «تَحَفَّظُوا مِنَ الأَرْضِ فَإِنَّهَا أُمُّكُمْ، وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ عَامِلٍ عَلَيْهَا خَيْرًا أَوْ شَرًّا إِلاَّ وَهِيَ مُخْبِرَةٌ».

لكن في سنده ابن لهيعة، وربيعة الجرشي مختلفٌ في «صحبته»، كما نصَّ على ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله [3].

ثم بعد ذلك ينكر العبد كلَّ هذه الشهود فيقول العبد؛ كما في

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب التفسير، باب: ومن سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ حديث (٣٣٥٣) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٩٣) وابن حبان في «صحيحه» (٧٣٦٠) وأحمد (٢/ ٣٧٤)، وفيه يحيى بن أبي سليمان، قال البخاري: «منكر الحديث» كما نقله الذهبي في تعقبه على الحاكم (٢/ ٥٣٢) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٤٥٠) و«الضعيفة» (٤٨٣٤).

(٢) أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» (٥/ ٦٥)، قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٤٦): «وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف».

(٣) كذا في «تقريب التهذيب».

«صحيح مسلم»[1] من حديث أنس ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟». قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ».

وفي لفظ: «مِنْ مُجَادلة العَبْد رَبَّهُ يَوْمَ القيامة[2] يَقُولُ العَبْدُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فيَقُولُ الله: بَلَى، فيَقُولُ العَبْدُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي، فَيَقُولُ الله سُبْحَانَهُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَام الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، فَيَخْتِمُ الله عَلَى فِيهِ ويُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ».

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:١٩، ٢٠].

يرفض العبد الشهود ويطلب الشهادة من نفسه، فيأذن الله تبارك وتعالى له بذلك، ولكن خيبته وحسرته تزداد، وتبلغ رحمة الله منتهاها، ويكمل فضل الله تبارك وتعالى على خلقه، فيبدل الحق للمؤمنين التائبين سيئاتهم حسنات ويُضاعف لهم الأجر.

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد (٢٩٦٩).

(٢) هذه اللفظة عند ابن أبي حاتم، كما عند ابن كثير في «التفسير» لسورة (يس:٦٥) وإسناده حسن.

تُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠].

وفي الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده»(١) بسندٍ حسن عن أبي ذر رضي الله عنه قال: حدثنا الصادق المصدوق ﷺ فيما يرويه عن رب العزة ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أنه قال: «الحَسَنَةُ عَشْرٌ أَوْ أَزِيدُ، والسَّيِّئَةُ وَاحِدَةٌ أَوْ أَغْفِرُهَا»، وفي رواية لمسلم: «مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ...».

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

وفي «الصحيحين»(٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قالَ:

«إِنَّ الله كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ؛ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

فهذا فَضْلُ الله ـ جلَّ وعلا ـ وهذا علم الله سبحانه بِضَعْفِ عبادِهِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٠) وسنده حسن، من أجل عاصم ـ وهو ابن أبي النجود، وأخرج الرواية الثانية مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الذكر (٢٦٨٧) وأحمد (٥/ ١٥٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب من هَمَّ بحسنة أو بسيئة (٦٤٩١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إذا هَمَّ العبد بحسنة كتبت (١٣١).

وهناك من الأعمال من لا يعرف ثوابها إلا الله .

ففي «صحيح البخاري ومسلم» [(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « قَالَ اللهُ تعَالَى :كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ».

وقال تعالى ـ في حق الصابرين : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠] .

ومن جميل ما قاله القرطبيُّ [(٢)] رحمه الله تعالى: « قال أهل العلم : كلُّ أجر يُكال كيلًا، ويوزن وزنًا، إلا الصوم فإنه يُحْثَى حَثْوًا، وَيُغْرَفُ غَرْفًا» .

وتتم المنة، وتكتمل الرحمة ، ويكتمل العدل والفضل، فيبدل الله ـ جلَّ وعلا ـ بعد مضاعفة الحسنات ـ يبدل السيئات إلى حسنات .

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾[الفرقان: ٦٨، ٦٩] .

ففي «صحيح مسلم» [(٣)] من حديث أبي ذر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا ،وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا ، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصوم، باب: هل يقول: إني صائم، إذا شُتِم (١٩٠٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام (١١٥١) (١٦٣).

(٢) كما في «جامع أحكام القرآن» (تفسير سورة الزمر: ١٠).

(٣) أخرجه مسلمُ، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٠).

كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ له : عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وكَذَا وَكَذَا ، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا كَذَا وكَذَا وَكَذَا ؛ فَيَقُولُ: نَعَمْ . لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ. فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ ـ العَبْدُ ـ رَبِّ! قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لاَ أَرَاهَا هَا هُنَا ». قَالَ أَبُو ذَر: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ».

بعد ذلك ـ كما سبق ـ يبدأ الحساب بالعرض على الله ـ جلَّ وعلا ـ وأخذ الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢١- ٢٩].

وفي «الصحيحين»(١) من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قالَ: « مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبِ » ، وفي رواية: «هَلَكَ» ـ . وفي رواية : «مَنْ حُوسبَ يَوْمَ القيامَة عُذِّبَ». قَالَتْ عَائِشَة: يَا رَسُولَ الله ، أَوَ لَيْسَ الله تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا

(١) أخرجه البخاريُّ: كتاب العلم، باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه (١٠٣)، ومسلم، كتاب صفة القيامة، باب إثبات الحساب (٢٨٧٦).

يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق:٧، ٨] ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ ».

واعلم أن الله سيكلمك ليس بينك وبينه ترجمان.

ففي «الصحيحين» (١) من حديث عدي بن حاتم ﷺ أن النبيَّ ﷺ قالَ: « مَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ العَبْدُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ».

قال القرطبيُّ ﷺ في «التذكرة»(٢) : « فإذا جاء وقت الحساب الذي يريد الله ﷻ أن يحاسب العباد فيه أمر بالكتب فأُوتُوهَا؛ فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه ، وهؤلاء هم السعداء، ومنهم من يأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره، وهؤلاء هم الأشقياء؛ فعند ذلك يقرأ كلُّ واحدٍ منهم كتابه» .

ولكن قبل أن يبدأ الحساب ينُادى على صنف من أهل السعادة.. لماذا؟ . لينطلق بهم مباشرة إلى الجنة بلا حساب ولا عذاب، فيا تُرى مَنْ هَؤلاء السُّعداء؟. والجواب من النبيِّ ﷺ مباشرة .

كما في «الصحيحين» (٣) من حديث ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال:

---

(١) أخرجه البخاريُّ: كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عُذِّبَ (٦٥٣٩) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (١٠١٦) (٦٧).

(٢) انظر، «التذكرة» للقرطبي (٢٥١ ما جاء في تطاير الصحف)ط دار الدعوة.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الطب، باب من لَمْ يَرْقِ (٥٧٥٢) ، وانظر أطرافه في هذا الموضع (٣٤١٠) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢٢٠).

«عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ،فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيم، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي ،فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي : انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ. فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي : هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ ، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَه، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ».

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ وَلَمْ يُشْرِكُوا باللهِ ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ:« مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟ ». فَأَخْبَرُوهُ ؛ فَقَالَ: « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَتَطَيَّرُونَ ،وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ... » الحديث.

وقبل أن أستطرد في مناقشة هذا الطرح من الصحابة ؛ فقد وصف هؤلاء السعداء في حديث آخر؛ كما في «الصَّحيحَيْنِ» [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ».

وفي الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده» [(٢)]، وقال الحافظ في

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب من يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤٢)، ومسلم ، كتاب الإيمان (٢١٦) (٣٦٩) ، وحديث (٢١٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩) ، وجودَّ إسناده الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٤١٨)، وصححه لشواهده العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٤٨٤) ، وراجع تحقيق «المسند» (١٤/ ٣٢٧).

«الفتح»: «سنده جيد»، وصحّحه شيخُنا الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» بشواهده من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ، فَوَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِيَّ عَزَّ وَجَلَّ، فزادني مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا».

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه [(١)] من حديث أبي أمامة ﷺ أنه ﷺ قال: «وَعَدَنِي رَبِّي ﷻ أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلاَثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي ﷻ».

وهذه رحمة النبيِّ ﷺ بأمته.

ففي «صحيح مسلم» [(٢)] من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبيَّ ﷺ تَلاَ قَوْلَ الله ﷻ في إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦]، وقرأ قول الله في عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]. فَرَفَعَ النبيُّ ﷺ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللهمَّ أُمَّتِي، وَبَكَى؛ فَقَالَ الله ﷻ: يَا جِبْرِيلُ! اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ، فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ؛

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨)، والترمذي، كتاب صفة القيامة باب (١٢) (٢٤٣٧) وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجة كتاب الزهد باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٨٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٧١٤)، وابن حبان (٧٢٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ١١٠) وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢١٧٩) (٥/ ٢١٢)، و«صحيح الجامع» (٧١١١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (٢٠٣).

فَقَالَ الله : يَا جِبْرِيلُ! اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ :إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ».

وفي رواية جميلة عند ابن حبان والطبراني في «الكبير»(١) من حديث عتبة بن عبدٍ السلمي وفيها : «ثُمَّ يُتبِعُ كُلَّ أَلْفٍ بِسَبْعِينَ أَلْفًا ، ثُمَّ يَحْثِي رَبِّي بِكَفِّه ثَلاَثَ حَثَيَاتٍ» فَكَبَّرَ عمر رضي الله عنه .

ولتوضيح ذلك في «صحيح البخاري و مسلم»(٢) في حديثٍ طويلٍ أن النبيَّ ﷺ قال: « .... حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لله فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لله يَوْمَ الْقِيَامَةِ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا، وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ. فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ. فَيَقُولُ: ارْجِعُوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا ،فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧٢٤٧) ، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ١٢٦)، (٣١٢) ، و«الأوسط» (١/ ١٢٦) (٤٠٢) ، و«مسند الشاميين» (٤/ ١٠٤) (٢٨٦٠) ، وقال الشيخ شعيب في تحقيقه ابن حبان :«صحيح لغيره».

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب التوحيد، باب قول الله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢]، (٧٤٣٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) ، واللفظ له.

أَحَدًا. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ،ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا ».

وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠] « فَيَقُولُ الله ﷻ : شَفَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا ، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ،أَلاَ تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ ».

فَقَالُوا يَا رَسُولَ الله ! كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ، قَالَ: « فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ الله الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الله الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُول: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ. فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا ؟فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا . فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ».

ارجع معي إلى الرواية التي كَبَّر فيها عمر ﷺ .

قال النبيُّ ﷺ: «..ثُمَّ يَحْثِي رَبِّي بِكَفِّهِ ثَلاَثَ حَثَيَاتٍ» ، فَكَبَّرَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّ السَّبْعِينَ أَلْفًا الأَوَّلُ يُشَفِّعُهُمْ اللهُ فِي آبَائِهِمْ وأُمَّهَاتِهِمْ وعَشَائِرِهِمْ، وَأَرْجُو الله ﷻ أَنْ يَجْعَلَ أُمَّتِي أَدْنَى الحَثَوَاتِ الأَوَاخِرِ».

وفي الحديث الأول قال النبيُّ ﷺ: « وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ »، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ[(١)]. وهذا أمرٌ ليس بعجيبٍ، إن قيل: بأن الصحابة من بين هؤلاء السعداء، والصحابيُّ؛ كما قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» هو: «من لقيَ النبيَّ ﷺ في حياته مسلمًا ومات على إسلامه »[(٢)].

والصحابة هم أشرف الخلق على وجه الأرض بعد الأنبياء والرسل، وصفوة الله على ظهر الأرض بعد الأنبياء والرسل.

فقد روى ابنُ عبد البر[(٣)] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لاَ تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا أَفْضَلَ هِذِهِ الأُمَّةِ، وَأَبَرَّهَا قُلُوبًا، وأَعْمقَها عِلْمًا، وأَقلّهاَ تكَلُّفًا، اخْتارَهُمْ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِه، ولإِقَامَة دِينِهِ، فَاعْرَفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، واتَّبِعُوهُمْ عَلَى آثَارِهِم، وتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلاقِهِمْ

(١) تقدم قريبًا.

(٢) انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/ ٨) ط دار الكتب العلمية.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨١٠) من طريق قتادة عن ابن مسعود، وفي سنده سنيد؛ قال في «التقريب»: «ضعيف مع إمامته» وقتادة مدلس وقد عنعن، لكن أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» (٩/ ١٦٦) من طريق: أبي الأحوص عن ابن مسعود؛ قال الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ١٨٠): «ورجاله رجال الصحيح»، وضعفه الشيخ الألبانيُّ في «المشكاة» (١٩٣).

وسِيرِهِم ، فإنهُمْ كَانُوا عَلَى الهُدَى المُسْتَقِيم» .

وروى أحمد بسندٍ حسن [١] عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى نَظَرَ فِي قُلُوبُ العِبَادِ ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ العِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِرِسَالَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ العِبَادِ فَجَعَلَهُمْ، وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ».

فالصحابة الذي اختارهم هو الله، والذي عدَّلهم واصطفاهم هو الله ، والذي زكَّاهم هو رسول الله ﷺ؛ فزكاًهم الله في قرآنه ؛ فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠] ؛ فالمخاطب ابتداءً بهذه الآية هم الصحابة .

وزكاهم الله بقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣] .

وزكَّاهم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران:١٧٢].

وهم الذين زكاًهم الله بقوله تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩) وفي فضائل الصحابة (٤١) ، والحاكم (٣/ ٧٨ ، ٧٩ مختصراً) والطبرانيُّ في «الكبير» (٩/ ١١٢ ، ١١٥) و«الأوسط» (٤/ ٥٨) ، وقد جودَّ إسناده الحافظ ابن كثير في «تحفة الطالب» (٤٤٣ط حراء) ، وحسنه السَّخاوي في «المقاصد» (٩٥٩) ، والألبانيُّ في «شرح العقيدة الطحاوية» (٥٣٠) ، وانظر: «الضعيفة» (٥٣٢ ، ٥٣٣).

الصحابة هم الذين زكاهم الله بقوله تعالى : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨].

وهم الذين زكاهم الله ؛ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

وهم الذين زكاهم الله بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٤].

وهم الذين زكاهم الله بقوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٨، ٩].

والصحابة هم الذين زكاهم الله بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ...﴾ [الفتح:٢٩].

ولما قرأ الإمام مالك رحمه الله هذه الآية قال[1] : «من أصبح من الناس في قلبه غلٌّ ـ وفي رواية : غيظ ـ على أحدٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ فقد أصابه قول الله تعالى :﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾» .

وهم الذين عاتب الله فيهم نبيَّنا محمدًا ﷺ بقوله:﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨].

والصحابة هم الذين زكَّاهم رسول الله ﷺ بعد تزكية الله لهم ؛ فقال ؛ كما في «الصحيحين»[2] من حديث ابن مسعود ومن حديث عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال ﷺ : «خَيْرُ النَّاس قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

وفي «الصحيحين»[3] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ».

وفي «صحيح البخاري ومسلم»[4] من حديث أنس رضي الله عنه قال : مُرَّ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٧) ، وانظر : «تفسير القرطبي» (لسورة الفتح:٢٩) ؛ وقال : «ذكره الخطيب أبو بكر: ثم قال : قلت: لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله ، فمن نقص واحدًا منهم أو طعن عليه في رواية فقد ردَّ على رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين» ا.هـ ، وانظر : «الأمر بالاتباع» للسيوطي (٧٦ط ابن القيم).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٤٩ ، ٣٦٥٠ ، ٣٦٥١) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة (٢٥٣٣ ، ٢٥٣٤ ، ٢٥٣٥).

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب قول النبي ﷺ : «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٣) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب تحريم سب الصحابة (٢٥٤١).

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب ثناء الناس على الميت (١٣٦٧) ومسلم ، كتاب الجنائز =

بِجَنَازَةٍ على النبيِّ ﷺ بين أصحابه ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خيْرًا؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « وَجَبَتْ »، ثُمَّ مَرُّوا بجَنَازَة أُخْرَى، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا ؛ فَقَالَ النبيُّ ﷺ: « وَجَبَتْ » . فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: مَا وَجَبَتْ ؟ فقَالَ النبيُّ ﷺ: «هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا ، فَوَجَبَتْ لَهُ الْجنَّةُ ،وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا ، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ» ، وَكَرَّرَهَا النبيُّ ﷺ ثلاثًا .

وفي «صحيح مسلم» [(١)] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه رفع النبيَّ ﷺ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ؛ فَقَالَ :

« النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ ».

وفي «صحيح مسلم» [(٢)] من حديث عائذ بن عمرو رضي الله عنه: أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلاَلٍ فِي نَفَرٍ؛ فَقَالُوا: وَالله مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ الله مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ الله مَأْخَذَهَا، قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ ؛ فَقَالَ: « يَا أَبَا بَكْرٍ! لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ ». فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : يَا إِخْوَتَاهْ !أَغْضَبْتُكُمْ! قَالُوا :لاَ ، يَغْفِرُ الله لَكَ يَا أُخَيَّ!.

= باب فيمن يُثنى عليه خيرٌ أو شرٌّ من الموتى (٩٤٩).

(١) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب بيان أن بقاء النبيِّ ﷺ أمان لأصحابه ، وبقاء أصحابه أمان للأمة (٢٥٣١).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم (٢٥٠٤) .

فالصحابة رضي الله عنهم يقولون: «لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رسول الله ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بالله»(١).

فالشرك ظلم عظيم، والتوحيد أعظمُ قربةٍ وأجلُّ طاعةٍ يُتقرب بها إلى الله سبحانه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥،٦٦].

فلم يُرْسَل نبيٌّ ولا رسولٌ إلا دعا قومه إلى التوحيد، وما حذَّر رسولٌ ولا نبيٌّ قومه أول ما حذَّر إلا من الشرك والتنديد.

فالتوحيد طريق النجاة، والشرك طريق الهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة.

ففي «الصحيحين»(٢) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ».

وفي رواية: «مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيِّهَا شَاءَ».

وفي رواية(٣) عتبان بن مالك: «فَإِنَّ الله قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ

(١) تقدم قريباً، وهو تكملةٌ لحديث ابن عباس في «الصحيحين»، واللفظ لمسلم (٢٢٠).

(٢) تقدم في أشراط الساعة في نزول عيسى عليه السلام. (٣) تقدَّمت.

إِلَهَ إِلاَّ الله . يَبْتَغِى بِهاَ وَجْهَ الله ».

يقول ابن القيم رحمه الله مبينًا أن التوحيد هو الإكسير الأعظم الذي لو وضعت منه ذرة على جبال من الذنوب والخطايا لأذابتها وبدَّدتها؛ فيقول[1]: « ولكن من الناس من يكونُ توحيده كبيرًا عظيمًا ، ينغمر فيه كثير من تلك الآثار، ويستحيل فيه بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطه أدنى نجاسة أو وسخ فيغتر به صاحب التوحيد الذي هو دونه ، فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحبه التوحيد الكثير توحيده ، فيظهر من تأثيره فيه، ما لم يظهر في التوحيد الكثير ، ثم قال : وأيضًا ؛ فإن قوة الإيمان والتوحيد إذا كانت قوية جدًّا ، أحالت المواد الرديئة ، وقهرتها بخلاف القوة الضعيفة ».

ففي «الصحيحين» [2] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ » .

قال ابن مسعود: « وَمَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الْجنَّةَ».

فالتوحيد طريق الجنة، فلما ذكر النبيُّ ﷺ السبعين ألفًا، قال بعض الصحابة: «فلَعلَّهم الذين وُلِدُوا في الإسْلاَمَ فَلَمْ يُشْرِكُوا به شَيْئًا» [3] .

وبينما يتحدث الصحابة رضي الله عنهم جميعًا خرج عليهم النبيُّ ﷺ وَقَالَ : « مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ »، فقالوا : في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (٢١٦) ط دار الكتب العلمية.

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب : «ومن كان آخر كلامه: «لا إله إلا الله» (١٢٣٨) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة (٩٢).

(٣) تقدَّم قريبًا ، واللفظ لمسلم (٢٢٠).

حساب ولا عذاب ؛ فَقَالَ النبيُّ ﷺ : « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ؛ فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: يا رَسُولَ الله ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ : « أَنْتَ مِنْهُمْ » ، فقَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: يا رسول الله ! ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ : « سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ ».

قال بعض العلماء: إن الذي قام بعد عكاشة كان من المنافقين .

واستحي النبيُّ ﷺ أن يبين له ذلك ، وهذا من خُلُقِهِ.

ومنهم من قال : إن هذا الرجل كان لا يستحقُّ هذه المكانة .

ومنهم من قال: ما ذكر النبيُّ ﷺ هذا لعكاشة إلا بوحيٍ[(١)] .

ومعني : «لاَ يَسْتَرْقُونَ» : أي: لا يطلبون الرقية من غيرهم.

وهذه الفئة ترقت في الإيمان حتى وصلت إلى منتهى تحقيق التوحيد ؛ فالتوحيد درجات ؛ فمحالٌ أن يكون إيمان أحدنا كإيمان أبي بكر وعمر ﷺ .

ولذلك قال ابن القيم[(٢)] ﷺ : «التوكل على الله ﷻ هو : صدق اعتماد القلب على الله ، وهو نهاية تحقيق التوحيد، وهو الأصل الجامع الذي يُثمر كلَّ مقامٍ محمود مرادٍ للربِّ المعبود جلَّ جلاله» .

فهم لا يطلبون الرقية من أحدٍ لكمال توكلهم على الله، ولعدم تعلق قلوبهم بغير الله تعالى.

وهناك فرق بين أن تطلب الرقية وبين أن يتقدم أحدٌ لرقيتك.

---

(١) راجع «إكمال المعلم» للقاضي عياض (١/ ١٠٤) ، و«شرح مسلم للنووي» (٣/ ٦٩).

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ١٢) بتصرف.

ومعنى: «وَلاَ يَكْتَوُونَ» : أي: لا يطلبون الكيَّ بالنار لكمال توكلهم.

ومعنى : «وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ» [١] : أي : كانوا في الجاهلية إذا أرادوا السفر أو الخروج أخذوا الطير وينفروه، فإذا اتجه الطيرُ إلى ناحية اليمين استبشروا وسافروا، فإذا طار ناحية الشمال تشاءموا وتعطلوا عن العمل ، أو أعرضوا عن السفر؛ فجاء الإسلام، فحرَّمَ هذا، وقال النبيَّ ﷺ: «لاَ طِيَرَةَ فِي الإِسْلاَمِ» [٢].

وفي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذيُّ بسندٍ حسنٍ [٣] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ» وَمَا مِناً إِلاَّ ، وَلَكِنَّ الله يُذْهِبَهُ بِالتَّوكُّلِ.

فلماذا لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون ؟

لأنهم على ربهم يتوكلون ؛ فهذا من العام بعد الخاص؛ فهم قوم تركوا الشرك كلَّه، دِقَّه وجلَّه ــ ولم ينُزلوا حوائجهم مهما كانت بأحدٍ من الخلق، حتى الرقية والكيَّ لم يسألوه ، بل إن الكي قد تركوه .

والذي حملهم على ذلك كلِّه، هو : كمال توكلهم على الله تعالى، وكمال

---

(١) انظر «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الطب ، باب الطيرة (٥٧٥٤) ، ومسلم ، كتاب السلام ، باب الطيرة والفأل (٢٢٢٣).

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب الطب ، باب في الطيرة (٣٩١٠) ، والترمذي ، كتاب السير ، باب ما جاء في الطيرة (١٦١٤) ، وابن ماجه ، كتاب الطب ، باب من كان يعجبه الفأل (٢٥٣٨)، وأحمد (١/ ٣٨٩) ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤٢٩) ، قال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢٢٤) : «وقوله: «وما مِنّا إلا» من كلام ابن مسعود أدرج في الخبر ، وقد بينه سليمان ابن حرب شيخ البخاري فيما حكاه الترمذي عن البخاري عنه».

تفويضهم الأمور إلى الله جلَّ وعلا ، وعظيم اعتقادهم بأن كلَّ ما أصابهم بقدر الله، قد دبَّره الله وقضاه.

فهم قومٌ لا يرغبون إلا إلى الله وحده، ولا يرهبون إلا من الله وحده، ولا يفزعون إلا إلى الله وحده ، شِعَارُ أحدهم قولًا واعتقادًا وعملًا: اللهم إني أبرأ من الثقة إلا بك ، وأبرأ من الأمل إلا فيك، وأبرأ من التسليم إلا لك، وأبرأ من التفويض إلا إليك ، وأبرأ من التوكل إلا عليك، وأبرأ من الصبر إلا على بابك ، وأبرأ من الذل إلا في طاعتك ، وأبرأ من الرجاء إلا لما في يدك ، وأبرأ من الرهبة إلا لجلالك العظيم.

هذا الأصل الجامع الذي أثمر كلَّ هذه الخصال، وأنبت كلَّ هذه الأفعال، وهو التوكل على ذي العظمة والجلال، وصدق اللجوء إلى الكبير المتعال، واعتماد القلب عليه؛ هذا الأصل هو نهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقامٍ محمودٍ مرادٍ للربِّ المعبود ـ جلَّ جلاله.

والأخذ بالأسباب لا يقدح في التوكل.

قال الشاطبيُّ[1] ـ رحمه الله تعالى: «إن الدخول في الأسباب أمرٌ واجبٌ شرعًا» .

وقال ابن القيم[2] ـ رحمه الله تعالى: «بل ولا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب، وتعطيل الأسباب قدح في التوكل، وهذا هو ما ذهب إليه جمهور السلف؛ وقالوا: يحصل التوكل بأن يثق العبد بوعد الله، وأن يوقن بأن قضاء الله واقع وهو في الوقت ذاته لا يترك اتباع

(١) راجع «الموافقات» (١/ ٢٠١، ٢٠٩، ٢٢٧ط المعرفة) بمعناه .

(٢) انظر «مدارج السالكين» (١/ ٢٤٤) ط دار الكتاب العربي ـ بتصرف.

السنة في الأخذ بالأسباب مع اعتقاده أن الأسباب بذاتها لا تجلب نفعًا، ولا تدفع ضرًّا، إلا بأمر مسبب الأسباب جلَّ جلاله».

وفي «صحيح البخاري» [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً».

وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وابن ماجه [(٢)] بسندٍ حسن من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ». وفي رواية: «إِلاَّ دَاءً وَاحِدًا»، قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْهَرَمُ».

وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذيُّ والنسائيُّ [(٣)] بسندٍ صحيح من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا».

فالتوكل هو: «جماع الإيمان» كما قال سعيد بن جبير [(٤)].

وقال سهل بن عبد الله التستري [(٥)] رحمه الله: «من طعن في الأسباب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان».

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب ما أنزل من داء إلا أنزل له شفاء (٥٦٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨) باللفظ الأول، أما اللفظ الثاني؛ فعند أبي داود، كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى (٣٨٥٥)، والترمذي، في الطب، باب ما جاء في الدواء (٢٠٣٨)، وابن ماجه، في أول كتاب الطب (٣٤٣٦)، وله شاهدٌ عن ابن مسعود عند أحمد (١/ ٣٧٧)، وابن ماجه (٣٤٣٨)، وانظر: «الصحيحة» (٤٥١) و«صحيح الجامع» (٢٩٣٠)، وله شاهدٌ آخر عن أبي سعيد مرفوعاً ـ بتمامه ـ أخرجه الحاكم (٤/ ٤٠١)، وانظر: «غاية المرام» (٢٩٢) للشيخ الألباني.

(٣) سبق.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد في «الزهد» (رقم ١٠٣)، وهنّاد في «الزهد» (٥٣٤).

(٥) انظر «الحلية» لأبي نعيم (١٠/ ١٩٥).

فالتوكل حال النبيِّ ﷺ، والدخول في الأسباب سنة النبيِّ ﷺ؛ فمن عمل على حال النبيِّ ﷺ فلا يتركن سنة النبيِّ ﷺ [(١)].

ولفضل التوكل: أمر الله نبيه به؛ فقال: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[النمل: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾[الفرقان:٥٨]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران:١٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم:١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[التوبة:٥١].

وجعل الله التوكل ثمرة لازمة للإيمان به؛ فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة:٢٣].

وفي «صحيح البخاري» [(٢)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيمُ عليه السلام حين أُلقِي في النَّار، وقالها محمَّدٌ ﷺ حين قالُوا: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[آل عمران:١٧٣].

وفي «الصحيحين» [(٣)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كُنَّا مَعَ

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢١) لابن القيم، ط دار الكتب العلمية.

(٢) أخرجه البخاريُّ في «التفسير»، باب قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [آل عمران:١٧٢] (رقم: ٤٥٦٣).

(٣) «أخرجه البخاريُّ في المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٤١٣٥، ٤١٣٦) وانظر أطرافه عند (٢٩١٠)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الخوف (٨٤٣).

النَّبِيِّ ﷺ بِذَاتِ الرِّقَاعِ ،فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَسَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُعَلَّقٌ بِالشَّجَرَةِ فَاخْتَرَطَهُ »

وفي رواية: فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا (١) فَقَالَ لِي: تَخَافُنِي؟فَقَالَ لَهُ : «لا» ، قَالَ: فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «الله» ، فَشَامَ السَّيْفَ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ ، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ وقَالَ: « مَنْ يَمْنَعُكَ أَنْتَ مِنِّي؟» .قَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ؛ فقَالَ النَّبِيُّ : « تَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟» . فَقَالَ: لاَ ، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لاَ أُقَاتِلَكَ ، وَلاَ أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِهِ ،فَقَالَ :جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ (٢).

وفي «البخاريِّ» (٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: « جَاءَ إِبْرَاهِيمُ بِأُمِّ إِسْمَاعِيلَ وَابْنِهَا ـ وَهِيَ تُرْضِعُهُ ـ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ ،وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ : أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا

---

(١) أي: مجرداً من غمده.

(٢) عزا هذا اللفظ الأخير الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٤٩٣) لإبراهيم الحربي في «غريب الحديث» بسندٍ منقطع ؛ فأبو بشر الراوي عن سليمان بن قيس ، لم يسمع منه كما قال البخاري ؛ كما في «التهذيب» للمزي (١٢/ ٥٥) ، وعزاه النووي في «رياض الصالحين» (رقم ٧٩) لأبي بكر الإسماعيلي في «صحيحه» .

(٣) أخرجه البخاريُّ في «أحاديث الأنبياء» باب «يزفون: النسلان في المشي» (٣٣٦٤ ، ٣٣٦٥).

الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ، (فَلَمْ يَرُد) فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، فَقَالَتْ لَهُ هَاجَر: آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ :نَعَمْ. فَقَالَتْ: إِذَاً لاَ يُضَيِّعُنَا»، «فَنَادَاها جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقَالَ لَهَا: مَنْ أَنْتِ ؟ فَقَالَتْ: أَنَا أُمُّ وَلَدِ إِبْرَاهِيم، فَقَالَ لَهَا جِبْرِيلُ:فَإِلَى مَنْ وَكَلَكُمَا؟ فَقَالَتْ: إِلَى اللهِ؟ قَالَ جِبْرِيلُ : وَكَلَكُمَا إِلَى كَافٍ ».

وهذه الرواية الأخيرة هي رواية الإمام الطبري [(١)] من حديث علي بن أبي طالب ﷺ بسندٍ حسَّنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» [(٢)].

وأختم بهذا التوكل الجميل الرائع لأم موسى ﵇ ؛ فقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧] .

وإن الهدية إن أتت من المَلِكِ أتتْ مضمخة بطيبه، ثم قال تعالى: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص:١٢] .

وهذا أبو بكر ﷺ.

ففي «سنن أبي داود والترمذي» [(٣)] بسندٍ صحيح من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قَالَ: « أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ يَوْمًا فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟»فَقُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو

---

(١) أخرجه الطبريُّ في التفسير لسورة البقرة (٢٠٥٩).

(٢)انظر «فتح الباري» (٦/ ٤٦٢).

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب الزكاة (١٦٧٨) ، والترمذيُّ ، كتاب المناقب ، باب في مناقب أبي بكر وعمر ﷺ كليهما (٣٦٧٥) ، وحسَّن إسناده الألبانيُّ في «المشكاة» (٦٠٢١).

بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟» قَالَ : أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: واللهِ لاَ أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا».

إنه التَّوكلُ على الله؛ فهؤلاء: « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ ،وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ».

ومن ثَمَّ استحقوا أن ينطلقوا إلى الجنة بغير حساب ولا عذاب.

والسُّؤالُ: مَنْ هي أول أمةٍ سُينادَى عليها من بين سبعين أمة؟

والجواب : أنها الأمة المحمدية ؛ ففي الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده» والحاكم في «مستدركه» ، وصححه على شرط الشيخين، وأقرَّهُ الذهبيُّ ، ورواه ابن ماجه والترمذيُّ، وقال الترمذي: «حديثٌ حسنٌ» ـ وهو كذلك ـ [(١)] من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى ».

وفي لفظٍ : «أَنْتُمْ تُتِمُّون...».

وهذه كرامةٌ لأمة النبيِّ محمدٍ ﷺ ينادى على هذه الأمة من بين الأمم الكثيرة لتتقدم جميع الأمم للوقوف بين يدي الله ـ جلَّ وعلاـ للحساب.

قال الحافظ ابن كثير في «التفسير» [(٢)] لسورة آل عمران: «وإنما حازت هذه الأمة قَصَب السَّبْق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ ، فإنه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعطهِ نبيًّا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٧) ، والترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب: ومن سورة آل عمران (٣٠٠١) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٨٧ ، ٤٢٨٨) ، والحاكم (٤/ ٨٤) ، وحسنه الشيخ الألبانيُّ في «المشكاة» (٦٢٨٥).

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» لسورة آل عمران آية ١١٠.

قبله، ولا رسولًا من الرسل؛ فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه».

والدليل على أن هذه الأمة ـ وهي آخر الأمم ـ ستكون أول الأمم يوم القيامة؛ ما ثبت في «الصحيحين»[(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...».

وفي رواية «مسلم» أن النبيَّ ﷺ قال: «نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»[(٢)].

وفي رواية أخرى في «صحيح مسلم»[(٣)] من حديث حذيفة بن اليمان وأبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «أَضَلَّ اللهُ ﷻ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا، فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ لَنَا تَبَعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ».

وفي «سنن ابن ماجه»[(٤)] بسندٍ صحيح من حديث ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «نَحْنُ آخِرُ الأُمَمِ، وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ، يُقَالُ: أَيْنَ الأُمَّةُ الأُمِّيَّةُ وَنَبِيُّهَا؟ فَنَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٨٦)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥).

(٢) مسلم (٨٥٥/ ٢٠).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٦).

(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٩٠)، وصحح سنده الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٣٧٤).

وفي لفظٍ آخر : من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: « فَتُفْرَجُ لَنَا الأُمَمُ عَنْ طَرِيقِنَا ،فَنَمْضِي غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الطُّهُورِ، فَتَقُولُ الأُمَمُ :كَادَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ أَنْ تَكُونَ أَنْبِيَاءَ كُلُّهَا » [(١)].

ثم تتجلَّى كرامةُ هذه الأمة بين يدي الله تبارك وتعالى يوم القيامة حينما ينادى عليها لتشهد على الأمم.

ففي «صحيح البخاريّ» [(٢)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،فَيُقَالُ لَهُ: يَا نُوحُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ الله لَهُ : هَلْ بَلَّغْتَ؟فَيَقُولُ :نَعَمْ، فَيَقُولُ لأُمَّتِهِ:هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، «وَمَا أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ» ؛ فَيَقُولُ اللهُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ:مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ وَذَلِكَ قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ » [البقرة:١٤٣].

وفي لفظٍ في «سنن ابن ماجه» [(٣)] بسندٍ صحيح ؛ قال النبيُّ ﷺ : « فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ فَيُقَالُ :هَلْ بَلَّغَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ » .

فهذه الأمة الكريمة مَنْ أثنت عليه خيرًا وجبت له الجنة، ومن أثنت عليه شرًّا وَجَبَتْ لَه النَّار ؛ كما قد سبق.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٨١) وأبو يعلى (٢٣٢٨) وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١٠/ ٦٧٥) : «وفيه علي بن زيد وقد وُثِّق على ضعفه» ، وحسنَّه الشيخ شعيب لغيره.

(٢) تقدم ، ولفظة : «وما أتانا من أحد» عند الترمذي (٢٩٦١)كما سبق.

(٣) تقدم.

والسُّؤال الآن: مَنْ هُمْ أَوَّلُ من يَقْضِي الله بينهم من أمة الحبيب محمدٍ ﷺ؟

والجوابُ: رجلٌ مقاتلٌ سقط في ميدان القتال شهيدًا فيما يبدو للناس! ورجلٌ عالمٌ ملأ الأرض علمًا! ورجلٌ قارئٌ للقرآن، ورجلٌ منفقٌ سخيٌّ باذل!!

ففي «صحيح مسلم»[(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ وَعَلَّمْتُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ وأَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

نعم .. هؤلاء هم المُراؤُون!!

والرِّياءُ لغةً[(٢)] ؛ كما قال الفيروزآبادي وغيره من أهل اللغة: مشتقٌّ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥).

(٢) انظر: «لسان العرب» (مادة رأي) (٥/ ٨٨)، و «المصباح المنير» (١/ ٢٤٧)، و«تاج العروس» (٨٣٩٤)، و«القاموس المحيط» (١٦٥٨).

من الرؤيا ، رأيته مراءاةً ورياءً ؛ أي : رأيته خلاف ما أنا عليه ؛ فهذا هو الحد اللغوي والاصطلاحي.

أما شرعًا: فهو إظهار العبادة بقصد أن يراها الناس لِيحمدوا صاحبها عليها ! وهو لا يريد بها وجه الله ﷻ.

والرياء حدُّه: إرادة الخلق بطاعة الله يراد بها الثناء والمحمدة عند الناس.

- فالمرائي هو: الإنسان نفسه الذي يريد السمعة والثناء.
- والمرائى به: الأعمال التي يظهرها بنية الرياء.
- والمرائَى: هم الناس الذين يُظْهر لهم المرائي هذا الأمر.

ولا شك أن الرياء يُحبطُ العمل .

ففي: «الصحيحين» (١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ – وفي رواية: « بالنِّيَّاتِ» – وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ – وفي رواية: لِكلُ أمرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا – وفي رواية: يَنْكِحُهاَ – فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ ».

وفي «مسند أحمد» وغيره بسندٍ حسَّنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأيمان والنذور ، باب النية في الأيمان (٦٦٨٩) ، ومسلم ، في الإمارة ، باب قوله : «إنما الأعمال بالنية» (١٩٠٧) ولفظة: «بالنيات» في «صحيح البخاري» (رقم/ ١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠) ، وابن ماجه (٤٢٠٤) كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة ، والحاكم (٤/ ٣٢٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٧٨١) وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح =

قال: « أَلاَ أُخبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخوَفُ عَلَيكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسولَ الله؛ فَقَالَ: « الشِّرْكُ الْخَفِيُّ: أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ فيُصَلِّي، فيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ ».وفي لفظٍ: «لِمَكَانِ الرَّجُلِ».

وفي الحديث الذي رواه أحمد ـ وقال الشيخ الألباني: صحيح؛ كما في «صحيح الترغيب والترهيب» [1] ـ من حديث محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: « إِنَّ أَخوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: « الرِّيَاءُ؛ يَقُولُ الله ﷻ: إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟».

وفي «صحيح مسلم» [2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ ».

وفي لفظِ ابن ماجه [3]: «فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ».

أما إذا كان الرياء في أصل الدين، بمعنى: أنْ يظهر الإنسان الإيمان وهو مبطن الكفر؛ فهذا هو أغلظ أبواب الرياء، وصاحبه كافر كفرًا

= الترغيب والترهيب» (٢٧)، و«المشكاة» (٥٣٣٣)، و«صحيح الجامع» (٢٦٠٧)، وقال البوصيري في «الزوائد»: «إسناده حسن».

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، والبيهقي (٦٨٣١)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٢٤)، وجوَّد الألباني سنده في «الصحيحة» (٩٥١)، وصححه في «صحيح الجامع» (١٥٥٥)، و«صحيح الترغيب» (٢٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة (٤٢٠٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤).

كبيرًا مُخلدًا في النار، والعياذ بالله .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء:١٤٥] ،

وقال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة:٢٠٤].

وأودُّ أنْ أوضح مسألة مهمة ؛ ألا وهي : أنه قد يعمل العبد العمل من الخير، وهو يريد بهذا العمل وجه الله تعالى، فيُلْقي له رَبُّنَا سبحانه وتعالى الثناء الحسن الجميل على ألسنة الناس، فيخاف ويخشى الرياء فيتخلى عن العمل ، وهذا مدخلٌ خطيرٌ من مداخل الشيطان.

ففي «صحيح مسلم»(١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال :قِيلَ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ ».

وفي «الصحيحين»(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَحَبَّ الله عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ الله عَبْدًا دَعَا

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر ، باب إذا أثني على الصالح ، فهي بشرى ولا تضره (٢٦٤٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم (٣٢٠٩) ، ومسلم ، كتاب البر والصلة والآداب (٢٦٣٧).

جِبْرِيلَ، فيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضْهُ، فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ الله يُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ، فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ».

وفي رواية الترمذي [1]: «إِذَا أَحَبَّ الله عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُنَادِي فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تَنْزِلُ لَهُ المَحَبَّةُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[مريم:٩٦] وَإِذَا أَبْغَضَ الله عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ..».

والسُّؤالُ: ما الدواءُ لمرض الرياء؟

والجوابُ: في نقاط محددة:

أولًا: الاستعانة بالله ﷻ.

فمن أعانه الله فهو المُعان، ومن خُذِلَ فهو المخذول، فاطلب من الله بصدق أن يرزقك الإخلاص.

قال ابن الجوزي [2] رحمه الله: «وحكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سوَّل لك الخطايا؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: هذا يطول، ثم قال: يا بني ما تصنع لو مررتَ على غنم، فنبحك كَلْبُها؟ قال: أدفع الكلب ما استطعت، قال: فماذا تصنع لو نبحك الثانية؟، قال: أدفع الكلب ما استطعت، فقال الشيخ: يا بني ذاك أمر يطول، لكن إن أردت العبور فاستعن بصاحب الغنم يكفَّ عنك كلبَها، وإن أردت النجاة في

---

(١) عند الترمذي في تفسير القرآن، باب، ومن سورة مريم (٣١٦١).

(٢) انظر: «تلبيس إبليس» (٤٧) باب: ذكر التعوذ من الشيطان الرجيم.

الدنيا فاستعن بالله يكفَّ عنك كيد الشيطان».

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والنسائي من حديث معاذ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «يَا مُعَاذُ وَالله إِنِّي لأُحِبُّكَ» ، فيَقُولُ مُعَاذُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يا رَسُولَ الله، وأَنَا أُحِبُّكَ». فَقَال النبيُّ ﷺ: «لاَ تَدَعَنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ ،وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[(١)].

ثانيًا: العلم بعواقب الرياء في الدنيا والآخرة.

فالرياء مُحبطٌ للعمل، أما في الدنيا، فالمرائي مخذول ؛ لأنه سيصاب في الدنيا بتشتيت الفهم؛ لأنه يريد أن يُرْضِي هذا وهذا وهذا ، ولا يمكن له أن يرضي كلَّ الناس !!.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله [(٢)] : «يأبى الله إلا أن يفضح المنافقين في الدنيا قبل الآخرة على صفحات وجوههم ، وفي زلات ألسنتهم».

فإرضاء الناس غاية لا تُدْرك ؛ فلو استطاع أحدٌ فعل ذلك ، لكان النبيُّ ﷺ أولى بذلك ، ولكنه لم يستطع ؛ فمنهم من سبَّه ، ومنهم من شتمه، ومنهم من اتهمه، ومنهم من قال : هو ساحر، ومنهم من قال : هو شاعر ، ومنهم من قال: مجنون ، ومنهم من قال : هو كاهن ... إلى غير ذلك من أنواع السباب والشتائم وألوان الأذى لنبينا المصطفى ﷺ .

وكيف يُرْضِي النبيُّ ﷺ كلَّ الناس، والناس لم يرضوا عن رب

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب في الاستغفار (١٥٢٢) والنسائي ، كتاب السهو ، باب الدعاء بعد الذكر (٣/ ٥٣) ، وأحمد (٥/ ٢٤٥) ، وصححه الألباني «صحيح الجامع» (٧٩٦٩).

(٢) انظر: «المدارج» لابن القيم (١/ ٣٥٦) ط دار الكتاب العربي ـ بتصرف.

الناس؛ فإرضاء الناس غاية لا تُدْرك[(١)]، ولن تُدْرك، ولو كان الأمر كذلك لرضي الناسُ كل الناس عن رب الناس ـ سبحانه وتعالى ـ كما في الحديث الذي رواه الترمذي وعبد بن حميد[(٢)] من حديث عائشة ﵂ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أَرْضَى الله بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ الله النَّاسَ وَمَنْ أَسْخَطَ الله بِرِضَى النَّاسِ وَكَلَهُ الله إِلَى النَّاسِ».

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]. أي: محبة في قلوب عباده المؤمنين.

وفي صحيح البخاريِّ عن عائشة ﵂ معلقًا وهو في «صحيح مسلم»[(٣)] من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».

قال الحافظ في «الفتح»: قال الخطابي[(٤)]: «يحتمل أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشر والصلاح والفساد، وأن الخير من الناس يحنُّ إلى شكله، والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جُبلت عليها من خيرٍ وشرٍّ، فإذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت .... الخ».

---

(١) هي مقالة للإمام الشافعي ﵀، انظر: «شرح الطحاوية» (ص٢٤٥ط دار ابن رجب).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الزهد (٢٤١٤)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٥٢٢)، وقد رُوي موقوفًا، والمرفوع والموقوف صحيح، وراجع «الصحيحة» (٢٣١١).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة (٣٣٣٦) عن عائشة ﵂ معلقًا بصيغة الجزم، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة (٢٦٣٨) عن أبي هريرة ﵁.

(٤) انظر: «الفتح» (٦/ ٤٢٦).

فما الذي يضرك إن كنت قريبًا من الله ﷻ وإن ذمَّك كلُّ الناس؟ وما الذي ينفعك إن كنت بعيدًا عن الله ولو أثنى عليك كلُّ الناس؟ فعلق قلبك بالله، وانشغل بالله سبحانه وتعالى وحده، ولا يلتفت قلبك إلى ما سواه.

فالمرائي سيُظهر الله باطنه وسريرته، ليجعل هذا الباطن علانية بين الناس، فالمعاقبة بنقيض القصد أمر ثابت شرعًا وقدرًا.

ففي «الصحيحين»[1] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ».

قال الحافظ ابن حجر[2] رحمه الله: قال الخطابي: «معناه: من عمل عملًا على غير إخلاص وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه جُوزِيَ على ذلك بأن يشهره الله ﷻ ويفضحه ويظهر ما كان بباطنه للناس».

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا وإياكم الإخلاص.

ثالثًا: الإخفاء: فإن من أنفع الأدوية للرياء: الإخفاء، بمعنى: أنك تُخْفِي العمل الذي يجوز لك شرعًا أن تخفيه لتُدَرِّب نفسك وقلبك على الإخلاص، فتستطيع أن تقوم الليل وحدك بعيدًا عن أعين الناس ولتقوم بين يدي الله ﷻ كي تقطع على قلبك كلَّ مدخل من مداخل الشيطان؛ فالقلب إذا تدرَّب على العمل في الخفاء، لو فعل نفس الفعل في العلانية لن يشعر العبد بتكلُّف؛ لأن القلب تعود على الإخفاء.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة (٦٤٩٩)، ومسلم، كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٧).

(٢) انظر: «الفتح» (١١/ ٣٤٤) بتصرف يسير.

ثم يُنادَى بعد ذلك على سائر العباد ؛ فينادَى عليك أيها المسلم وأيتها المسلمة للوقوف بين يدي الحق ـ جلَّ وعلا ـ للحساب .

قال القرطبيُّ رحمه الله في «التذكرة [(١)]» باختصار وتصرف : «توهم نفسك يا أخي ، وتخيل نفسك إذا تطايرت الكتب ، ونصبت الموازين ، وقد نُوديت باسمك على رؤوس الخلائق : أين فلان ابن فلان ؟ هلمَّ إلى العرض على الله تعالى ، فإذا عرفت أنك أنت المطلوب قَرَع النداءُ قلبك ، فارتعدت فرائصك ، واضطربت جوارحك ، وتغير لونك ، وطار قلبك ، والملائكة تتخطى بك ، وقد وُكِّلَتْ بسوقك إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ تتخطى بك الصفوف صفوف الإنس ، وصفوف الملائكة وصفوف الجن، كلُّ هذا في أرض المحشر بين يدي الله، تخطَّت الملائكة بك الصفوف لتوقفك الملائكة بين يدي الحق ـ جلَّ جلاله ـ للعرض عليه ، وللحساب بين يديه ، والخلائق جميعًا ينظرون إليك . توهم نفسك وأنت بعد ذلك بين يدي ربك سبحانه وتعالى ، وقد أخذت صحيفتك ، تلك الصحيفة التي لا تغادر بلية كتمتها ، ولا مخبأة أسررتها، فكم من معصية قد كنت نسيتها ذكَّرك الله إياها ، وكم من مصيبة قد كنت أخفيتها أظهرها الله لك وأبداها ؛ فيا حسرة قلبك في هذه اللحظات على ما فرطت في دنياك من طاعة رب الأرض والسموات ؛ فإن كنت من الموحدين ..إن كنت من الصادقين ، أدناك وقرَّبَكَ رب العالمين ؛ كما في «الصحيحين» [(٢)] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: « يُدْنَى

---

(١) « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» (٣٣٢ط دار الصفا) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟﴾ [هود:١٨] (٤٦٨٥) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٨) .

الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ، فَيَقُولُ : أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! أَعْرِفُ . قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [هود:١٨].

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ [الحاقة :١٩-٣٧] .

فيا تُرى : ما هو أول شيءٍ ستسأل عنه وتحاسب عليه وأنت واقفٌ بين يدي الله سبحانه ؟

والجواب : من رسول الله ﷺ ؛ كما روى أبو داود ، والترمذيُّ ، والنسائيُّ، وابن ماجه ، وأحمد، وغيرهم ، وصحح الحديث شيخنا الألبانيُّ[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَوَّلَ مَا

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب قول النبي ﷺ : «كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من=

يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ ، فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْئًا قَالَ الرَّبُّ ﷻ : انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ أُكْمِلَتْ الْفَرِيضَةُ مِنْ تَطَوُّعِهِ ». وفي لفظٍ : « فَيُكَمَّلُ بِهِ مَا نَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ».

قال الإمام ابن عبد البر[1] ـ رحمه الله تعالى : «أما إكمال الفريضة من التطوع ؛ فإنما يكون ذلك ـ والله أعلم ـ فيمن سها عن فريضة ، فلم يأت بها أو لم يحسن ركوعها ولم يدر قدر ذلك ؛ وأما من تعمد تركها أو نسي ثم ذكرها فلم يأت بها عامدًا ، واشتغل بالتطوع عن أداء فرضه ـ وهو ذاكر ، فلا تكمل له فريضته تلك من تطوعه ـ والله أعلم» .

وقال الإمامان الشافعي وأحمد[2] ـ رحمهما الله: «أما من صلى ولم يُقِم صلبه في الركوع والسجود فصلاته باطلة » .

وفي «مسند أحمد» ، و«سنن أبي داود» والترمذي والنسائي[3] عن أبي

= تطوعه» (٨٦٤،٨٦٥) والترمذي ، في أبواب الصلاة ، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة (٤١٣) ، والنسائي، كتاب الصلاة ، باب المحاسبة على الصلاة (١/ ٢٣٢)، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب أول ما يحاسب به العبد الصلاة (١٤٢٥) ، وأحمد (٢/ ٢٩٠ ، ٤٢٥) ، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة » (١٣٥٨) .

(١) انظر : « التمهيد » (٥/ ١٨٦) ط الفاروق.

(٢) انظر : «المغني» (١/ ٥٧٧) ط دار الفكر .

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود (٨٥٥) ، والترمذي ، في أبواب الصلاة ، باب ما جاء فيمن لا يقيم صلبه في الركوع والسجود (٢٦٥) ، والنسائي ، في كتاب الافتتاح ، باب إقامة الصلب في الركوع (٢/ ١٨٣) ، وأحمد (٤/ ١١٩) وهو عند الدارقطني في «السنن» (١٣٣١) ، وقال : «هذا إسنادٌ ثابت صحيح» ، وقال البيهقيُّ في «معرفة السنن والآثار» (١/ ٥٨٤) : «وهذا إسنادٌ صحيح » ، وصححه كذلك الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٢٤) .

مسعود البدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ تُجْزِئُ صَلاَةُ الرَّجُلِ حَتَّى يُقِيمَ ظَهْرَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ».

فو الله لو طهرت قلوبنا ما مللنا أبدًا من القيام بين يدي ربنا في صلواتنا.

تأتي للصلاة في فتور ... وكأنك قد دُعيت إلى البلاء
وإنْ أدَّيتَها جاءت بنقصٍ لِماَ ... قد كانَ منكَ منْ شِرْكِ الرياء
وإن تخلو عنِ الإشراكِ فيها ... تُدبِّرُ للأمورِ بالارْتقاء
ويَا ليْتَ التدبُّر في مُباحٍ ... ولكنْ في المشقَّةِ والشَّقاء
وإن كنت المصَلِّي يوماً بينَ خَلْقِهِ ... أطَلْتَ رُكوعَها بالانحناء
وَتَعْجَل خَوف تأخيرِ لِشُغلِ ... وكأنَّ الشُغل أوْلى منْ لُقَاهُ
وإنْ كُنْتَ مجالِسًا يومًا لأُنثى ... قطعْتَ الوَقْتَ منْ غَيْرِ اكْتِفَاءِ
أيا عبْدُ لا يُسَاوي اللهُ مَعَكَ ... أنثى تُناجيه بحُبٍّ أوْ صَفَاء

وفي «صحيح البخاري»[(١)] عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه رأى رجلًا يصلِّي لا يتم ركوعه ولا سجوده، فلما قضى الرجل صلاته، قال له حذيفة: «ما صلَّيْتَ ـ يعني: صلاتك هذه لا تجزئك ـ ولوْ مُتَّ عَلَى هَذَا مُتَّ على غيرِ الفِطْرَةِ التي فَطَرَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ».

وفي «مسند أحمد» و«مستدرك الحاكم»[(٢)] عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب إذا لم يتم الركوع (٧٩١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٠)، والحاكم (١/ ٢٢٩) عن أبي قتادة، ورواه أحمد (٣/ ٥٦) عن أبي سعيد الخدري، ورواه ابن حبان (١٨٨٨)، والحاكم (١/ ٢٢٩) عن أبي هريرة، والحديث صحيحٌ بشواهده، وقد صحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٨٦).

رسول الله ﷺ : « أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلاَتِهِ ». قَالُوا : وَكَيْفَ يَسْرِقُ مِنْ صَلاَتِهِ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « لاَ يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلاَ سُجُودَهَا ».

فهذا الشخص يصلي ، ولكنه لا يطمئن في الصلاة !!

قال الشافعيُّ وأحمد[1] : « أما من صلَّى ولم يقم صلبه في الركوع والسجود فصلاته باطلة لا تجزئه ، أما من يتم الله له النقص بالتطوع فهو الذي سها عن الفريضة » ، هذا لمن سها عن الفريضة ؛ فماذا تقول فيمن ترك الفريضة وضيَّعَ الصلاة بالكلية ، والعياذ بالله ؟

قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم: ٥٩] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما[2] : « الذين يؤخرونها عن وقتها ».

وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في « الأوسط » ، والبيهقي في « السنن »[3] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو صحيح

---

(١) تقدم قريبًا .

(٢) أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » لسورة الماعون (٥/ ٣٨٠٤٠) بسندٍ فيه عمران بن تمام ، راجع ترجمته في « لسان الميزان » لابن حجر (٦٢٧٧) .

(٣) أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » (٣٨٠٥٤) ، والبزار ؛ كما في « كشف الأستار » (٣٩٢) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٨٢٢) ، والبيهقي في « الكبرى » (٢/ ٢١٥) ، وعزاه في « الدر » لابن أبي حاتم والطبراني ، قال البيهقي : « وهذا الحديث إنما يصحُّ موقوفًا » ، وقال البزار : « لا نعلم أحدًا : أسنده إلا عكرمة وهو لين الحديث ، وقد رواه الثقات الحفاظ عن عبد الملك عن مصعب بن سعد عن أبيه موقوفًا » ، وصحح أبو حاتم الوقف ؛ كما في « العلل » (٥٣٦) ، وأخرجه الطبريُّ (٣٨٠٣٨) ، وأبو يعلى (٧٠٤) عن سعد موقوفًا ، وسنده حسن .

الإسناد إلى سعد ، أي: يصح موقوفًا ، ولا يصحُّ مرفوعًا إلى النبيِّ ﷺ أن سعدًا قال: سألتُ النبيَّ ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون : ٥] فقال : «هُمُ الَّذِينَ يُؤَخِّرونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا» .

والغيُّ ؛ كما أخرج البخاري في «تاريخه» [١] عن عائشة رضي الله عنها في قوله : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قالت : «نَهْرٌ فِي جَهَنَّم» .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم ، وصححه ، والبيهقي [٢] عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩] قال : الغيُّ : «نهر ـ أو وادٍ ـ في جهنم من قيح ، بعيد القعر ، خبيث الطعم ، يقذف فيه الذين اتبعوا الشهوات» .

وهذا تفسير غيره من الصحابة [٣] رضي الله عنهم.

قال الطبريُّ [٤] : «وهو اسمُ وادٍ من أودية جهنم ، أو اسم بئر من آبارها ... وقال آخرون : بل عنى بالغي في هذا الموضع : الخسران ، وقال

---

(١) «التاريخ الكبير» للبخاري (٨/ ٢٦٢) (٢٩٣٠) ط دار الفكر .

(٢) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (لسورة مريم / ٥٩) والحاكم (٢/ ٣٧٤) والبيهقي في «البعث والنشور» (٥١٥) ، (٥١٨ ، ٥١٩) والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٢٥٩) عن أبي عبيدة عن ابن مسعود .

قال الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٥) : «رواه الطبرانيُّ بأسانيد ورجال بعضها ثقات إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه» ا.هـ. لكن رواه ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (٣٨) عن أبي الأحوص عن ابن مسعود ، وهو صحيحٌ ، وعزاه في «الدر المنثور» لسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد والفريابي وابن المنذر وغيرهم ممن تقدَّم ، وقال : «من طرق عن ابن مسعود» .

(٣) ورد ذلك عن البراء بن عازب وغيره . انظر: «البعث» للبيهقي (٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢١) ، و«الدر المنثور» (تفسير سورة مريم / ٥٩).

(٤) انظر : «تفسير الطبري لسورة مريم / ٥٩» .

آخرون : بل عنى به الشر ... وكلُّ هذه الأقوال متقاربات للمعاني » .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون :٩] .

قال عطاء [١] : «الصلاة المكتوبة» .

فهذا لمن أخَّرَ الصلاة عن وقتها من غير عذرٍ شرعيٍّ ؛ كمرض أو طعامٍ أو نوم أو مطر أو برد . . إلى آخر الأعذار الشرعية المعروفة . فكم ممن ينتسبون إلى الإسلام يُؤخِّرون الصلاة حتى يضيع وقتها ؛ بل وكم منهم من ضيَّع الصلاة بالكلية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم .

قال الإمام الشوكانيُّ ﵀ في «نيل الأوطار » [٢]: « ولا خلاف بين المسلمين في كفر تارك الصلاة مُنْكِرًا لوجوبها ... وإن كان تَرْكُه للصلاة تكاسلًا مع اعتقاده لوجوبها كما هو حالُ كثيرٍ من الناس فقد اختلف الناس في ذلك » ا. هـ.

فمنهم من قال : « إنه لا يكفر كفرًا أكبر يخرجه من الملة ؛ بل هو فاسق ، فإن تاب و إلا قتل حدًّا بالسيف » .

فيا عجبًا لرجل ينتسب إلى الإسلام لا يصلِّي !!. ولامرأة تنتسب إلى الإسلام لا تصلِّي !!. وهذا القول مَرْويٌّ عن بعض الصحابة ، وهو قول مالك والشافعي ـ رحمهما الله تعالى .

قال الشوكانيُّ : «وذهب جماعة من السلف إلى أنه يكفر » ا.هـ.

---

(١) أخرجه البيهقيُّ في «شُعب الإيمان » (٢٦٥٩ ط الرشد) وعزاه في «الدر» له ولابن المنذر (تفسير المنافقون آية ٩) .

(٢) انظر: «نيل الأوطار» (١/ ٣٦١) ط دار الحديث بتصرف .

فمن أهل العلم من ذهب إلى أن من تركها تكاسلًا أو تشاغلًا عنها من غير عذرٍ شرعيٍّ فهو كافر أيضًا، وقد صرَّحت الأحاديث بكفره ووجوب قتله.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢-٤٣].

ويأتي الكفار والمنافقون ليسجدوا مع المسلمين، فيحال بينهم وبين السجود رغمًا عن أنوفهم، فتبقى ظهورهم قائمة كَمَيَامِنِ البقر أو كصياصيِّ البقر، ولو كانوا من المسلمين لأذن لهم بالسجود كما أُذِن للمسلمين.

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٣].

وَوجْهُ الدَّلالة؛ كما قال ابن القيم (١) رحمه الله: «أن الله تعالى جعل المجرمين ضد المسلمين (٢)، وتارك الصلاة بنصِّ الآية من المجرمين السالكين في سقر»؛ وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وَوَجْهُ الدلالة؛ كما قال ابن القيم أيضًا (٣): أن الله تعالى علَّق أخوَّتهم للمؤمنين بفعل الصلاة، فإذا لم يفعلوا لم يكونوا إخوة للمؤمنين، فلا

---

(١) «الصلاة وحُكم تاركها» لابن القيم (٢٩، ٣٠) ط ابن رجب.

(٢) كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥].

(٣) انظر: «الصلاة وحُكم تاركها» لابن القيم (٣٢، ٣٣).

يكونون مؤمنين ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

وفي «الصحيحين»[(١)] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله » .

وفي «الصحيحين»[(٢)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « بَعَثَ عَلِيٌّ رضي الله عنه مِنَ الْيَمَنِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا ، فَقَسَمَهَا النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَقْرَعَ بْنِ حَابِسٍ ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابعُ :إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ الله ! اتَّقِ الله.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «وَيْلَكَ أَوَ لَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ الله ؟ ». فَوَلَّى الرَّجُلُ؛ فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ : يَا رَسُولَ الله !أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «لاَ ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي». فَقَالَ خَالِدٌ : وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ .وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ ».

وَوَجْهُ الاستدلالِ ؛ كما قال ابن القيم[(٣)] رحمه الله : «أن المانع الذي منع

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة(١٣٩٩) ، ومسلم ، كتاب الإيمان (٢٠) عن أبي هريرة ، ورواه البخاريُّ في الإيمان (٢٥) ، ومسلم في الإيمان (٢٢) عن ابن عمر .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب بعث علي بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع (٤٣٥١) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٤/ ١٤٤) .

(٣) «الصلاة وحُكم تاركها » (٣٢).

النبيَّ ﷺ بنصِّ الحديث من قتل هذا الرجل كونه يصلِّي؛ فدلَّ على أن من لم يصل يقتل «إن أصر على ذلك بعد الاستتابة.

وفي الحديث الذي رواه مسلم [١] من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاَةِ».

وفي الحديث الذي رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي [٢] من حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ».

وفي الحديث الذي رواه اللالكائيُّ الطبريُّ، وقال: «إسناده صحيح على شرط مسلم» [٣] من حديث ثوبان مولى النبيِّ ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالإِيمَانِ الصَّلاَةُ، فَإِذَا تَرَكَهَا فَقَدْ أَشْرَكَ».

وفي الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده»، والدارمي، وأبو حاتم ابن حبان في «صحيحه» [٤] من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٦)، والترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة (٢٦٢١)، والنسائي (١/ ٢٣١) كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة (١٠٧٩)، والحاكم (١/ ٦، ٧) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد لا تعرف له علة بوجه من الوجوه»، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب» (٥٦٤).

(٣) أخرجه اللالكائيُّ في «شرح أصول الاعتقاد» (١٥٢١)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٦٥)، وله شاهدٌ عن أنس عند ابن ماجة (١٠٨٠) بسندٍ ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩)، والدارمي (٢٧٢٤)، وابن حبان في «الصحيح» (١٤٦٧)، وعبد بن حميد (٣٥٣)، وجوَّد إسناده المنذري في «الترغيب» (١/ ٣٨٦)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ١٩٢): «رجال أحمد ثقات»، وقال الشيخ شعيب: «إسناده حسن»، وصححه=

ذكر الصلاة يومًا فقال : « مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا ، لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلاَ بُرْهَانٌ وَلاَ نَجَاةٌ ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ ».

قال الإمام ابن القيم(١) ﷺ : «إن تارك الصلاة إما أن ينشغل عن الصلاة بماله أو بمُلكه أو برياسته ، ووزارته ، وبتجارته، ومن شُغل بهذه الأشياء حُشِر يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبَيِّ بن خلف» فمن انشغل بالمال حُشر يوم القيامة مع قارون ، ومن انشغل عن الصلاة بملكه فهو مع فرعون ، ومن انشغل عن الصلاة فضيَّعها بالكلية لتجارته فهو مع أُبَيِّ بن خلف ، ومن انشغل عن الصلاة فضيَّعها بالكلية لوزارته فهو مع هامان !!

وفي الحديث الذي رواه أحمد بسندٍ حسنٍ بشواهده(٢) من حديث معاذ بن جبل ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ تَرَكَ صَلاَةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ » .

قال الإمام ابن القيم(٣) ﷺ : « ولو كان باقيًا على إسلامه لكانت له

= الشيخ الألباني في «المشكاة» (٥٧٨) ، وضعفه في «ضعيف الترغيب» (٣١٢) ، وقال العلامة أحمد شاكر في «تخريج المسند » (٦٥٧٦) : « إسناده صحيح».

(١) انظر: « حكم تارك الصلاة» للعلامة ابن القيم (ص/ ٣٧) بتصرف .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٨) ، والطبرانيُّ في «الكبير» (٢٠/ ٨٢) ، وقال المنذري في « الترغيب» : « إسناد أحمد صحيح لو سلم من الانقطاع» .

قال الألباني ـ معلقًا: «قلت: لكن له شواهد يقوى بها ؛ بعضها في «الأدب المفرد» للبخاري ، و«المجمع» (٤/ ٢١٦، ٢١٧) و«صحيح الترغيب» (٥٦٩) وصححه بالشواهد في «الإرواء» (٢٠٢٦) .

(٣) « الصلاة وحكم تاركها» (٣٧).

ذمة الإسلام».

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ أَثْقَلَ الصَّلاَةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلاَةُ الْعِشَاءِ، وَصَلاَةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلاَةِ فَتُقَامَ .ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ثُمَّ أَنْطَلِقَ بِرِجَالٍ مَعِي مَعَهُمْ حُزَمُ حَطَبٍ، إِلَى قَوْمٍ لاَ يَشْهَدُونَ الصَّلاَةَ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ».

وفي الحديث الذي رواه مسلم[2] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ؛ فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً».

وفي «الصحيحين»[3] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ. أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ».

ارجع إلى حديث ابن مسعود رضي الله عنه وهو يقول: «ولَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا ـ أي: صلاة الجماعة ـ إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب فضل صلاة العشاء في الجماعة (٦٥٧)، ومسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة (٦٥١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب صلاة الجماعة من سنن الهدى (٦٥٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب فضل من غدا إلى المسجد ومن راح (٦٦٢)، ومسلم، كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات (٦٦٩).

الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ».

وروى الطبراني في «معجميه ــ الصغير، والأوسط» بسندٍ حسَّنه شيخنا الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» وضعَّفه بعض أهل العلم [(١)] من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «تَحْتَرِقُونَ، تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الصُّبْحَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ، تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ، تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ العَصْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ، تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ المَغْرِبَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ، تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ العِشَاءَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَنَامُونَ فَلاَ يُكْتَبُ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ حَتَّى تَسْتَيْقِظُوا».

فالنبيُّ ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاَتُهُ. فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ قَالَ الرَّبُّ ﷻ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ أُكْمِلَتْ الفَرِيضَةُ مِنْ تَطَوُّعِهِ».

وفي لفظٍ: «أَتِمُّوا لِعَبْدِي مَا انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ» [(٢)].

وقد تقدم الكلام على فضل الصلاة.

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط» (٢٢٤٥)، و«الصغير» (ص٤٧)، والخطيب في «تاريخه» (٤/ ٣٠٥)، وحسَّنه المنذريُّ والألباني؛ كما في «صحيح الترغيب» (٣٥٤) وقال المنذري: «ورواه في «الكبير» (٨٧٣٩) موقوفًا عليه، وهو أشبه، ورواته محتج بهم في «الصحيح»، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٩٩): «ورجال الموقوف رجال الصحيح، ورجال المرفوع فيهم عاصم به بهدلة، وحديثه حسن». وقال ابن رجب في «فتح الباري» (٥/ ١٨٣) له: «وقد رُوي موقوفًا، وهو أشبه».

(٢) تقدم قريبًا، وهو صحيح.

فهيا ليحافظ كلُّ مسلم على أداء الصلاة مع المسلمين في جماعة ؛ فالله ـ جلَّ جلاله ـ قال : ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٣] .

أسأل الله ﷻ أن يسترنا جميعًا بستره الجميل ، وأن يجعلنا من هؤلاء الذين يحافظون على الصلوات ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

وما الشيء الذي سيسأل العبد عنه بعد الصلاة ؟

لقد ذكر ربُّنا سبحانه في القرآن أمورًا محددة معينة سوف يُسأل العباد عنها بين يدي الله تعالى ، وكذا وضَّحت السنة ذلك ، لكنه من المعلوم أن العبد سيسأل بين يدي الله تبارك وتعالى عن جميع أحواله وعن جميع أقواله ، وعن جميع أفعاله مصداقًا لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] .

ولقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢،٩٣]

ومن الأمور التي سيسأل عنها العبد ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [سورة التكاثر] . فبعد السؤال عن الصلاة ؛ سؤال عن النعيم !! فما هو النعيم في الآية؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال: «النعيم : صحة الأبدان والأسماع والأبصار»[1] .

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» لسورة التكاثر: ٨ ، وأورد الطبريُّ ذلك أيضًا عن الحسن البصري ، وهناك أقوال أخرى .

وأعلى نعيم: نعمة التوحيد ؛ فهي أكبر النعم على الإطلاق وأجلُّها.

قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات : ١٧] .

فأعظم النعم وأجلُّها نعمة التوحيد ، ونعمة الإيمان ؛ فهل شَكَرْتَ الله تعالى على هذه النعمة ؟ فيجبُ عليك أن تحول هذا التوحيد إلى واقع عمليٍّ وإلى منهج حياة ، وشُكْرك لله على هذه النعمة العظيمة أن تمتثل أمر الإسلام ، وأن تجتنب نواهيه، وأن تقف عند حدوده ، أو إن شِئْتَ فقُلْ: أن تعيش بالإسلام ، وللإسلام.

فالنعيم ؛ صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، وذُكِر أن رجلًا ذهب لأحد السلف يشكوا إليه الفقر؛ فقال له: أعرض عليك صفقة تجارية إن قبلتها صِرْتَ من أغنى الناس ؛ فقال : اعرض ، فقال ، أشتري منك عينك بألف دينار ! قال : لا، قال : أشتري أذنك بألف دينار ! قال: لا ، قال : أشتري أنفك بألف دينار !قال: لا، قال: أشتري ذراعك بألف دينار! قال: لا، قال:أشتري رجلك بألف دينار! قال: لا، وظلَّ يُعَدِّد له نِعَم الله ﷻ عليه في جسده ، ثم قال بعد ذلك : معك كلُّ هذه الدنانير وتشتكي الفقر يا فقير !!

فمن ذا الذي خلق نعمة العقل ؟ ومن الذي خلقك بهذا الجمال والإبداع ؟ ومن الذي خلق عينك بهذه الدقة ووضعها في علبة عظمية دقيقة وأحاطها بأهداب تسمَّى الرموش وحفظها بالدموع ؟ من الذي

خلق العين بهذا الجمال ؟ ومن الذي خلق الأنف وجعل ماء العين مالحًا ، وماء الأنف حامضًا لتتعلق به الأتربة والميكروبات أثناء التنفس ؟! ومن الذي خلق الأذن ووضع فيها هذا الماء المرَّ حتى لا تتسرب الحشراتُ إلى أذنك وأنت نائم ؟ ومن الذي خلق الفم ، وجعل فيه القواطع والأنياب والضروس واللسان واللعاب واللهاة تلك التي تسمَّى بلسان المزمار ، هذا اللسان الدقيق البوابة الحصينة المنيعة التي تسد البلعوم عند التنفس تارة ، وتسد الحنجرة عند الطعام تارة أخرى حتى لا تسقط لقمةُ خبزٍ تريد أن تدخلها إلى البلعوم تسقط في الحنجرة فتشرق فتهلك في الحال ؛ فمن الذي علَّم البوابة هذه الوظيفة ؟! ومن الذي خلق لك هذا القلب ؟ ومن الذي خلق الأمعاء الدقيقة والغليظة ؟ ومن الذي خلق فيك البنكرياس ؟ ومن الذي خلق الكبد؟ إن عملية زرع الكبد تحتاج إلى مليون جنيه فقط لعضوٍ واحدٍ من أعضاء الجسد ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

فيا مَنْ مَنَّ الله عليك بالإيمان ، ومَنَّ عليك بصحة البدن وصحة السمع ، ووفقك لطاعته ، ورب الكعبة : لو نِمْتَ دون أن تتناول وجبة العشاء فأنت غنيٌّ بالمقارنة مع منْ منَّ الله عليه بالمليارات ، ومع ذلك فهو لا يعرف شيئًا عن رب الأرض والسموات !!

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال : « النعيم ؛ الأمن والصحة »[1] . فنعمة الأمن نعمة كبيرة جدًّا قد لا يشعر بها

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» لسورة التكاثر(آية٨) (٣٧٨٧٩) .

الكثير من الناس .

وقال عليٌّ بن أبي طالب ﷺ: « من أكل خبز برٍّ ،وكان له ظلٌّ ، وشرب الماء الفرات ، فذاك من النعيم الذي سيسأل عنه »[١].

وقال قتادة ﷺ: « إن الله ـ تعالى ذكره ـ سائلٌ كلَّ ذي نعمة فيما أنعم عليه»[٢].

وقال مجاهد ـ رحمه الله تعالى: «النعيم كلُّ شيءٍ من لذات الدنيا »[٣].

وروى الترمذيُّ وابن حبان في «صحيحه» بسندٍ صحيح ؛ كما قال الشيخ الألبانيُّ في « المشكاة» [٤]عن أبي هريرةَ ﷺأن النبيَّ ﷺقال : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ الْعَبْدُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ : أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ وَنُرْوِيكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ ».

وقد سأل رجلٌ عبد الله بن عمرو ﷺفقال [٥]: ألسنا من فقراء المهاجرين؟

فقال له : ألك امرأة تأوي إليها ؟ قال : نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال : فأنت من الأغنياء ، قال : فإن لي خادمًا ، قال: بل أنت من الملوك ».

---

(١)أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في « الدر المنثور» (تفسير سورة التكاثر) (٦/ ٦٦٠) .

(٢)أخرجه الطبريُّ في « تفسير سورة التكاثر» (٣٧٩٠٧) .

(٣)أخرجه الطبريُّ في « تفسير سورة التكاثر» (٣٧٩٠٥) .

(٤)أخرجه الترمذيُّ ، كتاب تفسير القرآن ، باب : « ومن سورة التكاثر » (٣٣٥٨) ، وابن حبان (٧٣٦٤) ، باب «ذكر الإخبار عن سؤال الرب جلَّ وعلا عبده في القيامة عن صحة جسمه في الدنيا » ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «المشكاة» (٥١٩٦) .

(٥)أخرجه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق (٢٩٧٩) موقوفاً .

وفي «صحيح البخاري»[(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال رسولُ الله ﷺ: « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ :الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ ».

وفي«مسند أحمد» و«سنن ابن ماجه» بسندٍ صححه الشيخ الألبانيُّ في «المشكاة» [(٢)] من حديث معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه عن عمه أن النبيَّ ﷺ قال :«لاَ بَأسَ بِالغِنَى لِمَنْ اتَّقَى الله ﷻ، وَالصِّحَّةُ لِمَنْ اتَّقَى الله خَيْرٌ مِنَ الغِنَى ، وَطِيبُ النَّفْسِ مِنَ النَّعِيمِ».

وفي«مسند أحمد» [(٣)] بسندٍ صحيحٍ لشواهده عن أبي عسيب رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ دخل يومًا حائطًا ، فجاء صاحب الحائط بتمرٍ وماء بارد للنبيِّ ﷺ، وكان معه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقال النبيُّ ﷺ: «لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ » .

والسُّؤالُ المهم الآن هو: ما معنى السؤال عن النعيم ؟

والجواب: كما في «صحيح مسلم »[(٤)] من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ الله لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب الصحة والفراغ ، ولا عيش إلا عيش الآخرة (٦٤١٢) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٧٢) ، وابن ماجه ، كتاب التجارات ، باب الحث على المكاسب (٢١٤١) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «المشكاة» (٥٢٩٠) و« الصحيحة» (١٧٤) .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٨١) ، والطبريُّ في « تفسيره لسورة التكاثر» (٣٧٨٩٥) ، والبيهقيُّ في «الشعب» ، (٤٢٨١) ط الرشد من حديث أبي عسيب ، وفي سنده حشرج بن نُباتة ؛ قال فيه الحافظ :« صدوق يهم» ، والحديث له شواهد أخرى عن أبي هريرة وجابر وغيرهما ، انظر: «سنن النسائي » (٦/ ٢٤٦) في الوصايا ، و« مسند أحمد » (٣/ ٣٣٨) (٣/ ٣٩١).

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب (٢٧٣٤) .

أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا »، فهل شكر العبد نعيم الله عليه أم جحده؟!

فمن شَكَر الله تعالى فقد أدَّى حقَّ النعيم . وهذا ابن السماك [1] لما دخل عليه سيده وألح في طلب كوب من الماء البارد ، فلما قدَّمه له قال : أسألك بالله يا سيدي لو مُنع منك هذا الكوب ، فَبِكَمْ تشتريه الآن؟ فقال : بنصف مُلكي ، قال : فلو مُنِع فيك ، فَبِكَمْ تشتريه ؟ قال : بنصفه الآخر ، فبكى ابن السماك ، وقال : اشرب هنأك الله ، وأُفٌّ لملكٍ لا يساوي شربة ماء !!

أيضًا يُسأل العبد عن العهود التي عاهد الله عليها ، وعاهد نبيه ﷺ عليها ، وعاهد الناس عليها.

قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤] .

وفي «الصحيحين » [2] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ».

---

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (٥/ ٢٢) ، و«البداية والنهاية» (١٠/ ٢١٥) ، و«التدوين في أخبار قزوين» للرافعي (٣١٧) ، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٣/ ٤٣١) ، و«الكامل» لابن الأثير (٣/ ١١٧) ، و«إحياء علوم الدين » (٤/ ١٢٤) ط المعرفة.

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب علامات المنافق (٣٤) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان خصال الإيمان (٥٩) .

وسيسأل العبد عن جوارحه .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء: ٣٦] .

هذا ما ذكره القرآن الكريم . وذكرت السنة المطهرة ـ على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ أمورًا محددة معينة سيسأل عنها العبد بين يدي الله تبارك وتعالى ، من ذلك :

ما رواه البخاريُّ ومسلم (١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: « أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ،وَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ».

وفي «الصحيحين» (٢) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ».

ولما ذهب أبو ذر رضي الله عنه إلى النبيِّ ﷺ وقال: يَا رَسُولَ الله أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي ؟ قال: فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ، ثُمَّ قَالَ: « يَا أَبَا ذَرٍّ ! إِنَّكَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجمعة ، باب الجمعة في القرى والمدن (٨٩٣) ، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأحكام ، باب من استرعى رعية فلم ينصح (٧١٥١) ، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل (١٤٢).

ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا »(١).

ولذلك ضرب لنا أصحاب النبيِّ ﷺ أروع المثل في الخوف من هذه المسؤولية الضخمة ، ولا شك إن ذُكر هذا أرى أنه من الجفاء ألاَّ أذكر الخليفة العادل عمر بن الخطاب ﷺ لنقف على حجم الفارق الرهيب والبوْن الشاسع بين ما نرى عليه الآن ولاة الأمور ، وبين ما كان عليه ولاة الأمور من سلفنا الصالح الذين رباهم النبيُّ ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦].

وأخبر النبيُّ ﷺ أن العبد سيسأل عن أربع :

ففي الحديث الذي رواه الترمذي ، وقال : «حديث حسن صحيح» ، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» و«الصحيحة»(٢) من حديث ابن مسعود وأبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ ».

والعمر هو البضاعة ورأس المال ؛ فمن ضاعت بضاعته ، وانتهى

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة (١٨٢٥) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة القيامة ، باب في القيامة (٢٤١٦) عن ابن مسعود وبرقم (٢٤١٧) عن أبي برزة الأسلمي، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٩٤٦) و«صحيح الجامع» (٧٢٩٩).

رأس ماله دون أن يربح ؛ فلا شك أنه من الخاسرين .

ووالله ما خلقنا الله سبحانه وتعالى ، وما منحنا هذا العمر لنلعب ، فوالله ما للعب خلقنا ؛ بل خلقنا لغاية حدَّدها ربُّنا في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥]

وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة :٣٦] .

ولذلك قال أحدُ السلف [(١)]: « كيف يفرح بالدنيا مَنْ يومه يَهْدِمُ شهره ، وشهره يهدم عامه ، وعامه يهدم عمره ،وكيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله ، وتقوده حياته إلي موته ؟! » . ولذلك كان لقمان يقول لولده :« أيْ بني ، إنك من يوم أن نزلت إلى الدنيا استدبرت الدنيا واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تُقبل عليها أقرب من دار تبتعد عنها » [(٢)].

وكما قال أبو الدرداء رضي الله عنه : «إنما أنت أيام مجموعة كلَّما مضى يوم مضى بعضك ، وإذا مضى بعضك مضى كلُّك » [(٣)].

وكان الحسن رحمه الله يقول [(٤)] : « ليس يوم يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلَّم

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩٥)عن بعض الحكماء ، قال: فذكره.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٠) ، و«ذم الدنيا» (٧٣) ، و«الزهد» لابن المبارك(١٠٦٠) ، و«إحياء علوم الدين » (٣/ ٢٠٩) ط دار المعرفة.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الليالي والأيام» (٢٦) ، وانظر: «صفة الصفوة » (١/ ٦٣٨) ط المعرفة .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الليالي» (٧ ، ٢٤).

يقول : يا أيها الناس ، إني يوم جديد ، وإني على ما يُعمل فيَّ شهيد ، فإني لو قد غربت الشمس لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة ».

ولقي الفضيلَ بنَ عياض [١] ـ رحمه الله تعالى ـ رجلٌ فقال له :

« كم عُمُرك؟ قال : ستون سنة ، قال الفضيل : إذًا أنت منذ ستين سنة تسير إلى الله يوشك أن تصل ، فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون.

فَقال الفضيل : هل عرفت معناها ؟ قال : نعم، عرفت أنّي لله عبدٌ وأنّي إليه راجع، فَقال الفضيل : يا أخي مَنْ عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع عَرَف أنه موقوفٌ بين يديه : و مَنْ عرف أنه موقوفٌ عرف أنه مسؤول ، و مَنْ عرف أنه مسؤول فليعدَّ للسؤال جوابًا ، فبكى الرجل ، وقال : يا فضيل اوما الحيلة؟ قال يسيرة ، قال : ما هي يرحمك الله ؟ قال : اتق الله فيما بقي من عمرك يغفر الله لك ما قد مضى ، وما قد بقي من عمرك ».

فيا من غرَّه طول الأمل ، وعن الحقائق قد انشغل ، أَفِقْ من سكرتك ، ويا منْ تُسوِّف في التوبة ، يا من تقول: سأتوب بعد الخمسين أو الستين أَفِقْ، فإن الموت يأتي بغتة ؛ فالدنيا هي خمر الشيطان ، مَنْ سكر منها لم يفقْ إلا في عسكر الموتى نادمًا مع الخاسرين ؛ كما قال يحيى بن معاذ الرازيُّ ـ رحمه الله تعالى [٢] ؛ فتذكر وصية النبيِّ ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما كما في « صحيح

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية» (٨/ ٩٤) ترجمة الفضيل ط إحياء التراث .

(٢) كما في «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٤/ ٩٨ط المعرفة) و«عدة الصابرين» لابن القيم (١٨٦) ، و «لطائف المعارف» (٣٦٤) ، و«جامع العلوم والحكم » (٣٨٢) لابن رجب.

البخاري»[١] : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ».

وكان ابن عمر يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخُذْ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك ».

فالدنيا مهما طالت فهي قصيرة ، ومهما عظمت فهي حقيرة ؛ لأن الليل مهما طال لابد من طلوع الفجر ، ولأن العمر مهما طال لابد من دخول القبر ، والدنيا دار ممر ، والآخرة هي دار المقر ، فخذوا من ممركم لمقركم ، ولا تفضحوا أستاركم عند من يعلم أسراركم .

وستسأل عن علمك الذي تعلمتهُ ؛ ماذا عملت به؟ قال تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]

وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢،٣] .

وفي الحديث الذي رواه الترمذيُّ بسندٍ صححه الألباني في «صحيح الترغيب و الترهيب»[٢] من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ تَعَلَّمَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب قول النبيِّ ﷺ : « كن في الدنيا كأنك غريب» (٦٤١٦) ، والترمذيُّ ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في قصر الأمل (٢٣٣٣).

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب العلم ، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا (٢٦٥٤) ، وصححه الألبانيُّ في « صحيح الترغيب » (١٠١) ولعله لشواهده ، فقد أخرجه ابن ماجه ، في المقدمة (٢٥٩) عن حذيفة ، وأخرجه برقم (٢٦٠) ، وأبو داود (٣٦٦٤) عن أبي هريرة كما سيأتي ، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة (٢٥٣) عن ابن عمر وبرقم (٢٥٤) عن جابر .

لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَهُوَ فِي النَّارِ».

وفي الحديث الذي رواه أبو داود، وابن ماجه [1] بسندٍ صحَّحه الألبانيُّ من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ الله، لاَ يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». يعني: ريحها.

وستسأل عن مَالِكَ؛ من أين اكتسبته؛ من الحلال أم من الحرام؟ وفيم أنفقت المال؟ في الحلال أم في الحرام؟

فالمال من أعظم نعم الله على العباد بلا شك، وما أجلها من نعمة إن كانت في أيدي الصالحين المتقين الذين يعلمون الغاية من المال، ويعلمون أن المال ظلٌّ زائلٌ، وعاريةٌ مسترجعةٌ، فيؤدون حق الله ـ تبارك وتعالى ـ في هذا المال.

ولذلك في «الصحيحين» [2] من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ الله الْقُرْآنَ فَهوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله مَالًا؛ فَهْوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ».

فكثيرٌ من الناس لا يَتَورَّعُون عن أكل الحرام.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله تعالى (٣٦٦٤)، وابن ماجه، في المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به (٢٥٢)، وأحمد (٢/ ٣٣٨)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٢/ ٦٩٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣، ٧٣١٦)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه. (٨١٦).

والنبيُّ ﷺ ذَكَرَ: « الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ! يَا رَبِّ ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ،وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ،وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ »[١].

وهل أنفقت المال في حلِّه أم في الحرام؟ وفي المعصية وفيما يُغضب الله ﷻ أم فيما يرضاه تبارك وتعالى ؟!!

وكذلك سيسأل العبد عن جسمه فيما أبلاه؟! قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦].

فالجسم ليس مِلْكًا لك ، إنما هو أمانة عندك ، فسيسأل العبد عن كلِّ جوارحه ، هل أفناها في طاعة أم في معصية؟هل في الدنيا والآخرة أم في الدنيا بعيدًا عن الآخرة ؟

والنبيُّ ﷺ يقول ؛ كما في «سنن الترمذي »[٢] بسندٍ صحيح من حديث زيد بن ثابت ، وأنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ ؛ جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ؛ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ ».

فهذا ما وقفتُ عليه من صحيح السنة مما أخبر به النبيُّ ﷺ من أن

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها(١٠١٥) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة القيامة (٢٤٦٥) عن أنس ، وسنده ضعيف ، لكنه حسن في الشواهد ؛فقد رواه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الهم بالدنيا (٤١٠٥) ، وأحمد (٥/ ١٨٣) بسندٍ صحيح عن زيد بن ثابت ، وصححه العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٤٩ ، ٩٥٠) .

العبد سيسأل عنه بين يدي الله تبارك وتعالى إلى يوم القيامة.

فإذا فرغ الله سبحانه وتعالى من محاسبة العباد فيما يتعلق بحقوقه سبحانه وتعالى أذن الله بعد ذلك لدواوين المظالم أن تنصب للقصاص فيما بين العباد من حقوق ؛ فهذا حقٌّ الله ، قد حاسب الله عباده عليه ، وهذا حقٌّ للعباد يحاسب الله العباد عليه .

فلا يظنن أحدٌ أن ظلمه للعباد لن يُسأل عنه بين يدي الله تعالى ، ولا يظن المظلوم أن حقَّه سيضيع سُدًى ! كيف ذلك؟! وربُّ العزة سبحانه وتعالى يقتصُّ يوم القيامة ؛ لا للبشر فحسب ؛ بل للدواب والبهائم والحيوانات .

قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

فلا يظنن ظالم أنه لن يقف بين يدي الله ، ولن يُسأل ، ولا يظنن مظلوم مقهور أن حقَّهُ سيضيع سُدًى !!

ففي «صحيح مسلم» [(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم (٢٥٨٢).

الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ ».

وفي « مسند أحمد » والطيالسي [(١)] بسندٍ صحيح من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ رأى شَاتَيْنِ تنتطحان ؛ فقالَ ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه : « يَا أَبَا ذرٍّ ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ؟ قال : لا ، قَالَ النبيُّ ﷺ : « لَكِنَّ الله يَدْرِي ، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».

وأخرج ابن جرير [(٢)] بسندٍ جيد من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : « إذا كان يومُ القيامة مُدَّت الأرضُ مَدَّ الأديم ، وحشر الدواب والبهائم والوحوش، ثم يحصل القصاص بين الدواب يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها ، فإذا فرغ من القصاص بين الدواب ، قال لها : كوني ترابًا ؛ فعند ذلك يقول الكافر : يا ليتني كنت ترابًا ».

أيها المسلمون : القول بحشر البهائم والقصاص لبعضها من بعض هو المعتقد الذي ندين لله ﷻ، وهو معتقد أهل السنة والجماعة والمحققين من سلف الأمة .

ورحم الله الإمام النوويَّ إذ يقول [(٣)] : « وإذا ورد لفظ الشرع ، ولم يَمْنَعُ من إجرائه على ظاهره عقلٌ ولا شرعٌ وجب حمله على ظاهره » اهـ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٢) ، والطيالسي (٤٨٢) تحقيق التركي ، وصحّح الحديث الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (٤/ ٦١٠) تحت (١٩٦٧).

(٢) أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » لسورة النبأ (٤٠) [٣٦١٦٠] ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (٤/ ٦٠٧) ط المعارف .

(٣) انظر : « شرح صحيح مسلم » للنووي (١٦/ ١٢٩) ط الصفا .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير:٥] .

فإن قيل : الشاة غير مكلَّفة ؛ فكيف يُقْتصُّ منها ؟

والجوابُ : إن الله تعالى لا يُسأل عما يفعل .

فهل ينكر أحدٌ على أحدٍ إنْ تصرَّف في مُلْكه كيف يشاء؟ .. لا يُنْكَرُ عليه ؛ فالملك كلُّه لله ﷻ ، ولا ينبغي لأحدٍ أن يعترض على المِلِكِ إنْ تَصرَّفَ في مُلْكه كيف يشاء .

ثم ليعلم العباد في أرض الموقف بين يدي الله تبارك وتعالى أن الحقوق لا يمكن أبدًا أن تضيع وإن قلَّت ، فإذا كان الله ـ جلَّ وعلا ـ يأتي بحقِّ الشاة الجلحاء من الشاة القرناء ؛ فهل يُضَيِّعُ ربُّ الأرض والسموات ـ بعد ذلك ـ حقوق الخلق وحقوق العباد ؟!! لا؛ وربِّ الكعبة ، إنما ليعلم الخلق بأن الحقوق اليوم ستؤدَّى على الكمال والتمام ، وسيُقْتَصُّ للمظلوم الذي ظُلم ولو بكلمة ؛ بل إن كان هذا هو حال البهائم و الحيوانات الخارجة عن التكليف ؛ فكيف بذوي العقول من الوضيع والشريف والقوي والضعيف . فاحذر يا أخي؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة!!

أَمَــا وَالله إِنَّ الظُّلْـــمَ شُـــؤْمٌ   وَلاَ زَالَ المسِيءُ هُـــوَ الظَّلُـــومُ
سَـــتَعْلَمُ يَـــا ظَلُـــومُ غــدًا إذا   الْتَقَيْنَـا عِنْـدَ المَلِيـكِ مَـنِ المَلُـومُ

فاحذر الظلم أخي في الله.

لا تَظْلِمَــنَّ إِذَا مَــا كُنْــتَ مُقْتَــدِرًا   فَــالظُّلْمُ تَرْجِــعُ عُقْبَــاهُ إِلَى النَّــدَمِ
تَنَــامُ عَيْنَــاكَ وَالمَظْلُــومُ مُنْتَبِــهٌ   يَــدْعُو عَلَيْــكَ وَعَــيْنُ الله لَمْ تَــنَمِ

آهٍ من الظلم! فلا أتصور رجلًا يبيت ليلةً وهو يعلم أنه ظالمٌ لأيٍّ أحد!

و في « الصحيحين »(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ لما بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن وكان من وصاياه أن قال له : « اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ ».

فَتَرْفَعُ دعوة المظلوم إلى الله ، لا تحجزها الحواجز والسدود ولا السموات .

أيها الظالم إياك أن تنسى ظلمك لإمهال الله تعالى لك !الا..احذر . واعلم أن الله يُمْهل ولا يُهْمل ، وسيقتص منك في الدنيا قبل الآخرة ؛ فلا تغتر بإمهال الله تعالى لك .

ففي « الصحيحين »(٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» وقرأ النبيُّ ﷺ قولَ ربِّهِ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال الله سبحانه تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المظالم ، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم (١٤٤٨) ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير (٤٦٨٦) ، ومسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم (٢٥٨٣).

وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٥].

أين الظالمونَ وأَينَ التابعون لهم ... في الغيِّ؛ بل أين فرعونُ وهامانُ
أين من دوَّخوا الدنيا بسطوتهم ... وذكْرُهم في الوَرى ظُلْمٌ وطُغيان
هل أبقى الموت ذا عزٍّ لعزته ... أو هل نجا منه بالسلطان إنسان
لا والذي خلق الأكوان من عدم ... الكلُّ يفنى فلا إنس ولا جان

***

أيا عبدُ كَمْ يراكَ اللهُ عَاصِيًا ... حريصًا على الدنيا وللموت ناسيا
أنسيت لقاء الله واللَّحد والثرى ... ويومًا عبوسًا تشيبُ فيه النواصيا
لو أنَّ المرء لم يلبس ثيابًا من التقى ... تجرَّد عُرْيانًا ولو كان كاسيا
ولو أَنَّ الدُّنيا تدومُ لأهلها ... لكان رسولُ الله حيًّا وباقيا
ولكنها تَفْنى وَيفْنى نَعِيمُها ... وتبقى الذنوب والمعاصي كما هي

وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه وابن حبان وأبو يعلى وغيرهم، وهو حديثٌ حسنٌ بشواهده [(١)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما رَجَعَتْ مُهَاجِرَةُ الْحَبَشَةِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ النبيُّ ﷺ لهم: «أَلاَ

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١٠)، وابن حبان (٥٠٥٨)، وأبو يعلى (٢٠٠٣) عن جابر، والبيهقي في «الكبرى» (٦/ ٩٥) عن بريدة وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٥٩٧، ٤٥٩٨)، و«ظلال الجنة» (٥٨٢).

تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟» . قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ : بَلَى يَا رَسُولَ الله !! بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ ـ هذه العجوز ـ بِفَتًى مِنْ فِتْيَانِهِمْ ـ فقام هذا الفتى الظالم ـ فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ،وَدَفَعَهَا ـ دفعة من ظهرها فخرت المرأة ـ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ ـ المرأة ـ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، وَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ الله الْكُرْسِيَّ ـ يوم القيامة ـ وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ يَكُونُ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «صَدَقَتْ ثُمَّ صَدَقَتْ ، كَيْفَ يُقَدِّسُ الله أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ».

ورحمَ اللهُ ابنَ تيمية إذ يقول [(١)]: «إن الله تبارك وتعالى يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة» .

فمهما استطال الظالم وانتفخ وانتفش ، فإن جبار السموات والأرض هو الذي سيقْتصُّ منه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم !!

وقد حذَّر الله العباد من الظلم في آياتٍ كثيرة ، وحذَّر النبيُّ ﷺ أمته من الظلم تحذيرًا شديدًا .

ففي «صحيح البخاري» [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ

---

(١) انظر : «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ٦٣) و«الاستقامة» (٢/ ٢٤٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المظالم ، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له ، هل يبين مظلمته ؟ (٢٤٤٩) ، وانظر: رقم (٦٥٣٤).

قال : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ » ثُمَّ يُطْرَح في النار ، والعياذ بالله .

وفي «صحيح مسلم»[1] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ ». قَالُوا :الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ . فَقَالَ النبيُّ ﷺ :« إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِه ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ ؛ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ ».

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد» ، والبيهقيُّ في «السنن» بسندٍ صحيحٍ لغيره[2] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ ضَرَبَ بِسَوْطٍ ظُلْمًا اقْتُصَّ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».

وفي الحديث الذي رواه أبو نعيم بسندٍ صحيحٍ لغيره [3] من حديث عمار ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : «مَنْ ضَرَبَ مَمْلُوكَهُ ظَالِمًا ، أُقْتِيدَ مِنْهُ يَومَ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم (٢٥٨١).

(٢) أخرجه البخاريُّ في « الأدب المفرد» (١٨٦ مع فضل الله الصمد) ، والبيهقيُّ (٨/ ٤٥) والطبراني في «الأوسط» (١٤٦٨) ، وقال الهيثميُّ في« مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٥٣) : «رواه البزار والطبراني في «الأوسط» ، وإسنادهما حسن» ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٣٥٢) ، و«صحيح الجامع»(٦٣٧٤) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية » (٤/ ٣٧٨) عن عمار ، وانظر: «الصحيحة»(٢٣٥٢) .

القِيَامَةِ».

وفي «صحيح البخاري ومسلم»(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِّنَا يُقَامُ عَلَيْهِ الـحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ».

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «يؤخذ بيد العبد يوم القيامة فينصب على رؤوس الناس، ويُنادِي مناد: هذا فلان ابن فلان، هذا فلان ابن فلان، فمن كان له حق عنده فليأت، فيأتون فيقول الربُّ ـ جلَّ وعلا: آت هؤلاء حقوقهم، فيقول العبد، يا رب فنيت الدنيا، فمن أين أوتيهم حقوقهم؟ فيقول الله سبحانه للملائكة: خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كلَّ إنسان بقدر طلبه، فإن كان العبد ناجيًا، وفضل من حسناته مثقالُ حبةٍ من خردل ضاعفها الله له حتى يدخل الجنة»(٢).

فلن يدخل الجنة أحدٌ وعنده مظلمة لأحدٍ ولو كانت مثقال ذرة! فبينما أنت كذلك وقد تعلق الخصوم بك وأحكموا في تلابيبك أيديهم، وأنت مبهوت مذهول مذعور متحير من كثرة من ظلمت، بل لا تذكر مَنْ هذا ومَنْ ذاك، فما أشد حسرتك وأنت في هذه اللحظات وأنت موقوف على بساط العدل بين يدي رب الأرض و السموات، وشوفهتَ بخطاب الذنوب والسيئات وأنت مفلسٌ عاجزٌ مهين لا تقدر

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب قذف العبيد (٦٨٥٨)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب التغليظ على من قذف مملوكه بالزنا (١٦٦٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٠٢) ط دار الكتاب، وانظر: «التذكرة» للقرطبي (٣٠٨).

على أن ترد حقًا ، ولا تملك أن تظهر عذرًا ، فعند ذلك يا مسكين تؤخذ حسناتك التي أفنيت عمرك كلَّه من أجل أن تحصلها ، وتُنْقل إلى خصومك ممن ظلمتهم في الدنيا عوضًا عن حقوقهم التي سلبتها ، فكيف بك يا مسكين حين ترى صحيفتك خالية من كلِّ الحسنات فتصرخ وتبكي وتقول : أين حسناتي ؟ أين الصلاة ؟ أين الزكاة ؟ أين الحج؟ أين دروس العلم؟ أين حسناتي التي أفنيت عمري كلَّه في تحصيلها ؟ فيقال لك : نقلت إلى صحائف غيرك ممن ظلمتهم في الدنيا ، وترى صحيفتك قد ملئت بسيئات فتقول : ما هذه السيئات ؟ هذه ذنوب ، والله ما فعلتها ، وما ارتكبتها ، فيقال لك: إنها سيئات غيرك ونقلت إلى صحيفتك ، لظلمك لهم وعدم وفاء حسناتك بحقوقهم ، فعندئذٍ تمد عنق الرجاء إلى رب الأرض والسموات ، إلى سيدك ومولاك ليخلصك من هؤلاء ، وعندئذ يقرع سمعك النداء ، ويخلع قلبك النداء ، نداء الحق الذي قال : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧]

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ

فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٥٢].

ومن أظلم الظلم، وأعظم الأمور عند رب الأرض والسماء: الدماء.

فإن أول أمر يَقْضِي الله فيه بين خلقه: الدماء.

واعلم أنه لا تعارض بين حديث: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلاَةُ»(١) وبين حديث النبيِّ ﷺ في «الصحيحين»(٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ».

لماذا؟. لأن الصلاة حقُّ الله، والدماء حقُّ العباد.

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة (٦٥٣٣)، ومسلم، كتاب القيامة، باب المجازاة بالدماء في الآخرة (١٦٧٨).

ولذلك جاء في رواية في «سنن النسائي» بسندٍ صحيحٍ [(١)] من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلاَةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ».

والدماء لها حُرمة عظيمة، لأن الله تبارك وتعالى هو واهب الحياة، وليس لأحدٍ البتة على وجه الأرض أن يسلب هذه الحياة؛ بل لا ينبغي أن يسلب الحياة إلا واهبها وخالقها ـ جلَّ وَعَلاَ ـ أو في حدود أوامره الشرعية؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣].

وفي «الصحيحين» [(٢)] من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ الله إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ؛ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ».

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]

ولا يقيم الحد أيُّ أحدٍ كما يفعل في الثأر؛ بل يقيمُ الحدَّ وليُّ الأمر المسلم أو من ينوب عنه.

وفي «صحيح البخاري» [(١)] من حديث ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه النسائيُّ، كتاب المحاربة، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٣)، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح سنن النسائي».

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٤٥]. (٦٨٧٨)، ومسلم، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦).

قال : « مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ ».

فيما عدا ذلك ؛ فلا حقَّ لك في الدماء ؛ لأن الدماء لها حُرمة عظيمة عند الله ـ سبحانه وتعالى ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾

[النساء:٩٣]

وفي « صحيح البخاري »[٢] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « لَنْ يَزَالَ المؤْمنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا ».

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول[٣] : « إنَّ من وَرَطاتِ الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها : سفك الدم الحرام بغير حلِّه ».

وفي الحديث الذي رواه أبو داود و الحاكم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ورواه الحاكم والنسائي وأحمد[٤] من حديث معاوية رضي الله عنه بسندٍ صحيح لشواهده أن النبيَّ ﷺ قال: « كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا أَوْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب لا يعذب بعذاب الله (٣٠١٧) وانظر (٦٩٢٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الديات ، باب : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء: ٩٣] (٦٨٦٢) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الديات (٦٨٦٣) .

(٤) أخرجه أبو داود ، كتاب الفتن والملاحم ، باب في تعظيم قتل المؤمن (٤٢٧٠) والحاكم (٤/ ٣٥١) عن أبي الدرداء ، وأخرجه أحمد (٤/ ٩٩) والنسائي في كتاب تحريم الدم (٧/ ٨١) والحاكم (٤/ ٣٥١) وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٥١١) بالشواهد.

وفي الحديث الذي رواه النَّسَائيُّ [(١)] من حديث بريدة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «قَتْلُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا».

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ في «التاريخ» والطيالسي في «مسنده» وابن حبان في «صحيحه» [(٢)] بسندٍ صحيح من حديث عمرو ابن الحمق الخزاعي ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْقَاتِلِ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا».

وفي «الصحيحين» [(٣)] من حديث أبي بكرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قام في حجة الوداع في خطبته، فقال: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟». قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلَدَ الْحَرَامَ»، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ»، قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا».

---

(١) أخرجه النسائيُّ، كتاب المحاربة، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٢، ٨٣)، وصححه العلامة الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٣٦١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٤٣٧) دون قوله: «وإن كان المقتول كافرًا»؛ لكن أخرجه باللفظ الوارد البخاريُّ في «التاريخ» تعليقًا (٣/ ٣٢٢)، والطيالسي (١٣٦٩)، وابن حبان (٦٠٨٢)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٤٤٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب قول النبيِّ ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع» (٦٧)، وانظر (٤٤٠٦)، ومسلم، كتاب الحج، باب حجة النبيِّ ﷺ (١٢١٨).

وفي «سنن الترمذي والنسائي»، و«مسند أحمد»[1] بسندٍ صحيح عن ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «يَجِيءُ الْمَقْتُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا بِالقَاتِلِ تَشْخُبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا، وَيَقُولُ: يَا رَبِّ، سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي».

ومن العجيب أن قصاصًا سيقع بين المؤمنين الخُلَّص على قنطرة قبل دخول الجنة لينقِّيهم ربنا ـ جلَّ وعلا ـ حتى يدخلوا الجنة وليس على أحدٍ شيءٌ لأحدٍ، وهذا بعد المرور على الصراط.

ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ[2] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا».

وهنا ينتهي الحساب والعرض؛ ثم يرى كلُّ واحدٍ منزله إما إلى الجنة وإمَّا إلى النار ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

نسأل الله الفردوس الأعلى؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه

*****

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء (٣٠٢٩)، والنسائي، كتاب القيامة، باب ما جاء في كتاب القصاص (٨/ ٦٣)، وأحمد(١/ ٢٢٢)، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع»(٨٠٣١).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المظالم، باب قصاص المظالم (٢٤٤٠)، وكتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة (٦٥٣٥).

الميزان

وبعد ذلك إذا انقضى الحساب أمر الله ﷻ أن تنصب الموازين لوزن الأعمال .

قال الإمام القرطبي [(١)] ـ رحمه الله تعالى : « فإن المحاسبة لتقدير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ، ليكون الجزاء بحسبها » .

فتوزن أعمال المؤمن لإظهار فضله ، وتوزن أعمال الكافر لإظهار خزيه وذله ـ والعياذ بالله ـ قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

والسؤال : ما هو الميزان؟ وما كيفيته؟ وما حقيقته؟ وما الذي يوزن فيه؟ وما الأعمال التي تثقل الميزان يوم القيامة ؟

أولًا : الميزان على صورته بحقيقته وكيفيته التي يوجد عليها الآن غيب لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى .

وأفراخ المعتزلة الآن يقولون الميزان لا يحتاج إليه إلا البقال والفوال [(٢)] ، وهكذا ضلوا بعقولهم ، وتصوروا أن ميزان الآخرة هو هو الذي نعرفه ونراه في الدنيا ، ومن المستحيل أن نُحَكِّمَ في أمر الغيب قانون المادة ، ولا حتى بالدليل العقلي ؛ فالغيب لا نعرف عن حقيقته شيئًا ، ومن هنا يأتي

---

(١) التذكرة للقرطبي (٢٨٤) ط فياض .

(٢) انظر : العقيدة الطحاوية (٤١٢) ط ابن رجب .

الإيمان ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة:١-٣] .

ولله درُّ هذا الطَّالب الموحد الذي دخل عليه أستاذه يومًا مع زملائه ليثبت لهم عدم وجود الله فقال : هل ترون السبورة ؟ قالوا: نعم ، قال:إذًا هي موجودة ، قال هل ترون الكرسي ؟ قالوا: نعم ، قال: إذًا هو موجود ، قال : هل تروني؟ قالوا: نعم ، قال : إذًا أنا موجود ، قال : هل ترون الله ؟ قالوا : لا ، قال: إذًا ليس بموجود ، فقام تلميذ موحد بالفطرة فقال : ائذن لي ، قال : نعم ، فخرج التلميذ ووقف إلى جوار أستاذه وقلد التلميذ أستاذه، فنظر التلميذ إلى زملائه وقال : هل ترون عقل الأستاذ ؟ قالوا : لا ، قال: إذن عقله ليس بموجود ؛ فمعتقد أهل السنة والجماعة في الميزان أنه بحقيقته وكيفيته وصورته التي يوجد عليها الآن من الغيب الذي أُمِرَ النبيُّ ﷺ بالإيمان به من غير زيادة ولا نقصان ، وهذه هي حقيقة الإيمان . ويا خسران من كذب بالغيب ، وأنكر وضع الميزان وقدح في آيات الرحيم الرحمن ، واستهزأ بسنة سيد ولد عدنان ، ثم تطاول فقال قولة ملحد خبيث ضال بأنه لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال ، فهذا حَرِيٌّ بأن يكون ممن لا يقيم الله لهم وزنا يوم القيامة ؛ لأنه بجهله وانغلاق قلبه ظن أن ميزان الدنيا كميزان الآخرة ، ولاشك أن أحوال القيامة كلها تختلف تمامًا عن أحوال الدنيا ، ولقد دلت النصوص الصحيحة الثابتة في القرآن والسنة أن الميزان ميزان حقيقي له كفتان ولسان ، لكن حتى لا نقارن بين ميزان الآخرة وميزان الدنيا تدبر كلام النبيِّ ﷺ ؛ كما روى الحاكم في «المستدرك» وصححه على

شرط مسلم ، ووافق الحاكم الذهبي وصححه الألباني في «السلسلة»[١] من حديث سلمان رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «يُوضَعُ المِيزَانُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضُ لَوَسِعَتْ ، فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ : يَا رَبِّ ، لِمَنْ يَزِنُ هَذَا ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي ، فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ : سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ » .

والراجح[٢] من أقوال أهل العلم بعد تحقيق وتدقيق في قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] أنه ميزان واحد ، وإنما الجمع باعتبار تعدد الأوزان والموزون ، لا باعتبار تعدد الميزان نفسه ، ثم بين لنا ربنا في قرآنه الكريم أن من ثقل ميزانه ولو بحسنة واحده ، فقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا ، ومن خف ميزانه ولو بسيئة واحدة شقي شقاوة لا سعادة بعدها أبدًا ، إلا إذا شاء الله ، فإذا تساوت الحسنات مع السيئات ؛ فهؤلاء هم أهل الأعراف على الراجح[٣] الذين يحبسون في موطن بين الجنة والنار ، فإذا ما نظروا إلى الجنة وإلى ما أعد الله فيها لأوليائه من النعيم قالوا : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٨٦) وقال : «صحيح على شرط مسلم » ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه الآجري في «الشريعة» (٣٨٢) موقوفًا ، قال الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (٩٤١): «إسناده صحيح ، وله حكم الرفع ؛ لأنه لا يقال من قبل الرأي » . وصححه لغيره في «صحيح الترغيب» (٣٦٢٦) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٩/ ٤٠٨) ط أولاد الشيخ ، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٤٣) ط التوفيقية ، والتذكرة (٢٩٣) ، والعقيدة الطحاوية (٤٠٩) ط ابن رجب .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٦/ ٣٠٦) قال : « نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف ـ رحمهم الله » ، و«تفسير القرطبي» (٧/ ١٢٧) . و«تفسير الطبري» (٥/ ٣٥١٩) وما بعدها . ط دار السلام .

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[الأعراف:٤٦، ٤٧].

وهذه أدلة على وجود وإثبات الميزان :

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾[المؤمنون : ١٠١ ـ ١٠٤]، وقال سبحانه : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[الأعراف:٨، ٩]، وقال ـ جلَّ وعلا :﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الرحمن:٧]، وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾[القارعة: ٦ـ١١].

فإياك أن تحقر من الحسنات شيئًا ، أو أن تحقر من السيئات شيئًا ، فقد تنجوا بحسنة ، وقد تهلك بسيئة !

ففي «الصحيحين» (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا ، يَرْفَعُهُ الله بِهَا

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان (٦٤٧٧ ، ٦٤٧٨) واللفظ له ، ومسلم مختصرًا كتاب الزهد والرقاق ، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨) .

دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

فبكلمة تدخل دين الله ﷻ، وبكلمة تخرج من دين الله سبحانه، وبكلمة تستحل فرج امرأة، وبكلمة يحرم عليك فرجها.

وفي «صحيح مسلم»[1] من حديث أبي ذر ؓ أن النبيَّ ﷺ قال: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ».

وفي «الصحيحين»[2] من حديث عدي بن حاتم ؓ أن النبيَّ ﷺ قال: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

وفي «مسند أحمد»، و«سنن الترمذي»[3] بسندٍ صحيحٍ أن النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَقْبَلُ الصَّدَقَاتِ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا لأَحَدِكُمْ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ أَوْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ، حَتَّى إِنَّ اللُّقْمَةَ لَتَصِيرُ مِثْلَ أُحُدٍ».

والسُّؤالُ الآن .. ما الذي يوزن في الميزان يوم القيامة؟

---

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة و الآداب باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٢٦٢٦)

(٢) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب من نوقش الحساب عذب (٦٥٤٠)، وانظر(١٤١٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار (١٠١٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٨، ٤٠٤، ٤٧١)، والترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة (٦٦٢) وقال: «حسن صحيح»، والطبراني في «الأوسط» (٣٣٧٨)، و«الصغير» (٣٢٩)، ومسند الشاميين (١٨٩٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٩٨١٤)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٣/ ٣٩٤)، وأصله في «الصحيحين» [البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)].

والجوابُ: اختلف أهل العلم في الجواب على ثلاثة أقوال [(١)]:

القول الأول: أن الذي يوزن في الميزان هو الأعمال، من صلاة، وصدقة، وصيام، وحج، وبرٌّ للوالدين، وإحسان للجيران، وغير ذلك من الأعمال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما [(٢)]: «الذي يوزن في الميزان يوم القيامة هو الأعمال».

ورجح هذا القول الحافظ ابن حجر [(٣)] ـ رحمه الله تعالى.

فإن قيل: كيف توزن الأعمال وهي أعراض لا أجسام؟

والجواب: أن الله تبارك وتعالى يوم القيامة يحول الأعراض إلى أجساد حقيقية توضع في الميزان، وهذه الأدلة على ذلك:

ففي «الصحيحين» [(٤)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ».

وفي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وابن حبان بسند صحيح [(٥)]

---

(١) راجع «معارج القبول» (٢/ ٧٢٧) وما بعدها. ط نزار مصطفى، و«العقيدة الطحاوية» (٤٠٩-٤١١). ط ابن رجب.

(٢) انظر: «معارج القبول» (٢/ ٧٢٨)، و«فتح الباري» (١٣/ ٦٥٣). ط الحديث.

(٣) «فتح الباري» (١٣/ ٦٥٣). ط الحديث.

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (٦٤٠٦)، (٧٥٦٣)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤).

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٠)، وأبو داود =

من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ».

وفي «صحيح مسلم»[1] من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ».

وفي «صحيح مسلم»[2] من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ، كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا».

وقد أخبرنا النبيُّ ﷺ أن العمل يتمثل للعبد في قبره على هيئة رجل، ففي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم وغيرهم، وصحح الحديث الشيخ الألباني[3] رحمه الله من حديث البراء بن

= كتاب الأدب، باب حسن الخلق (٤٧٩٩)، والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٢، ٢٠٠٣) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن حبان في «صحيحه» (٤٨١)، والبيهقي في «الشعب» (٨٠٠٣، ٨٠٠٤، ٨٠٠٥)، و«السنن الكبرى» (١٠/ ١٩٣)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢١٧٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٧٦).

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٦)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧، ٤٠) =

عازب رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَإِقْبَالٍ عَلَى الآخِرَةِ ..وَفِيه: فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ ، فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّيَ اللهُ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِينِيَ الإِسْلاَمُ ، فَيَقُولاَنِ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ الله ﷺ ، فَيَقُولاَنِ : وَمَا عِلْمُكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ ، قَالَ : فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ قَبْرُهُ مَدَّ بَصَرِهِ ، قَالَ : وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ ، حَسَنُ الثِّيَابِ ، طَيِّبُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ . فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالخَيْرِ ، فَيَقُولُ لَهُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ...» .

وَفِي الكَافِرِ قَالَ :« فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ ، لاَ أَدْرِي ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ ، لاَ أَدْرِي ! فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ ، لاَ أَدْرِي . فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ كَذَبَ ، فَأَفْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا ، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلاَعُهُ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ ، قَبِيحُ الثِّيَابِ ، مُنْتِنُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوْؤكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ ، فَوَجْهُكَ الوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ

= وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي ، والنسائي مختصرًا (٢٠٥٨) وقد سبق، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» (١٩٨ ـ ٢٠٢) ، و«صحيح الجامع» (١٦٧٦) .

الخَبِيثُ ».

وأخبرنا النبيُّ ﷺ أن الموت يتحول في يوم القيامة إلى كبش.

ففي «الصحيحين»(١) من حديث أبي سعيد الخدريِّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ. ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ». فهذا هو القول الأول من أقوال أهل العلم والأدلة عليه كثيرة.

القول الثاني: قول من قال: إن الذي يوزن في الميزان هو العَامل نفسه أي الشخص نفسه، وحجتهم في ذلك: ما في «الصحيحين»(٢) من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥].

وفي «صحيح البخاري»(٣) من حديث سهل بن سعد ﷺ، قال: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟». قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب التفسير باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم:٣٩] (٤٧٣٠)، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب النار ويدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب التفسير باب ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ [الكهف:١٠٥] (٤٧٢٩)، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين (٥٠٩١).

خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ . قَالَ : ثُمَّ سَكَتَ ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ : « مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ » . قَالُوا : حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْتَمَعَ . فَقَالَ النبيُّ ﷺ: « هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا » .

ألم تقرؤوا قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات:١٣].

وفي « مسند أحمد » [(١)] بسندٍ حسنٍ ، من حديث عليٍّ رضي الله عنه أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَ مَسْعُودٍ فَصَعِدَ عَلَى شَجَرَةٍ ، أَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ مِنْهَا بِشَيْءٍ ، فَنَظَرَ أَصْحَابُهُ إِلَى سَاقِ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ حِينَ صَعِدَ الشَّجَرَةَ ، فَضَحِكُوا مِنْ حُمُوشَةِ سَاقَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « مَا تَضْحَكُونَ ؟ ! لَرِجْلُ عَبْدِ الله أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أُحُدٍ ».

ورواه أحمد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الأَرَاكِ ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « مِمَّ تَضْحَكُونَ ؟» قَالُوا : يَا نَبِيَّ الله ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ ، فَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ » .

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١٤) ، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١٥٥) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢ ، ٣٣) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٧) ، وأبو يعلى (٥٣٩) ، والطبراني في «الكبير» (٨٥١٦) ، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٩) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/ ١٠٩) من حديث علي رضي الله عنه ورواه أحمد (١/ ٤٢٠، ٤٢١) ، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١٥٥) ، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٦٩) ، والطيالسي (٣٥٥) ، وأبو يعلى (٥٣٦٥) والبزار في «مسنده» (١٨٢٧) ، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٧٨/ ٨٤٥٢) و (١٩/ ٢٨/ ٥٩) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٧) ، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣١٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٣١٩٢) و (٢٧٥٠) .

القول الثالث : أن الذي يوزن صحائف الأعمال ؛ واستدلوا على ذلك بحديث صحيح رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبيُّ والألبانيُّ [١] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الـخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاً كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ : لاَ يَا رَبِّ . فَيَقُولُ : أَفَلَكَ عُذْرٌ ، فَيَقُولُ : لاَ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : بَلَى ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً ، فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ : احْضُرْ وَزْنَكَ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ ، فَقَالَ : إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ ، قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ » .

والراجح عندي وعند كثيرٍ من العلماء أن الأعمال والعامل والصحف ، كلُّ هذا يُوضع في الميزان ، ولا تعارض حينئذٍ بين الأدلة ، وهذا الذي أرجحه ، والله تعالى أعلم .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٢) ، والترمذي ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩) وقال : «حديث حسن غريب» ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٣٠٠) ، والحاكم (١/ ٦) و (٢/ ١٨٨ ، ١٨٩) وقال : «صحيح على شرط مسلم» ، ووافقه الذهبي ، وابن حبان (٢٢٥) ، والطبراني في «الأوسط» (٤٧٢٥) ، والبيهقي في «الشعب» (٢٨٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٧٦) (٨٠٩٥) و«الصحيحة» (١٣٥) ، و«صحيح الترغيب والترهيب» (١٥٣٣) .

والسؤال الآن ... فما الذي يثقل الميزان يوم القيامة؟

والجواب : لا يوجد شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق ـ كما ذكرت ـ في الحديث الذي رواه أحمد والبخاري «في الأدب المفرد» وأبو داود والترمذي [(١)] وغيرهم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ » . والأصل الأول: الإيمان مع حسن الخلق .

وروى أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » [(٢)] .

وفي الحديث الذي رواه أبو داود وابن حبان والحاكم بسند صحيح [(٣)] من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ » .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي بسندٍ حسن [(٤)] من حديث جابر بن

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠، ٤٧٢) ، وأبو داود ، كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨٢) ، والترمذيُّ ، كتاب الرضاع ، باب حق المرأة على زوجها (١١٦٢) وقال : « حسن صحيح » ، والحاكم (١/ ٣) وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢) ، و«الصحيحة» (٢٨٤، ٧٥١) .

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٦٤ و ٩٠، ١٣٣ ، ١٨٧) ، وأبو داود كتاب الأدب ، باب في حسن الخلق (٤٧٩٨) ، وابن حبان (٤٨٠ ، ٤٨١) ، والحاكم (١/ ٦٠) ، والبيهقيُّ في «الشعب» (٧٧٦٧) ، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٩٣٢) و«المشكاة» (٥٠٨٢) .

(٤) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في معالي الأخلاق (٢٠١٨) وقال : «حديث حسن غريب من هذا الوجه» ، والخطيب البغدادي في «التاريخ» (٤/ ٦٣) ، وصححه بشواهده الألبانيُّ في «الصحيحة» (٧١٩) وحسنه في «صحيح الجامع» (٢٢٠١) .

عبد الله ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مجَالِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا » .فما أحوجنا إلى حسن الخلق !! .

وأيضًا ـ التسبيح والتحميد سبب في ثقل الميزان يوم القيامة .

ففي « الصحيحين »(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَن ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَان : سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَان الله الْعَظِيم » .

وفي «صحيح مسلم»(٢) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « الطُّهُورُ شَطرُ الإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَملآنِ أَوْ تَملأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ».

والتسبيح تنزيه للحق تبارك وتعالى ، وتقديس لأسماء الله جلَّ جلاله وصفات كماله ، والحمد ثناء على الله بكلِّ نعوت الكمال والجلال .

ففي « الصحيحين »(٣) من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ قَالَ : سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ ».

وفي « صحيح مسلم »(٤) من حديث أبي ذر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلاَمِ إِلَى الله ؟ » قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ! أَخْبِرْنِي

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء (٢٢٣) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الدعوات ، باب فضل التسبيح (٦٤٠٥) ، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩١) .

(٤) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل سبحان الله وبحمده (٢٧٣١) .

بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى الله. فَقَالَ: « إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى الله : سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ » .

وفي « صحيح البخاريّ »[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ الله ، إِيمَانًا بِالله ، وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ ، كَانَ شِبَعُهُ وَرِيُّهُ وَرَوْثُهُ وَبَوْلُهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وبالجملة ؛ فإن كلَّ عمل صالح وإن قلَّ يُثقِّلُ ميزان العبد يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾

[القارعة:٦ـ ١١]

*****

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب من احتبس فرسًا في سبيل الله (٢٨٥٣) .

الصراط

فإذا تقرر الجزاء بعد الحساب والميزان ، أمر رب الأرض والسَّماء أن ينصب الصِّراط ، ولقد اجتهدْتُ على قَدْرِ طاقتي أن أرتِّب الأحداث طوال حديثي في أحداث يوم القيامة ، والصراط جسر على متن جهنم يمرُّ الناس كلُّهم عليه إما إلى جنة الخلد التي وعد المتقون ، وإما إلى نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقياء الهالكون ؛ فلنتعرف على الصراط ، وعلى أحوال الناس عليه ، وعلى آخر رجل يمر على الصراط ؛ فما هو الصراط ؟ وما حقيقته ؟

والصراط لغةً[١] : هو الطريق الواضح البين .

ومنه قول جرير :

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم

والصراط في الشرع : جسر دقيق جدًّا يضرب على متن جهنم بين الجنة والنار يمر عليه كلُّ الخلق .

قال الإمام ابن أبي العز في « شرح العقيدة الطحاوية »[٢] في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي

---

(١) انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد ، باب الراء مع السين سراط وصراط ، و«العباب الزاخر» للصاغاني (مادة «سرط») ، و«تهذيب اللغة» للأزهري ، و«لسان العرب» (٧/ ٣١٣) ط دار صادر بيروت ، و«القاموس المحيط» (٨٧١) .

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (٤٠٧) ط ابن رجب .

ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧١، ٧٢] ؛ قال : «اختلف المفسرون في معنى الورود ، والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط » .

وهذا ما قاله ابن مسعود وجابر والحسن ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وغيرهم .

ومن أهل العلم من قال [1] : بأن الورود بمعنى الدخول ، ولكنَّ المؤمنين الصادقين إن دخلوا النار جعلها الله عليهم بردًا وسلامًا ؛ كما جعلها على إبراهيم فلا يشعر بحرها وجحيمها إلا أهل الجحيم من أهل الكفر والمعاصي .

فما هو الجمع الصحيح بين القولين ؟

والجمع ، أن الورود نوعان : ورود بمعنى الدخول ، وهذا للكفار ؛ كما قال تعالى في شأن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود:٩٨] ؛ فالورود هنا بمعنى الدخول .

وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم:٨٥، ٨٦] .

أما الورود الثاني : بمعنى المرور يكون على الصراط للمؤمنين الموحدين فقط ، الناجين من نار الجحيم ، الذين قال الله فيهم : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧٢] أي : سينجي

(١) راجع هذه الأقوال في «تفسير الطبري» سورة مريم آية (٧١، ٧٢) ، وكذلك «تفسير ابن كثير» ، و«أضواء البيان» للشنقيطي .

الله تبارك وتعالى المتقين من أهل الإيمان ، ويسقط في جهنم مَنْ على الصراط من الكافرين والمجرمين والظالمين .

ففي « الصحيحين »(١) من حديث أبي هريرة ﷺ : أَنَّ ناسًا قالُوا لِرَسُولِ الله ﷺ : يَا رَسُولَ الله ! هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟» قَالُوا : لاَ ، يَا رَسُولَ الله ! قَالَ : «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟» ، قَالُوا : لاَ ، يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ ، يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا ، فَيَأْتِيهِمُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ ، فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ بِالله مِنْكَ ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا ، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ ، فَيَأْتِيهِمُ الله تَعَالَى فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ ، فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : أَنْتَ رَبُّنَا ، فَيَتَّبِعُونَهُ ، وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ » .

وأقفُ هنا وقفةً قبل الحديث عن باقي الحديث ، عند قول النبيِّ ﷺ : « وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا » .

---

(١) أخرج البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢ ،٢٣] (٧٤٣٧) ، وانظر : (٨٠٦) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢) .

فلا زال المنافقون حتى هذه اللَّحظة مندسين في صفوف المسلمين المؤمنين، ويظنون أن نفاقهم سيستمر معهم حتى يدخلوا الجنة مع المؤمنين؛ كَلَّا، كَلَّا؛ ففي هذا الموطن دون الجسر ـ أي الصراط ـ يضرب الله سبحانه ظلمةً حالكةَ السوادِ على كلِّ أهل الموقف، ثم يُقَسِّمُ الله بعد ذلك الأنوار على المؤمنين بحسب إيمانهم بربهم جلَّ وعلا، ولا يستطيع مخلوق في هذه اللحظة أن يخطوا خطوة واحدة إلا بنور.

ففي «صحيح مسلم»[(١)] من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وفيه: أن يهوديًا سأل رَسُولَ الله ﷺ فقال: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْرِ»؛ فلا يستطيع أحدٌ أن يتحرك في هذا الموقف.

وروى الحاكم وابن جرير بسند صحيح[(٢)] عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾[التحريم:٨].

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ﴾[الحديد:١٢].

قال: «يؤتون نورهم على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يؤتى نوره كالجبل،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحيض، باب صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما (٣١٥).

(٢) أخرجه الطبريُّ في «التفسير» (٣٣٤٧٣)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٩/ ٣٥٧، ٤١٦) وما بعدها، والحاكم (٢/ ٣٧٦) و(٤/ ٥٩٠ ـ ٥٩٢)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٠٧) (٣٤٥٥٨) وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الترغيب» (٣٥٩١، ٣٧٠٤)، وفي «شرح الطحاوية» (٤٦٩).

ومنهم من يكون نوره كالنخلة ، ومنهم من يكون نوره كالرجل القائم ، وأدناهم نورًا من يكون نوره على إبهامه يوقد مرة ويطفئ مرة» .

قال الضحاك [(١)] ـ رحمه الله تعالى : «ليس أحد إلا يعطى نورًا يوم القيامة ، فإن انتهوا إلى الصراط طفئ نور المنافقين ، فلما رأى المؤمنون ذلك أشفقوا أن يُطفَأ نورهم كما طفئ نور المنافقين ، فتضرعوا إلى رب العالمين بقوله : ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[التحريم:٨] .

وقال تعالى : ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾[الحديد:١٣ ، ١٤] .

نرجع إلى حديث النبيِّ ﷺ في الصراط .

قال ﷺ : «وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ الرُّسُلُ ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ : اللَّهُمَّ ! سَلِّمْ ، سَلِّمْ ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟ » قَالُوا : نَعَمْ ، يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلاَّ الله ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ ؛ فَمِنْهُمُ الْمُوبَقُ بَقِيَ

---

(١) انظر : «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٤١٦) .

بِعَمَلِهِ ، وَمِنْهُمُ الْمُجَازَى حَتَّى يُنَجَّى ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، أَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا ، مِمَّنْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ ، مِمَّنْ يَقُولُ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ ، تَأْكُلُ النَّارُ مِنِ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُودِ حَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ ، فَيُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ وَقَدِ امْتَحَشُوا ، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ ، فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ».

وفي « البخاريِّ ومسلم »(١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً للهِ ، فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ للهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ ، يَقُولُونَ : رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ . فَيُقَالُ لَهُمْ : أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ! مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ، فَيَقُولُ : ارْجِعُوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ! لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا ، ثُمَّ يَقُولُ ، ارْجِعُوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢ ، ٢٣] (٧٤٣٩) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٣) .

فَأَخْرِجُوهُ ؛ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ! لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا ، ثُمَّ يَقُولُ : ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ! لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا فَيَقُولُ الله ﷻ: شَفَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ ، قَدْ عَادُوا حُمَمًا ، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الْحَيَاةِ ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ . أَلاَ تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ . وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ » ؛ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ! كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ . قَالَ : «فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ الله الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ» .

وبين النبيُّ ﷺ كيف يمرُّ الناس على الصراط ؟ ففي «البخاريِّ ومسلم» ـ واللفظ له ـ [(١)] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ وَيَقُولُونَ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ » ، قِيلَ : يَا رَسُولَ الله ! وَمَا الْجِسْرُ ؟ قَالَ : « دَحْضٌ مَزِلَّةٌ فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا : السَّعْدَانُ ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ ، وَكَالْبَرْقِ ، وَكَالرِّيحِ ، وَكَالطَّيْرِ ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ ، وَمَكْدُوسٌ

(١) المصدر السابق .

فِي نَارِ جَهَنَّمَ » ، وفي البخاري : « حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا » .
والله إنه لمشهد يخلع القلب!!

ورحم الله من قال :

أبت نفسي تتوبُ فما احتيالي إذا برزَ العبادُ لذي الجلالِ
وقَاموا من قُبُورِهمْ سُكارى بأوزارٍ كأمْثالِ الجِبَالِ
وَقَدْ نصُبَ الصِّراطُ لِكَي يَجُوزُوا فَمِنْهُمْ من يُكَبُّ عَلى الشِّمَالِ
ومِنْهُمْ مَنْ يَسِيرُ لِدَارِ عَدْنٍ تَلَقَّاهُ العَرَائِسُ بِالغَوَالِي
يَقُولُ لَهُ المُهَيْمنُ يَا وَلِيِّ غَفَرْتُ لَكَ الذُّنُوبَ فَلاَ تُبَالِي

ويزداد الأمر خطرًا إذا علمنا أن الأمانة والرحم يقومان على جانبي الصراط يطالبان كل من يمر بحقهما !! ففي « صحيح مسلم »[(١)] من حديث حذيفة بن اليمان وأبي هريرة رضي الله عنهما في حديث الشفاعة الطويل ، وفيه : أن النبيَّ ﷺ قال : « وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ ، فَيَقُومَانِ جَنَبَتَيْ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا » .

قال الإمام النووي[(٢)] ـ رحمه الله تعالى: « وإرساله الأمانة والرحم على جانبي الصراط ؛ لتطالبا كلَّ من يمرُّ على الصراط بحقهما ، وهذا لعظم أمرهما ، وكِبَرِ موقعهما » .

والسُّؤال الأخيرُ : مَنْ هو آخرُ رجلٍ في الأمة يمرُّ على الصراط ؟

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٥) .
(٢) «مسلم بشرح النووي» (٢/ ٧٣) بتقديم وتأخير .

والجوابُ: ما ثبت في «صحيح مسلم»[(١)] من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِيَ اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ! لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لاَ، يَا رَبِّ! وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَى. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؛ فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا؟ فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ، لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: بَلَى، يَا رَبِّ! هَذِهِ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا، فَيَسْمَعُ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا (١٨٧)، وهذا لفظه، والبخاريُّ كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٥٧١).

أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! أَدْخِلْنِيهَا ، فَيَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا ، قَالَ : يَا رَبِّ ! أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ » ، فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ : أَلاَ تَسْأَلُونِّي مِمَّ أَضْحَكُ ؟ فَقَالُوا : مِمَّ تَضْحَكُ ؟ قَالَ : هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَقَالُوا : مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « مِنْ ضِحْكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ : أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ » .

ثم بعد ذلك الجنة أو النار ـ أعاذنا الله من النار ومن حرِّها ، ورزقنا الله الجنة ونعيمها ؛ إنَّه على كلِّ شيء قدير .

*****

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

العلامات الوسطى

الموضوع	الصفحة

تم الفهرس وربنا المحمود

وله المكارم والعلا والجود


مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com


Exclusive
For
www.ibtesama.com
حصريات مارس 2013